الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة ٦٣٤

الأختان

TWO SISTERS

آسني سييرستاد
ÅSNE SEIERSTAD

الأختان

TWO SISTERS

مكتبة 634

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
TWO SISTERS:
A Father, His Daughters, and Their Journey into the Syrian Jihad
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Farrar, Straus and Giroux
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2016 by Asne Seierstad
Tranlation Copyright © 2018 by Sean Kinsella
All rights reserved
This translation has been published with the financial support of NORLA
NORLA
NORWEGIAN LITERATURE ABROAD
Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: تموز/يوليو 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2845-3

مكتبة
t.me/t_pdf

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الأختان

TWO SISTERS

مكتبة | 634

آسني سييرستاد

ÅSNE SEIERSTAD

ترجمة

معن الكشك

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

المحتويات

الجزء الأول

التمزق 9
منقّبات 31
خدعة الرجل الأعمى 54
في الداخل 63

الجزء الثاني

بداية المراهقة 91
المهمة 101
تناول الطعام مع الشيطان 111
النروج... لك إخلاصنا 117
هذا اللباس 130
الأمر كله وفقاً للقلب 136
أمة الفالنتاين 148
ممارسات مستهدفة 160
مواعدة حلال 176
فقرات 181
طائر غريب 193
الانفصال 202
اختلاس باسم الله 207
ثورة أكتوبر 227

الجزء الثالث

رقصة الموت 235
مخطط 274
البيت 292
رجل لطيف رائع 302
غنائم حرب 307
نهاية سايكس بيكو 328
الله أكبر 342

الجزء الرابع

ليس من دون ابنتي 357
عام جديد... فرص جديدة 367
ربات منزل في الرقة 376
شباب من النروج 389
أطلقوا النار على الفتاتين إن أردتم! 405
رمضان 430

الجزء الخامس

حياة مختلفة 441
أصوات في الرأس 453
ميراث 467
أصل الكتاب 483

الجزء الأول

1

مكتبة
t.me/t_pdf

التمزق

كان السرير ذو الطابقين في وسط الغرفة وهناك قضبان معدنية بيضاء لضمان عدم سقوط من يستلقي في الطابق العلوي... قسم السرير المغطى بملاءة ملونة الغرفة إلى قسمين حيث يتموضع أمام الباب طاولة مكتب ومقعد وخزانة في حين ضم القسم الآخر خزانة من الدروج ونافذة مطلة على مبنى شقق من الطوب الأحمر مطابق لمبناهم، وكان إفريز النافذة منخفضاً لدرجة أنه يمكنك بسهولة أن تؤرجح ساقيك عليه والقفز على العشب. وهناك ملاحظات ملصقة بالمفروشات بأحرف مكتوبة بترتيب بقلم رصاصي وفوقها بقلم أسود: سرير... نافذة... مقعد... طاولة مكتب... باب. أما ورق الجدران الذي فوق خزانة الدروج فمغطى بهم... كبير... صغير... مرتفع... منخفض... دافئ... بارد... تم تحويل الخط العربي بعناية لكنه يبدو عملاً مبتدئاً بما أن العديد من الحروف ملخبطة لكن الترجمة إلى النروجية مكتوبة على نحو صحيح لكن بقلم رصاص باهت.

كانت الأخت الصغرى التي تنام في السرير العلوي هي من وضعت الملاحظات التي لا تزين غرفة الفتاة فحسب وإنما تنتشر في أرجاء الشقة... مصباح... أريكة... ستارة... رف... لقد بدأت دروس اللغة العربية بأشياء دنيوية لكن الهدف منها روحي... قراءة وفهم القرآن كما أنزل على النبي محمد.

أنا... هو... نحن... الله أكبر... اهدنا الصراط المستقيم!

في ذلك الصباح من شهر أكتوبر نزلت ليلى من السرير العلوي في وقت أبكر من المعتاد وارتدت ثوباً طويلاً وانضمت إلى أمها في المطبخ المحاذي لغرفة الفتيات... كانت سارة أول من استيقظ حيث تسللت من السرير ووضعت قدميها بحذر على الأرض لئلا توقظ صديق الذي لم يلحظ غيابها حتى افتقد دفئها وبرد السرير فنهض.

وقفت سارة عند طاولة الإفطار تائهة في أفكارها ثم نظرت متفاجئة إلى ابنتها التي بلغت السادسة عشرة من عمرها الأسبوع الماضي... ليلى تشبه أباها... نحيلة وطويلة.

قالت:

- يمكنني مساعدتك في تجهيز الصبيان.
- أليس لديك مدرسة اليوم؟
- بلى... لكنني فكرت أن بإمكانك الاستعانة...
- لا... نظمي أمورك... سأهتم بأمر الصبيان بنفسي.

لا تعرض ليلى في العادة المساعدة بعكس أختها الكبيرة التي تولت العديد من الواجبات المنزلية إذ كان أبوها يدعوها: فخامة الكسولة.

قامت سارة بلطف لإيقاظ إسحاق ذي الست سنوات وجبريل ذي الأحد عشر عاماً ثم ساعدت إسحاق في ارتداء ملابسه ورافقت الصبيان إلى المطبخ.

كان صديق يقف أمام الموقد.

تم إعداد الفاصولياء البنية في المساء الماضي أما الآن فهو يقوم بقلي البصل المقطع في الزيت ويضيف فصين من الثوم المهروس والمزيد من الزيت ثم قطعاً من الفلفل الأحمر والتوابل حتى أصبح لون المكونات داكنا، ثم أضاف الفاصولياء وترك المزيج يغلي وبعدها خفقه بالخلاط اليدوي وسكبه في طبق كبير ورش زيت الزيتون في دوائر ذهبية على الطبق البني.

بدا إسحاق وجبريل ناعسين وهما يجلسان في مقعديهما ثم غمسا قطع الخبز في ثريد الفاصولياء وتناولاها، وكالعادة تسبب إسحاق ببعض الفوضى

أما جبريل فنادراً ما يدع قطرة تقع خارج طبقه.

حامت ليلى حول الطاولة حيث يوجد إبريق من الشاي الأسود مع حبات الهال، فسألها أبوها:

- ألن تجلسي؟

ردت الفتاة ذات الستة عشر عاماً:

- لا... أنا وأيان صائمتان.

لم يتابع والدها الموضوع... ليلى وأختها الكبرى أيان التي كانت في الحمام ملتزمتان تماماً في ما يتعلق بالصيام إذ من غير المسموح للنساء أداء الشعائر الدينية عند عدم الطهارة وقد أرادت الفتاتان تعويض الأيام التي فاتتهما بأسرع وقت ممكن... أيام الاثنين والخميس هي الأفضل لأنها الأيام التي كان يصومها النبي محمد... اليوم هو الخميس.

كان رمضان شاقاً إذ إن شهر الصيام حل هذا العام في شهر يوليو حيث لا تغيب الشمس إلا بعد الساعة العاشرة ليلاً وتشرق بعد بضع ساعات أي أنها فترة طويلة ليبقى المرء دون طعام وشراب... الآن... خلال ذي الحجة شهر الحج عادت الفتاتان للصيام كما كثفتا صلواتهما اليومية لأن هذه أكثر الفترات المقدسة في التقويم الإسلامي كما أنها أفضل وقت للحاج كي يسافر للحج في مكة... وثواب العمل الصالح الآن أعظم منه في أي وقت آخر من العام.

دخل إسماعيل الأخ الثالث الذي يبلغ عمره بين أيان وليلى المطبخ وقد لف منشفة حول خصره إذ كان في طريقه إلى الحمام حيث قد انتهت أيان للتو... حين يلتقي بأخته وهو يتجه إلى الحمام نصف عارٍ يترنح عليهما للمرح لكنهما تصرخان:

- لا تفعل! ماما... إنه يزعجنا!

لقد تفرق المراهقون الثلاثة... أيان التي تبلغ التاسعة عشرة من عمرها وإسماعيل الذي يبلغ الثامنة عشرة وليلى التي تبلغ السادسة عشرة... حيث بدأت الفتاتان تتذمران أن أخيهما لا يكترث سوى بالتدريب والتسكع مع

الأصدقاء ولعب الألعاب الإلكترونية كما أنه لا يحضر إلى المسجد وهو أمر محرج. وقد صرخت فيه أيان مؤخراً:

- أنت لست مسلماً!

وذهبت لتحث أمها على طرده فهي لا تستطيع العيش مع شخص لا يصلي.

فقالت أمهم مدافعة:

- إنه يشعر بالارتباك فحسب!

- اطرديه!

- في الصيف سآخذه إلى شيخ في هارغيسا وأطلب منه القراءة له والحديث معه...

كانت أيان صخابة في هذه النقاشات وقد قلدتها ليلى بكل بساطة... في الليلة الماضية حين عاد إسماعيل من التدريب إلى المنزل اندفعت ليلى ولفت ذراعيها حول عنقه:

- أوه يا إسماعيل! لقد اشتقت إليك!

- ماذا؟ لم أغب سوى لبضع ساعات...

- أين كنت؟

- في النادي الرياضي.

- وكيف كان التدريب؟

- ممم... كنت أدرب القسم العلوي من جسدي... الصدر والذراعان. يا للفتيات... لطالما كانت ليلى غاضبة منه والآن فجأة أصبحت كلها حلاوة ورقة.

ارتدى إسماعيل سرواله الجينز وقميصه وانضم إلى الآخرين على الإفطار حيث فتح باب الثلاجة التي يوجد عليها ملاحظة مكتوب عليها «ثلاجة» كما ألصقت الفتيات عبارات وحكماً من المركز الثقافي الإسلامي في النروج، فعلى ملصق أخضر ممزق من الجوانب وكأن أحداً حاول نزعه مكتوب «إن

الله لا ينظر إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وهناك ملصق بنفسجي مكتوب عليه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره وليكرم ضيفه وليقل خيراً أو ليصمت».

وقف إسماعيل عند المنضدة وهو يدهن سمك الإسقمري بصلصة الطماطم ويضعها على ثلاث قطع من الخبز بالقمح الكامل إذ كان الفتى ابن الثامنة عشرة مهتماً بما يتناوله من بروتين ويعتقد أن والديه يستخدمان الكثير من الزيوت في طعامهما كما أنهما يسلقان الطعام كثيراً ويقليانه حتى يصبح مقرمشاً في حين أنه يريد طعاماً بسيطاً وصحياً ونقياً ويمقت التوابل والبهارات الصومالية.

انضم إلى البقية على المائدة واصطدم بعبث بأخويه الصغيرين وهو يجلس فرد عليه إسحاق بلكمه على ذراعه في حين تلوى جبريل وطلب منه أن يتوقف بينما قالت سارة:

– دع الصبيان يتناولان طعامهما.

كان الفجر يبزغ ببطء وما زال هناك متسع من الوقت حتى تشرق الشمس فوق أسطح المباني السكنية في الشرق.

كان صديق في إجازة مرضية إذ تأذى كتفه حين سقط قفص عليه في مصنع كوكا كولا، والأسبوع القادم سيذهب إلى معالج فيزيائي حولته إليه السلطات الاجتماعية النروجية... مرت الأفكار في رأسه... مضى وقت طويل منذ أن أتاه آخر خبر من أمه في الصومال... هل هي مريضة؟ عليه أن يتصل بها في وقت لاحق اليوم.

ومن غرفة الفتيات سمع باب خزانة يصفق وشيئاً ثقيلاً يتحرك... لقد تخرجت أيان من المدرسة الثانوية في الربيع وهي الآن تعمل موظفة مناوبة في وكالة تقدم المساعدة الشخصية لكبار السن الذين يحتاجون لمساعدة عملية في حياتهم اليومية حسبما هو مذكور في عقدها... إنها سنة فاصلة

قبل أن تلتحق بالجامعة.

خرجت من غرفة النوم ومعها حقيبة سفر فسألها صديق:

- ماذا ستفعلين بها؟

- ستستعيرها عائشة... إنها ذاهبة في رحلة.

لطالما استعارت الفتيات وصديقتهما الأغراض من بعضهن إذ تعيش عائشة على بعد بضعة شوارع وكثيراً ما تطلب الأختان من أبيهما أن يوصلهما إلى هناك بالسيارة، وفي إحدى تلك الرحلات سألهما عما تحملانه في أكياس النايلون التي يحملنها جيئة وذهاباً فشرحتا له أنهما تغسلان لها ملابسها. كانت عائشة أكبر من أيان بسنتين، وحين تركها زوجها عادت للعيش مع أمها وأخواتها هي وطفلها الرضيع.

جرت أيان حقيبة السفر وراءها في الردهة، وعند الباب الأمامي توقفت أمام المرآة ولفت شعرها الجعد بالحجاب.

لقد ورثت الفتاة الكبرى ملامح أمها... جبهة منحنية ووجنتان مدورتان وناعمتان وعينان غائرتان... شدت حجابها حتى لم تعد هناك شعرة واحدة ظاهرة ثم ارتدت جلباباً. في تلك اللحظة امتلأ الممر حيث كان جبريل واقفاً مستعداً للخروج أما إسحاق فيحاول إدخال قدمه في الحذاء.

قال له صديق:

- عليك فك الرباط.

تأوّه الصبي:

- لا أستطيع.

- استخدم عقلك لا عضلاتك!

كان الصبي الصغير شبيهاً بسارة وأيان، فهو ممتلئ الجسم... انحنى صديق ليحل رباط الحذاء.

كانت أيان أول المغادرين حيث قالت وهي تبتسم لهم:

- وداعاً!

وصفقت الباب خلفها ليصبح هناك متسع في الممر بعد اختفاء الحقيبة فأخذت ليلى محلها أمام المرآة وكررت حركات أختها، وحين وضعت حجابها ظلت واقفة وقد حملت حقيبتها المدرسية على ظهرها.

سألها أبوها وهو يحاول حل رباط حذاء إسحاق:

- أتريدين توصيلة؟

في الأيام التي تبدأ فيها مدرسة ليلى بنفس توقيت مدرسة أخويها الصغيرين تنضم عادة إليهما في السيارة على الرغم من أن مدرستها لا تبعد سوى مسافة قصيرة مشياً على الأقدام.

ردت:

- لا شكراً.

رفع والدها نظره متفاجئاً فشرحت له:

- أريد أن أخسر بعض الوزن من خلال المزيد من التمرين.

حملقت سارة بها وقالت:

- أنت؟ ليست لديك أي دهون! أنت كالعصا!

فابتسمت ليلى وعانقت والديها وهمست في أذن كل منهما باللغة الصومالية:

- أحبك يا بابا... أحبك يا ماما.

دائماً يتحدث الأخوة مع أمهم بالصومالية أما مع أبيهما فبلغتين مختلفتين أما فيما بينهم ففي الغالب يتكلمون النروجية.

سأل إسماعيل:

- هل سنمشي سوية؟

كلاهما يرتادان مدرسة راد الثانوية حيث تدرس ليلى في السنة الأولى من الفرع الصحي والاجتماعي أما هو ففي السنة الثالثة للفرع الإلكتروني، ونادراً ما كانا يرافقان بعضهما في الصباح لكن بما أنها تعاملت معه بأسلوبها القديم في الليلة الماضية فسيبدو غريباً أن لا يذهبا إلى المدرسة سوياً كما

كانا يفعلان في طفولتهما.

ردت ليلى:

- لا... علي أن...

لم يسمع أخوها ردها وإنما لاحظ اختفاءها من خلال الباب وهي تحمل حقيبتها.

وأخيراً انطلقت العائلة بأكملها حيث صعد الصبيان السلم، جبريل أولاً ثم إسحاق.

كانت قمة كوشلاش ترتفع كجدار داكن وراء التجمع السكني وتلفها طبقة من الضباب... فتح صديق قفل السيارة بينما تجادل الصبيان حول من سيجلس في المقعد الأمامي.

وبخهما والدهما:

- حسناً... حسناً... حسناً... كيف جلستما المرة الماضية؟ كان جبريل في المقعد الأمامي أي أن الآن دور إسحاق.

انتظروا حتى عملت السيارة ثم انطلق صديق من المرأب بسرعة وقوة كالمعتاد.

في مدرسة برين أراد جبريل الذي كان في الصف السادس أن يغادر أباه لأن من المحرج له أن يراه الآخرون مع بابا لكن إسحاق الذي بدأ المدرسة قبل شهرين فطلب من أبيه أن يمشي معه إلى باحة المدرسة.

حين رن الجرس قاد صديق السيارة إلى المنزل ليأخذ سارة إلى موعدها لدى الطبيب إذ إنها تعاني في الآونة الأخيرة من صداع وألم في العنق والأصابع والمعصمين والقدمين... هل هناك أي علاج؟ ربما ستساعدها المكملات الغذائية التي تحتوي على الحديد؟ وربما الكالسيوم؟ أو فيتامين د؟ لقد بدأت بتناول كبسولات زيت السمك لكنها لم تساعدها.

- ما أحتاج إليه هو حليب النوق الساخن.

كثيراً ما تقول هذا فهي تعتقد أن ذلك سيجعل الألم يتلاشى لكنها تعيش

في بلد وفي وقت من السنة لا تدفئها فيه الشمس ونادراً ما تضيء... وهي ليست معتادة على هذا.

اتجها إلى مركز التسوق المحلي ووجدا مكاناً مجانياً لركن السيارة لثلاث ساعات ثم مشيا إلى عيادة بيرم الصحية. حين أتت العائلة إلى النروج استقروا في بيرم وهو حي يبعد تسعة أميال جنوب غرب أوسلو. وفي العيادة استمع الطبيب لترجمة صديق لمشاكل زوجته وطرح بضعة أسئلة ثم فحصها ليتوصل إلى أنها ليست بحاجة إلى المزيد من الحبوب وإنما إلى تغيير أسلوب حياتها إذ إن عليها ممارسة التمارين الرياضية والمشي وفقدان الكثير من الوزن.

بعد موعد الطبيب أوصل صديق زوجته إلى المنزل حيث استلقت لترتاح كما تفعل عادة خلال النهار.

ينتهي الصبيان من مدرستهما في تمام الواحدة والنصف وعادة ما تصل ليلى بعدهما بوقت قصير حيث تخلع حجابها ومعطفها الطويل وتتوضأ وتصلي وتتناول بعض الطعام قبل أن تذهب إلى الغرفة التي تتشاركها مع أيان حيث تشغل حاسبها لتنجز واجباتها المدرسية أو تستمع لتلاوة من القرآن. تمضي الفتاتان الكثير من الوقت في غرفتهما وإن حاول أحد ما أن يدير مقبض الباب تصرخان بانزعاج:

- لا تدخل!

وبينما تتذمر الأمهات الأخريات من أن فتياتهن لديهن حبيب أو يرتدين ملابس غير محتشمة لم يكن لدى سارة ما تتذمر بشأنه إذ إن ابنتاها تطيعانها في كل شيء وتطلبان إذنها في كل شيء حتى إن كانتا تريدان النقر على باب الجيران، ولطالما تفاخرت بذلك أمام صديقاتها لأن من المريح أنهما لا تندمجان كثيراً مع الأساليب النروجية، أما إسماعيل فهو مصدر قلق بالنسبة لها إذ إنه يبتعد عن خلفيته الصومالية وبدا أنه على وشك أن يصبح نروجياً زيادة عن اللزوم.

مر عقرب الدقائق في الساعة من الرقم ثلاثة... لقد عاد إسماعيل

باكـراً مـن المدرسـة إذ إنـه وعد أخويه الصغيرين بمسـاعدتهما في واجباتهما المدرسـية لأنهمـا يجـدان صعوبة فـي عدد من المواد... جلـس الثلاثة حول طاولة المطبخ... من الغريب أن ليلى لم تصل المنزل بعد.

حاولت سارة الاتصال بها لكن هاتفها كان مغلقاً كما لم ترد أيان أيضاً... ربما لدى الفتيات شيء هذا المساء لا تذكره.

انتظرت قليلاً قبل أن تتصل مجدداً... أولاً بليلى ثم بأيان وأخيراً بصديق لكن أحداً منهم لم يرد على الهاتف، فطلبت من إسـماعيل أن يرسـل رسـالة نصية إذ لا بد أن هناك خطبا ما... لمَ قد تتأخر ليلى؟

كانـت سـارة تفكـر دائماً بالأسـوأ... ربما يكون أحد قـد هاجمها... إنها تعرف أن هناك نروجيين لا يحبون ذوي البشـرة السـمراء أو المسـلمين وقد قالت سارة إن مجموعة من الصبيان قد أزعجوها مرة.

وأخيراً ردت أيان على هاتفها فانفجرت أمها:

- أين أنت؟ أنا قلقة على ليلى فهي لم تعد بعد!
- لا تقلقي... ليلى معي.
- آه... هذا جيد!

طالما أنهما سوية فكل شيء على ما يرام... أخرجت بضع قطع من لحم الضأن من الثلاجة وملأت المقلاة بالماء لتسلق الأرز.

كان صديق جالساً في المكتبة في ساندفيكا مركز بلدية بيرم يقرأ «العلوم المبسطة» بينما يؤلمه كتفه... سيحتاج إلى وقت طويل حتى يتمكن من العودة للعمل في كوكا كولا... إنه بحاجة إلى عمل آخر... فيما مضى كان يحلم أن يصبح مهندسـاً وحضر دروسـاً مسائية في أوسلو ليكتسب المؤهلات اللازمة للدراسة الجدية لكنه سرعان ما استسلم.

إنـه يحـب هـذه المكتبـة ويأتي إليها كل يوم تقريباً... أول ما يفعله هو أن يتناول مجلته المفضلة عن الرف ويقرأها ثم يتصل بالإنترنت.

خرج صديق ليدخن سيجارة ولاحظ المكالمات الفائتة... أخبرته زوجته:

- الفتاتان في الخارج تفعلان شيئاً... أيمكنك الاتصال بهما وإخبارهما أنك ستوصلهما؟ وتعودون جميعاً إلى المنزل على العشاء.

اتصل برقم أيان ثم ليلى... لا بد أنهما في مسجد الرحمة القريب أو في منزل عائشة... كان هاتف ليلى مقفلاً أما أيان فلم ترد... أيمكن أن تكونا في مسجد التوفيق في أوسلو؟

عاد إلى المكتبة ودردش قليلاً مع أحد الأصدقاء، وحوالي الساعة الخامسة غادر ليعود إلى منزله حيث خلع حذاءه في الردهة قبل أن يتجه إلى غرفة الجلوس والأريكة إذ إنه يريد الاستلقاء وهو ينتظر العشاء.

كانت الأريكة من الجلد الصناعي الأسود مقابل التلفاز، وعلى الجدار خلفه توجد صورة لمكة، وفي الزاوية الأخرى هناك الشرفة حيث توجد بضع سجادات وآلة تمارين رياضية قديمة، وما عدا ذلك كانت غرفة الجلوس فارغة وبالكاد فيها أي أثاث على الطراز الصومالي.

طلبت منه سارة أن يحاول الاتصال بالفتاتين مجدداً.

فسألها:

- أين هما؟ ليس لدي وقت لهذا!

بعد السادسة بقليل أجابت أيان على هاتفها وقالت بصوت أجش:

- اهدأ يا بابا... اجلس يا أبي... لقد أرسلنا لك بريداً إلكترونياً... اقرأه. وأغلقت الخط.

أحضر صديق جهاز الحاسب المحمول من حقيبة ظهره وأخرج نظاراته وفتح البريد ليجد رسالة غير مقروءة في الأعلى تم إرسالها في 17 أكتوبر 2013 في الساعة 17:49.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا ماما وبابا.

نحن نحبكما كثيراً وقد منحتمانا كل شيء في هذه الحياة... إننا ممتنتان لكما على كل شيء.

نحن نطلب منكما السماح لأجل كل الألم الذي تسببنا به ونحبكما كثيراً وسنفعل أي شيء لأجلكما ولن نفعل شيئاً يؤذيكما عن عمد. أليس من العدل واللائق أن نفعل كل شيء لأجل الله سبحانه وتعالى وأن نكون ممتنين لما أعطانا من خلال اتباع أوامره وقواعده وتعليماته.

المسلمون مهاجمون من جميع الأصقاع وعلينا فعل شيء. إننا نريد مساعدة المسلمين والطريقة الوحيدة التي يمكننا فعل ذلك بها هو أن نكون معهم في السراء والضراء... البقاء في البيت وإرسال المال لم يعد كافياً ولهذا قررنا السفر إلى سوريا وتقديم كل مساعدة ممكنة. نعلم أن هذا قد يبدو سخيفاً لكنه حق وعلينا الذهاب... إننا نخشى مما سيقوله الله سبحانه وتعالى يوم الحساب».

أظلمت الدنيا حول صديق وخارت قواه وضاقت أنفاسه... لا بد أنها دعابة... لا بد أنهما تعبثان معه.

وبسرعة تفحص صديق رسالة البريد الإلكتروني ليجد تفسيراً لكل هذا الهراء... إنه يعرف فرض العين على كل فرد كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

«لقد غادرنا الآن وسرعان ما سنصل إن شاء الله... أرجوكم لا تغضبوا منا فقد كان من الصعب علينا المغادرة دون توديعكما بالطريقة التي تستحقانها... سامحانا لأننا حين اتخذنا هذا القرار قمنا بذلك ونحن نفكر بالخير لأمتنا والخير لعائلتنا، وقد يكون من الصعب فهم ذلك الآن لكن إن شاء الله هذا القرار سيساعدنا جميعاً يوم الحساب إن شاء الله.

نحبكما كثيراً ونأمل أن لا تقاطعانا... إن شاء الله سنرسل رسالة حين نصل إلى الفندق وعندها يمكنكما الاتصال إن شاء الله.

نريد أن نخبركما مرة ثانية أننا نحبكما من كل قلبنا وأننا آسفتان أنكما عرفتما بهذه الطريقة... لقد طلبنا منكما الكثير وسنطلب منكما خدمة... لا تخبرا أحداً من خارج العائلة أننا غادرنا لأجل سلامتنا وسلامتكم... أرجوكما حاولا أن تتفهما تصرفنا.

والحمد لله رب العالمين
أيان وليلى.

مكتبة
t.me/t_pdf

وضع صديق يديه أمام وجهه.
- ماذا تقول؟
وقفت سارة خلفه متكئة على كتفه بينما تجول عيناها بين الحروف السوداء على الشاشة وبين زوجها.
نادى صديق:
- تعال إلى هنا يا إسماعيل!
حين سمع إسماعيل صوت أبيه المتهدج تساءل في نفسه عن الخطأ الذي ارتكبه.
قال صديق حين دخل ابنه الغرفة:
- اقرأها بصوت مرتفع.
بعد بضعة أسطر بدأ صوت إسماعيل يتهدج فصرخت سارة:
- ماذا؟ ماذا؟
فقرأ إسماعيل أولاً بالنروجية ثم ترجم إلى الصومالية لأمه.
- ... لقد قررنا السفر إلى سوريا...
فصرخت سارة وسقطت أرضاً:
- عونك يا الله!
حاول صديق أن يساعدها لكنه تهاوى هو الآخر وبقي جالساً هناك وذراعاه حول زوجته يهزها وهو يتمتم:
- لا أصدق... هذا غير ممكن.
حدق الصبيان بهما ثم اقترب إسحاق ولاذ بوالديه.
وسأل جبريل:
- أين ذهبتا يا بابا؟

- لا أدري.

حاول ترتيب الفوضى التي في رأسه... لا يمكنهما أن تكونا سافرتا هكذا... دون سابق إنذار... لا... لا يصدق هذا... هناك ثلاثة احتمالات... إما أنهما تمزحان أو أن أحداً ما قد كتب الرسالة أو أنه لم يقرأها جيداً.

سجل مركز عمليات الشرطة المكالمة في تمام 9:54 مساءً حيث قال المتصل أنه تلقى رسالة بريد إلكتروني من ابنتيه اللتين أخبرتاه أنهما غادرتا إلى سوريا للمشاركة في الجهاد.

وتوسل صديق إلى الشرطة لتعقب هاتفي الفتاتين لمعرفة مكانهما.

قالت سارة:

- لا بد أن أحداً قد اختطفهما.

اتصل صديق مراراً وتكراراً... لا يمكن للفتاتين أن تكونا قد ابتعدتا! وأخيراً سمع صوتاً على الطرف الآخر من الخط.

- أبي...

قاطع ابنته وسعل ثم حاول الكلام بهدوء.

- أيان... توقفي حيث أنت... لا يهم أين أنت... ابقي هناك... أنا في طريقي... سأعبئ السيارة بالوقود... أرجوك انتظري حيث أنت و...
- اسمعني يا بابا...
- سآتي لآخذكما... سآخذ السيارة... أين أنتما؟
- في السويد.
- انتظراني... سأقود السيارة... أو لا... سأستقل الطائرة!
- انسَ الأمر يا بابا.
- فكرا في الأمر أنتما الاثنتان... علينا أن نتكلم... من معكما؟

أغلق الخط، وحين اتصل صديق مجدداً تم إخباره أن الرقم الذي يحاول الاتصال به خارج نطاق التغطية.

اتصل بمركز عمليات الشرطة مجدداً حيث حددت الشرطة موقع الفتاتين

على أنه «فندق مجهول في السويد».

وفجأة صرخ إسماعيل بشيء من غرفته ودخل إلى غرفة الجلوس وهو يشير إلى حاسبه المحمول.

- أيان متصلة بالإنترنت... إنها على الفيسبوك!

ورأى صديق اسماً تعرف عليه على الفور... اسم ابنته الأوسط: فاطمة عبد الله.

جلس وكتب لها:

- أخبريني يا ابنتي أين أنت لآتي وأراك أو ردي على الهاتف... أنت تتسببين بمشكلة كبيرة للعائلة... لا تزيدي الأمور سوءاً... طفلتي العزيزة... أرجوك يا طفلتي... ردي علي.

وجلس يحدق بالشاشة... كان صوت أيان صارماً وقاسياً... عليهما الذهاب إلى سوريا... للمساعدة... الناس هناك بحاجة للمساعدة... إنه واجب عليهما.

تلاشى التصميم الذي استجمعه صديق حين اتصل بالشرطة.

كانت سارة تتكلم مع صديقة على الهاتف فقالت صديقتها:

- أوه أيتها المسكينة... سمعت عن بعض الفتيات من إنكلترا اللواتي ذهبن إلى سوريا و...

فاحت رائحة احتراق من المطبخ... التصق الأرز متفحماً أسفل المقلاة.

بدا إسحاق كجزء من جسد صديق حيث تشبث بوالده كحيوان رضيع وقد تركه صديق أما جبريل فكان يحوم حولهما بقلق وحذر.

عادة تجهز أيان الصبيين للنوم وتقرأ لهما من القرآن ثم تخبرهما عن حياة محمد أو تتحدث معهما عن يومهما الذي أمضياه.

في تلك الليلة ذهبا إلى النوم دون ترديد الصلاة على النبي.

في الساعة 10:47 مساء جاء الرد من فاطمة عبد الله آغا أيان عبر مسنجر الفيسبوك

- عليكم الهدوء يا أبي... من الأفضل أن نتكلم بعد أن يهدأ الجميع وتتسنى لهم الفرصة للتفكير.
- حسناً... تكلمي معي الآن.
- ألا يمكننا الحديث غداً؟ مهما فعلتم لا تخبروا أحداً لمصلحتنا جميعاً.
- يا ابنتي... أنت أقوى من أن تسمحي لأحد بأن يغسل دماغك... أنا أؤمن أنك صغيرتي أيان التي كانت تستمع لي... أمك في غيبوبة والمنزل مليء برجال الشرطة وموظفي حماية الطفل.
- لماذا اتصلتم بهم؟ طلبنا منكم أن لا تفعلوا!
- هل أخبرنا أحد منكما بشيء؟
- ما كنتم لتتركونا نذهب.
- أيان... خافي الله إن كنت تؤمنين به حقاً. ليس مسموحاً لك السفر دون محرم... اذكري اسم شيخ واحد سمح لك بهذا ليقنعني بدليل ديني... ستعمى عيناي إن لم أجدكما!
- اهدأ يا أبي! سأرسل لك كتاباً كاملاً.
- يا ابنتي... لن نسامحكما على ما فعلتماه الآن أو في يوم الدين... ولا أحد منكما سيلقى ثواباً على هذا.
- لا تقل ما ستندم عليه يا أبي... كلنا فانون... نحن متعبتان... أيمكننا الحديث غداً؟
- الجنة تحت قدمي أمك... هذا حديث نبوي يا طفلتي... إنه كلام النبي... أمك في المشفى ترقد في غيبوبة... كيف ستنجين؟ أين الثواب الإلهي الذي تطلبينه؟ لا تشتري نار جهنم يا طفلتي!
- لديك طفلان لتهتم بهما... كن قوياً لأجلهما... نحن بأمان ويمكننا الاهتمام بأنفسنا.
- لا تكوني ساذجة! أنسيت أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟

- الفردوس يأتي برضى الله.

وخرجت أيان من المسنجر.

ظهرت صورة على هاتف إسماعيل المحمول على السناب شات... شريحة لحم كبيرة في طبق على غطاء طاولة أبيض مع أدوات مائدة أنيقة ومكتوب تحت الصورة التي اختفت بعد بضع ثوانٍ:

- آخر وجبة في أوربا!

تم إرسال النص عبر فايبر فنقر إسماعيل على الرسالة... ما لا تعرفه أخته هو أن تطبيق الرسالة يظهر موقع مرسل الرسالة تلقائياً إن لم تقم بإيقاف تلك الوظيفة.

«سيحان، أضنة، تركيا».

ضغط مجدداً لتظهر خريطة وعليها نقطة زرقاء ثم قام بتكبيرها ورأى التقاطع والشوارع.

جاء إسماعيل مندفعاً ليري النقطة الزرقاء لوالديه:

- إنهما في تركيا! يمكنني أن أرى تماماً أين هما! اتصلا بالشرطة... عليهم التواصل مع الشرطة التركية ليقوموا باعتقالهما هناك في المطعم... إنهما تتناولان الطعام هناك الآن!

اتصل صديق بالشرطة وأبلغهم بالمعلومات التي قدمتها له ابنتاه دون علم منهما... كان الوقت قد تجاوز الحادية عشرة ليلاً.

توسل صديق:

- نحن في وضع حرج... عليكم مساعدتنا على الفور... اعثروا عليهما قبل فوات الأوان.

تم إرسال المعلومات التي قدمها إلى القسم المحلي في الأمن النروجي.

لكن الرسالة بقيت هناك غير مقروءة في بريد إلكتروني لم يتم فتحه طوال الليل بينما نامت الفتاتان في الفندق الكبير في أضنة حيث سجلتا دخولهما

باستخدام جوازي سفرهما وباسميهما الكاملين.

قبل منتصف الليل بنصف ساعة ظهر إشعار على حاسب صديق المحمول بوصول رسالة بريد إلكتروني من أيان لكنها لا تحوي تحية أو عزيزاي ماما وبابا وإنما تدخل في الموضوع مباشرة.

«اقرأ الكتاب كاملاً واعرف من هو المؤلف قبل أن ترد... لقد خططنا لهذا وفكرنا به لسنة كاملة تقريباً... ما كنا لنفعل شيئاً كهذا فجأة... ابنتك المخلصة أيان».

فتح صديق الملف المرفق ليجد مخطوطة كتاب مكتوب على الصفحة الأولى فيه:

الدفاع عن أراضي المسلمين

الواجب الأول بعد الإيمان

تأليف: عبد الله عزام

(تقبله الله شهيداً)

ويبدأ الكتاب بحديث عن النبي محمد: «أما من يقتل في سبيل الله فلن تضيع أعمالهم».

ظل صديق جالساً يقرأ بينما أغلق إسماعيل باب غرفته واستلقى على سريره وهاتفه بيده وهو يحدق في السقف... بدا كل شيء غير حقيقي... دخل إلى حسابه على فيسبوك ليجد أن فاطمة عبد الله على الخط مجدداً.

كتب لها:

- أنا إسماعيل يا أيان... أعلم أنك غادرت... ماذا تنويان أن تفعلا هناك؟ متى ستصلان إلى سوريا؟

ردت أخته الكبرى على الفور:

- أولاً ماذا يحصل في البيت؟ هل الشرطة هناك؟ هل خدمة حماية الطفل هناك؟

- لا... لا.
- الحمد لله! هل ماما في غيبوبة؟
- إنها تبكي... في وضع مأساوي... دورك.
- حسناً... سنذهب لنفعل ما ينبغي لنا فعله.
- ماذا تقصدين بذلك بالضبط؟
- كل شيء بدءاً بإحضار الماء للمرضى والعمل في مخيمات اللاجئين.
- ماما تظن أنكما ستتزوجان من المجاهدين لترضوهم... كما أن ماما تظن أنه سيتم اغتصابكما.
- لا سمح الله... أنت تعرف أننا لسنا هكذا.
- لم أعد واثقاً مما أعرفه.
- ماذا تظنني؟ مومسا؟
- لا أدري... كنت أظنك تثقين بـي أكثر... كان بإمكانك إخباري على الأقل.
- كنت ستمنعنا! أبلغ ماما اعتذارنا عن القلق الذي تسببنا به لكن رضا الله أولاً وقبل أي أحد آخر.
- إنها غاضبة منكما... في غيبوبتها.
- إنها ليست في غيبوبة.
- لا يمكنها الكلام ولا تكف عن البكاء... ماذا تسميان هذا؟
- إن كانت تبكي فهذا يعني أنها ليست في غيبوبة... لا تكذب علينا في أشياء كهذه.
- ممم... لقد بالغت بعض الشيء... يمكنني تصوير فيديو لها.
- لاااا!
- من أين حصلتما على المال.
- كنت أعمل.
- كم من المال معكما؟

- معنا ما يكفي... في كل الأحوال اطلب من بابا أن يقرأ كامل الكتاب الذي أرسلته له.

وناولت الهاتف لأختها.

- إسماعيل... عزيزي إسماعيل... أحب ماما أكثر من أي شيء آخر على وجه الأرض لكن حين يتعلق الأمر بالله ونبيه فإنني أخشى أن يسألني الله يوم القيامة. أعلم أنني أؤذي الكثير من الناس في الدنيا لكنني لا أفكر الآن بالدنيا... أنا أقوم بهذا لأنني أحب أمي وأبي وكامل عائلتي حباً شديداً... ليس الأمر لآخرتي فحسب وإنما لآخرتنا جميعاً...

وصلت الرسالة مجزأة إذ كانت ليلى تضغط على «إرسال» بعد كل سطر وهي تكتب... كان إسماعيل يعرف ما يكفي عن الإسلام ليفهم المحتوى... الدنيا هي الحياة على الأرض أما الآخرة فهي الحياة بعد الموت في حين أن الجنة هي النعيم.

كتب إسماعيل وهو مستلقٍ في سريره:

- هل ستعودان؟
- لا نعرف تماماً لكننا لا نتمنى ذلك.
- إذن قد لا نرى بعضنا مجدداً؟
- لا تفكر هكذا... لدينا برنامج سكايب... هههه.
- وفي الحياة الواقعية؟
- لا ندري.
- أوه... حسناً.
- كيف حالك؟
- شعور غريب... لا أدري... حزين.
- حتى نحن لم نستوعب الأمر بعد... لا تحزن... لم نمت كما أننا بأحسن حال... حاول أن تفكر بإيجابية... فكر بتفاؤل... أتذكر في

الربيع؟ قلت إنني لن أفعل شيئاً كهذا لأنني جبانة؟

- نعم... لقد فزت... أيمكنك العودة إلينا الآن؟

لم ترد ليلى على الفور فأضاف بسرعة:

- هههه... استمتعا... افعلا ما تظنانه صحيحاً.

- سنفعل.

- أنا هادئ.

- تصبح على خير.

وأرسلت ليلى صورة وجه باسم وقلب وخرجت من فيسبوك أما إسماعيل فاستلقى في السرير وهاتفه في يده والدموع تسيل على وجنتيه.

في غرفة الجلوس جلس صديق يقرأ «الدفاع عن أراضي المسلمين» وقد أبقى عينه على هاتفه المحمول وحسابه على الفيسبوك تحسباً لأن تراسله ابنتاه أو تتصلا بالإنترنت.

بدأ النص:

«ليس هناك خلافة... وإنما إمبراطورية عظيمة كان العالم أجمع يخشاها... شعب مؤتمن على آخر الرسائل الإلهية... الدين المكتوب للإنسانية جمعاء... أين هم اليوم؟ لقد خدع الأنجاس جموع المسلمين من خلال تنصيب دماهم كرؤساء زائفة للدول لتبقى تحت سيطرتهم... لقد اتخذ الاستعمار وجهاً جديداً إذ إنهم أتوا من جميع الآفاق ليتقاسمونا فيما بينهم... ما من إذلال أعظم للأمة المكتوب عليها قيادة الإنسانية إلى الخلاص... كيف سيمكنهم إدراك خطورة الوضع؟ منزلهم متهاوٍ وجيرانهم يضحكون».

أكمل صديق النص الذي يتكلم عن أن من واجب المسلمين الاتحاد تحت إمرة خليفة واحد ينبغي الدفاع عنه بحد السيف.

كان عبد الله عزام مؤسس الجهادية الحديثة وقد تعرف على أسامة بن لادن أثناء عمله مدرساً في المملكة العربية السعودية في بداية الثمانينات

مـن القـرن العشـرين كمـا كان قـوة دافعة لرجل الأعمال السـعودي كي يمول المجاهدين الذي يقاتلون السوفييت في أفغانستان. هناك تعمقت صداقته مع بن لادن وأصدر فتوى حول القواعد التي تجعل الجهاد واجباً فردياً أي فرض عين ومتى يمكنك ترك الآخرين يقاتلون لأجلك أي فرض كفاية.

«بالمقارنة مع الجهاد في المعركة يعتبر الدعاء كعبث الأطفال إذ إن كل دمعة تذرفها على وجنتك نحن في المقابل نذرف الدماء على صدورنا... أنتم تعبثون بعباداتكم... بينما أنتم أيها العابدون تقدمون عباداتكم فإن المجاهدين يقدمون دماءهم وأرواحهم».

وكتب المفكر الفلسطيني أنه في حال تم العدوان على قطعة من أراضي المسلمين حتى ولو كانت بحجم راحة اليد فسيصبح الجهاد فرض عين على كل المسلمين من الذكور والإناث.

«ينبغـي للطفـل المسـير للجهاد دون إذن والديـه كما ينبغي للزوجة دون إذن زوجها».

هـذا مـا أرادتـه الفتاتان أن يعرف من هذا الكتاب... أن واجبهما أمام أمة الإسلام يعني أن بإمكانهما المغادرة دون موافقته وأن تعاليم العلماء تؤيدهما.

أغلق صديق المستند.

الجهاد.

الخلافة.

الشهادة.

الهراء.

اقرأ الكتاب بأكمله قبل أن ترد... وأكثر ما أزعجه هو أنهما خططتا وفكرتا في الأمر لسنة كاملة.

لم ينم صديق تلك الليلة.

لقد تهاوت السموات فوق رأسه.

2

منقّبات

طلع يوم جديد.

ما إن استيقظ إسماعيل حتى فتح هاتفه وتحقق من فايبر وفيسبوك ومسنجر وواتساب... لا شيء.

كتب تحت محادثة الليلة الماضية:

- أيان... ليلى... هل أنتما على قيد الحياة؟

كانت سارة تبكي:

- لا بد أن أحداً احتال عليهما لتذهبا!

قال صديق:

- بل غسل دماغهما.

على الرغم من أن إسماعيل لم يكن يرتجف كما كان يفعل الليلة الماضية، لكن الصدمة ما تزال مؤثرة في جسده كلكمة لم يكن مستعداً لها... لام نفسه لعدم توقعه حدوث ذلك... الساعات التي أمضتاها تستمعان للشيوخ والخطباء على اليوتيوب... غضبهما من عدم حضوره إلى المسجد... الاتهامات... مقتهما للكفار.

وبخهما والدهما:

- لا تقولا هذه الكلمة! إنها غير محترمة.

وقد توقفت الفتاتان عن استخدامها لبعض الوقت لكن مقتهما للكفار عاد وكأنهما لا تستطيعان البقاء نقيتين بما يكفي حين يكون كل ما حولهما قذراً.

كثيراً ما تكلمت ليلى عن يوم القيامة حين لا ينجو من غضب الله سوى

المؤمنين الصادقين... فهذه الحياة مجرد اختبار حسب قولها والحياة الحقيقية تأتي فيما بعد... في الجنة إن اتبعت أوامر الله... حينها ستعيش في جنة تحوي أطيب الثمار وفيها نهر من لبن وفيها كل ما تشتهيه الأنفس... جميع عواطفنا ستكون جميلة ونقية ولن نشعر بالغضب أو الحزن أو الألم أو الندم وإنما الانسجام والسعادة والفرح. هناك سنمشي على أرض من الماس في منازل جدرانها من ذهب وستغني الملائكة ونشعر بوجود الله طوال الوقت.

وحين أعرب إسماعيل عن شكوكه تجاه ذلك كله انزعجت ليلى وسألته:

- وماذا تظن سيحدث بعد مماتك إذن؟
- أظنك ستموتين ثم تدفنين ثم... حسناً... هذا كل ما في الأمر.
- لا... إما أن تدخل الجنة أو يُلقى بك في الجحيم... صدقني يا إسماعيل... لم يفت الأوان بعد... دعني أساعدك... يمكنني أن أدلك على الطريق القويم.

ثم أخبرته أن الشك بوجود الله كفر وأن عقاب ذلك هو الموت.

وقد أدرك مدى تشددهما... كيف لم يتوقع ما حصل؟

قرأ إسماعيل الرسالة الطويلة التي أرسلتها ليلى في الليلة الماضية حيث كتبت أن الامتثال لأوامر الله أهم من القلق بشأن إيذاء الناس... «أنا لست ابنة مطيعة ولا أمنح والديّ ما يستحقانه بالفعل لكن هذه فرصتي للتعويض عن ذلك من خلال مساعدتي لهما في الآخرة»... بانضمامها إلى حرب مقدسة ستنقذهما من الجحيم... إن مت كشهيد يمكنك اختيار سبعين من أهل بيتك ليدخلوا الجنة معك... لقد ضحت بنفسها لأجلهم.

في وقت لاحق ذلك الصباح تلقى صديق مكالمة هاتفية من قسم المنطقة في الأمن النروجي حيث قرأ أحدهم الرسالة عن كون الفتاتين في تركيا، وطرح رجل الشرطة عدة أسئلة عن الفتاتين والأماكن التي ترتادانها والأشخاص الذين تجتمعان معهما وإن كانت هناك أية معلومات مساعدة.

ولكي تصدر الشرطة مذكرة بحث ينبغي على العائلة الإبلاغ عن الفتاتين كمفقودتين.

أغلق صديق الخط ودخل الصبيان الصغيران غرفة الجلوس إذ إن سارة لم توقظهما من نومهما هذا الصباح أي أن صديق لن يحاول ربط حذائهما كما لن يكون هناك أي جدال حول من سيجلس في المقعد الأمامي لأن لا أحد يمكنه استجماع قواه ليوصلهما إلى المدرسة.

سأل إسحاق:

- هل كان من الخطأ أن تذهبا؟

- نعم.

نظر الصبيان إليه ثم جلسا ليلعبا بالألعاب الإلكترونية.

من يمكن أن يعرف شيئاً؟ من قد يعرف؟ حاول صديق التوصل إلى دليل أو أثر أو أي شيء... خلال الليل ظل يفكر محاولاً أن يفهم، وفي الصباح الباكر أدرك أنه ليست لديه أدنى فكرة عما تفعله ابنتاه أو مع من أمضيتا وقتهما خلال السنة الماضية... أحياناً يوصلهما بالسيارة إلى مسجد التوفيق في مركز مدينة أوسلو وهو أكبر مسجد صومالي في النروج، وأقصى ما يعرفه هو أنهما تدخلان من باب النساء كما أوصلهما أحياناً إلى اجتماعات شبكة الإسلام وإلى مسجد في ساندفيكا لكن بمن كانتا تلتقيان هناك؟ هل أستاذ القرآن هو من شجعهما؟ ألم يكن هو أيضاً مجاهداً في موريتانيا؟ لم يستطع صديق أن يتذكر تماماً... ربما هو يخطئ بينه وبين شخص آخر... لم يكن يهتم... هذا ما أدركه الآن... عليه أن يذهب إلى المساجد ليعرف... عليه أن يسأل عائشة إن كانت تعرف شيئاً... ألم تقل أيان إن الحقيبة لها؟ عليه أن يقود السيارة إلى هناك ويتحرى عن الأمر.

لكنه لم يفعل وإنما استمر بالتفكير في الوضع مراراً وتكراراً.

كان صديق وسارة يشعران بالرضا حين يتعلق الأمر بابنتيهما إذ إنه يذكر أول مرة تكلمت فيها الفتاتان حول حضور لقاء مسائي حيث قالتا:

- إنه يبدأ عند الثامنة مساءً.

فضحك هو وسارة حين أدركا أنهما ستحضران اجتماعاً في المسجد لكنه الآن غير قادر على تذكر اسم واحد أو وجه واحد لأي من الأشخاص الذين كانتا تختلطان معهم خلال السنة الماضية.

في اليوم السابق لرحيلهما طلبت منه أيان أن يساعدها في إنجاز بعض الأمور كما سألته:

- أيمكننا أن نأخذ السيارة؟

بالطبع يمكنهما... إنه في إجازة مرضية وليست لديه أية خطط لذلك اليوم بل إنه سعيد من طلبها إذ إنها أصبحت مؤخراً بعيدة للغاية وتجنبت التواصل معه، وقد أزعجه ذلك لأنه من بين جميع أفراد العائلة كانت أيان الأقرب إليه. أحياناً يواجه مشاكل في فهم ليلى لكن أيان واضحة فهي تستمتع بالحديث واكتشاف الأمور ولطالما طلبت مشورته إلا أنها ومع مرور الوقت أصبح لها آراؤها الخاصة وبدءا يختلفا، وفي النهاية توقفت نقاشاتهما.

أرادت أيان الذهاب إلى بضعة متاجر بالقرب من مسجد الرابطة في أوسلو إذ قالت له إن عائشة ستذهب في رحلة وتحتاج للمساعدة في شراء بعض الأغراض... لم يسأل أكثر لأنه كان سعيداً لأن ابنته أرادت مرافقته.

في معظم الرحلة جلسا صامتين حيث حاول البدء بحديث لكن الجو بينهما منعهما، وعند الوصول إلى مركز المدينة توجه إلى مقهى بالقرب من مركز غونيريوس للتسوق بينما ذهبت أيان لتتسوق.

شعر بألم شديد حين أدرك أنه كان يوصلها بينما كانت تشتري ما تحتاجه لرحلتهما... لا بد أن أيان من خططت للأمر فهي القائدة بينهما وهي من تقود الأمور كلها بعد سارة.

حين عادا إلى المنزل مع كل الأكياس عانقته وقالت:

- شكراً جزيلاً يا بابا.

لقد أعمتاه بالعناق... لقد خدعتاه.

في وقت لاحق تلك الليلة خرجت أيان من غرفتها وطلبت منه أن تستعير بطاقة ائتمانه لأن بطاقتها قد انتهت صلاحيتها وهي بحاجة لشراء شيء عبر الإنترنت، فرد عليها:

- بالكاد يوجد بعض المال في بطاقتي.

فتوترت وقالت:

- أيمكنك إيصالي إلى المصرف في ساندفيكا؟ وسأضع المال في حسابك فأنا أملك بعض النقود.

- لقد أغلق المصرف منذ زمن... ألا يمكنك الانتظار حتى الغد؟

أصرت أيان على الذهاب إلى هناك لترى لكنه كان محقاً فقد أغلق المصرف... ماذا كانت تنوي أن تشتري؟ تذاكر؟ لا... لا بد أنهما اشترتا التذاكر من قبل... من الذي نظم التذاكر والرحلة بكاملها؟ من الذي شجعهما على السفر؟

أما ليلى فبقيت في غرفة النوم طوال المساء فسألها:

- هل أنت مريضة؟

فهزت ليلى رأسها ولكمته في بطنه ممازحة:

- سأقضي على كل هذه الدهون المتراكمة لديك يا بابا.

وحين عاد إسماعيل من النادي الرياضي أحاطته بذراعيها.

بعد التسوق والرحلة إلى المصرف ذهبت أيان إلى غرفتها ودخلت حسابها على تويتر وكتبت:

- اللطف هو اللغة التي يمكن حتى للأصم سماعها وللأعمى رؤيتها.

وفي اليوم السابق غردت أيضاً:

- الشيطان فيروس والإسلام هو العلاج.

كانت صورة حسابها طائرا ذا ريش أخضر لماع... لقد قال النبي إنك إن مت مجاهداً فسيجعل الله روحك تسكن جسد طائر أخضر يطير في الفردوس ويبني عشاً في المصابيح المتدلية من عرشه تعالى.

تلقت الشرطة بلاغاً عن فتاتين مفقودتين في تمام 12:30 مساءً، وعندها تم إرسال مذكرة بحث دولية عبر الإنتربول. ووفقاً للسجل الرسمي فقد تم اتخاذ الإجراءات التالية:

- تم إرسال طلب معلومات للمصارف وشركات الاتصالات والخطوط الجوية والمراكز الحدودية.

وفي محطة بيرم وآسكر وضعت الشرطة المحلية عنصراً من وحدة الأشخاص المفقودين ليتولى القضية، وقد اتصل بصديق فسأله صديق:

- هل ترسلون أحداً للعثور عليهما.
- لقد أبلغنا وزارة الخارجية، والسفارة في أنقرة تشرف على الموضوع كما أننا نتعاون مع الشرطة التركية.
- وماذا يفعلون؟
- سنبلغك بالمستجدات.
- لكن كيف سمحتم لهما بمغادرة البلاد؟ لماذا لم توقفوهما في المطار؟ ليلى ما تزال قاصرة... و...

لم يتلق صديق جواباً وإنما تم إبلاغه أنه سيتم إرسال سيارة لتقل العائلة إلى المركز.

قالت سارة:

- لو كان البلاغ عن فقدان طفل نروجي لتصرفوا على نحو مختلف... لكن بما أننا صوماليون فالشرطة لا تكترث لنا!

وشعرت سارة بشيء في داخلها يتمزق.

تم إدخالهم إلى مكتب في مركز الشرطة... أولاً صديق ثم سارة التي سألت صديق:

- ماذا عليّ أن أخبرهم؟
- فقط أجيبي على أسئلتهم... لقد بلغت ليلى السادسة عشرة للتو أما أيان فقد أصبحت بالغة منذ فترة قصيرة وهما مواطنتان نروجيتان أي

أن الشرطة ستبذل كل ما بوسعها لتعقبهما.

كان هناك رجلان حاضران خلال الاستجواب، واحد من وحدة الأشخاص المفقودين والآخر من قسم الأمن النروجي.

وفي النهاية حان دور إسماعيل.

- وماذا عنك؟ هل ترتاد مدرسة القرآن أيضاً؟ هل ترتاد المسجد؟ ماذا ستفعل السنة القادمة؟ هل لديك أي مخططات؟ هل تقدمت بطلب التحاق بالجامعة أم أنك ستسافر؟ هل كنت تعلم بما كانت تخططا له أختاك؟ هل تم إجبارهما على السفر؟ ماذا يعرف والداك؟ هل أنت متطرف أيضاً؟

أزعجت الأسئلة ابن الثامنة عشرة حيث بدا أن المحققين يسعون لمعرفة إن كان قريباً عقائدياً من أختيه أو إن كان سيلحق بهما أو إن كانوا جزءاً من شبكة أكبر، في حين كانت الأولوية بالنسبة لإسماعيل هي إيقاف أختيه، إلا أنه بينما كان يتحدث أكد على نقطة واحدة للمحققين لم يوضحها صديق... الأختان سافرتا بكامل إرادتهما.

في السيارة في طريق العودة إلى المنزل انفجر صديق:

- إنهم يعتبروننا خطراً لا عائلة قد أبلغت عن غياب ابنتيها... لقد طلبنا مساعدتهم لكنهم يعاملوننا كمجرمين!

وفي حوالي الساعة الخامسة من ذلك اليوم رن جرس الباب شرطيان يرتديان بذلتين وواحد يرتدي ملابس مدنية.

قال أحد رجال الشرطة:

- معنا مذكرة تفتيش.

في البداية فتشوا غرفة الفتاتين حيث فتح الرجلان ذوا البذلتين الخزانات والدروج في حين دوّن الشرطي بملابس مدنية ملاحظات، وجمعوا الأوراق والدفاتر وكل ما يتعلق بالحاسب ثم انتقلوا إلى الغرف الأخرى ليفتشوا الخزانات والرفوف والصناديق.

تشبث إسحاق بصديق مجدداً وتوسل إلى أبيه وهو ينظر إلى الرجال:

- أعطني يدك يا بابا.

تم الطلب من العائلة أن يبقوا في غرفة الجلوس، وحين نهض صديق ليرى ما يفعله رجال الشرطة أمروه بفظاظة أن يبقى بعيداً.

تساءلت سارة بالصومالية وهي تذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً:

- هل نحن إرهابيون؟! هل سترهبوننا بدلاً من أن تساعدونا؟

- اجلسي واهدئي... هذا عملهم.

- عونك يا الله!

وبسبب انزعاجها من التحقيقات في المركز ومن تفتيش منزلها اتصلت بصديقة لكنها لم تجد مواساة كافية.

- ماذا! اتصلتم بالشرطة؟ هذا خطأ فادح! لن يفعلوا شيئاً للصوماليين! اعثروا على الفتاتين بأنفسكم ولا تتوقعوا مساعدة من الشرطة النروجية.

لم يعد إسماعيل يحتمل بكاء أمه واهتياج أبيه، فتوجه إلى غرفته وأغلق الباب. لم يكن قد تلقى أي رد على الرسالة التي أرسلها في الصباح.

وفي السابعة مساءً أرسل رسالة أخرى:

- مرحباً... أرجوكما أجيبا.

وفي الثامنة:

- مرحباً.

وفي التاسعة:

- أيان؟

في نفس ذلك الصباح خرجت الفتاتان من الفندق الكبير في أضنة واستلمتا جوازي السفر اللذين سلماهما لمكتب الاستقبال ثم توجهتا جنوباً باتجاه الحدود السورية، وبعد الظهيرة لم تعودا تظهران على شبكة الاتصالات التركية.

كان صديق مهتاجاً خشية أن يحصل لهما مكروه كما أن الفتاتين قد أهانتاه وداستا عليه... لقد فقد ماء وجهه ولم يعد يسيطر على الوضع.

الآن أظهر يا صديق من أنت... أنا صديق الرجل المسؤول عن عائلتي.

وفقاً لرسالة الفايبر عن «آخر وجبة في أوربا» كان آخر موقف للفتاتين في أضنة... لا يستطيع البقاء وانتظارهما حتى تظهرا وتغيرا رأيهما أو حتى تتعقبهما الشرطة... عليه أن يوقفهما قبل فوات الأوان.

واتخذت سارة القرار عنه حيث أمرته وهي على الأريكة:

- اذهب وابحث عنهما!

وفجأة وجد نفسه مستعجلاً بعد أن وجد وجهته.. كل ما عليه فعله هو الانطلاق.

لدى الخطوط الجوية التركية رحلات يومية من أوسلو إلى إسطنبول... قام بحجز تذكرة لليوم التالي ورمى بعض الملابس في حقيبة واقترض المال من أحد أصدقائه، وفي المطار صرف جميع نقوده إلى الدولار وأخذ معه بضعة آلاف، وغادرت طائرته بعد الظهر.

بعد ثلاثة أيام من سفر ابنتيه سافر هو من الطريق نفسه.

- الرجاء إطفاء جميع الأجهزة الإلكترونية.

لن يتمكن من التحقق من هاتفه كل دقيقة لمدة ثلاث ساعات، وهكذا وجد نفسه وحيداً مع أفكاره.

بعد إجازة الصيف لاحظ أن أيان تتغير وتصبح أكثر هدوءاً وتحفظاً لكن ذلك حصل تدريجياً، وقد كان يفسر سلوكها بسبب علاقة مع فتى.

وقد تجاهلت سارة الأمر قائلة:

- إنها في فترة المراهقة... سيمر الموضوع... دعها وشأنها.

في العادة سارة هي الصارمة، وفي إحدى المرات حدث إعجاب بين أيان وفتى التقت به في شبكة الإسلام قبل بضع سنوات... كان الفتى صومالياً

مثلها، وفي أحد الأيام أعلنت أيان أنها تريد أن تُخطب فوافقت سارة على أن يلتقيا لكنها أكدت على أنهما ما يزالان صغيرين على الزواج.

فردت أيان:

- لا يهم... سأفعل ما أريد.

وقد أثار ذلك إعجاب إسماعيل إذ ما كان ليجرؤ على الحديث بهذه النبرة مع أمه، وما إن حصلت أيان على الإذن بإمضاء الوقت مع الفتى حتى فقدت رغبتها وتبخرت أحلامها.

أيمكن أن يكون شاباً جديداً من جذب ابنته إلى هذا؟

أول مرة رأى فيها ابنتيه متورطتين بالأصولية قبل عامين حين كانت ليلى في الرابعة عشرة وأيان في السابعة عشرة.

قالت أيان:

- سنذهب إلى أوسلو مع بعض الأصدقاء لكننا مفلستان.

عادة يعطيهما صديق بعض المال لشراء الكباب أو المثلجات أو بعض الأغراض البسيطة لكن في ذلك اليوم لم يكن معه مال ولهذا فقد ناولهما بطاقة الائتمان والرقم السري.

- مسموح لكما باستخدام خمسمائة كرونر كحد أقصى.

- وإن لم يكن ذلك كافياً.

- إنه كافٍ.

عانقته أيان وكذلك ليلى لتعودا في المساء حاملتين عدة أكياس تسوق.

قالت أيان معتذرة:

- أنفقنا ستمائة.

فحاول التجهم:

- لا تفعلا ذلك مجدداً... اتفقنا على مبلغ... الاتفاق اتفاق.

فذهبتا إلى غرفتهما وبعد برهة عادتا أو بالأحرى ظهر شخصان يرتديان

خيمتين سوداوين في غرفة الجلوس.

كانت ردة فعل سارة المباشرة:

- اخلعا هذا!

فضحكت الفتاتان لتهتز ثنيات ملابسهما بينما أمرهما والدهما:

- افعلا كما قالت أمكما... تبدوان كالشياطين.

لم يكن ظاهراً سوى عينيهما حيث حدقتا بتحد وقد برز أنفاهما كمنقارين أسودين تحت القماش.

سألهما صديق:

- مَن وضع هذه الفكرة في رأسيكما؟

- نحن.

لكنهما عادتا بطاعة إلى غرفتهما وخلعتا النقابين ثم وضعتاهما في الخزانة، وحين عادتا بدتا متجهمتي الوجه إذ إن الإسلام يتطلب من المرأة أن تغطي نفسها، فقال صديق:

- ليس للنقاب علاقة بالإسلام... إنها ثقافة لا دين... وهي ثقافة عربية لا صومالية.

ردت الفتاتان:

- ارتدت النساء النقاب في زمن النبي حيث أمر الله النبي أن يخبر زوجاته وبناته أن يغطين أنفسهن ليحمين أنفسهن من نظرات الغرباء.

- لا تحاضرا بي عن محمد... أعرف القرآن أكثر منكما... لقد حفظت فاتحة القرآن عن ظهر قلب حين بلغت الثامنة من عمري. لم يطلب النبي من زوجاته أو بناته أن يغطين وجوههن.

لكن المراهقتين أصرتا أن زوجة النبي المفضلة عائشة الصغيرة قد ارتدت النقاب أمام الغرباء.

- لكن هذا لا يعني أن عليكما فعل ذلك!

- لقد رأينا الكثير من النساء في الصومال في الصيف يرتدين النقاب.

- حسناً... ليس لذلك علاقة بنا... نحن لسنا كذلك... بالمناسبة من أين اشتريتماهما.
- من منزل الحجاب جانب مسجد الرابطة... لديهم ملابس للنساء المسلمات والكثير من الأشياء الجميلة.

كانتا تظنان أنهما اشترتا الكثير من الأغراض بثمن بخس حيث اشترتا النقابين وجلبابين والعديد من الحجابات الجديدة.

مر بعض الوقت قبل أن يرى صديق النقابين مجدداً حيث كانت سارة تجدهما في أماكن مختلفة على رفوف الخزانات وهي تضع الغسيل.

وبعد فترة قصيرة طرحت الفتاتان الموضوع مجدداً إذ انزعجت أيان من نظرات الرجال إليها ووافقتها ليلى.

- إنهم يحدقون إلينا... هذا حرام... نريد أن نغطي أنفسنا.

فاستهزأ صديق:

- بالطبع سينظر الفتيان في المدرسة إليكما لأنهم معجبون بمدى جمالكما.
- لا... ليسوا هم... إنهم الرجال الصوماليون في أوسلو... رجال بالغون في غرونلاند... يحدقون إلينا ونحن في طريقنا إلى المسجد... إنهم يحاولون مغازلتنا.
- إذن اطلبا منهم أن يهتموا بشؤونهم... دعوهم يعرفوا أنكما ابنتا صديق الشاعر فهذا سيخرسهم على الفور.

كان صديق في الصومال عضواً في دائرة شعراء يلتقون في المقاهي في هارغيسا وألقوا الشعر وشاركوا في نقاشات حتى اندلعت الحرب وتشتتوا في أصقاع البلاد. وبعد سنوات من النزاع تواصلوا مع بعضهم عبر الإنترنت ليتبادلوا الشعر والأفكار بين هارغيسا ونابولي وغوتينبرغ وبيرم، وغالباً ما يشارك صديق في المناسبات الثقافية الصومالية في أوسلو ويلقي قصائده الشعرية أو يدق على الطبل مما منحه مكانة بين الليبراليين ضمن المجموعة.

أما الأشخاص الأكثر تديناً فكانوا ينظرون بازدراء إلى قارعي الطبول إذ كانوا يعتبرون ذلك أمراً خاطئاً.

كان الصوماليون في أوسلو يحرصون على الشرف ويبقون أعينهم على بعضهم وخاصة في حي غرونلاند في مركز مدينة أوسلو الذي يدعى «الصومال الصغرى» حيث يعيش معظم الستة وثلاثين ألف صومالي في النروج إذ تجاوز المجتمع الصومالي الباكستانيين ليصبحوا أكبر أقلية غير غربية في البلاد.

وعلى الرغم من أن صديق قد درس في المملكة العربية السعودية وكان طليقاً باللغة العربية الفصحى مما جعله أعلى تعليماً من معظم رفاقه لكن الكثيرين انتقدوه لعدم التزامه بالإسلام والتقاليد الإسلامية بالدرجة الكافية، وقد كانوا يقولون من وراء ظهره:

- إنه يظن نفسه نروجياً.

الكثير من الشباب أكثر التزاماً وجدية في تفسير القرآن من الجيل السابق.

كانت الفتاتان عنيدتين كما أنهما بارعتان في الجدال مما يجعل صديق يستسلم:

- حسناً... حين تكونان في غرونلاند ارتديا النقاب إن أردتما لكن لا ترتدياه هنا في بيرم أو في المدرسة.

كان يعرف أن المجتمع النروجي يعتبر النساء المنقبات مضطهدات، وهو أمر ينبغي أن لا يقترن بشاعر أو موسيقي.

وبعد وقت قصير تم استدعاؤه هو وسارة إلى اجتماع في مدرسة ليلى فذهب صديق وقد كانت ليلى حاضرة. قال الأستاذ:

- لدينا مشكلة في التعرف إليها... نحن بحاجة إلى التواصل البصري وإلى رؤية تعابير الوجه... هذا ليس بالأمر السهل حين يرتدي المرء النقاب.

نظر صديق إلى ابنته:

- ألم نتفق على أن لا ترتدي النقاب في المدرسة؟

لم ترد ليلى.

- عليك الالتزام بقوانين المدرسة... إن كانت المدرسة لا تسمح لك بتغطية وجهك فهذا ما سيحصل.
- حسناً يا بابا.

- دجاج أم لحم؟

نظر صديق إلى مضيفة الطيران التركية ثم إلى الصينية. شعر باضطراب في معدته وهو يمضغ أول لقمة من الدجاج فوضع الشوكة البلاستيكية. في الخارج كانت السماء زرقاء وتسبح فيها بعض الغيوم كما تجول الأفكار في رأسه... هل كان ذلك خطأه؟ ألم يكن صارماً بما يكفي؟ هل كان منشغلاً بأموره الخاصة؟ بقرع الطبول؟ بالشعر؟

تناول كوباً من الشاي مع السكر فوجد فيه طعم صدأ.

كيف لم يتوقع حصول هذا؟

لكن من كان ليتخيل أن ابنتيه الصغيرتين تريدان الجهاد؟

لقد أعمتانا بالعناق.

ابنتاه الوحيدتان الصغيرتان.

ودخلت الطائرة المجال الجوي التركي.

في المنزل كانت سارة أيضاً تائهة في أفكارها وهي تحاول تجميع القطع في ذاكرتها.

لقد بدأت الفتاتان بالعيش وفقاً لقواعد صارمة... الصلاة... اللباس... الطعام... السلوك... كل شيء ينبغي أن يكون نقياً وسليماً... توقفتا عن ارتداء المجوهرات ووضع مساحيق التجميل كما تم التخلص من العطر الذي يحوي كحولاً ومن ثم تم التخلص من جميع العطور... هذا حرام قد يجذب الرجال.

وقامت الفتاتان بتحميل قوائم من أرقام إي ورموز المنكهات الغذائية التي تظهر على علب الطعام في أوربا وتفحصتا العلب للتحقق من المكونات مقابل القوائم لمعرفة إن كانت المنتجات مناسبة ليستهلكها المسلمون، وبالتالي تم اعتبار العديد من الأشياء غير مقبولة مما أزعج صديق:

- هل هناك في القرآن ما يذكر أرقام إي؟

وفي أحد الأيام فتحت سارة ألبوم صور العائلة ووجدت أن العديد من الصور ممزقة وبعضها مفقودة وبعضها مقصوص فيها الرأس عن الجسد وهو ما أغضب سارة.

- لكننا لسنا محجبتين يا ماما! تخيلي لو أن أحداً من خارج العائلة رآنا... هذا حرام!

لقد اختفت الذكريات... شعرت بالأسى لفقدانها تلك الصور.

توجهت إلى غرفة الفتيات ووقفت تنظر حولها... لا... هذا مؤلم للغاية... خرجت مجدداً... لقد غادرتا... دون أن تودعاها.

- نحبكما كثيراً وسنفعل أي شيء لأجلكما ولن نفعل شيئاً لنؤذيكما عن قصد.

إذن عودا إلى المنزل!

قبل سنوات كانت توبخ أيان لأنها تصبح نروجية زيادة عن اللزوم حيث بدأت ابنتها الكبرى بارتياد الحفلات وفي إحدى الليالي رأى صديق علبة مسحوق تبغ تسقط من جيبها.

وبدأت أيان ترتدي كصديقاتها سراويل ضيقة من الجينز وكنزات ضيقة، وفي إحدى أمسيات الصيف الحارة دعت أيان بعض زميلاتها في الصف لتناول السنبوسة فدخلن المطبخ يرتدين كنزات بقبات مفتوحة وبطون عارية وأفخاذ بيضاء لتقول سارة بالصومالية:

- يا إلهي! إنهن عاريات!

فردت ابنتها المراهقة:

- كفاك يا أمي... دعي الناس يفعلون كما يريدون.
- عديني أنك لن ترتدي مثل هذه الملابس.

فحدقت أيان بها ثم التفتت إلى صديقاتها وضحكت.

حاولت سارة أن تتذكر آخر مرة زارتها الفتيات من المدرسة لكنها لم تتذكر... هي نفسها لم يكن لديها صديقات سوى صوماليات ولم تعتبر أن من غير الطبيعي بالنسبة لأيان أن تقطع تواصلها مع زميلاتها في الصف.

حين جاءت هي والأطفال إلى النروج كانت أيان في السادسة من عمرها وإسماعيل في الخامسة وليلى في الثالثة... ما كان ينبغي بهم المجيء! ما كان ينبغي بهم ترك بلادهم! لو لم يأتوا ما كان هذا ليحصل ولبقيت ابنتاها معها... لم تكن ترغب بمغادرة الصومال لكن صديق كان مقتنعاً أنهم سينعمون بحياة أفضل في الغرب.

حين كانت حاملاً بليلى اشترى صديق جواز سفر وحصل على فيزا سياحية إلى الدنمارك ليركب الطائرة من أديس أبابا إلى كوبنهاغن لكن صديقاً هناك نصحه بالذهاب إلى النروج لأنها أفضل مكان للصوماليين، فسافر صديق إلى أوسلو حيث توجه إلى الشرطة وأخبرهم أنه في حال عاد إلى وطنه فسيتم قتله كما حصل لأبيه وأخيه وروى لهم أنه حين كان في الرابعة عشرة من عمره تم جمع جميع الرجال في حيه فأما أولئك الذين يؤيدون الثورة على الدكتاتور سياد بري تم إعدامهم على الفور، وقد تم أخذه مع الرجال لكنه أمه ركضت تصرخ:

- إنه مجرد طفل! إنه مجرد طفل!

وأخبر سلطات اللجوء أن هذا ما أنقذه في حين أن الآخرين بمن فيهم أبوه تم قتلهم أمام عينيه.

وفيما بعد طلبت منه أمه أن ينتقم لأبيه، فأخذ سلاحاً من جثة مرمية في الشارع وانضم إلى الثوار.

وقد نجحت الثورة لكن السلام لم يعم سوى لفترة قصيرة حيث بدأ

المنتصرون يتقاتلون فيما بينهم حيث أرادت عشيرتان كانتا فيما مضى جزءاً من جيش المعارضة أن تحكما وحملوا السلاح من جديد... لكنه غادر لأن هذه الحرب لا تستحق أن يموت من أجلها.

وقد تم إرسال صديق إلى مركز تانوم لاستقبال طالبي اللجوء في بيرم ثم انتقل 350 ميلاً شمالاً إلى ليفانجير ليمضي ستة أشهر هناك قبل أن يتجه جنوباً إلى مركز كليميتسرود للاستقبال في أوسلو، فأخبرهم أنه تم اعتقاله وسجنه على متن قارب حمولة صغير للعائلة مع أخيه وباقي الطاقم بينما تم استخدامه لنقل السلاح، وفي النهاية قتلوا أخاه لكن صديق أطلقوا سرحه.

وقد رتب له مركز الاستقبال ليراجع طبيباً نفسياً ليعالجه من صدمة الحرب، ومع مرور الوقت هدأ غضبه وحان الوقت ليحضر عائلته لكنه يحتاج أولاً للحصول على اللجوء. مر الوقت وفي مايو 1998 أي بعد قضاء سنتين في النروج تلقى رداً.

مديرية الهجرة النروجية لا ترى أن تصريحاته تبرر اعتقاده بأنه سيكون ملاحقاً عند عودته إلى وطنه، فالحرب المدنية وصعوبات الوضع في الصومال لا تشكلان أساساً للجوء السياسي.

وقد كان رأي مديرية الهجرة النروجية أن الاستيلاء على قارب عائلة ينطوي على تصرف إجرامي عشوائي كما أن الحادثة حصلت قبل وقت طويل، وقد بقي المتقدم بطلب اللجوء في وطنه دون أية مشاكل منذ ذلك الحين. ولم تول السلطات أي أهمية لادعاءاته حول كونه من عشيرة صغيرة ليس لها أي نفوذ.

لكنهم منحوه الإذن بالعمل والتوظيف مما سيسمح له بالعمل في كافة أنحاء البلاد لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، والأهم من ذلك أن هذا الإذن يمكن أن يشكل أساساً لإقامة دائمة.

وعلى الفور تقدم صديق بطلب لم شمل وملأ الاستمارات وكتب الرسائل وانتظر الردود ليستغرق ذلك سنتين بعد حصوله على الإقامة، ثم أرسل عبر

الفاكس رسالة مكتوبة بخط اليد للسفارة النروجية في إثيوبيا حيث كانت سارة والأطفال ينتظرون الهجرة.

- ليس لعائلتي أقارب في أديس أبابا ولا طرق لإعالة أنفسهم مما يجعل الوضع كالجحيم، وبالتالي فإنني أطلب منكم أن تمنحوا عائلتي الأولوية قبل أن تبدأ العطلة.

في نفس الخريف سافرت سارة والأطفال بالطائرة إلى النروج كجزء من برنامج تابع للأمم المتحدة للم شمل العائلات واستقروا في المقاطعة النروجية التي تحوي أعلى نسبة من الأثرياء وأكبر فجوة بين الأغنياء والفقراء. انضم إسماعيل وليلى إلى الروضة في حين درست أيان سنة مخصصة لأطفال اللاجئين الواصلين حديثاً لتعلم النروجية قبل التحاقها بمدارس عادية. ومنذ أيامها الأولى في المدرسة وضعت أيان وشاحاً على رأسها عرف زملاؤها في الصف أنه يدعى حجاباً، وقد كان لديها حجابات مختلفة بعضها حريري وبعضها مطرز وبعضها ملون. أول مرة انخرطت فيها في قتال بسبب الحجاب كان بسبب طفل أشقر متنمر انتهى أمره وهو يبكي. ولو أن أحداً قال شيئاً لم تحبه كانت تهاجمه بجسدها أولاً وأحياناً بكلماتها، وما كان هناك من ينافسها في هجومها اللفظي إذ ما إن انكسر حاجز اللغة حتى بدأ المدرسون في مدرسة إيفجي الابتدائية يلاحظون مدى ذكائها إذ كانت تعرف عن أشياء لا يعرفها زملاؤها وتحب رواية القصص... التلميذة الوحيدة من إفريقيا في الصف مثيرة للإعجاب.

بعد عام من وصولهم إلى النروج حملت سارة وفي عام 2002 ولد جبريل، وبعد خمس سنوات جاء إسحاق. ومع تزايد عدد أفراد العائلة خصصت لهم سلطات بيرم شقة أكبر حيث كانوا يقطنون في هامانغسكوغسن وهي منطقة من الأبنية المرتفعة مع مساحات شاسعة بينها، وكانت المنطقة مكتظة بالأطفال حيث لعبت الفتاتان القفز على الحبل وركضتا في الباحة وذهبتا إلى الشاطئ وتعلمتا كيفية السباحة، وقد كانت رغبة ليلى الأساسية

أن تتبع أختها الكبيرة بغض النظر عما تفعل أو إلى أين تذهب.

أما إسماعيل فكان يلعب كرة القدم كلما سنحت له الفرصة إذ إن كرة القدم آخر شيء يفكر فيه قبل أن يخلد إلى النوم وأول ما يخطر بباله حين يصحو، وقد طلب من أبيه أن يقوم بتسجيله في النادي لأنه كان يحلم بلباس مكتوب على صدره نادي بيرم الرياضي ويحلم باللعب في المباريات والمشاركة في البطولات وإخبار الناس عن الأهداف التي سجلها، وقد حاول إقناع والده لكن بلا جدوى إذ كان الأب منشغلاً بحياته الخاصة ويقول له في كل مرة:

- السنة القادمة.

وهكذا استمر إسماعيل بلعب الكرة بين البيوت.

أما سارة فشعرت بالوحدة منذ وصولها وتاقت لعائلتها في هارغيسا حيث كانت تدفع عربة إسحاق الصغير وتتذمر أن الناس ينتقدونها مهما فعلت، وهي لا تعرف ما الخطأ الذي ترتكبه لأنها لا تفهم ما يقوله لها كبار السن في الحي... هل كانت تذهب إلى أماكن خطأ؟ هل هم لا يحبون لون بشرتها أو حجابها أو جسدها المغطى؟

وحتى بعد ثلاث عشرة سنة في النروج لا تزال روحها في الصومال.

لكنها الآن ممزقة.

دخلت سارة غرفة النوم واستلقت على سريرها غير المرتب ووضعت أمامها هاتفها المحمول تحسباً لأي اتصال.

كانت هناك بعض الخلافات بينها وبين الفتاتين لكنهما كانتا تتحاوران ودائماً تطلب الفتاتان إذناً... حتى إن كانتا تريدان النقر على باب الجيران.

تجول صديق في أرجاء مطار أتاتورك تائهاً وهو يحاول إيجاد طريق الخروج من بوابة المسافرين الدوليين، وحين وصل أخيراً إلى قسم ختم جوازات السفر تم منعه من الدخول لعدم حمله فيزا، فانضم إلى طابور جديد أمام نافذة محاسب

واشترى فيزا ثم عاد إلى طابور ختم جوازات السفر ليخرج أخيراً من البوابة الضخمة ويتجه إلى الردهة حيث يغادر مسافرو الرحلات المحلية.

اشترى تذكرة سفر إلى أضنة ليلحق بالفتاتين.

وبينما كان يحلق بالطائرة جنوباً تحركت أجهزة أكثر حيث تم إنشاء خط اتصال مباشر بين المسؤولين عن التحقيق ووزارة الخارجية النروجية وخدمة التحقيق الجنائي في الشرطة النروجية كريبوس التي كانت على تواصل مع الإنتربول. وقد اتصلت السفارة النروجية في أنقرة مع الشرطة المحلية والمراكز الحدودية جنوب تركيا للاستعلام عن الفتاتين وفي حال تم التعرف عليهما ليتم إبقاؤهما تحت الرقابة.

حين هبط صديق في أضنة ظهرت رسالة من الشرطة على هاتفه تبلغه أن الفتاتين في الغالب سافرتا إلى أنطاكية جنوباً، وهو مجرد افتراض بسبب عدم وجود أي نشاط على هاتفيهما المحمول خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية.

أنطاكية؟ أين هي؟

- يمكنك الذهاب إلى هناك بالحافلة.

هذا ما أخبروه به في مكتب الاستعلامات.

في ليلة السبت تلك بدأت الأقاويل تنتشر من ساندفيكا غرباً إلى غرونلاند وسط أوسلو عبر الوادي في الشرق وعلى طول الخليج وصولاً إلى بيرم... هل سمعتم؟ بالتأكيد لا؟ هل هذا صحيح؟

وصلت بعض الأخبار إلى المركز الصحفي في أكيرسغاتا، وبحلول صباح السبت أي نفس اليوم الذي غادر فيه صديق رن جرس الباب صحفيون من مجلة في جي وهي أكبر مجلة شائعات في البلاد، ففتح إسماعيل الباب وأكد لهم الخبر قائلاً نعم لقد أخبرتنا أختاي أنهما ذاهبتان إلى سوريا وهما لا تردان على اتصالاتنا لكن بابا ذهب وراءهما... نأمل أن لا تكونا قد عبرتا الحدود إلى سوريا... لا... عائلتنا ليست متدينة كثيراً لكن أختيّ أصبحتا أكثر

تطرفاً في الآونة الأخيرة حيث بدأتا ترتديان النقاب وقد عارضت أمي ذلك وتجادلتا بهذا الشأن.

أخبر إسماعيل الصحفيين بكل ذلك لكنه ناشدهم أن لا يذكروا أسماءهم أو مكان إقامتهم.

في تلك الليلة كانت صحيفة في جي أول من نشر القصة:

«فتاة في السادسة عشرة من عمرها تسافر مع أختها الكبرى لمساعدة المسلمين في سوريا».

وتحت العنوان بخط أصغر قليلاً:

«بحث دولي» و«خدمة الأمن ترفع حالة التأهب».

«العائلة التي تقطن في مقاطعة أكيرشوس تخشى أن الفتاتين المراهقتين في سن السادسة عشرة والتاسعة عشرة قد سافرتا إلى سوريا قبل عطلة نهاية الأسبوع لتؤديا دورهما في الحرب المندلعة في البلاد».

واستمرت القصة لتذكر أن الأخ مجهول الاسم هو مصدر معلوماتها الأساسي وأكملت أن مجموعة صغيرة من المحققين يعملون على مدار الساعة في محاولة لتحديد موقع الفتاتين بالضبط.

كما تم اقتباس قول لمارتين بيرنسين رئيس العلاقات الإعلامية في فرع الأمن:

- منذ الصيف الماضي ونحن نشهد تزايداً في عدد الأشخاص المسافرين إلى مناطق النزاع وخاصة سوريا والكثير منهم من الشباب. إننا نشتبه ونخشى أن يكون بعضهم ينوون القتال مع مجموعات شبيهة بالقاعدة في سوريا، وهذا يشكل مصدر قلق كما أنه أمر خطير... إننا نعرف العديد من الناس من النروج الذين فقدوا حياتهم كما أننا قلقون على مستقبل الناس ذوي الآراء المتطرفة من أن يشهدوا أهوال الحرب ثم يعودوا إلى النروج وهم يعانون من الصدمة والتوتر.

في غرفته في منزل في بيرم جلس صبي في السادسة عشرة من عمره يقرأ القصة عن «الأختين من منطقة ريفية صغيرة في مقاطعة أكيرشوس» وقام على الفور بنشر الرابط في مجموعة للنقاش يديرها زملاء ليلى في الصف وكتب جوكيم تحت الرابط:

– هذا مأساوي للغاية... الشائعات لم تكن كاذبة وإنما جنونية.

وجاءت التعليقات على الفور.

ألكسندر: ليلى...

صوفي: تباً! هذا سيئ!

إيميلي: هل هي ليلى حقاً؟

ألكسندر: هذا حقيقي.

جوكيم: هذا أسوأ من السيئ.

إيميلي: هل يقولون إنها هي؟

صوفي: بالطبع هي.

سيلجي: واو.

صوفي: إنها في السادسة عشرة من عمرها ولديها أخت أكبر في التاسعة عشرة من عمرها والفتاتان ترتديان الحجاب.

إيميلي: يا إلهي! يا للعائلة المسكينة!

هينريك: تباً... كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحصل... لقد كانت عضواً في منظمة في أوسلو... ربما هم من دفعوها إلى...

سين: تباً... هذا جنوني.

تيودور: لقد قالت إنها ستعود إلى الصومال حين تبلغ الثامنة عشرة من عمرها.

هينريك: هل الصومال في سوريا؟

إيميلي: لا تختلفوا، أرجوكم.

ألكسندر: ما الذي تحاول تحقيقه؟ كيف يمكن لفتاة في السادسة عشرة

من عمرها أن تساعد في حرب حقيقية؟

إيميلي: لا بد أنها ظنت أن من المريع أن ترى كل أولئك الناس يتم قتلهم وشعرت أن عليها فعل شيء أكثر من الاكتفاء بإرسال المال...

تدفقت التعليقات مع إشارات التعجب والأسئلة والإجابات التي تتدفق مع دخول المزيد من الناس.

ستورم: لم تكن ليلى سليمة عقلياً كما أن معتقداتها الدينية ليست صحيحة... كنا نرى ذلك ونحن في الصف.

سين: أظن أن كتابة مثل هذا الأمر يظهر قلة احترام... جميعنا نحب أشياء مختلفة في حياتنا! أظن أن ما فعلته تصرف شجاع لكن مخيف... تخيلوا لو أن مكروهاً حصل لليلى؟

ألكسندر: إنه خيارها... إنني أشعر بالأسف على العائلة لا عليها.

جوكيم: واثق من أن الأمر سينتهي نهاية وخيمة بالنسبة لليلى... علينا أن نستعد للأسوأ!

ألكسندر: هذا ما يبدو.

أولريك: لكنها متطرفة.

سين: شخص مفقود؟ وأنتم تتكلمون بالهراء عنها... عليكم أن تكونوا واقعيين.

ألكسندر: القول إنها متطرفة ليس هراء... مجرد كونها مفقودة لا يعني أن على الناس فجأة إظهار الكثير من الاحترام لها.

تيودور: لا بد أنها لم تفكر في الأمر... إنها حرب طاحنة... آمل أن لا ينتهي بها الأمر مصابة.

ومع اقتراب منتصف الليل تضاءلت التعليقات إذ إن هناك مدرسة يوم الإثنين بالنسبة للمراهقين في السادسة عشرة من عمرهم، ولا بد أن يستمر النقاش في باحة المدرسة في صباح اليوم التالي.

3

خدعة الرجل الأعمى

فاجأته رائحة نتنة ما إن نزل من الحافلة... كان الظلام مخيماً وهواء الليل رطباً مما جعله يشعر ببشرته دبقة. وما إن وقف على الأسفلت حتى هب دخان عادم السيارة في وجهه، فبحث في جيوبه ووجد سيجارة.

لقد استغرقت الرحلة نصف ليلة، وأخيراً مشى عبر ضواحٍ مظلمة حتى وصل إلى مركز المدينة حيث الأنوار مضاءة... شارعا بعد شارع... أماكن كثيرة للاختباء.

تنشق النيكوتين بينما مر به الناس مسرعين حاملين حقائب وأكياساً كبيرة بينما نادى سائقو الحافلات على وجهاتهم... كان المسافرون يمرون كالنمل وهم يجاهدون مع ما يحملونه ويعرفون تماماً إلى أين سيذهبون أما هو فليس لديه طريق محدد ليسلكه.

لم يكن يعرف أية كلمة تركية لكن بالتأكيد هناك على الحدود مع سوريا لا بد أن يكون هناك من يتكلم العربية... استجمع أفكاره ورمى السيجارة ونادى لسيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى الجزء العربي من البلدة، وقال:

- أريد فندقاً رخيصاً ونظيفاً.
- ماذا تعني برخيص؟ أرخص غرفة تكلف من عشرين ليرة وأكثر لكنها ليست نظيفة.

حاول صديق أن يحسبها بالدولار بقسمتها على ثلاثة ثم قال:

- اعثر لي على غرفة بأربعين.

كانت حقيبة الحاسب المحمول على حضنه أما الحقيبة الصغيرة ذات العجلات فعلى المقعد بجواره... قرّب الأمتعة منه.

توقفت سيارة الأجرة في ممر ضيق عند لافتة مكتوب عليها «قصر سكر»، فدفع صديق للسائق وصعد سلماً ليصل إلى نافذة محاسب خلفها رجل نائم. نقر صديق على الزجاج ففتح المزلاج.

غرفة... سرير... الآن... لم يتطلب ذلك قدرات لغوية لدى موظف الاستقبال الذي ناوله مفتاحاً.

إذن هنا ستبقى... هذا ما قاله لنفسه وهو يستلقي على السرير... في الخارج كانت الشمس تشرق لكن عليه أن ينام ولو لبرهة قصيرة.

استيقظ جفلاً ومبللاً بالعرق... إنه يوم الإثنين الحادية عشرة صباحاً... اتصل بسارة التي كاد صبرها أن ينفد:

- هل وجدتهما؟

قال مكتئباً:

- لا.

- كنت نائماً؟ أنت لست هنا للسياحة! اخرج وابحث عنهما!

في المنزل حاصرتهم وسائل الإعلام أو هذا ما بدا لهم على الأقل، ولم يعد بإمكان سارة وإسماعيل الخروج من الباب الأمامي، وبالتالي لم يذهب الأولاد إلى المدرسة.

كما كان الناس يتصلون بالهاتف ليوبخوا سارة ومن بينهم أناس بالكاد تعرفهم... يتصلون ليقولوا إن العائلة جلبت الخزي للصوماليين.

- ما كان ينبغي بكم الاتصال بالسلطات النروجية... نحن مسلمون ولن تحصلوا على أية مساعدة منهم.

- أنتم مجانين! تتعاونون مع وسائل الإعلام! مع الشرطة! ساذجون!

في منتديات النقاش الصومالية على الإنترنت وعلى وسائل التواصل الاجتماعي صدر الحكم قاسياً... لقد فقدت العائلة السيطرة على ابنتيها لأن

الأم لم تربهما كما ينبغي أما الأب فكان مهملاً.

وحاولت صديقات سارة مواساتها:

- ستعودان من تلقاء نفسيهما... سترين... كم تظنينهما ستحتملان البقاء في منطقة حرب؟

فكرت سارة... ليست بالمدة الطويلة.

على صديق إيقافهما قبل أن تبتعدا كثيراً.

استمع إلى زوجته لأنه كان بحاجة إلى سماع صوتها وينبغي أن يتساعدا في هذا الأمر.

وعدها:

- سأجدهما.

لا تضيع طريقك فهذا سيزيد الأمر سوءاً.

مشى صديق قدر ما تجرأ في الاتجاه المعاكس جيئة وذهاباً مبتعداً أكثر فأكثر وهو يدون ملاحظات عن الأماكن قبل أن ينعطف ثم مشى في طريق مختلف مستخدماً الفندق كنقطة بداية، وبهذه الطريقة البطيئة المتعبة زاد تدريجياً من معرفته بالمدينة.

ترددت أبيات شعر في رأسه:

هدفي خفي... هدفي مجهول

كان الجو حاراً... يحتاج إلى شرب شيء... اشترى بعض الماء... شعر بدوار في رأسه... تناول حساء العدس مع الخبز... شرب المزيد من الماء.

بدأ يقترب من المارة.

فتيات؟

هنا؟

هز الناس رؤوسهم بالنفي... فتيات صوماليات؟ منقبات؟ لا...

لم يجد في المنزل سوى صورة جواز سفرهما... كانت ليلى تنظر إلى

الكاميرا بحجاب وردي اللون أما أيان فترتدي حجاباً أسود.

لكن في الصورة كان كل شيء رمادياً.

ركّز على النساء المنقبات اللاتي مشى بعضهن وحيدات وبعضهن في مجموعات، وفي بداية المساء حينما انخفضت درجات الحرارة خرج المزيد منهن إلى الشوارع... هناك! هناك! هناك! لا بد أن ابنتيه في الجموع لكنه لم يجدهما... هل من الممكن أنه مر بهما دون أن ينتبه؟ لا... كان ليتعرف عليهما من طريقة مشيهما أو طولهما أو بنيتهما أو أسلوبهما في رفع رأسهما للأعلى بشموخ مثله... إنهما مختلفتان عن النساء هنا اللواتي يمررن به بعصبية أو يلهثن تحت طيات النقاب الأسود.

مشى نحو الجبل المرتفع المحيط بالمدينة شرقاً... العثور على فتاتين في المدينة أمر مستحيل... انعطف وقفل راجعاً إلى الفندق وجلس عند أقرب حانة كان اسمها «غلب» واحتسى القهوة التركية الثقيلة ذات الطعم الحاد ليتهاوى في سريره عند منتصف الليل... عليه تغيير استراتيجيته فالبحث عشوائياً مضيعة للوقت.

كان هناك العديد من سائقي سيارات الأجرة الذين يتجولون خارج الفندق، أعطاه أحدهم بطاقة عند وصوله:

- أنا محمد... إن احتجت سيارة اتصل بي.

بعد ليلة صعبة ومرهقة اتصل صديق بالرقم على البطاقة واتفقا على اللقاء.

سأله محمد:

- لِمَ أنت متوتر؟

نقل صديق ثقله من قدم إلى أخرى:

- دعنا نذهب ونجلس إلى طاولة في «غلب» لأخبرك بكل شيء.

كان سائق سيارة الأجرة يتمتع ببنية ملاكم فساعداه قويان وعنقه غليظة

أما أسنانه الأمامية فصناعية ولديه سن ذهبي... جلس صامتاً بينما روى صديق قصته، وحين سمع كل شيء قال:

- أنا هنا في خدمتك... أنت صديقي.

أحب صديق ما رآه في عينيه أما محمد فجال به في السيارة طوال النهار لكن على الرغم من أن ركوب السيارة أكثر فعالية من المشي لكنه بدا بلا فائدة.

اتصلت سارة عدة مرات.

- هل وجدتهما؟ هل اتصلتا؟

في الصباح التالي اقترح محمد أن يأخذه إلى الشرطة:

- لن تجدهما بطريقتك تلك.

وقاده محمد إلى مقر الشرطة في مبنى من الطوب الأحمر تتسلق على جدرانه الأزهار وردية اللون بينما يرفرف علم تركيا الأحمر مع النجمة والهلال الأبيض.

دخل الرجلان ليعيد صديق رواية قصته بينما قام محمد بالترجمة.

- لقد سافرت ابنتاي من النروج وهما تخططان لعبور الحدود إلى سوريا.. أيمكنكم مساعدتي؟

كانت الشرطة المحلية متعاونة لكنهم بحاجة إلى توكيل رسمي ولهذا فقد طلبوا إذناً من الشرطة النروجية لكن صديق قال:

- الفتاتان على قائمة الإنتربول للأشخاص المفقودين.

- لم ترتكبا أي جرم هنا ولهذا لا يمكننا فعل شيء... اطلب من الشرطة النروجية أن تتصل بنا وسنبقى حذرين.

لا أمل... لا أمل... لا أمل!

لقد تعاونت السلطات النروجية مع الشرطة في السفارات الإسكندنافية في أنقره لتعمل كوسيط بين الشرطة التركية والشرطة في النروج كما اتصلوا بصديق الذي لم يفهم ما قالوه لأن الشرطي يتكلم باللغة الدنماركية، وفي النهاية أغلق صديق الخط.

وبعد زيارة أخرى إلى غلب تهاوى على السرير مجدداً.

اتصلت سارة:

- إذن؟ إذن؟ إذن؟

فأجابها:

- لسوء الحظ... آسف.

في الصباح التالي وبعد كوب من الشاي الثقيل وإفطار من الفول والزيتون واللبن سأل موظف الاستقبال في الفندق:

- هل هناك تجمع للناس الذين يريدون الذهاب إلى سوريا؟

تفحصه موظف الاستقبال وأجاب بصوت هامس:

- هناك منتزه يلتقون فيه ويبرمون الصفقات... يمكنهم إيصالك.

كان صديق قد التقى بشابين صوماليين من غوتنبرغ في الفندق كانا قد عادا من سوريا، أحدهما جريح في ظهره ويريد العودة إلى وطنه السويد لتلقي العلاج... لقد كانت محافظة هاتاي محطة طريق للجهاديين الذين يأتون بالطائرات أو الحافلات ويبقون لبضعة أيام بانتظار تهريبهم إلى سوريا، وبعضهم يسافرون مباشرة من المطار إلى الحدود ويقطعونها خلال ساعات أو أنهم يعودون من منطقة الحرب إلى أنطاكية التي يسميها السوريون هاتاي على اسم المحافظة المحيطة لاستجماع قواهم وأخذ قسط من الراحة بعد كل الإثارة التي شهدوها ولقاء عائلاتهم والتزود بالمؤن.

أشار موظف الاستقبال:

- انعطف يساراً حين تخرج من الباب واتبع الزقاق حتى تصل إلى طريق رئيسي ثم انعطف يساراً وامش فوق الجسر ثم انعطف يساراً من جديد عند أول إشارة مرور فوق النهر وأكمل مسيرك حتى تصل إلى منتزه...

استطاع تمييز قمم الأشجار من بعيد... أشجار نخيل وصنوبر طويلة،

وحين اقترب رأى الطرق والممرات تتقاطع مع بعضها والمساحات الظليلة بين الأشجار وساحة اللعب وكشك يبيع المشروبات الغازية... لا شيء يحصل حتى يهبط الظلام حسبما قال موظف الاستقبال لصديق وهو يستعد للمغادرة... جلس وانتظر.

في ساحة اللعب جلست النساء تثرثرن بينما ملأت صرخات الأطفال الجو في حين استراح الرجال كبار السن في مقاعد منخفضة في الظل وهم يدخنون ويشاركون في أحاديث هادئة بينما يهبط المساء.

خرجت أم تجر عربة طفل من المنتزه ودخل رجلان شابان فوقف رجل عجوز يحمل عصا على قدميه ليجلس رجلان ملتحيان في مكانه واستمر الأمر على هذا المنول حتى غابت الشمس.

بدأت اللعبة... نقود... أوراق... هواتف... ورسائل... كانت الأحاديث تتم بأصوات هامسة مع معرفة مشتركة ومتبادلة بين التركية والعربية... كان معظم المهربين عرباً من أصول سورية.

تعكس محافظة هاتاي التميز العرقي في سوريا، فهنا يعيش العلويون والسنة والأكراد والشركس والأرمن والمسيحيون والكثير منهم لديهم أقارب في سوريا.

تحت الحكم العثماني كانت هاتاي المنطقة الخلفية لمدينة حلب التجارية لكن مع سقوط الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى تم اقتسام غنائم الحرب بين القوى الغربية التي رسمت حدوداً جديدة وأسمتها مناطق نفوذ في الشرق الأوسط بما يتوافق مع اتفاقية سايكس بيكو. وقد تم ضم هاتاي إلى الانتداب الفرنسي على سوريا، وفي عشرينات وثلاثينات القرن العشرين تجنبت المحافظة الحملة التي شنها كمال أتاتورك لفرض هوية قومية موحدة بما أنه لم يتم ضمها إلى تركيا حتى أواخر 1939، ومع أن سوريا اعترضت لكن بلا طائل إلا أن نظام الأسد ما يزال يضم هاتاي إلى سوريا على الخرائط الرسمية. وقد حاولت الدولتان إيجاد حل ودي وخططتا لإنشاء

سد صداقة على نهر العاصي الذي يشكل جزءاً من حدودهما المشتركة لكن ذلك كان قبل أن تغير الثورة في سوريا كل شيء.

خشيت السلطات التركية أن تقوم الحرب المدنية التي تسببت بانقسامات كبيرة بين المجموعات الدينية والعرقية في سوريا بالانتقال عبر الحدود، كما تجاهلوا تهريب الأسلحة وتدفق المقاتلين. وفي كل يوم يهبط الجهاديون من كافة أنحاء العالم في المطارات التركية ليتجهوا إلى سوريا.

لقد وجد صديق عالماً خفياً... مهربين يوصلون الناس إلى سوريا مقابل المال أو يخرجونهم من هناك... كان الناس يدخلون ويخرجون ليقاتلوا أو ليلقوا حتفهم.

كان المنتزه مجرد بوابة أما السوق السوداء الحقيقية فعلى أطراف البلدة حيث تملأ الجو راحة البنزين من براميل النفط المستخرجة من آبار الأسد... يمكن إحضار كل شيء إلى هنا... الأسلحة... ما نوعها؟ الذخيرة... ما الكمية؟ المخدرات... أي نوع؟ امرأة... لساعة أم ليلة أم قدر ما تشاء.

إلى من سيتم توجيه الأسلحة... لا أحد يكترث... ما اسم المرأة... لا أحد غيرها يعلم... لا أحد يسأل عن معتقداتك وشكوكك... هنا... الثمن هو كل شيء.

سألوه:

- هل تبحث عن ابن أم ابنة؟
- ابنتان.
- ألف دولار أولاً لتحصل على جواب، وإن كانتا على قيد الحياة فسيكلفك إخراجهما ثلاثة آلاف دولار أما إن أردتهما هما الاثنتان فسيكلفك ستة آلاف.

لم تكن هناك أي ضمانات فدفعه حدسه إلى القيام بالأمر بنفسه.

أخبر سارة أنه ما يزال هناك شبان يتم تخليصهم من الخطر، فقد تم إخراج شاب جريح دفعت له عائلته كما أن هناك أهالي من الكويت وقطر والمملكة

المتحدة أتوا واليأس في أعينهم وهم يفركون أيديهم.

حين يكون ابنك مفقوداً هذا يظهر جلياً.

وهناك أولئك الذين لا يستعيدون أبناءهم وإنما فقط يتلقون عبارة:

- إنه ميت... لقد مات هناك... ابنك... انس أمره... ابنتك... انس أمرها.

في أحد الأيام ذهب إلى مكان للتفاوض، وفي الطريق جلس في المقعد الخلفي على وشك أن يفقد وعيه ثم ترجل من السيارة وصعد سلماً ليجد نفسه في شقة.

- دعني أرى ابنتي وسأدفع لك ستة آلاف.
- لا... النقود أولاً.
- لدي عائلة كبيرة... لا يمكنني إهدار المال.
- إن لم تدفع لن تجد ابنتيك.

ثم قال الوسيط:

- حسناً... أعطنا ألفاً الآن ثم ألفاً فيما بعد.

وفي اليوم التالي تم إخباره:

- وصلت ابنتاك إلى هنا يوم الجمعة الماضي وبقيتا في شقة مع العديد من فتيات أخريات ولم تخرجا حتى سافرن جميعهن سوية.

بقيتا هنا أسبوعاً! في نفس الوقت الذي كان فيه هنا!

لقد قطعتا الحدود البارحة!

مكتبة
t.me/t_pdf

4

في الداخل

همس محمد:

- حظاً سعيداً...

استعد صديق واندفع نحو الأسلاك الشائكة التي تمزق الجلد واللحم بينما دارت أضواء البحث ببطء على الأراضي الخاوية تاركة خلفها مساحات مظلمة.

شق طريقه عبر الفتحة في السور... لا توقع بنفسك... لا تتعثر... لا تقع.

ركض.

خلف الحدود هناك ميلان من الأراضي غير المأهولة جزء منها محفور وكأنها خنادق دفاع، وعلى جانبي الخنادق امتدت الحقول والسهول.

سمع صوت طلقات رصاص فتوتر جسده ثم شعر بطعم الدم اللاذع في فمه... لا تسقط الآن... لا تسقط.

في بعض الأماكن كانت الأرض منبسطة وكأنك تركض على طريق مستقيم، وفي أماكن أخرى هناك حصى ورمل يجعلك تتعثر وقد تصطدم وتجد نفسك عالقاً بالأسلاك الشائكة.

لهث رجل بجواره ورجل آخر يستعيد قوته... لا تفقد السيطرة... لا تصاب بالهلع.

تأوه شخص في الظلام.

الله أكبر!

صوت طلقات رصاص جديدة... هل هو يركض في الاتجاه الصحيح؟ هل ركضت الفتيات من هنا أيضاً؟

حين سمع أن الفتاتين قطعتا الحدود إلى سوريا انهار.

جر نفسه عائداً إلى الفندق ومر بموظف الاستقبال خلف الزجاج وترنح وهو يصعد السلم إلى غرفته في الطابق الثالث ثم استلقى على السرير.

كان رأسه يدور وكل شيء يبدو ضبابياً، ثم هبط الظلام ثم أشرقت الشمس ثم هبط الظلام من جديد.

لم يتصل بسارة... ماذا سيقول لها؟

مكث في سريره ولم ينهض سوى ليشرب بعض الماء من الصنبور... إنه أب ورجل فاشل.

حين أشرقت الشمس مرة ثانية بدأ يستجمع قواه وتكلم مع نفسه بعادته القديمة.

- أنا لست أباً إن لم أستمر بالبحث... أنا لست صديق إن عدت إلى بيتي الآن.

ثم اتصل بسارة التي قالت:

- لا تذهب إلى هناك.. نعم اذهب إلى هناك... لا... عد إلى البيت... حسناً... اعثر عليهما.

ثم اتصل بمركز شرطة آسكر وبيرم الذين قالوا:

- ننصحك بشدة أن لا تذهب إلى هناك.

فاتصل صديق بمحمد وقال:

- أيمكنك إيصالي إلى الحدود؟

غادروا عند غروب الشمس في نهاية أكتوبر. كانت المحاصيل قد تم حصادها لتبدو الأرض رملية بينما أضاء الأفق بآخر شعاع وردي اللون قبل أن يتلاشى ويتحول إلى البني والرمادي ثم يهبط الظلام.

في البداية نصحه محمد أن يفكر ملياً.

- عليّ أن أعرف ماذا حصل لابنتي... عليّ ذلك.

- حسناً... سأساعدك... لديّ أصدقاء هناك.

واتصل بالهاتف وطلب من صديق أن يستعد بعد الظهيرة، وحين ركبا السيارة قال:

- لديّ صديق يدعى عثمان يمكنه مساعدتك... إنه حين يقطع على نفسه وعداً يمكنك الاعتماد عليه مهما كان الثمن... لا تثق بأي أحد آخر... تذكر هذا.

وقفا خارج قرية على الحدود وكان هناك أشخاص آخرون يتدفقون إلى المنطقة بالسيارات أو الدراجات النارية أو الحافلات... أشخاص ملتحون بلكنة خليجية... من إفريقيا الشمالية... بريطانيون... أتراك حليقو الرأس... وهو... النروجي... الصومالي.

مئات الناس يجتازون أراضي خاوية على نحو غير قانوني كل يوم... كان هناك سياج على الحدود لكن هناك الكثير من الفتحات والثقوب في السياج... لقد أوصل محمد العديد من الجهاديين إلى هذه المنطقة بمن فيهم ثلاثة نروجيين حسبما قاله لصديق حيث سافر اثنان منهما سوية أما الثالث فكان لوحده، وأحياناً يوصل أناساً من المطار إلى هنا مباشرة... غالباً ما تأتيه هذه المهمات عن طريق عثمان. ثم أكد من جديد:

- لا تثق بأحد غيره... لا هنا ولا هناك... عثمان ينتظرك على الجانب الآخر... سيكون هناك بانتظارك في حقل زيتون.

من الممكن أن تعبر مركز باب الهوى الحدودي لكن ذلك مكلف للغاية فالمهرب يريد مالاً كما عليك دفع أجرة السائق ورشوة حارس الحدود.

الخيار الآخر هو الركض.

هذا البديل يكلف 200 دولار تدفع نصفها على الطرف التركي وإن وصلت إلى سوريا تدفع الباقي.

سمع صوت خطوات... أحد ما يركض في الاتجاه المعاكس... نحوه... إلى الخارج... بعيداً عن الحرب.

وفجأة وجد نفسه محاطاً بأناس ومصابيح وظلال، فتوقف يلهث بينما تدفق العرق منه.

من خلال الضوء رأى شجرة... أغصان داكنة ومتشققة... أوراق شجر تلمع... كانت هناك مجموعة من الرجال أمامه... يمكنه سماعهم والشعور بقربهم... معهم بندقيات كلاشينكوف معلقة على أكتافهم ويرتدون ستراً واقية وأقنعة... استرق صديق النظر مرتبكاً، فتم توجيه ضوء مصباح إليه واقترب منه رجل ضخم.

تم سحب شيء على رأسه فرفع يديه ليقاوم وفقد نظاراته لكن أحداً أمسك به من عنقه.

- اهدأ... إنه مجرد لثام.

صرخ صديق:

- ابتعد عني!

- جميع القادمين الجدد عليهم وضع واحد... أنا عثمان.

فنظر صديق من خلال الثقب في قناعه ليرى رجلاً عريض المنكبين في الظلام.

ارتدى المقاتلون الأجانب أقنعة لئلا يتم التعرف إليهم... عادة ما يتم تهريبهم عبر الحدود في مجموعات تابعة لنفس الشبكة حتى إذا تمت رؤية أحدهم والتعرف إليه يتم العثور على البقية... سلك صديق نفس طريق الجهاديين لأن عليه الخضوع لنفس قواعدهم... تناول نظاراته ونظر من خلال ثقبي العين. كان الرجل الذي يتكلم في الثلاثينيات من عمره طويل ومكتنز وبشرته فاتحة ولحيته طويلة.

قال وهو يناول صديق بندقية وحزام ذخيرة:

- أنت واحد منا الآن... هناك ستة وعشرون طلقة في المخزن.

لم يحمل صديق أي سلاح منذ سنوات طويلة، فأمسك به وتلمسه بأصابعه.

- لا... إنه يحوي خمساً وعشرين.
- ست وعشرون.

أشار صديق بالمسدس إلى الجو وأطلق رصاصة فهمس عثمان:

- هل أنت مجنون؟
- عليّ أن أتحقق أنه يعمل، وقد كنت محقاً... هناك ست وعشرون رصاصة إحداها في حجرة الإطلاق.

طقطق الرصاص من بين الأشجار:

- اخرجوا من هنا... الآن!

فانحشروا في سيارة سكودا مكشوفة ذات لون فاتح.

سأل صديق:

- ماذا يحصل؟
- ليس لنا علاقة.

ليس لنا علاقة؟! من نحن؟

- من نحن؟
- نحن جبهة النصرة.

رجال القاعدة في سوريا!

انطلقت السيارة بسرعة كبيرة على الطريق ثم انعطفت وسارت في شوارع مظلمة... لا يزال من الممكن سماع أصوات رصاص حين توقفت السيارة... بدأ صديق يتقمص دور الجندي وهي هوية كان يظنها اختفت منذ زمن... لكن لا... دماغه تمت برمجته... كل ما يحتاجه هو التنشيط... لقد أعاده دوي الرصاص إلى الحرب التي شكلت شخصيته.

تذكر المراهق الذي انضم إلى الصراع ضد الديكتاتور واستجمع نفسه... جندي جيد بحاجة لأن يبقى هادئاً وسط كل الفوضى.

لقد انضم إلى الحركة الوطنية دون أن يحمل أي سلاح، وكصبي لم يكن

يعرف الخوف إطلاقاً. إن كان جنود الحكومة أمامه يركض نحوهم مباشرة، وبعد إصابته في قتال بالأسلحة النارية تم إرساله إلى المملكة العربية السعودية للعلاج. وهناك اكتشفوا مدى ضعف بصره وأعطوه نظارات مما أسعده لكنه عند عودته وجد أنه لم يعد شجاعاً كما من قبل لأنه يستطيع الرؤية الآن. ومن ناحية أخرى تحسن تصويبه ليتم وضعه مع مضي الوقت بين الرماة البارعين، وهناك تعلم كيف يسيطر على خوفه.

كان في منطقة الحرب... شعر أنه في وطنه... بين أصدقائه... وانتظر الأوامر.

قال عثمان وهو يشير إلى البندقية:

- لا... لا... ليس الآن... هناك مجموعتان تقتتلان كما أن هذه فقط لتدافع عن نفسك في حال حصل شيء... الحرب محيطة بنا... في كل مكان... طوال الوقت... من الممكن حصول أي شيء.

تضاءل حماسه... لا... لن يطلق النار.

لأن هذه ليست حربي.

لقد جئت إلى هنا لإنقاذ ابنتي... أنا مجرد أب.

- نحن على قيد الحياة يا إسماعيل... الحمد لله!

مر اثنا عشر يوماً منذ أن غادرتا.

- كل أمورنا على ما يرام.

هذا ما كتبته الأختان على ماسنجر واعتذرتا لعدم تواصلهما في وقت أبكر.

- عرفنا أنكم أبلغتم عن اختفائنا مما جعل من الصعب البقاء على تواصل معكم... لدينا الكثير من الأخبار لنتشاركها ونتمنى لو أن بإمكاننا الكلام أكثر لكن ذلك صعب... لا تقلقوا... نحن بخير، وأمان الحمد لله... لدينا الآن مكان لنقيم فيه والجميع يحرصون على الترحيب بنا... كل شيء هناك شبيه بالصومال... هههه... مراحيض معطلة... الكهرباء

والماء في أسوأ حالاتها... لكننا راضيتان والحمد لله. إن كنت يا بابا لا تزال في تركيا عد إلى المنزل... نحن بعيدتان كثيراً ومن غير المجدي أن تفترقوا عن بعضكم في هذا الوقت العصيب. أخبر ماما أننا آسفتان للغاية على الألم الذي تسببنا به لكن نرجوكم أن تبقوا أقوياء وتدعوا الله أن يكون كل شيء على ما يرام. أخبروا إسحاق وجبريل أننا نشتاق إليهما... بالمناسبة... يمكنهما أخذ الآي باد.

كانت الرسالة إعلانا للاستقلال والتبرئة.

- نحن ندرك أن الكثير من الناس يظنون ما فعلناه خطأ لكننا تكلمنا مع عالم هنا وقد أثنى على أفعالنا... لكي نخبركم المزيد ونبقى على تواصل عليكم إبقاء ذلك سراً... نحن لم نكن نريد أن يعرف أي أحد سوى عائلتنا أننا غادرنا ولهذا سامحونا واصبروا يا أحباءنا.

رد إسماعيل على الفور:

- أهلاً... يسعدني أنكم تتواصلون معنا.
- اطلب من بابا أن يعود إلى المنزل! المكان هنا غير آمن بالنسبة إليه!!
- بابا لا ينوي العودة... يقول إنه يفضل الموت هناك.
- نحن لسنا في مكان يمكنه الوصول إلينا فيه كما أن أحداً لا يعرف من نحن باستثناء الأشخاص الذين أخبرناهم. دفع المال لأشخاص يزعمون أن بإمكانهم مساعدته لن يجعله يعثر علينا.
- أتريدان الحديث مع ماما؟ إنها تظن أن ما فعلتماه خطأ وتريد من ليلى أن تعود إلى المنزل.
- لا يمكننا الحديث على الهاتف في الوقت الحالي.
- هل تخططان للعودة؟

ما من جواب.

- ماما تقول إنكما وعدتماها أن لا تتركاها!

خرجت الأختان من الماسنجر.

استلقى صديق نائماً في باحة عثمان.

في الليلة السابقة دخل من باب أزرق عبر باحة وغط في النوم على الفور في سرير ضيق.

عند بزوغ الفجر استيقظ على صوت أجش:

- أبو إسماعيل... أبو إسماعيل...

نظر حوله فوجد رجلاً عجوزاً ينظر إليه.

- هل تشرب الشاي معي؟

كان أبو إسماعيل الاسم الذي أعطاه محمد للمهربين... لكن الشيء الوحيد الذي أراده أبو إسماعيل في تلك اللحظة أن يكمل نومه لكنه لم يستطع الرفض ولهذا فقد نهض لاحتساء الشاي مع والد عثمان أبو عمر.

لف الرجل العجوز سيجارتين أعطى إحداهما لصديق وأشعلهما... تبغ مزروع في منزله.

- لدى عثمان معارف جيدون... يمكنه مساعدتك.

بدأ صديق يسعل ثم خفف من طعم التبغ اللاذع بالشاي الحلو الثقيل.

كلما انتهيا من سيجارتيهما يلف عمر سيجارتين ليكملا.

في النهاية سمع صوت باب يفتح وصوت ماء يتدفق... هناك حركة في المنزل... الآن يمكنهما الخروج والبحث عن ابنتيه. وفقاً للمهربين في هاتاي فعلى الغالب هما في نفس مكان وجود صديق... في أطمه.

انضم إليها عثمان حوالي الساعة العاشرة ليرى صديق أن لديه نمشا فاتحا ولحية بنية... شخص عادي من شمال سوريا.

أحضر إخوة عثمان الصغار أطباق البيض والزيتون والجبن والزيت والزعتر مع الخبز الساخن والمزيد من الشاي.

حان وقت التفاوض... على صديق أن يدفع للسيارة والرجال وأجرة الكلاشينكوف... لقد كان بحاجة إلى مرافقين أجرهما 10 دولارات في اليوم لكل واحد منهما كما سيستأجر الكلاشينكوف مقابل 20 دولاراً في اليوم.

ومن دون أشخاص يحرسونه لن يتمكن من الخروج لأنه يساوي سعراً وهناك عصابات من المجرمين بين صفوف المقاتلين يختطفون الأجانب ويسلمونهم للأسد أو للإسلاميين حسب قول عثمان، وإن كنت على قيد الحياة سيزجون بك في زنزانة ويطلبون 5000 دولار من عائلتك أو الحكومة مقابل إطلاق سراحك أما إن كنت ميتاً فلن يطلبوا سوى 2000 دولار، وفي تلك الحالة سيكدسونك مع جثث أخرى في ثلاجة حتى يقبضوا المبلغ المطلوب.

- لهذا أنت بحاجة للحراس كما أن عليك أن تبقى متيقظاً وتبقي عينيك مفتوحتين على كل شيء، فهذا الوقت عصيب. لكنك بأمان هناك في أطمه والجميع يعرفون أننا هنا.

نظر والده الضابط المتقاعد في سلاح الجو في نظام الأسد إلى ابنه في صمت ثم هز رأسه.

- لا أحد بأمان في سوريا.

هذا البلد يدعى بلد الخوف إذ أصبح الخوف جزءاً من حياة الكثير من السوريين لدرجة أنه من المستحيل الانفصال عنه أو التخلص منه... إنه حاضر مع كل نبضة قلب ومع كل نفس... يخيم في رؤوسهم وبطونهم... يتجذر في أرواحهم... وكلما كبرت ازداد خوفك.

الشباب هم من خرجوا إلى الشوارع للاحتجاج حين اندلعت الاحتجاجات ضد الدكتاتورية في العالم العربي أما كبار السن فكانت لديهم شكوكهم لأنهم يعرفون أنه سيكون هناك عقاب للتمرد كما في كل مرة إذ لم تكن لديهم جرأة الشباب لأنهم رأوا الكثير.

عاش السوريون تحت حكم عائلة الأسد لعدة عقود، فحين ولد حافظ عام 1930 كان أبوه يحمل لقب «الأسد» بسبب مقاومته للحكم الفرنسي وللسلطات السورية. وقد ترعرع حافظ في قرية فقيرة تقطنها الأقلية العلوية ليتركها في سن التاسعة ليكون أول فرد في عائلته يتلقى تعليماً يتجاوز المرحلة الابتدائية، وقد تطوع في الجيش وهناك أعرب عن كراهيته للإخوان المسلمين

المنحدرين من عائلات محافظة وثرية. وحين كان في السادسة عشرة من عمره انضم إلى حزب البعث الذي كان شعاره «وحدة حرية اشتراكية» وبدأ بإقامة شبكة من العلاقات حيث كوّن صداقات مع مسيحيين ومسلمين سنة فقراء توحدهم معارضتهم للبرجوازيين الذين يحكمون البلاد. كان الجيش والحزب مسلكين مهنيين جيدين للشاب الطموح ذي القدرات المتواضعة، وسرعان ما ترقى حافظ بين رتب الأكاديمية العسكرية في حمص التي قدمت له إقامة مجانية وراتباً وتدريباً على الطيران.

كان حافظ الأسد في منتصف الثلاثينات عام 1966 حين نفذ حزب البعث انقلاباً ناجحاً نتج عنه تعيينه وزيراً للدفاع، وبعد صراع شديد على السلطة بين الجناحين المدني والعسكري للحزب انتصر الجناح العسكري، وفي عام 1970 سيطر حافظ الأسد على جميع السلطات في انقلاب جديد، وحينها تعامل بوحشية كبيرة مع المعارضة الإسلامية حيث تم تعذيب الإسلاميين وقتلهم.

كانت هناك صراعات بين النظام والإسلاميين منذ بداية تسعينات القرن العشرين، وخلال سبعينات القرن تخلى الإخوان المسلمون عن المعارضة السلمية وتبنوا أساليب حرب العصابات حيث تم قتل ممثلين عن النظام في سلسلة من هجمات تفجير السيارات. وفي صباح أحد الأيام قام الضابط المناوب في الأكاديمية العسكرية في حلب باستدعاء جميع الطلاب العلويين إلى اجتماع حيث تم قتل جميع الشباب العزل على يد الضابط وبعض المتواطئين معه. وفي العام التالي 1980 نجا الأسد من قدر مشابه في هجوم بقنبلة يدوية حيث ضحى أحد حراسه الشخصيين بنفسه ليحميه فجاء انتقام الأسد وحشياً حيث قام بإعدام مئات الأفراد من الإخوان المسلمين ومنع المنظمة وعاقب المنتسبين إليها بالإعدام.

استمرت الهجمات على مؤسسي حزب البعث المحلي والجيش وفي بداية 1982 أعلن الإسلاميون مدينة حماه ذات الغالبية السنية مدينة محررة، فقرر النظام القضاء على المعارضة نهائياً، وخلال بضعة أسابيع سوى الجيش

المدينة بالأرض بقيادة شقيق حافظ رفعت حيث تم ذبح عشرين أو ربما ثلاثين ألفاً لكن ما من أرقام دقيقة ولا صور للقتل، ولم تتسرب أخبار ما حصل إلا بعد فترة.

حكم الأسد وطائفته لكن السنة والشيعة والمسيحيين والإسلاميين والأكراد والدروز شكلوا جهاز السلطة وتشاركوا الامتيازات والمسؤوليات، وقد كان من أهم الأمور بالنسبة له التقارب مع الطبقة الوسطى من السنة في دمشق وحلب، فالعلويون الذين بالكاد يشكلون 11 بالمائة من عدد السكان والذين يعتبرهم المسلمون السنة العقائديون كفاراً لم يمسكوا بزمام السلطة من قبل، وهكذا فقد تجنب الأسد محاباة أية مجموعة دينية لينشئ دولة علمانية نسبياً.

وانتهى المطاف بالإسلاميين في الزنزانات وأقبية التعذيب ليقلع المفكرون عن الكتابة وتختفي أصواتهم لأن الناس يريدون أن يعيشوا.

وبقيت آمالهم في أن يقوم خليفة الأسد بتخفيف قبضته.

كان من المفترض لابن الأسد الكبير باسل أن يتولى المنصب بعد وفاة والده لكن في صباح أحد أيام يناير عام 1994 اصطدمت سيارته الرياضية عند منعطف وهو في طريقه إلى مطار دمشق ولقي حتفه على الفور، وبالتالي تم استدعاء أخيه الأصغر بشار الذي يدرس طب العيون في لندن ليخضع لدروس مكثفة في التدريب العسكري والبنى السياسية، وقد كان لدى الكثيرين شكوك حول مدى قوته ليستمر بهذا النظام.

حين توفي حافظ في نوبة قلبية عام 2000 رأى المفكرون والإسلاميون بصيص أمل حيث فتح طبيب العيون الشاب الباب للحوار الذي لم يكن مقبولاً في زمن أبيه، وقد تمت تسمية هذه الفترة «ربيع دمشق». وفي غياب وسائل الإعلام الحرة تمت النقاشات في المنتديات لينتج عنها مطالب بالإصلاح. وقد تم وضع بيان 99 من قبل تسع وتسعين مفكراً سورياً يطالبون بالتنوع السياسي وبدولة تخضع لحكم القانون وتسمح بحرية التعبير وحق التنظيم.

وفي يناير 2001 ظهر بيان 1000 مطالباً بالديمقراطية وبنظام التعددية الحزبية.

ثم جاء شتاء دمشق حيث ظهرت ضغوط من الجيش والحراس القدامى في حزب البعث لقلب الموازين وتم الزج بقادة حركة الإصلاح في السجون.

كما تم منع جميع الأحزاب الأخرى وفرض إظهار الولاء للرئيس الجديد بالإضافة إلى تعليق صوره على الجدران وأعمدة المصابيح الكهربائية وفي الأسواق والمكاتب والمدارس والمستشفيات بحيث أنك حيثما التفت ستجد بشار الأسد ينظر إليك كما كان أبوه من قبل.

حين تولى بشار السلطة كان عثمان قد بلغ التاسعة عشرة للتو حيث ترك عثمان والديه في أطمه ليتدرب في حلب ككهربائي.

مرت سوريا بحالة ركود حيث أصبحت المناطق القاحلة في الشمال آسنة وتراجعت الصناعة ليعتمد الناس في معيشتهم على ما تقدمه الأرض كالفاصولياء والعدس والفول لكن الوضع بقي ثابتاً إذ يمكن للمرء معرفة كيف سيكون محصول الخريف وما سعر الأغنام وما الأخبار التي سيتم بثها على التلفاز. وقد وعد الرئيس الجديد بإصلاحات في خطة الخمس سنوات لكن فوائد النمو الاقتصادي تركزت في أيدي الأقلية أو في أيدي أولئك المسيطرين على بشار.

كان ربع الرجال السوريين عاطلين عن العمل، وقد اعتقد عثمان أنه سيجني المزيد من الأموال إن كان تاجراً أكثر من كهربائي، فالمنتجات السورية الرخيصة تساوي سعراً عالياً في تركيا كما يمكنك شراء البضائع التي يصعب العثور عليها في سوريا مقابل مبلغ منطقي في البلد المجاور. وهكذا تزوج عثمان وعاد للعيش مع والديه في أطمه حيث يملكون بستان زيتون بالقرب من الحدود التركية، وهذا القرب من الحدود خلق ظروف الربح... كسب دخله من التجارة القانونية ومن الصفقات المشبوهة ومن التهريب.

وقد كان حراس الحدود ينظرون في الاتجاه الآخر طالما أنهم يحصلون على حصتهم، وإلا كان على عثمان الاستفادة من آثار أقدام قطعان الرعي

وقطع الحدود مشياً على الأقدام، ومع ارتفاع معايير المعيشة في تركيا وتدنيها في سوريا تزايدت النقود التي يتم كسبها كل عام. كان سعر علبة السجائر أعلى بكثير في الجانب الآخر وهناك الكثير من المال الذي يمكن جنيه من تجارة البترول.

كانت هوية المهربين في أطمه سراً مفتوحاً إذ لا أحد يجني ثروة فهناك الكثيرون يعملون بالتهريب مع وجود فرد من كل عائلة على الأقل يعمل في هذا المجال في حين يكدح الآخرون في حقول الزيتون ويحرثون الأرض القاحلة أو يبقون بلا عمل.

بعد ذلك تغير كل شيء... سوريا التي يعرفها الناس ستختفي إلى الأبد.

في مساء أحد أيام فبراير 2011 وبعد انتهاء المدرسة التقت مجموعة من الفتيان في درعا – وهي مدينة في أقصى جنوب البلاد – للعب كرة القدم ثم جلسوا يتكلمون، وهنا خطرت ببال أحدهم فكرة... أن يكتب رسالة احتجاج على الرئيس على جدار المدرسة حيث كتب ابن الخمسة عشر عاماً «جاييك الدور يا دكتور» على الجدار قبل أن يهربوا جميعهم إلى منازلهم. وفي الصباح التالي قرأ المدير العبارة واتصل بالشرطة ليتم استدعاء الأطفال للتحقيق في مجموعات من عشرة، وبعد أن تم اتهام أحد الصبيان بالتواطؤ تم ضرب الصبي ابن الرابعة عشرة حتى سال منه الدم فاعترف بأسماء باقي المتورطين.

تم اعتقال الصبيان واختفوا، فتوجه ذووهم إلى الشرطة الذين لم يولوهم أي اهتمام، فبدأ الناس يجتمعون تدريجياً خارج مركز الشرطة للمطالبة بإطلاق سراح الصبية. وحين دخل الآباء في النهاية لرؤية الشرطة تم إخبارهم أن ينسوا أبناءهم وقال أحد ضباط المركز:

– أرسلوا نساءكم وسنجعلهن حبالى بأطفال لكم.

وهكذا تصاعدت المطالبة بالأطفال إلى احتجاجات ففتحت قوات الأمن النار ليسقط أول قتيلين في الثورة التي حصدت حياة مئات الآلاف.

بعد شهر في السجن تم إطلاق سراح الصبية وإعادة حقائبهم المدرسية وكتبهم المدرسية وتم إبلاغهم أن الرئيس الدكتور قد أصدر عفواً عنهم بمناسبة عيد الأم، فخرج الصبية وفي عيونهم نظرات فارغة... لقد تم إحراقهم وجرحهم وضربهم واقتلاع أظافرهم.

هكذا بدأت الثورة... بكلمات من طفل على جدار.

لم تنتشر الاحتجاجات كما حصل في تونس ومصر وليبيا حيث حصل اضطراب عام في المدن الرئيسية إذ كانت السيطرة محكمة على دمشق حيث انتشر المخبرون ورجال الشرطة بملابس مدنية في جميع الأرجاء ليتم الإبلاغ عن أي مظهر من مظاهر الاحتجاج خلال ثوانٍ معدودات وإيقافه خلال دقائق. كانت الحافلات التي تقل عناصر قوات الأمن تجول المدينة والرجال مستعدون للعمل في أية لحظة.

أما في المدن والضواحي حيث كان مستوى الاستعداد غير مرتفع لتلك الدرجة رفع الناس أصواتهم لكنهم لم يطالبوا بتنحي بشار لأن ذلك خطر للغاية وإنما طالبوا بالإصلاح والحرية والديمقراطية. وباستثناء صلوات الجمعة تم منع التجمع في مجموعات في سوريا، وبالتالي بدأت أول مظاهرة بعد صلاة الجماعة حيث مشى الرجال بصمت، ومع مرور الوقت بدأوا يرددون الهتافات.

ثم تحولت بعض المظاهرات إلى احتفالات حيث بدأ المغنون المحليون بإقامة عروض كما وقف الشعراء على سلالم بين الجموع ليلقوا أشعارهم بينما تمايلت الفتيات الصغيرات على أكتاف آبائهن ووقفت النساء على الشرفات يلوحن بأوشحتهن والحماس يملأ الجميع.

ظهر التطرف لاحقاً وظهرت الجهادية لاحقاً كما ظهرت الأسلحة لاحقاً أما في البداية فلم يكن هناك سوى الحلم بالحرية.

بدأت الحرب كما في العادة بمناوشات منفصلة حيث تم قتل شخص... حزنت عائلته... تم قتل شخصان... استمر الناس بالرقص... تم قتل ثلاثة...

لن يهزمونا... تم قتل أربعة... بقيت النساء في البيوت... تم قتل خمسة اختفى الأطفال من المظاهرات... تم قتل ستة... توقف الغناء... تم قتل سبعة... تحولت الجنائز إلى مسيرات احتجاج... تم قتل ثمانية... ينبغي الثأر للميت... تم قتل تسعة... حمل الشباب السلاح... تم قتل عشرة... تعلموا القتل.

ثم بدأت المذبحة.

تم قتل المتظاهرين خلال عام 2011 بوحشية أثارت لدى السوريين ذكريات مجزرة حماه قبل جيل لكن الفرق هو أنه يتم الآن تصويرها بالكاميرات حيث وثقها الناس بهواتفهم المحمولة ليتم تهريب التسجيلات للخارج ونشرها على الإنترنت. لم يعد نظام الأسد قادراً على القتل في الظلام... إلا أن المجتمع الدولي لم يحرك ساكناً على الرغم من أن قادة العالم أدانوا العنف لكنهم تركوا للسوريين مهمة مقاومته، وكرد على تعامل النظام مع المتظاهرين بالدبابات تم تشكيل الجيش السوري الحر.

في البداية كان جيش الثوار مؤلفا من الجنود والضباط وبعض الجنرالات الذين رفضوا إطلاق النار على شعبهم، فهؤلاء المنشقين أرادوا للربيع العربي أن يصل إلى سوريا لينهي نظام الأسد. ومع مقتل متظاهرين جدد انضم المزيد من المدنيين إلى المقاومة المسلحة، ولم يعد الشعراء يحثون الحشود وإنما تعلموا كيف يطلقون النار كما توقف الحلاقون عن الحلاقة حيث أطلقوا لحاهم وانشغلوا بتنظيف أسلحتهم بينما قام المهندسون بصناعة القنابل وطلاب الطب بتركيب المتفجرات... كان الجيش السوري الحر مفتوحاً للجميع... السنة والشيعة والعلويين والمسيحيين... لم يكن لديهم أي برنامج سوى دولة علمانية ديمقراطية حرة.

أما رد النظام فكان تحويل الصراع إلى المسار الطائفي لتعزيز الانقسام ضمن التحالف المتنوع... كانت استراتيجية بشار أن يحرض المتطرفين الذين ليس لديهم دعم كافٍ في سوريا على المعتدلين الذين يمثلون غالبية السكان إذ كان طبيب العيون يخشى الديمقراطية أكثر من الأسلمة.

ولطالما أشارت وسائل الإعلام الحكومية إلى الثوريين على أنهم إرهابيون، ومنذ بداية ربيع 2011 حين كانت الثورة في بدايتها أطلقت السلطات سراح مئات الإسلاميين المقاتلين من سجن صيدنايا خارج دمشق، وسرعان ما شكلوا ميليشيات وأظهروا امتنانهم للحكومة لأن السجناء نادراً ما يخرجون من هذا السجن على قيد الحياة، ولهذا فقد امتنعوا عن مهاجمة جنود النظام وإنما استخدموا أسلحتهم على المعارضة المدنية والمسلحة لتظهر جبهة جديدة ضد الجيش السوري الحر من الجهاديين الذين تمولهم ثروات البترول في الخليج.

وقد ناشدت القوى المقاتلة لأجل الديمقراطية الغرب ليمدها بالدعم والأسلحة لكن زعماء أوربا لم يتفقوا كما رفض أوباما، وهكذا تجاهلهم العالم.

استولى الجيش السوري الحر على بلدة أطمه الحدودية التي كان يقطنها عثمان مع والديه وزوجته وابنتيه عند اندلاع الحرب الأهلية في أكتوبر 2011، وبفضل موقعها على شريط من الأراضي السورية المتاخمة لتركيا فقد نجت البلدة من ضربات سلاح الجو لدى نظام الأسد لأن صواريخه بعيدة المدى لم تكن دقيقة والنظام السوري لا يرغب بالمخاطرة بضرب دولة عضو في حلف الناتو. وقد أصبحت البلدة باباً مفتوحاً للمقاتلين الأجانب حيث دخل أتراك يحملون السلاح في حين تم نقل البترول المستخرج من الحقول التي استولت عليها الميليشيات إلى الخارج.

حين وصل صديق في نهاية أكتوبر 2013 كانت أطمه منقسمة بين الجيش السوري الحر ومجموعة متنوعة من الإسلاميين أهمهم جبهة النصرة وأحرار الشام وصقور الشام. كانت خطوط الجبهة بين الميليشيات غير محددة مما تسبب بتبادل مستمر لإطلاق النار حيث ارتدى الشباب عصبات رأس مختلفة وهم يحملون الأسلحة ويحملقون ببعضهم في نزاعهم على الأراضي ليتزايد العداء، فإذا أطلق أحد الطرفين طلقة واحدة يرد الطرف الآخر... ها نحن ذا!

هذه لنا! ابتعد عن طريقنا!

لتتحول أطمه القرية الوديعة المحاطة ببساتين الزيتون إلى مكان محموم.

في غرفة جلوس عثمان اتفقوا على أجرة المشرفين والسلاح والعربة... نفس سيارة سكودا المفتوحة من الليلة الماضية.

- أنت ضيفي.

هذا ما قاله عثمان مبتسماً لأنه ما من أحد يقيم بالمجان... كانت أول جولة في العمل هي إحضار صديق وتعريفه على ما حوله إذ إن للحرب روتينها ولا يمكن للأجانب البقاء في سوريا دون الانتماء إلى مجموعة تحميه، وإن عملت لوحدك أو تأخرت في اختيار الجانب الذي تنتمي إليه سرعان ما سيتم الاشتباه بكونك جاسوساً.

في البداية توجهوا إلى جبهة النصرة وهي فرع القاعدة في سوريا التي تعتبر أقوى ميليشيا في المنطقة وتتلقى أوامرها من قادة المنظمة الإرهابية كما أن دخل أفرادها يأتي من تجارة البترول وفداء الرهائن والنهب والتهريب والتبرعات والضرائب وتوزيع الممتلكات، وفي مقرها الذي كان فيما مضى أحد المباني العمومية لنظام الأسد التقى عثمان وصديق بأبي إسلام الشاب الذي يضع نظارات سميكة ولديه جسد ممتلئ.

خلعا أحذيتهما في الخارج ومشيا حافيي القدمين في غرفة مفروشة بالسجاد يجلس فيها بعض القادة ويتناقشون وهم يحتسون الشاي.

روى صديق قصته لكن ولسوء الحظ لم يسمع أبو إسلام بأية فتيات صوماليات وأخبرهما أن الأجانب عادة يمرون من هذه المنطقة متجهين إلى عمق البلاد.

- إلى أين؟

رد:

- الدولة الإسلامية في العراق والشام... داعش... إنهم من يجندون النساء ولسنا نحن.

كان داعش الاسم الازدرائي للدولة الإسلامية في العراق والشام.

لقد نشأت داعش والنصرة من المصدر ذاته... القاعدة، وهما متشابهتان عقائدياً. حين بدأت الحرب في سوريا أرسلت الدولة الإسلامية في العراق مجموعة من عناصرها إلى سوريا لإنشاء فرع جبهة النصرة ثم دخلت الدولة الإسلامية سورية، وبعد إعلانها استقلالها انفصلت المجموعة من القاعدة تحت قيادة أبي بكر البغدادي وأسمت نفسها الدولة الإسلامية في العراق والشام، ثم قامت بتشكيل جبهة النصرة والآن تطالب المجموعة بالاندماج تحت جناحها لكن جبهة النصرة رفضت مفضلة البقاء مع القاعدة.

كان تجنيد النساء محل الخلاف إذ إن رجال القاعدة يرحبون بالنساء في سوريا لكن ليس الآن وإنما بعد أن تنتهي الحرب ويتم تأسيس خلافة حقيقية أما الدولة الإسلامية في العراق والشام فيريدونهن أن يأتين مباشرة.

ودع أبو إسلام الزائرين ووعدهم:

- سنبقي أعيننا مفتوحة.

كانت نقطة الاستعلام التالية عند أحرار الشام وهم ميليشيا إسلامية أكثر اعتدالاً من النصرة وليس لهم أية علاقة بالقاعدة، ومع أن أحرار الشام أرادوا أيضاً دولة إسلامية لكنهم رفضوا الجهاد العالمي والخلافة خارج الحدود السورية إذ إن هدفهم الوحيد هو تطبيق الشريعة في سوريا.

لقد أمضى زعماء المنظمة سنوات في سجن صيدنايا وتعرضوا لتعذيب وحشي، وحين فتح الأسد بوابات السجن شكل رفاق السجن ميليشيا وانفصلوا عن السلفيين المتشددين من خلال وعودهم بحماية الأقليات الدينية والتعامل مع القوى العلمانية.

سألهما القائد أبو عثمان العطار:

- ألديكم أية فكرة أين يمكن أن تكون الفتاتان؟

- فقط أنهما في سوريا لكن لا نعرف بالضبط... ربما يكون أحد ما اختطفهما.

- أب يأتي إلى منطقة حرب لاستعادة ابنتيه.. يا للاحترام!

ووعد القائد أن يبقي عينيه مفتوحتين.

أراه صديق النسخة المهترئة عن صور جواز سفرهما لكن الصور في الغالب لا أهمية لها لأن الفتاتين في الغالب ترتديان النقاب.

كان مقر الجيش السوري الحر على بعد بضع دقائق بالسيارة في مركز الشرطة المحلية إذ إن الجيش الحر الذي استولى على البلدة من نظام الأسد بدأ يخسر الأراضي... كان الجيش السوري الحر يتلقى الدعم من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية لكن نظام الأسد بمدفعيته الثقيلة وقواته الجوية والإسلاميين بأسلحتهم المتطورة والأعداد الكبيرة من المركبات كثفوا من هجماتهم على المجموعة. وقد اقتنع الكثير من المقاتلين الشباب بالحملة الإعلانية الشعواء أو شعروا بالإغواء بالموارد المتوفرة فتركوا الجانب العلماني وانضموا إلى صفوفهم. كما أن الخلافات والانقسامات الداخلية أضعفت الجيش السوري الحر حيث اخترقته عصابات نهبت باسمه مما تسبب بتراجع الدعم الشعبي بالمقارنة مع جبهة النصرة وأحرار الشام الذين كانوا يكسبون شعبية محلية والكثير من التبرعات.

صدمت رائحة السجائر صديق ما إن دخل المقر، وأخيراً يمكنه التدخين... وتناول عثمان سيجارة أيضاً... كان الجو عند الجيش السوري الحر كئيباً حيث تعرضوا لهجوم في الليلة الماضية مما اضطر صديق وعثمان انتظار القائد لينتهي من اجتماعه، وبعد أن انتظروا لوقت طويل وهم يدخنون السجائر اقترب منهما رجل نحيل في الستينات من عمره طويل الشاربين.

حين سمع أبو علوش قصة صديق قال:

- يا للأسف!

كان الكولونيل من أوائل من انشق عن جيش الأسد.

- هناك الكثير من الأمور السيئة التي تحصل وهي ليست في أيدينا لكنني سأخبركما إن سمعت بشيء.

- لا بد أنهما رهينتان... على الأغلب مع عصابة من المجرمين.

أومأ الكولونيل:

- نعم... نعم... ما من شك... لكن عليك المغادرة الآن.

بقيت مجموعة واحدة: الدولة الإسلامية في العراق والشام.

كان مقرهم في فيلا كان يملكها ضابط في جيش النظام تقع خلف جدران عالية وبوابة كبيرة ومحاطة بحديقة جافة لم تنجُ فيها سوى بضع أشجار لوز، وفي الداخل تفوح رائحة شهية حيث يقف بعض الصبيان الصغار يحضرون عشاء من حساء العدس والفاصولياء السوداء والخبز.

رحب بهما أمير طويل القامة يدعى أبو سعد التونسي حيث يشير لقبه إلى البلد الذي جاء منه. بذل صديق جهداً كبيراً في اختيار الكلمات المناسبة وهو يروي قصته ويركز على الأجزاء التي تركت انطباعاً لدى المستمعين السابقين ومتجاهلاً النقاط الأضعف كما ركز على اختطاف ابنتيه واحتجازهما بدون إرادتهما.

قدم لهما أبو سعد الطعام لكنه لم يقدم أي وعود كما سمع صديق صوت العديد من الأشخاص يتناولون الطعام في الغرفة المجاورة... صوت الرجال المرحين وقد وضعوا أسلحتهم أمامهم... وتذكر كيف كان في شبابه يحمل مسدسه كحبيبته ويتأكد من أنه محشو.

كان أبو إسلام الإسلامي البدين الذي التقيا به في قاعدة جبهة النصرة من رتب لهذا اللقاء مع داعش. دخل الغرفة وسلم عليهم بسرعة قبل أن يغادر الفيلات. على الرغم من أن الجيشين الجهاديين كانا قادرين على تشارك وجبة والدخول في تحالفات قبل أية معركة لكن علاقتهما ما تزال متوترة... كان الصراع على السلطة بين قادتهما مراً وقاسياً، فبدلاً من أن يوجها أسلحتهما في نفس الاتجاه ضد الجيش السوري كانت المجموعات الجهادية تتقاتل في ذلك الصيف للسيطرة على المناطق الشمالية في سوريا.

تم استبدال عصبات الرأس الخضراء بعصبات سوداء وغير الرجال ولاءهم لمن يتلقون منهم أموالاً أكثر، وبعد بضعة أشهر بدأت الدولة الإسلامية في العراق والشام بمهاجمة مضيفيها الذين قدموا لها كل شيء بما في ذلك بناتهم على أمل إنشاء تحالفات طويلة الأمد.

مرت الأيام... انتظر... ادفع... انتظر.

حتى فرغت محفظته ولم تعد لديه حماية.

قال عثمان:

- اذهب إلى هاتاي وأحضر المال.

في الحرب النقد هو الحاكم أما المال في البنوك فلا يساوي شيئاً... على صديق إعادة الكرة... ميلان خروجاً وميلان للعودة.

اتصل بمحمد فوعده سائق سيارة الأجرة أن ينتظره على الجانب الآخر.

كانت الشمس على وشك المغيب وهناك عدة أشخاص آخرين مستعدين لمحاولة العبور... حاول بعضهم لكنهم عادوا بسبب الدوريات الكثيرة، وفي النهاية اتصل به محمد من الجانب التركي قائلاً:

- لا تحاول العبور الليلة يا صديق... هناك الكثير من الحراس.

ثم جرب شخص مصري وتم القبض عليه وبعدها تكرر الأمر مع عدة أشخاص آخرين لينتظرهم السجن التركي، فعاد صديق إلى عثمان بخزي ليحصل على مبيت بالدين.

في الليلة التالية، انطلق حيث رتب محمد لأن يركب دراجة نارية في منتصف الطريق ليركب خلف شاب يقود بأسرع ما يمكنه على الصخور والحصى. كلفه الميل على ظهر الدراجة النارية عشرين ليرة تركية وقد كان يأمل أن تكون السلطات النروجية قد وضعت راتبه لشهر نوفمبر في حسابه المصرفي.

خرجت النقود من جهاز الصراف الآلي ليعود إلى الحدود ويدفع ثم يعود للمرة الثانية إلى منطقة الحرب.

في محافظة إدلب استمر عثمان في مساعدته في استفساراته من فرقة إلى فرقة وقرية تلو قرية حيث وصف صديق ابنتيه على أنهما طويلتان وفخورتان وربما ترتديان النقاب، وكان يروي قصته لكل من قد ينصت له ليصبح معروفاً بين أهالي أطمه حيث كانوا يقولون... ها هو الأب الذي يبحث عن ابنتيه.

وفي أحد الأيام قال له عثمان:

- علينا البحث خارج هذه المحافظة... لكن ذلك سيكلف الكثير.

وللمرة الثالثة على صديق الذهاب لإحضار المال، وفي اليوم التالي الذي كان عطلة رسمية للأتراك أخبره عثمان أن قطع الحدود لن يكون مشكلة وقد كان محقاً. ركض صديق ليستقبله محمد ثم أفرغ حسابه المصرفي باستخدام جهاز الصراف الآلي في هاتاي وتوجه ليأخذ أغراضه التي تركها في قصر سكر لكن فجأة ظهر عثمان في البلدة قائلاً إن لديه عملاً طارئاً ليقوم به.

- يمكنني ضمان أن تكون عودتك أكثر راحة مقابل بضعة دولارات.

وأخذتهما سيارة لتوصلهما إلى معبر باب الهوى الحدودي ليرتفع الحاجز لهما ليمرا من خلاله مباشرة دون أي تفتيش أو تحقق ليصلا إلى أطمه عند وقت العشاء.

لقد ضمن عثمان لنفسه المرور الآمن عبر الحدود حيث قام بتأجير جزء من بستان زيتون العائلة لمنظمة مساعدات أجنبية، وبالإضافة إلى المال مقابل الأرض ومقابل حرية العبور عبر الحدود ضمن أن يحصل أقاربه على وظائف في المخيم الذي زاد من عدد سكان أطمه لضعفين حيث أقام حوالي ثلاثين ألف شخص في بستان الزيتون وحوله... أولئك الذين لا يملكون المائة دولار المطلوبة لعبور الحدود.

وقد كسب الكهربائي من حلب من كل هذه المآسي حيث كان يحرص على أن تستمر عجلة الحرب بالدوران من خلال تهريب المزيد من الجهاديين إلى سوريا.

أخذ صديق جنوباً بينما كان اللاجئون يتحركون في الاتجاه المعاكس...

نساء ورجال وكبار في السن وأطفال... على الأقدام وفي عربات وفي سيارات... متجهين نحو المخيم في حقل الزيتون ونحو الحدود التركية وإلى أي مكان. بحلول خريف 2013 غادر مليونا شخص البلاد كما تم تهجير المزيد داخل البلاد ليلجؤوا إلى مناطق بعيدة عن الاقتتال.

كان النظام قد أطلق هجوماً جديداً محاولاً استعادة المناطق الاستراتيجية حول حلب في حين عانت قوات المعارضة من خسائر فادحة إذ لطالما كانت حلب أرض قتال لمئات من فرق الجهاديين والميليشيات العلمانية والجيوش السلفية لتتزايد الجهود للتوحد والتعبئة ضد النظام.

توقف الرجال عند كل مخيم ليسأل إن رأى أحد الفتاتين لكن أحداً لم يرهما... من سيبحث عن فتيات بينما تندلع الحرب حوله؟

وصل المقاتلون الأجانب من أوربا بالآلاف ذلك الخريف ليتضاعف عددهم ثلاث مرات منذ الصيف حيث جاء بعضهم ليقاتل ضد الأسد وآخرون جاؤوا لتحقيق نبوءة أن المعركة الأخيرة قبل يوم القيامة ستقع في بلدة دابق السورية.

استخدمت الدولة الإسلامية إساءات الأسد للأهالي المدنيين كأسلوب للتجنيد. حين اختنق ألف شخص بكل بساطة حتى الموت في هجوم بالسلاح الكيماوي للنظام ذلك الصيف قاموا باستغلال ذلك في حملتهم الإعلامية، وقد كانت الدولة الإسلامية أكثر المنفتحين لاستقبال الأجانب أما الميليشيات الأخرى فكانوا انتقائيين ويفضلون الجنود ذوي الخبرة.

وحين تكلم صديق مع الأهالي السوريين أخذ انطباعاً أنهم ضجروا من الجهاديين القادمين لشن حرب في بلادهم حيث جاؤوا بملابسهم وأساليبهم من المدن الأوربية أو الأراضي الخليجية ويتعاملون بغطرسة وجلافة وقسوة وهم يحاولون إقامة دولتهم... دولة إلهية على الأرض... على التراب السوري.

فكر صديق في طبيعة الحرب إذ كان الجميع يعتقدون أن لديهم الحق

بالأرض وينبغي على الآخرين المغادرة وأن الله في صفهم في حين أن الآخرين حزب الشيطان. جميعهم يظنون أنهم يملكون الحقيقة وبدوا متعطشين للدماء لتتردد الكلمات في رأسه... اقتل... انتقم.

وكما هو الحال مع المقاتلين اختبأ صديق وعثمان في مبانٍ مهجورة لينظروا إلى الثقوب في السقف والإسمنت المتدلي حول الفولاذ المكشوف... هل سيصمد السقف لليلة أخرى؟ هل سيحتمل المنزل ليوم آخر؟

لم يستطع صديق الاعتياد على ذلك... إمضاء الليل في منزل مهجور... منزل غادرته عائلة ما بعد أن أمسكت بأيدي أطفالها وهربت.

استفسر حتى أصابه اليأس... لقد انتقل خط الجبهة... المضي على الطريق يعني الدخول في منطقة تحت سيطرة النظام مما يعني أن عليهما ترك الشاحنة وسلوك الأراضي الوعرة البعيدة عن الطريق لتجنب جنود النظام... اقترح عثمان استئجار حمير.

- أيمكنك ركوب حمار يا أبو إسماعيل؟

أراه صبي صغير كيفية جعل الحمار يمشي، فركب الصومالي الحيوان الذي رفض أن يتزحزح من مكانه.

- لا... ليس هكذا... انظر... اضربه هنا... اركله هناك!

هل يمكن أن يكون الأمر بهذه الصعوبة! لقد ركب الإبل والجمال العربية وعمل راعي ماعز لجده! سأل الصبي عن عمره:

- ثمانية.

إسحاق سيبلغ الثامنة عما قريب... ابني الذي لا يعرف أن يمشي إلى مدرسته لوحده أو يربط رباط حذائه.

كان لدى الصبي الصغير ثقوب في سرواله كما كان حافي القدمين.

- هكذا... اجلس هكذا.

نزل صديق.

وفي النهاية جعل الحمار يحمل أمتعته وحذاءه بينما مشى هو بجانبه

ويتبعه الحارسان اللذان يتقاضيان عشر دولارات في اليوم.

فجأة صدر صوت إطلاق نار... لقد اقتربا من مكان اقتتال حيث يدوي صوت الطلقات... بقي صديق منبطحاً على الأرض محاولاً السيطرة على أنفاسه... إن تمكن من إبطاء تنفسه يمكنه التصويب جيداً... لديه مخزنان كاملان... هكذا نجا من الحرب الأهلية في الصومال... بإتقانه إطلاق الرصاص أكثر من العدو.

شعر بجفاف في حلقه وبدأ يزحف بعيداً عن صوت إطلاق النار... لا أستطيع السيطرة على حياتي... على وضعي... على أي شيء... لا يستطيع فعل شيء سوى إبقاء رأسه منخفضاً... حاول معرفة مكانه بالنسبة للمعالم التي أشار إليها عثمان... ها هم الآن... وها نحن... غضب صديق لأنه اعتمد على عثمان لهذه الدرجة بدلاً من محاولة الحصول على رؤية خاصة به.

قد يظنه جنود الأسد إسلامياً إن مروا به إذ إن هناك الكثير من الصوماليين بين صفوفهم... سمع صوت عثمان الهامس:

- الحمد لله... ما تزال بخير.
- نعم... الحمد لله.

سوريا كبيرة... بدأ صديق يفقد الأمل.

كانا على أطراف حلب... المدينة الرائعة والمزدهرة نتنة... رائحة المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار واخزة... الجثث مرمية تحت الأنقاض... لا يستطيع التمعن بها إذ إن عليه المضي قدماً... اعثر عليهما!... هذا آخر شيء قالته له سارة.

في بعض الأحيان نادراً ما تجد مبنى غير متضرر وجميعها على وشك السقوط... كانت المباني متقاربة... معظمها بينها جدران مشتركة... وهناك ثقوب في تلك الجدران مما يسمح للثوار بالانتقال من منزل إلى آخر وكأنه نفق إلى الجبهة التي لم تكن أكثر من شارع أو زاوية... مكان يمشي فيه طلاب المدرسة ويتعانق فيه العشاق.

والآن الموت يزوره كل يوم.

حين خيم الظلام لجآ إلى مبنى شقق.

نظر صديق حوله... لا بد أن هذه كانت فيما مضى شقة جميلة... جزء منها فقط مدمر أي أن الواجهة فقط مفقودة... كان هناك أطباق في الخزانة وأوانٍ يمكنك استخدامها لطهو الفاصولياء أو الفول كما يوجد قشر بصل مجفف في سلة وكتب على الرفوف وملابس معلقة في الخزائن.

كانت هناك صورة زفاف معلقة على الجدار تظهر زوجين جميلين وسعيدين. كانت العروس متزينة وترتدي ثوباً أبيض طويلاً وتضع وروداً في شعرها أما العريس فحليق الشعر ويرتدي قميصاً أبيض وبذلة سوداء. يشير طراز الملابس إلى أن الزفاف لم يتم قبل زمن... لقد بديا عصريين. ما يزالان شابان... حصل هذا في هذا الزمن.

أين يمكن أن يكونا الآن؟ بين الناس الذين التقيناهم على الطريق وهم يمشون على الطرق الصخرية والرملية والموحلة؟

وأمام الزوجين الجميلين وقف رماد سعادتهما... لم يستطع حبس دموعه.

الكثير من الأحلام المحطمة.

شعر بالحنق من ابنتيه وبكى بصوت مرتفع... السوريون ليسوا بحاجة إلى المزيد من الناس ليأتوا إلى هنا ويقتتلوا! ليس فتيات أو صبية من الغرب! إنهم بحاجة إلى السلام! ضرب بيده الجدار... بحث في جيوبه عن سيجاره، لكنه لم يجد فغادر غرفة الجلوس.

وجد سريراً مزدوجاً في إحدى الغرف فرمى نفسه عليه ثم تشنج... سريرهما... لقد استلقى على سريرهما الزوجي.

بكى بصوت عالٍ.

لماذا جاءت ابنتاي إلى هنا؟

أيان! ليلى! ما مشكلتكما؟!

الجزء الثاني

سبع خطوات للتطرف:

1. **التفريق: أنا من مجموعة وهم من مجموعة.**
2. **التعميم: كلهم متشابهون.**
3. **رواية الاضطهاد: إنهم يضطهدوننا.**
4. **الذنب الجماعي: جميعهم متواطئون في اضطهادنا.**
5. **الرواية التفوقية: نحن أفضل منهم.**
6. **الدفاع عن الذات: نحن نثأر من عدوانهم.**
7. **فكرة العنف: العنف هو الطريق الوحيد.**

إياد البغدادي... ناشط في الربيع العربي... 2015.

5

بداية المراهقة

تقع مدرسة غجيتوم الإعدادية بين القسمين الشرقي والغربي. كانت المنازل في الجانب الشرقي أكبر والناس أكثر ثراء أما في الغرب فتنتشر المنازل العادية والناس ذوو الدخل المتوسط.

كان الطلاب في المدرسة متنوعين لكن التلاميذ في معظمهم ذوو شعر أشقر وعينين زرقاوين ونروجيين أباً عن جد، فالفتيات يرتدين ملابس أنيقة ويتسوقن لمجرد المتعة وينتعلن أحذية عالية وجوارب ويلبسن قمصاناً أنيقة وسترات عصرية وشعورهن شقراء طويلة كما يضعن مساحيق تجميل خفيفة وملمع شفاه.

وقفت ثلاث فتيات في الثالثة عشرة من عمرهن بدأن ارتياد هذه المدرسة في خريف 2006. كانت إيفانا تتمتع بطراز الروك حيث ترتدي ملابس سوداء أما إيلا فترتدي قميصاً كبير المقاس أحمر اللون في حين ترتدي أيان وشاحاً أزرق اللون وأقراط أذن كبيرة وسروال جينز ضيقا، وجميعهن ذوات شعر أسود اللون.

ما جمعهن هو كونهن دخيلات حيث يسميهن الجميع «عصابة المهاجرات». كانت إيفانا لاجئة من كرواتية أما والدا إيلا فجاءا من الصين في حين كانت أيان الإفريقية الوحيدة في صفها. كانت الفتيات يتكلمن الكرواتية والمندرين والصومالية في منازلهن، إيفانا مسيحية كاثوليكية وإيلا عضو في الحشد الصيني في أوسلو أما أيان فترتاد مدرسة القرآن بانتظام. كن يتناقشن في معتقداتهن وفي التشابه والاختلافات بينها... الله... الحياة بعد الموت...

الجنة والجحيم... الجنس... المثلية الجنسية... الإجهاض... جميع هذه الأشياء. وعند تعميد إيلا تمت دعوة أيان وإيفانا إلى اجتماع العائلة، وقد كن ثلاثتهن يقلن إنهن مدينات بحياتهن للنروج، فأيان وإيفانا هربتا من حرب أهلية أما إيلا فنجت من سياسة الطفل الواحد التي تفرضها الصين إذ إن لديها أخوين أكبر منها، ولو لم يغادر والداها الصين لما استطاعت القدوم إلى هذا العالم حيث كان والدها مدلكاً في فندق في بكين حين كان الملياردير شتاين إريك هاغن زبوناً هناك، وقد سعد عملاق سلسلة المتاجر من المعاملة التي تلقاها فكافأ والد إيلا بالانتقال إلى النروج.

إلا أن الفتيات الثلاث كن واثقات أنهن عندما يكبرن سيغادرن النروج حيث قالت إيفانا:

- أريد العيش في أستراليا فالنروج باردة ومملة.

إذ كانت تمقت الشتاء كما هو الحال مع أيان التي قالت:

- الشمس في النروج كالمصباح... نور فحسب... ما من حرارة!

كانت تريد أن تصبح دبلوماسية وتعمل في الأمم المتحدة وتحارب الظلم والفقر. أما إيلا التي كان يدعوها طلاب صفها «عازفة البيانو الصينية المسيحية الصغيرة» فكانت ترغب بالغناء في فرقة روك والتجوال حول العالم.

كل شيء كن يفعلنه أول مرة مع بعضهن.

كن يذهبن إلى حفلات.

كن يعجبن بالفتيان.

كن يسحقن البثور في وجوههن ويأكلن رقائق البطاطا ويزددن وزناً ويقسن أوزانهن ويحاولن مزامنة مواعيد الدورة الشهرية ويتشاركن ملمع الشفاه والمشاعر وتفاصيل مغامراتهن الرومانسية.

لقد كبرن من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة فالخامسة عشرة سوية.

كانت عائلة جمعة من الطبقة الاقتصادية الأدنى في بيرم وتعيش في منزل

الإسكان الحكومي حيث كان صديق يعمل أحياناً قبل أن يعود إلى الحصص التدريبية وهو يحلم بأن يصبح مهندساً أما سارة فانضمت إلى دروس اللغة النروجية لكنها لم تستطع التركيز معهم، وفي الوقت الذي بدأ فيه إسحاق الروضة كانت لا تزال في المنزل دون أن تتعلم اللغة.

أما أيان فعشقت الكتب... كان نوت هامسون كاتبها المفضل حيث كتبت في مقال عن «الجوع»:

- في الرومانسية الحديثة تتمتع الشخصية الروائية بالمكانة الأهم إذ إن كل شيء يتكلم عما أفكر به وما أشعر به أي أن النفس البشرية هي الأهم، فالرومانسية الحديثة غير مهتمة بالدين أو الجنسية وإنما بالخيال والأمور الأسطورية غير المنطقية والتي لا يمكن تفسيرها.

ثم وصفت نهاية «الجوع» حيث تجول الشخصية الرئيسية في كريستيانيا التي تغير اسمها فيما بعد إلى أوسلو:

- إنه يعتبر نفسه خاسراً وفجأة يركب سفينة ليهرب من مأساة كريستيانيا المدينة التي لا يغادرها أحد دون أن تترك بصمتها لديه.

كانت أيان قليلة الصبر وتتصرف وفقاً لنزواتها وهو ما تجلى في كتاباتها حيث كانت علامات الترقيم والإملاء السليم أموراً ثانوية أمام توضيح رأيها.

في إحدى المرات كان عليها كتابة «قصة قصيرة تحسن فيها الوضع» وأول عبارة في القصة هي:

«وأخيراً تلألأت عيناها!».

أسمت أيان قصتها «نبض القلب» حيث تحكي القصة عن أودا التي كانت عيناها كسماء ليلية زرقاء مليئة بالنجوم المتلألئة لكنهما الآن أصبحتا تشبهان ثقبين لا قاع لهما لأن أودا أصبحت مومساً. كان هناك رجل يعمل في المشرحة المحلية جاءها كزبون واتفقا على ممارسة الجنس على واحدة من طاولات الفحص في مكان عمله في أول موعد لهما لكن الأمور خرجت عن السيطرة مما تسبب بسقوط جثة عليها... حينها طلب منها ممارسة الجنس

مع الجثة ودفع لها مبلغاً سخياً مما جعلها توافق ثم أصبحا يلتقيان مرة في الأسبوع. وفي إحدى الليالي نامت أودا في منزل الزبون حيث استلقت تفكر كم من الرائع أن تستيقظ المرأة لتجد نفسها بين ذراعي رجل تحبه... وهنا أدركت أنهما على علاقة جيدة، فهو لطيف معها منذ البداية كما أنها مكثت في منزله عدة مرات حين لم يكن لديها مكان تذهب إليه... مجرد فكرة أنها كانت واقعة في حبه جعلت جسدها يرتعش وسرى فيها شعور غريب دافئ تزايد كلما فكرت فيه... لن تكون الحياة معه سيئة للغاية إذ إن لديه عمل ويجني الكثير من المال.

وانتهت القصة بذهاب الزبون في رحلة عمل إلى ألمانيا وطلبه من أودا أن تذهب معه إذ إن العرض أذهلها لأنه ترافق مع أكثر عبارة صدمتها:

– أنا أحبك يا أودا... تعالي معي.

فكرت في الأمر ملياً... هل هناك ما ستخسره؟ لا... ما من شيء لها في النروج... إذن لم لا تجازف؟

وقد حصلت أيان على تقييم ب إذ قال الأستاذ أن القصة محبوكة جيداً وفيها استعارات صور مجازية بالإضافة إلى استخدام العديد من الوسائل الأدبية لدعم الحبكة لكنها تحوي الكثير من الأخطاء الإملائية وعلامات الترقيم غير الصحيحة.

وفي مقالها التالي كتبت من منظور تورفالد هيلمر زوج نورا في مسرحية «بيت الدمية» لهنريك إبسن «23.9.1890. مذكرتي العزيزة... تمت اليوم ترقيتي لأصبح مدير المصرف... يا للخبر الرائع! عزيزتي نورا في قمة السعادة... لكن مهما فعلت لا يمكنني التوقف عن القلق إذ إن هناك شيئا لا تخبرني به... أستطيع رؤية ذلك في عينيها الحزينتين... هذه الحمامة الصغيرة الرائعة ينبغي أن لا تبدو حزينة هكذا».

وفي مقال آخر تخيلت أنها جندي أمريكي في فيتنام عام 1966:

«مذكرتي العزيزة... اليوم عيد ميلادي الثامن عشر... أشعر بالسوء ولا

أستطيع النظر إلى نفسي في شظية الزجاج الصغيرة التي أستخدمها كمرآة... كنا في دورية ليلية نقوم بالحراسة إذ إن أولئك الخبثاء قد يكونون مختبئين في أي مكان. كانت لدينا أوامر بالبقاء بعيدين عن الأنظار حتى تشرق الشمس مجدداً لتزيل غطاء الظلام الذي يغطي كل الأجساد والدماء».

ثم وصف الجندي المجازر التي شارك فيها حيث كانوا يقيدون النساء والأطفال ويسكبون البترول عليهم ثم يضرمون النار.

«كيف يمكن للسماء أن تكون بهذا الجمال في حين أن العالم مقزز لهذه الدرجة؟ كيف يمكن للنجوم أن تتلألأ وتضيء حين تكون الأرض مشتعلة؟».

وبعد ستة أشهر كتب الجندي:

- مذكرتي العزيزة...

ومنذ سن الخامسة عشر هيمنت الرومانسية عليها حيث كتبت لإيلا في الشتاء حين كن في السنة الثالثة في غجيتوم:

- أشعر أنني على وشك الموت. اكتشفت أن لديه حبيبة (لكن هذا ما يحصل عادة ويمكنه أن يعيش بسعادة معها).

فأجابت إيلا:

- أووو... يا للمسكينة! لكن من الجيد أنك تتقبلين ذلك وتشعرين بالسعادة لأجله... هناك الكثير من الأسماك الأخرى في البحر!!!! أنا هنا من أجلك مهما حصل!!! أحبك كثيراً يا حبيبتي!!!

كانت الرسائل النصية تتناقل بين المنازل الثلاثة في بيرم وهي مليئة بالقبل والوجوه الضاحكة والباكية ودموع الضحك، وخلال عطلات الصيف كانت الرسائل تنتقل بين أوربا وإفريقيا ومن الساحل الدلماسي إلى معسكر الشباب الصيني وصولاً إلى الصومال.

كتبت أيان لإيلا في الصيف بين السنة الثالثة والرابعة:

- هناك عشرات من الصبية الرائعين هنا لكنني لم أعجب بأي منهم...

الحر قائظ هنا لكنني اشتريت مشروباً مثلجاً مما يجعلني في غاية السعادة... لم أر أي صرصور حتى الآن وهو أمر يسعدني كما أن جدتي قادمة من جيبوتي عما قريب... لا أستطيع الانتظار! هل سمعت أي خبر من إيفانا؟

فردت إيلا:

- أيتها الغبية! الطقس هنا في النروج رائع... إنني أتسكع هنا مع الناس من الكنيسة كثيرا والمعسكر الصيفي سيبدأ خلال أسبوعين... لا يمكنني الانتظار!

ردت أيان:

- واااااو!

كانت تجارب إيلا في المعسكر أبرز شيء في الصيف لكن المعسكر هذا العام في ستوكهولم... أما بالنسبة لما يحصل في الصومال فقد قالت أيان:

- لدي أخبار جيدة وأخبار سيئة... قصصت شعري قصة قصيرة... هناك شاب هنا معجبة به كثيراً لكن المشكلة أنه من النوع الذي تلاحقه جميع الفتيات إلا أنه يغازلني كثيراً (وهو أمر رائع بالمناسبة). لا أدري ماذا أفعل... لقد حاول تقبيلي أربع مرات الليلة الماضية لكن دائماً هناك ما يقاطعنا... أكاد أموت!!! واليوم جاء إلي وجلس بجانبي وقبلني من وجنتي ثم دخل أشخاص آخرون إلى الغرفة فلم تسنح لنا الفرصة لفعل شيء آخر. أحبه لكنني لا أريد أن أتأذى لا الآن ولا عندما أغادر... خالتي قلقة عليّ وكذلك أمي!!!

كانت الحياة مسرحية مبهجة.

كانت أيان قاسية وواثقة بنفسها وتمقت اضطهاد المرأة والتركيز على صورة الجسد كما أنها تنتقد مجلات الأزياء لتعزيز انعدام الأمان لدى الفتيات. وقد كتبت في مقال يدعى «تحرر المرأة»:

«هل تزعجك الطريقة التي تبدين فيها؟ متوترة؟ كم فتى نظر إليك الليلة؟ متى آخر مرة مارست فيها الجنس؟ كل تلك الأسئلة التي تجعلك تشعرين كأنك مرحاض عمومي في الهند، والأسوأ من ذلك أن علينا ولادة جرذان صغيرة ذكور لنعتني بهم ونرعاهم حتى يتحولوا من فتية إلى رجال يقومون باضطهاد امرأة أخرى».

كانت تستطرد كثيراً في كتابتها وغالباً ما تفشل في التوصل إلى نتيجة مرضية مما يدفع المدرسة لأن تكتب على الهامش:

«اشرحي!» أو «ما علاقة هذا بالموضوع؟» أو «مفككة!» وأحياناً «جيد!» أو «كلام رائع!».

كما كتبت أيان:

«في الماضي القديم في المملكة العربية السعودية كان الاضطهاد الهمجي للمرأة شديداً لدرجة أن المرأة إن ولدت بنتاً يتم دفنها على قيد الحياة، ثم جاء النبي محمد قائد المسلمين وأكد على مساواة المرأة بالرجل لكن بعد وفاته عاد اضطهاد المرأة من جديد ليستمر حتى الآن. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت المزيد من النساء يتذمرن من كونهن مجرد ربات منزل».

لتختتم مقالها «تحرر المرأة» المجد للواتي مهدن الطريق:

«حتى لو تم رجمك ونعتك بالساحرة وأحياناً قتلك لكن شكراً لأنك قلت الحقيقة وحررتنا».

وقد حصلت على علامة متوسطة مع تعليقات أنها ذكرت العديد من النقاط الجيدة لكن النص مشتت وتقسيم الفقرات مثير للجدل.

وفي حصة الديانة تفوقت أيان إذ كانت مطلعة على العديد من الديانات وتناقش بأسلوب ناقد وهناك الكثير من الأمور التي تكرهها في الإسلام وخاصة كيفية استخدام الدين لإخضاع المرأة حيث إنها لا تتمتع بنفس مكانة الرجل أو بنفس حقوقه، وقد أخبرت زملاءها أنها لن تستسلم لذلك لأن هذا إن استمر فستكون هي جزءاً من ذلك الدين!

وحين تخرجت من المدرسة الإعدادية كانت شهادتها تحوي عدداً متساوياً من الدرجات الجيدة والمتوسطة فقامت بخيار طموح وتقدمت بطلب التحاق بواحدة من أبرز المدارس في المقاطعة «ثانوية نيسبرو» على أمل أن يتم قبولها في برنامجهم الدولي للبكالوريا حيث وصفت المدرسة المنهج الدراسي على أنه صعب أكاديمياً كما أنه من «أفضل البرامج في العالم للتحضير للجامعة». كان التدريس باللغة الإنكليزية في جميع المواد باستثناء اللغة النروجية واللغات الأجنبية، وهو أمر مناسب للطموحين بالعمل في السلك الدبلوماسي.

وقد تم قبول أيان في السنة الأولى لكنها خلال الصيف بدأت تندم على خيارها لأنها في نيسبرو لن تتمكن من الخروج مع صديقاتها بعد الآن لأنهن تقدمن بطلب للالتحاق في مدرسة مهنية في رود حيث ستدرس إيلا في قسم الموسيقى وإيفانا في قسم المسرح.

كتبت أيان لعازفة البيانو الصينية المسيحية الصغيرة التي كانت في معسكر في تورنتو:

- مرحباً... سمعت أنك حصلت على حبيب... أحسنت يا فتاة! أشعر بالملل هنا وأخشى بداية المدرسة حيث سمعت كثير من الأمور السيئة عن نيسبرو كما أفتقد صديقتي الصفراء الصغيرة... حاولي الاستمتاع قدر الإمكان حتى ولو كان هذا معسكراً مسيحياً... كوني شقية!

كانت نتائج السنة الأولى هي التي ستحدد إن كانت ستستمر في برنامج البكالوريا الدولية الذي سيفتح لها الأبواب إلى العالم الواسع لتكون أول شخص في عائلتها يتقدم في دراسته الأكاديمية.

تشمل منطقة نيسبرو جزيرة نيسويا الشهيرة بثراء سكانها والقصور المطلة على خليج أوسلو. لم تكن أيان تعرف أحداً أو تشبه أحداً وإنما مختلفة... فتاة ببشرة ذهبية ووجنتين ناعمتين مدورتين وجبهة عالية وبريق في عينيها أما

قوامها فمنتصب وهي ترتدي سروالاً ضيقاً وحجاباً ملوناً.

كانت اللغة الإنكليزية مادتها المفضلة في المدرسة الإعدادية وهو ما يساعدها الآن لكن مدرستها لمادة التعبير كنوت غاندرسون استغرب من التفاوت بين مهاراتها الشفوية والكتابية وارتابت في أن تكون تعاني من درجة خفيفة من الديسليكسيا. أما مدرّسة الاقتصاد ذات الأصول الإيرانية التي تلقت تعليمها في الولايات المتحدة وتعلمت النروجية وهي كبيرة فقد عزت أخطاء أيان الإملائية إلى سوء إتقانها للغتها الأم حيث قالت المدرسة:

- إنها تعرف مجموعة من اللغات لكنها لا تتقن أياً منها.

وقد وجدت غاندرسون أن لدى أيان قدرة على التفكير والتمعن يفتقدها زملاؤها في الصف إذ كانت قادرة على ربط ما يناقشونه في الصف بتجاربها الشخصية بأسلوب مثير للاهتمام... بكل بساطة هي في مستوى مختلف.

في الخريف كان على كل تلميذ حضور اجتماع بين الأهل وأستاذ مادة التعبير، فجاءت أيان مع أبيها لتخبر المدرسة صديق أن من الممتع وجود أيان في الصف وأنها مثقفة ومجدة.

فابتسم صديق قائلاً:

- يسعدنا سماع هذا!

فكرت المدرسة... إنهما يشبهان بعضهما... فهما مبتهجان ويضحكان كثيراً... من الواضح أنهما متفقان... روابط عائلية قوية.

نادراً ما تعطي غاندرسون التي تدرس اللغة النروجية وظائف إبداعية لطلابها إذ لم تكن تعتبرهم ناجحين لكنها أحياناً تمنح التلاميذ حرية الكتابة حول أي شيء يريدونه، فكتبت أيان مقالاً بعنوان «رحلة إلى المجهول».

«كانت هناك فتاتان شابتان أرادتا الخروج إلى العالم لإيجاد ذاتهما. في المنزل كانتا تحصلان على كل ما تريدانه وترتادان أفضل المدارس وترتديان أحدث الملابس لكنهما لم تحصلا قط على الفرصة لاتخاذ أي قرار لنفسيهما وهو ما ترغب به النساء الشابات بشدة.

وقد خططتا لوقت طويل لرحلة أو ربما خططتا كيف تبتعدان لأنهما لا تعرفان إلى أين تذهبان. وفي مساء صيفي حين لم يكن والداهما في المنزل كتبتا رسالة نصية:

ماما بابا... سنخرج قليلاً... لا تنتظرانا.

وتوجهت الأختان إلى موقف لسيارات الأجرة ليعرض عليهما عدد من السائقين الوسماء أن يقلوهما، وقد أراد عجوز أن يخدعهما، وفي النهاية التقتا برجل. وصلتا إلى المطار واستقلتا الطائرة إلى تركيا وهي أرض غرب الشمس وشرق القمر. سافرتا بعيداً قدر ما يمكنهما قبل أن تصلا في النهاية لتكملا حتى رأتا ثلاث شموس وثلاثة أقمار ثم انعطفتا يميناً إلى هاوية الأرواح الضائعة. وحين وصلتا إلى هناك وجدتا أن رحلتهما قد انتهت... لا ندري إن كانتا قد وجدتا ذاتيهما لكنهما عاشتا هناك بسعادة حتى نهاية حياتهما».

فمنحتها كنوت غاندرسون علامة متوسطة وكتبت بقلم أخضر:

- قصة رائعة مع كثير من النقاط الجيدة لكن النهاية غير مرضية وهناك بعض الأخطاء القواعدية. (لم تتمكني بعد من السيطرة على الديسليكسيا).

وتوقفت وهي تفكر للحظة... القصة مشوشة ومربكة... لكن هل تقول شيئاً آخر؟ شيئاً أعمق؟ شيئاً لم تفهمه؟

مكتبة
t.me/t_pdf

6

المهمة

في أول خريف في المدرسة الثانوية تعرفت أيان إلى ظاهرة دينية جديدة وهي منظمة شباب مسلم تعتمد على مبادئ متزمتة حيث كانت المواعظ فاتنة توقظ المشاعر ليتبعها التفكير إذ ينبغي أن تكون الحياة نقية وصادقة.

وقد قدمت «إسلام نت» سلسلة من المحاضرات في جامعة أوسلو بدأت بكل بساطة بأركان الإسلام الخمسة، وقد كانت تعرف ذلك وتعرف حياة النبي وتعاليمه والخلفاء... إنها أمور مألوفة.

لكن الأمر لا يزال مثيراً والناس لطفاء وهو أمر رائع كما أن هناك الكثير من الفتيان اللطفاء هناك.

خلال المحاضرات المسائية حيث يجلس الفتية والفتيات في صفوف منفصلة من المقاعد تعرفت إلى صديقات لتشكل مجموعة: عائشة وأميرة ودلال وأيان.

كانت عائشة القائدة فهي مفعمة بالطاقة لكنها أحياناً فظة وتلقي بعض التعليقات الجارحة كما كانت مغرورة وأحياناً متحفظة واعتادت على رفع رأسها للخلف قليلاً عند الحديث مع الناس.

لكنها في رأي دلال لطيفة لكنها لا تنتبه لمشاعر الناس لكونها منذ صغرها متقوقعة على نفسها لحماية نفسها من أب ظالم.

كما هي الحال مع عائشة لدى أميرة مشاكل في المنزل حيث خطط والداها لزواجها من رجل من ريف باكستان لكن أميرة رفضت الأمر واختارت زوجاً لنفسها إلا أن والداها عارضا بصرامة، فطلبت على الأقل تأجيل الزفاف

حتى تنهي دراستها فوافق والداها على ذلك في الوقت الحالي. كانت أميرة طالبة مجدة تعمل لتصبح مهندسة حاسوب وتعشق كرة القدم كما كانت لاعبة بارعة في فريق هولمليا وتتدرب كثيراً وغالباً ما ترتدي أحذية وملابس رياضية.

أما دلال ففتاة كردية من إيران عاشت في العراق حتى انتقلت العائلة إلى بيرم حين كانت صغيرة. بدت كعارضة أزياء من الشرق الأوسط بعينيها اللوزيتين وبشرتها الناعمة وأنفها الصغير المعقوف كما كانت تمارس اليوغا والتمدد ورفع الأثقال الخفيفة وتؤنب عائشة التي كانت تحضر معها في المدرسة الإعدادية لتناولها الطعام الضار واتباعها أسلوب ضار يؤذي بشرتها وجسمها، فردت عائشة أن ما يهم هو ما في داخل المرء ووبخت دلال لعدم تغطية شعرها إذ إن الإسلام يفرض الحجاب لكن دلال عارضتها واستدلت كل واحدة منهما بآيات من القرآن لدعم رأيها.

وقد كن يزددن قوة مع بعضهن.

بدأ «إسلام نت» كصفحة على الفيسبوك قبل عامين في 2008 حيث قام حوالي عشرة طلاب هندسة في جامعة أوسلو بإنشائها.

كانت الموجة التي مهدت لطلاب الهندسة الطريق الذي سيستمرون في سلوكه هي السلفية تبعاً للسلف الصالح أو الأجيال التقية الثلاثة الأولى بعد النبي محمد.

السلفية محافظة بدرجة كبيرة وتسعى للتغيير المتشدد كما تنظر إلى الماضي للحصول على إلهام إذ ينبغي أن تعتمد الممارسات الإسلامية على أسس الإسلام... القرآن والحديث. وينبغي على المرء السعي لاتباع رسائل النبي وحكمه حرفياً مبتعداً عن الثقافة المحلية والتأويلات المتداولة. إن جذور هذه الحركة عميقة لكن توسعها في أرجاء العالم حصل في السنوات الخمسين الماضية.

في الخمسينات من القرن العشرين بدأت المملكة العربية السعودية

جهودها في أسلمة المناطق المجاورة، ومع مرور الوقت قامت المملكة بتمويل شبكة دعوية عالمية لنشر الدعوة بتمويل من أموال النفط حيث منحت المساجد والمدارس جوائز سخية ووضعت منحاً دراسية للدراسة في مكة والمدينة للشباب المطيعين.

لم يعتبر منظمو «إسلام نت» أنفسهم سلفيين وإنما قالوا إنهم مسلمون يتبعون المدارس الأربعة الرئيسية للإسلام السنة، وقد تلقت السلفية اهتماماً سلبياً بعد هجمات 11 سبتمبر مما جعل الطلاب يسعون لتجنب هذه التسمية.

وحين حققت صفحتهم على الفيسبوك نجاحاً قرر طلاب الهندسة إنشاء موقع إلكتروني وناقشوا المحتوى المحتمل.

وقد كانت الشخصية البارزة التي يتبعونها ذاكر نايك الذي يلقي دروساً إسلامية ذات توجه سلفي على التلفاز والقريب من العائلة المالكة السعودية. وقد اقترح أحد الطلاب نسخ بعض المقاطع من كتابه «أجوبة على الأسئلة الشائعة لغير المسلمين حول الإسلام» بهدف توضيح سوء الفهم عن الإسلام. كما تم وضع خطب نايك المتوفرة على يوتيوب على الصفحة الرئيسية لإسلام نت ثم اكتشف الشباب على قناته «تلفزيون السلام» واعظين جدداً يحملون رسائل جديدة وصادقة.

وقد أصبح للطلاب أصدقاء على فيسبوك ومتابعين على صفحتهم الرئيسية، وخلال نقاش في غرفة الصلاة في الجامعة اقترح أحدهم توسيعها. ومن أجل تجنيد المزيد من الناس عليهم عقد لقاءات.

وقد حضر بضع مئات من الناس اجتماعهم الأول حيث كان الضيف المتكلم ذو القرنين مدني النروجي من أصول باكستانية إذ تمت دعوة الإمام الذي درس في جامعة المدينة ليستنكر السياسي والناشط الهولندي غيرت ويلدرز وفيلمه «فتنة» لكن السؤال الذي حاز على أكبر قدر من النقاش هو «من وراء سبتمبر 11؟» وقد ناقش مدني أن حكومة الولايات المتحدة واليهود هم من خططوا للهجمات.

وبعد عقد عدة اجتماعات توسعت إسلام نت لتضم عدة مئات من الأعضاء حيث أراد قادة المنظمة أن تكبر واقترحوا عقد مؤتمر سلام لضمان ذلك. وقد نشأ ذلك المفهوم في مومباي حيث كان الوعاظ يحثون عامة الهنود بخطبهم المشحونة بالحماس الديني.

وفي النروج أظهر إسلام نت الفجوة بين الأجيال حيث عارض الطلاب المساجد المقسمة على أساس عرقي إذ إنه حين وصل أوائل المسلمين إلى النروج في سبعينات القرن الماضي لم تكن المساجد ذات أولوية لأن من المفترض أن تكون إقامة المهاجرين قصيرة لكن في الثمانينات حين اتضح أن معظمهم سيبقون بشكل دائم تصاعدت الحاجة لوجود مسجد حيث أراد الناس مكاناً لممارسة طقوس حياتهم كالولادة والزواج والموت ومكاناً يطلبون فيه النصح حين تشتد صعوبات الحياة.

وقد استخدم الجيل الأكبر الشقق والأقبية وأرضيات المصانع لتحويلها إلى أماكن للعبادة أما المساجد فأصبحت أماكن للاجتماع لصلاة الجمعة واللقاء بالرفاق في حين اعتبر الطلاب أن آباءهم يخلطون الثقافة بالدين وهم يستمرون بالصلاة كما كانوا يفعلون في بنجاب أو مقديشو إذ بدا الأمر متعلقاً بالتقاليد أكثر من وجود سلوك واعٍ تجاه الله. لقد آمن الطلاب أن المساجد المقسمة حسب الخطوط القومية لا تسهم في المصالح الجماعية للمسلمين، وإن تمت إزالة الستار الثقافي لهذه المساجد سيتضح الدين الحق ليتفوق الإسلام على باقي الأديان.

كانوا من أبناء المهاجرين حيث ولدوا وترعرعوا في النروج، وقد خالف بعض أفراد هذا الجيل الأفكار السائدة في المجتمع النروجي ولم يصدقوا أن لديهم فرصاً مساوية لفرص النروجيين الأصليين، فمهما بذلوا من جهود لا يتم قبولهم بشكل كامل.

وقد عارض بعضهم أسلوب حياة والديه التقليدي المتواضع من خلال تبني مذهب المتعة في الحياة بما في ذلك كل ما يتناسب معه حتى ولو كان

حراماً في الإسلام في حين اتخذ آخرون موقف الاتهام تجاه المجتمع... إن كنتم لا تريدونني فأنا لا أريدكم أيضاً... ليصبح عضواً في عصابة ويتزايد عدد المسلمين في إحصائيات الجريمة.

لكن معظمهم وجد هوية تسمح لهم بوضع قدم في كل ثقافة ليختاروا القيم التي يريدون أخذها من والديهم والقيم التي يريدون تبنيها من موطن ولادتهم، وقد حاول بعضهم أخذ مكانه بين النروجيين أباً عن جد في التعليم ثم في العمل وقد أفلحوا في ذلك في حين اعتمد آخرون على جانب واحد بعد أن وجدوا أن القيم العلمانية الغربية لا تتوافق مع الإسلام.

بعد الهجمات الإرهابية للحادي عشر من سبتمبر شعر المزيد منهم أن كونهم مسلمين أمر صعب للغاية حيث يجسد الإسلام الصورة الجديدة للعدو ليتحول الخوف من المهاجرين إلى نقد للإسلام مما زاد من الحاجة إلى الاتحاد وقد أدى ذلك إلى كسب الهوية الإسلامية أهمية كبيرة.

وقد حشر بعض المراهقين جميع إخفاقاتهم وآلامهم المتزايدة في نفس الحقيبة... هذا لأنني مسلم... وقد اعتقدوا أن وسائل الإعلام معادية لهم وأنهم يتعرضون لسوء فهم وتحيز لأن المجتمع الغربي يريد الإساءة إليهم. وقد تفاقم الجدل حول رسوم الكرتون للنبي محمد في صحيفة دنماركية حين كان قادة إسلام نت مراهقين حيث احتاجوا لبعض أشكال الدفاع.

لماذا نكون نروجيين من الدرجة الثانية بدلاً من مسلمين من الدرجة الأولى؟

عادة تتعرض الفتيات لتربية أكثر صرامة والكثير منهن دخلن مجالات ذكورية تقليدية وانضممن إلى كليات الطب والحقوق، وقد تأثرت بعضهن بموجة إحياء العادات القديمة واتبعوا تعاليم القرآن واهتموا بأمر عفة المرأة حتى بين الفتيات في المدارس الاحترافية وانتشر الحجاب على نحو كبير.

وقد تلقت دلال تلميحات صريحة:

- أنت تشتتين الفتيان في الاجتماعات... ينبغي عليك ارتداء ملابس أكثر حشمة.

تجاهلت دلال الاقتراح أما أميرة فبدأت ترتدي الحجاب حتى وهي تلعب كرة القدم لتتحول من رياضية إلى رياضية مسلمة إلى مسلمة، وفي الخريف بدأت ترتدي الجلباب وتركت فريق كرة القدم.

يمكن للانضمام إلى إسلام نت أن يشكل ثورة ضد التقاليد العائلية إذ إن الطلب بالزواج من ابن عمك في موطنك الأصلي قد يبدو عبئاً بالنسبة للكثيرين كما شجع إسلام نت الفتيات على اختيار شريك للحياة من الأمة بكاملها إذ ينبغي للإسلام أن يوحدهم ولا يهم من أين تنحدر العائلة أو من أي قومية أو عرق فإسلام نت لا يهتم بالاختلافات العرقية.

وقد تقبلت أميرة التعاليم في هذا المجال حيث وافق والدها على زواجها من ابن أخيه حين كان الطفلان صغيرين ليتمكن فرد آخر من العائلة من بناء مستقبله في النروج. كانت حياتها كعزباء توشك على الانتهاء فتوسلت إلى أبيها لكنه لم يقبل لأن عليها الانصياع لما تقوله العائلة.

لقد أرادت مهندسة الحاسوب الاختيار بنفسها وقد فعلت ذلك حيث همست مرة لدلال أنها واقعة في الحب.

- مع من؟
- لا يمكنني أن أخبرك... إنه فائق الجمال ومتدين.

كما فاجأت عائشة صديقاتها حين جاءت إلى إحدى المحاضرات بالنقاب الكامل بحيث لا تظهر سوى عينيها.

قالت دلال بجفاف:

- استعدي لردود الأفعال! لا أظن أن النروج مستعدة لهذا.

كما تساءلت أميرة عن صعوبة ارتداء الكثير من القماش أما أيان فشعرت بالإعجاب إذ إنها لا تغطي سوى رأسها وترتدي ملابس عادية.

الآن يمكن لعائشة أن ترى الجميع لكن لا أحد يمكنه رؤيتها مما جعلها تبدو أقوى كما منحها النقاب انطباعاً بالتقوى والتفوق الأخلاقي.

وقد جاء التحول الديني الحاد لعائشة بعد إقامة العائلة في المملكة المتحدة حيث سجلها والدها هي وأختها في مدرسة إسلامية صارمة.

وقد أخبره إخلاق شان صديق طفولته الذي يعمل في خدمات التكامل في بيرم:

- أنت تسيء لابنتيك... ذلك التعليم سيجعلهما غير مناسبتين للعمل في النروج.

فرد والد عائشة:

- حقاً؟

واستمر في إرسال ابنتيه إلى المدرسة.

تزايدت الضغوط على دلال حيث اقترب منها أحد القادة وقال بنبرة ودودة:

- عليك تغطية شعرك.

نظرت إليه دلال وتصنعت الابتسام:

- أنا أسير خطوة خطوة... رويداً رويداً... حسناً؟

وفي إحدى الأمسيات تم توزيع التعليمات حول كيفية زيادة أعضاء إسلام نت:

- من يطع الله سيلقى الجزاء.

الانطباعات الأولى مهمة... عليك تغيير سلوكك حسب الشخص الذي تتكلم معه... إن كان الشخص مسلماً ملتزماً عليك أن تؤكد على الجانب الدعوي لإسلام نت.

- أخبروهم أن من الواجب على المسلم اتباع مجموعة تشارك في هذا النوع من العمل في كل مجتمع... أخبروهم عن المكافآت التي سينالونها من هذا العمل... تكلموا عن نشاطاتنا والنتائج التي

حققناها في مثل هذا الوقت القصير... دعوهم يعرفوا أننا مجرد طلاب وأننا نفعل هذا من أجل الله سبحانه وتعالى ولهذا فإننا بحاجة إلى دعمهم... أخبروهم أننا نضحي كثيراً وأن الأعضاء الأكثر نشاطاً استقالوا من وظائفهم ورسبوا في امتحاناتهم لأنهم يكرسون الكثير من وقتهم لأجل هذا العمل.

أما إن كنتم تتعاملون مع مسلمين غير ملتزمين فعليكم الثبات أكثر:

- أخبروهم كيف أن وسائل الإعلام تصور الإسلام والمسلمين كمتطرفين وإرهابيين وكيف أن وسائل الإعلام تعطي الانطباع أن الإسلام عقيدة تقمع المرأة وأننا نعمل لإزالة هذه المفاهيم الخاطئة عن الإسلام.

وبالنسبة إلى غير المسلمين عليكم أن تقولوا:

- نحن نحاول بناء جسور بين المجموعات الدينية والعرقية المختلفة ونعمل لتوسيع وجهات النظر المتنوعة من أجل تسهيل الفهم والتواصل بين الناس من انتماءات دينية مختلفة.

عليكم عدم ذكر شيء عن التضحية بالنفس وإنما استخدام كلمات مثل «المساواة» و«الحوار» ثم ادعوهم للقدوم إلى هنا للدردشة وخاصة عند مكتب المعلومات في فرع إسلام نت عند بوابة كارل جوهانس.

وقد بدأت أيان بالأشخاص الذين تعرفهم أي إيفانا وإيلا الكاثوليكية والبروتستانتية حيث أرسلت رسالة لكلتيهما قبل عيد ميلاد عام 2010 ببضعة أسابيع:

- مرحباً... هناك جلسة نقاش... ربما ترغبان بالقدوم؟

وأرفقت دعوة إلى اجتماع في إسلام نت.

كانت إيفانا مشغولة ببرنامجها المسرحي أما إيلا فتتبع حلمها حيث أسست فرقة مع زملائها في الصف أليكس وهيكون اللذين كانا في صف أيان في الابتدائية والإعدادية ويحضرون حالياً في برنامج الموسيقى مع إيلا

ولديهم خطط كبيرة لفرقتهم «أطفال ضالون».

وقد دعت أيان الفرقة بكاملها إلى اجتماعات إسلام نت، ومع أن أحداً منهم لم يأتِ لكنها استمرت في إرسال الدعوات.

وقد اطلع هيكون على المواد التي وصلته باستمرار على هاتفه المحمول وصندوقه البريدي حيث دخل إلى موقع إسلام نت وقرر على الفور أن هذا لا يناسبه لكنه تفاجأ بما قرأه عن المثلية الجنسية والجنس قبل الزواج وحجاب المرأة، واستغرب أن أيان القوية والمعتدة برأيها قد انضمت إلى شيء كهذا. وقد وافقه أليكس... ماذا حصل لأيان؟ ثم نسيا بشأن ذلك إذ كانا يعقدان صداقات جديدة ويواعدان حبيبات جديدات، ومع مرور الوقت أصبحا يتعاملان مع دعوات أيان كرسائل عشوائية... إن كان هناك طفل ضال فهي أيان.

في نيسبرو كانت أيان توزع الدعوات في الصف وتعلقها على اللوحات وتلصقها بأعمدة المصابيح، وفي ربيع 2011 ومع اقتراب نهاية سنتها الأولى أخبرت كنوت غاندرسون أنها انضمت إلى مجموعة من الشباب المسلم وتتساءل إن كان بإمكان بعض قادتها المجيء إلى المدرسة لإلقاء محاضرة، وبالتأكيد ردت المدرسة أنه يسعدها رؤية الطلاب يتفاعلون مع الأمور.

– فقط اطلبي منهم إرسال بريد إلكتروني لي وسنتفق على أمر ما.

وقد تواصل إسلام نت على الفور معها للترتيب لموعد مناسب فرأت غاندرسون أن عليها معرفة ما تقوم عليه المنظمة واتصلت بالإنترنت ليكون أول ما ظهر لها مقال في مجلة للفضائح تتهم إسلام نت بإنشاء مدرسة غير متسامحة تصف كل من يخالفها بالكفار كما تعرضت المنظمة للانتقاد لدعوتها أئمة مثيرين للجدل ومتهمين بدفع الشباب المسلم النروجي إلى التطرف لتكمل غاندرسون القراءة:

«إسلام نت يأخذ النروج في اتجاه خطير فهم يريدون السيطرة على كيفية تفكير وتصرف المسلمين».

ادعى عابد رجا المحامي والزعيم في الحزب التحرري المركزي من أصول باكستانية والحائز على جائزة فريت أورد لحرية التعبير في نفس العام أن عدداً من المتكلمين في المنظمة يؤيدون تطبيق عقوبة الإعدام على المسلمين المرتدين ويشيدون بالحرب المقدسة ويدافعون عن العنف بحق المرأة ويؤيدون رجم المثليين الجنسيين. أما أختار شودري السياسي في الحزب اليساري الاجتماعي وأول شخص غير غربي يشغل منصب مساعد متحدث باسم البرلمان النروجي فوافقه الرأي:

«ينبغي على المسلمين الشباب تفسير ديننا بما يتوافق مع القيم الإنسانية والديمقراطية للمجتمع النروجي».

أما المسلمون كبار السن فكانت لديهم شكوكهم إذ إن القائمين على المساجد لا يرحبون بنشوء إسلام نت، وهو ما جعل كنوت غاندرسون لا تتشجع، فبالإضافة إلى تحذيرات السياسيين بشأن إسلام نت كان هناك شيء في أسلوب رسالة البريد الإلكتروني التي تلقتها من إسلام نت جعلتها تشعر بوجود خطأ ما... هذا لا يتوافق مع الجو الدولي المنفتح للمدرسة.

وهكذا لم يأت إسلام نت إلى نيسبرو.

7

تناول الطعام مع الشيطان

لم تكن الأمهات الصوماليات في بيرم راضيات عن تدريس القرآن الذي يتلقاه أبناءهن حيث يقوم صديق أحياناً بإعطاء الدروس وفي أحيان أخرى يقوم أحد الآباء الآخرين بذلك، ويقومون بتدريس بعض آيات القرآن والقليل عن محمد وبعض الكلمات العربية قبل أن يتركوا الأطفال يخرجون للعب أو تناول الطعام مما جعل الأمهات يشعرن أن كل ما يفعلونه هو اللعب.

وحين سمعت سارة وبعض الأخريات عن مدرس قرآن مشهور من أحد ما في مسجد التوفيق في المدينة اتفقن على أن يطلبن لقاءه. كان مصطفى شاباً لم يبلغ العشرين من عمره لكنه مدرس محترم يسعى وراءه الجميع. كان يتكلم بصوت هادئ رخم جعل الأمهات يشعرن أنه يفهم ما يردن وأنه في صفهن، وقد وعد بإطار تدريس أكثر صرامة فسحرهن الشاب الوسيم الذي يخفي علامات الصلع الأولى تحت قلنسوة الصلاة واتفقن على التشارك فيما بينهن لدفع أجره... نقود الضمان الاجتماعي وشيكات الدفع وميزانية المنزل تم ادخارها لأجل مدرس القرآن الجديد. وسيتم إعطاء الدروس في أيام الأحد في منازلهن على أساس دوري حيث ستقوم الأمهات بتقديم الطعام لكنهم لن يشاركن في التدريس.

وفي الوقت الذي بدأ فيه إسلام نت بالانتشار التقى الآباء المشرفون على التدريس بالمدرس الجديد ليقول صديق:

- ضعيف بالقواعد العربية.

وقال أب آخر:

- متطرف.

لكن حين يتعلق الأمر بالأطفال فإن التقاليد الصومالية تميل إلى قرار الأمهات.

في الدرس الأول طلب مصطفى من الصغار الجلوس في حلقة حوله على الأرض وقسم الصبيان في جانب والبنات في جانب آخر، فتناول بعض التلاميذ وسائد من الأريكة لكنه نظر إليهم مؤنباً:

- أنتم لستم هنا لترتاحوا... أنتم هنا لتعملوا بجد وتعانوا لكي تستفيدوا في المستقبل.

كانت الأمهات محقات إذ كان مصطفى غير عادي حيث بدا الإسلام في كلماته غير عادي وحتى مغرياً إذ أنشأ مكاناً خاصاً أو غرفة مع مساحة لهم فقط أما الآخرون فبقيوا في الخارج.

أخبرهم مدرس القرآن عن حياة النبي بأسلوب أعاده إلى الحياة كما علمهم الحياة وأركان الإيمان أي الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

وقد شرح لهم مصطفى أن القدر مقسم إلى ثلاثة أنواع:

- كل شيء مكتوب لك منذ يوم ولادتك وكل شيء يحصل في القرآن والقدر الذي تصنعه بنفسك.

فكر إسماعيل أن صوته يضعك في تفكير مورغان فريمان إذ إنه لا يهم ماذا يقول فأنت ستصدقه في كل الأحوال.

وقد كتبت أيان ملاحظات في كتاب تدريبات:

- النية أساس أي عمل، وهناك ثلاثة شروط لتكون النية صافية: إجلال الله ومخافة الله والرغبة بالنعيم.

ويتطلب العيش وفقاً للإسلام الحق أن تفكر بالكثير من الأمور العملية حيث تعلموا متى ينبغي لهم تنظيف أسنانهم والوضوء إذ كتبت أيان في ملاحظاتها الآية القرآنية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ [المائدة: 6].

وكتبت على الهامش: «تذكري الترتيب».

كما كتبت قواعد دخول دورة المياه مثل عدم استقبال القبلة وإنما من الأفضل الجلوس وظهرك إلى الكعبة لكن ظهرك ينبغي أن لا يستقبل الشمس أو القمر. وإن حككت مؤخرتك عبر الثياب أو لمست رجلاً من غير محارمك أو تناولت الكحول أو دخنت أو أمسكت بأعضائك الحساسة أو أغمي عليك أو نمت فعليك الوضوء من جديد. ومن الضروري استخدام يدك اليمنى أثناء الأكل لأنك إن أكلت بيدك اليسرى فستكون تأكل مع الشيطان كما أن الطعام الذي تأكله بيدك اليسرى لا يمنحك سوى نصف الغذاء.

وعلمهم مصطفى الحلال والحرام وشرح لهم تفاصيل جزاء ارتكاب المحرمات. كان أبناء عائلة جمعة يعرفون معظم ذلك من قبل لكن هناك بعض الأمور الجديدة عليهم حيث كتبت أيان في كتاب تدريبها:

- الأواني الذهبية أو الفضية غير مباحة!

كانت الصفحة مليئة بالقواعد والمواعظ حول ما هو صحيح ومناسب وطاهر!

أحياناً تعتمد قواعد مصطفى المعيشية على القرآن الشريعة وأحياناً وأخرى على المعتقدات والتقاليد، فحين تعثر أحد الفتيان بحذاء في الممر مما قلبه رأساً على عقب صرخ مصطفى:

- اقلبه! إياك أن تترك أسفل الحذاء للأعلى!

وحين سألوه عن السبب أخبرهم أنه ينبغي أن لا ندير أسفل الحذاء لله لأن أسفله قذر ولا ندري على ماذا قد داس، وبهذا لن تدخل الملائكة المنزل مما سيجعل الله يتجاهله.

كما كان مصطفى صارماً فيما يتعلق باللفظ عند قراءة القرآن، وفي كل جلسة يختار بعض التلاميذ ليقرؤوا درس الأسبوع للآخرين. وقد كان الأخوة

الثلاثة من عائلة جمعة متوسطي المستوى حين كان والدهم يدرسهم أما الآن فأصبحت أيان وليلى تدرسان بكثافة مما أسعد أمهما في حين بدأ إسماعيل يتراجع وهو ما أزعجها.

ومع مرور الأسابيع اطلع التلاميذ على العديد من مفاهيم الإسلام الأساسية كالأنواع المختلفة للحرب المقدسة: جهاد النفس أو الجهاد مع الروح الذي يشمل الصراع مع الرغبات والأفكار الشريرة حيث تجاهد لتعيش كما يريد الله والجهاد بالسيف حيث تقاتل الكفار. وهناك جهاد ضد المنافقين والخونة والحكام الظالمين يمكن شنه بطرق مختلفة إما بالقلب أو باللسان أو باليد أو القلم أو المال أو بكامل الوجود، وأسمى أشكال الجهاد هو المخاطرة بحياتك وأنت تقاتل.

حيث قال مصطفى:

- أولئك الذين يشنون هذا النوع الأخير من الجهاد سيجلسون تحت عرش الرحمن في الفردوس.

وقد بدأ إسماعيل يمقت مدرس القرآن حيث وجد أنه معتد بنفسه ومظهره مضحك في حين تزايد إعجاب أيان وليلى به.

كان الموت من المواضيع الرئيسية بالنسبة لمصطفى حيث بدا الموت في النصوص التي اختارها جميلاً كما أن الشهداء يموتون بينما ترتسم ابتسامة على وجوههم وتفوح منهم رائحة المسك.

- نحن المسلمون نرى الموت كبداية، فالحياة لا تبدأ إلا بعد الموت.

فانتقده إسماعيل قائلاً لأخته:

- إنه يقوم بتجميل الموت!

وقد اتفقتا في تجاهل اعتراضات أخيهما حيث بدأت أيان تزين المعتقدات المكتوبة في كتابها بحواف جميلة ومن ^^^^

وقد فكر إسماعيل أن ما يتعلمونه غير جيد وسأل مصطفى:

- أتقصد أن عليك قتل غير المسلمين؟

- إنه حديث عن النبي رواه عبد الله بن عمر صهر النبي... إنه مصدر موثوق.

ثم روى عن صاحب النبي أبي هريرة قوله:

«كان الناس قبلنا يسألون كثيراً ويعارضون أنبياءهم».

وقد اعتبر إسماعيل ذلك تأنيباً فتوقف عن كتابة الملاحظات. أولئك الرجال الذين ولدوا في القرن السابع في شبه الجزيرة العربية ملأوا صفحات كتاب أيان لا يعنون شيئاً بالنسبة له.

وقد سألته فتاة إن كان ترك الإسلام يعني الموت حقاً فأجابها:

- أنا فقط أروي عن صاحب النبي المقرب وهو يروي عن محمد... تذكري! محمد تلقى تعاليمه مباشرة من الله.

فعارضته الفتاة:

- لكنني سمعت أن الله هو الحكم الوحيد في موضوع الردة ولا يمكن للناس عقاب أحد على ترك الإسلام.

فأوضح المدرس:

- حين يرتد الشخص ويترك الإسلام يمكن هدر دمه ويمكن إعدامه وفقاً للشريعة لأن النبي قال: «من يرتد منكم عن دينه فاقتلوه».

أراد إسماعيل الابتعاد فأضاف مصطفى أن من يترك الإسلام لا يتم غسله قبل دفنه ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وقد ضربت هذه الموعظة على وتر حساس لديهم... وتردد ما سمعوه في الدرس حتى تجذر... الانسحاب... الابتعاد... الخلاف. وبعد كل درس كانوا يبتعدون أكثر عن محيطهم المباشر... عن بيرم.

وسجلت أيان ملاحظة باللون الأزرق على ورقة مربعة في كتابها:

«تذكري الله كل يوم! إن وثقت بالله سيبتليك بالخوف والجوع وفقدان الثروة والأذى لكن من يصبر سيكسب مكاناً في النعيم ويلقى جزاء لا حدود له».

ازدادت الجدران حول الغرفة التي بناها مدرس القرآن سماكة وانخفض السقف وصغرت النوافذ... بدا ذلك ظالماً للبعض ومغرياً لآخرين.

أراد إسماعيل الانسحاب بينما رغبت أيان بالتعمق أكثر.

8

النروج... لك إخلاصنا

أصبح جميع أفراد عائلة جمعة مواطنين نروجيين وحصلوا على جوازات سفر وعلى الحق بالتصويت بالإضافة إلى الخدمات العامة لكن جنسيتهم بقيت نروجية صومالية.

تلقى الأطفال كامل دراستهم في النروج وتعلموا النشيد الوطني «النروج... لك إخلاصنا» وغيرها من الأناشيد التي تعبر عن حب البلاد وعلمها مثل «النروج بالأحمر والأبيض والأزرق» التي تمت كتابتها كرد على الاحتلال الألماني خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عيد الدستور في 17 مايو يرتدون أفضل ملابسهم ويلوحون بالأعلام في مسيرة للأطفال كما يفعل الجميع. وفي 2011 أرسلت أيان رسالة نصية إلى إيلا التي لم ترها منذ زمن:

- مرحباً... عيد دستور سعيد.

فردت عليها إيلا بوجه مبتسم وأمنيات سعيدة إذ كانت تحتفل مع عائلتها في التجمع الصيني في أوسلو بينما ذهبت أيان وليلى مع إخوتهما الصغار إلى المدرسة المحلية حيث يشارك جبريل في سباق الأكياس وسباق الملعقة والبيضة ورمي غطاء الصفيح.

كانت عائشة قد توقفت عن حضور الاحتفال بالعيد الوطني بعد أن حدث نقاش على الموقع الإلكتروني لإسلام نت إن كان بإمكان المسلمين الاحتفال بالدستور النروجي الذي لا يعتمد على الشريعة، وانقسمت الآراء حيث رأى البعض أنه ما من مشكلة فالدستور ليس سيئاً لكن عائشة اعتبرت أن من المحرم الاحتفال بيوم وطني لبلد مسيحي وخاصة إن كان علم البلد

مزيناً بصليب.

وكتبت عائشة مقالاً سيتم نشره في نفس الشهر حيث أن دار آشهوغ للنشر تواصلت مع عدد من الفتيات المسلمات وطلبت منهن أن يكتبن عن حياتهن وعقيدتهن من أجل كتاب يدعى «غير مغطاة». كانت عائشة واحدة من قلة في النروج يرتدين النقاب الكامل، وقد وجدها المحرر من خلال صفحات النقاش على إسلام نت وسألها إن كانت تقبل بكتابة شيء فقبلت كتابة مقال بعنوان «أنت وأنا والنقاب»:

«ولدت وترعرعت في النروج. وإن كان هناك أمر تعلمته فهو أن الاحترام والتسامح والمساواة والتضامن والاتحاد قيم مهمة في المجتمع النروجي. لكن هل من الاحترام أن يملي الناس عليّ آراءهم ويقرنونني بشيء إجرامي؟ ويهينونني بقولهم إنني أدعم قمع المرأة وقتل الأبرياء؟ واتهامي بسلوك لم أقترفه؟ وإخباري أنني تعرضت لغسيل دماغ؟ إذن ما هو التسامح؟ لا يهمني عدم الدعم أو القبول لكنني أعتقد أن الانفتاح ليس بالطلب الكبير في بلد يفترض أنه يثمن أفكار وأساليب الآخرين».

بينما كان الناس يقرأون ويناقشون الفصل الذي كتبته عائشة كانت حياتها تتهاوى من حولها حيث أرادت الهرب من منزلها، فطوال حياتهن كانت عائشة وأخواتها يرين والدهن يضرب أمهن بالجدار والأثاث ويرميها على الأرض ويجلدها بالحزام ويقذفها بالأغراض. كان والدها يتقاضى تعويض إعاقة بعد حادث سيارة في ثمانينات القرن العشرين، ثم بدأ الأب يوجه غضبه إلى بناته الخمسة اللواتي كان يقول دائماً أنه يرغب باستبدالهن بأبناء. كن يتجنبن إثارة غضبه خشية أن يكسر ما حوله ويضرب أمهن ويجرها على الأرض لدرجة أنهن يضطررن أحياناً لرمي أنفسهن فوقه من أجل إنقاذها.

وقد كانت الأم تحرص على تخفيف الأغراض القابلة للكسر في المنزل وإحضار عدة بدائل من أي غرض لأن الأب قد يغضب إن لم يجد شيئاً يبحث عنه لهذا من الأفضل إبقاء كل شيء مرتباً.

كانت عائشة تسمع أباها يصرخ في أمها:

- عاهرة! كلبة! خنزيرة!

بينما كان يقول لبناته:

- بنات الخنزيرة.

وحين بلغت الثانية عشرة من عمرها لم تعد عائشة تحتمل، وخلال شجار بين والديها وقفت أمام أمها لتمنع أباها من ضربها فلكمها على وجهها ودفعها جانباً وترك زوجته وشأنها. ويبدو أن احتجاج ابنتها منح الأم القوة حيث اتصلت بالشرطة لأول مرة بعد خمس عشرة سنة في النروج... بعد خمس عشرة سنة من الإهانة. وقد جاءت سيارة دورية لكن شيئاً لم يتغير. وفي العام التالي دفعها زوجها إلى الأرض وخنقها وضرب رأسها بالأرض حتى ظنت أنها ستموت بينما بكت بناتها الصغيرات فقررت إن نجت أن تبلغ عنه ليتم تحويل القضية إلى خدمة الوساطة حيث تم التوصل إلى قيام والد عائشة «بقطع وعود بعدم التعامل مع زوجته بعنف مجدداً ومحاولة فهمها على نحو أفضل ومنحها المزيد من الوقت كما سيمتنع عن الشتائم وخاصة تلك التي تشير إلى الخنازير».

لكن شيئاً لم يتغير.

وفي إحدى الأمسيات كان الأب وحيداً مع بناته وغضب من تشاجرهن فبدأ يضرب واحدة من الفتيات الصغيرات وهو يصرخ أنه يضربهن بسبب أخطائهن، فركضت الطفلات إلى الحمام للهروب من ضرباته لكن الأب لحق بهن فسدت عائشة الباب أمامه فضربها هي وأخواتها لتعلق أصابعها في الباب وتتأذى بشدة مما تطلب علاجاً في المشفى.

وعندما تعافت يدها كتبت مقالها لكتاب «غير مغطاة».

أصبحت عائشة كاتبة أما أيان وأميرة فارتقتا في إسلام نت. وفي صيف 2011 تم تعيينهما في اللجنة التنظيمية للمجموعة.

في اللقاء الأول في يوم أربعاء حار من شهر يوليو جلس مجموعة من الطلاب يخططون للحدث الكبير للسنة المقبلة... مؤتمر السلام... من سيتكلم؟ أين سيتم عقده؟ تم عقد مؤتمر السنة الماضية في قاعة سينتروم للحفلات في مركز المدينة لكن مثل هذا الموقع مكلف للغاية. كلما ابتعدت عن المدينة كلما أصبح السعر أرخص لكن كلما كنت في قلب المدينة كلما ازداد عدد الزوار. في اليومين الأولين من حدث السنة الماضية تم استهداف غير المسلمين الذي لا يدفعون أي رسوم دخول إذ إن إسلام نت يطمح لهداية الشباب النروجي.

وبعد يومين من اجتماع اللجنة التنظيمية انفجرت قنبلة بوزن عشرين ألف رطل خارج الأبنية الحكومية في أوسلو واتجهت أصابع الاتهام على الفور إلى الإرهابيين الإسلاميين كما تركزت الشكوك حول القاعدة. وبعد ساعتين من انفجار القنبلة قام رجل أشقر يرتدي بذلة شرطة بإطلاق النار على أول ضحاياه على جزيرة يوتويا حيث كان الجناح الشاب في حزب العمال يعقد معسكره الصيفي. وخلال المساء اتضح أنه ما من منظمة إرهاب أجنبية وراء الهجمات وإنما أنديرس بيهرينغ بريفيك المتطرف اليميني النروجي. وقد أودى هذا العمل الإرهابي بحياة سبع وسبعين شخصاً.

وفي بيانه المتوفر على الإنترنت طالب بيريفيك بإزالة الإسلام من أوربا وهدم المساجد وتدمير جميع آثار الإرث الثقافي الإسلامي. أما المسلمون فإما أن يرتدوا عن دينهم أو يتم ترحيلهم أو يواجهوا عقوبة الموت. ينبغي منع اللغات العربية والأوردو والصومالية والفارسية كما ينبغي للمسلمين اختيار أسماء مسيحية ويمنع التواصل مع أقاربهم في مواطنهم الأصلية إن كانت نسبة المسلمين في ذلك البلد أكثر من 20 بالمائة. ولا يسمح لهم بإنجاب أكثر من طفلين.

وعلى الرغم من إعلانه كراهية المسلمين لكن الإرهابي هاجم حزب العمال ولم يهاجم مسجداً أو إسلام نت لأنهم هم من سمحوا للمسلمين

بدخول البلاد، ولهذا فإن العمل الإرهابي سيجبرهم على رؤية الخطأ في أسلوبهم ويجعلهم يحدون من موجة هجرة المسلمين.

وقد أصيب النروجيون بصدمة وبدأوا يتواصلون مع بعضهم حيث كتبت أيان مباشرة بعد الهجوم:

- مرحباً يا إيلا... كيف حالك وحال أحبابك؟

الصديقات اللواتي كن مقربات من بعضهم فيما مضى لم يرين بعضهن منذ المدرسة الإعدادية إذ إن الظروف التي جمعتهن في مجموعة المهاجرين في غجيتوم قد تلاشت حينما لم تعدن بحاجة بعضهن، فقد تفرقن في طرق مختلفة وتغيرت جوانب كثيرة في شخصياتهن. ردت إيلا:

- أهلا بك... أنا بخير... لم يتأذ أحد أعرفه... وأنت؟
- يسعدني سماع ذلك... لا أعرف... لم أسمع بأحد أعرفه.
- آه... هذا جيد! علينا أن نلتقي عما قريب! متى يناسبك؟
- يمكنني رؤيتك في أي يوم باستثناء يومي الأربعاء والجمعة.
- إذن ما رأيك بالغد؟
- جيد... ماذا سنفعل؟
- يمكننا التوجه إلى ساندفيكا وشراء الفراولة والجلوس على الشاطئ؟ أو الذهاب للتسوق؟

ردت أيان:

- لم أذهب إلى مركز التسوق منذ زمن لكنني لن أرفض الفراولة.

واتفقتا على اللقاء في منزل إيلا. كانت الشمس مشرقة والناس يتجولون وبالكاد يرتدون شيئاً.

تفاجأت إيلا حين فتحت الباب لكنها لم تقل شيئاً سوى:

- أيااااان!

سألت أيان حين دخلت:

- هل أباك في المنزل؟

هزت إيلا رأسها بالنفي.

- وماذا عن إخوتك؟

لم يكن هناك أحد آخر في المنزل... أزالت أيان أغطيتها حتى وقفت في كنزة بلا أكمام وسروال خفيف مبللة بالعرق. نظرت إليها إيلا... آه... من الجيد رؤيتك! وبدأت الاثنتان بالضحك وهما تحتضنان بعضهما.

وبسهولة وجدتا طريقهما إلى صداقتهما القديمة وتبادلتا الدعابات، وعلى شرفة إيلا بعثت الشمس الحرارة في جسد أيان الذي لا تكشفه لأحد وتناولتا الفراولة ونظرتا إلى بعضهما وضحكتا، ولم تذهب الفتاتان ابنتا السبعة عشر عاماً للتسوق إذ لم تكونا بحاجة سوى للبقاء مع بعضهما مثلهما مثل جميع الناس في النروج تلك الأيام.

إذ مضى بعض الوقت... بضعة أسابيع... بضعة شهور... كان للكلمات «الحب» و«الاجتماع» معانٍ حقيقية لكن بالنسبة إلى أيان وإيلا وغيرهما الكثير ذلك التضامن لن يستمر.

إذ كان ذلك آخر لقاء لهما.

- ما لم يتم تحديد سوى ذلك ينبغي الرد على أية رسائل بريد إلكتروني مني خلال أربع وعشرين ساعة!

بعد خمسة أيام من الهجمات الإرهابية طالب قائد إسلام نت بزيادة اللجنة التنظيمية لالتزامها.

سأل فهد قريش:

- من منكم اطلع على جميع المستندات التي أرسلتها وطلبت منكم قراءتها؟

كانت اللجنة تناقش كيفية جني المزيد من المال واتفقوا على تنظيم عشاء جمع تبرعات.

- يجب على كل واحد ضمان اشتراك خمسة أشخاص أثرياء. عليك يا

نفيسة التأكد من حضور مائة امرأة أما أنت يا سعد فتأكد من حضور مائة رجل إن شاء الله.

كان سبب غضبه عدم اطلاعه على تسويق حدث «طريق إلى الفردوس» حيث كان من المفترض بأميرة تصميم الدعوات بينما تشرف أيان عليها.

- وعلى مادية التأكد من أن أيان تقوم بعملها. هل وجدت أيان أخوات يحضرن الحدث؟ ينبغي تحسين الإعلان على صفحة الفيسبوك... ينبغي أن يكون هناك سبعمائة مشارك مؤكدين على فيسبوك قبل يوم الجمعة.

تم تكليف أيان بمسؤولية تصميم المنشورات:

- هل تم الاتفاق على خط العنوان؟ لا... على مادية أن تتذكر أن تسأل أيان عن ذلك وعلى أيان التفكير في ذلك... حين تعملون على التخطيط للمناسبات عليك الاهتمام بالمناسبة طوال الوقت لتبقى متيقظاً لأمور تحتاج للإصلاح.

كان فهد قريش القائد المطلق لإسلام نت حيث سيطر طالب هندسة الإنشاءات المنظمة كما لو أنها مملكة عربية حيث يتخذ هو وأخوه جميع القرارات المهمة، ويتمتع أفراد العائلة الآخرون بأدوار أساسية حيث أن مادية زوجة فهد ملكة النساء كما أن الديمقراطية لم تكن موجودة بل المطلوب الولاء التام.

وهذا الأسلوب الاستبدادي لم يناسب الجميع حيث كان هناك أولئك الذين حضروا عدة اجتماعات ووجدوا الأمر غير مثير للاهتمام فاختفوا لكن من جهة أخرى هناك المزيد من الناس يتدفقون إلى المنظمة. وخلال سنتين أصبح إسلام نت أهم حركة سلفية في النروج حيث تم الادعاء بوجود ألفي عضو لكن هناك مساعٍ لزيادة العدد.

كانت اللجنة تخطط لحدث لتجنيد المزيد من الفتيات حيث سأل القائد:

- متى يمكن لأيان الانتهاء من تصميم المنشورات؟ على أيان أن تطلب

مني أن أرسل لها شعار إسلام نت... نحن بحاجة إلى عشر أخوات ليعملن على جمع التبرعات وعلى أيان إيجادهن ثم الحصول على موافقة مادية عليهن لأن فهمهن التام للعمل له أهمية قصوى.

وقد وضعت أيان أربع إشارات تعجب في الهامش أمام هذه النقطة الأخيرة.

وقبل أسبوع على بداية الفصل الدراسي ضيق فهد الخناق:

- ينبغي إرسال تفاصيل الاجتماعات للجميع في نفس يوم الاجتماع. على أيان تذكر ذلك... الاجتماعات إجبارية... إن لم يحضر شخص ما فهو مؤذٍ للمجموعة بكاملها... لو كان هذا العمل بأجر لحضر الجميع في الوقت المحدد... إننا نفعل هذا في سبيل الله وهو أكثر أهمية من العمل بأجر.

لم يكن فهد راضياً عن مبيعات التذاكر:

- أيان مسؤولة عن توظيف أخوات وعن الترويج على النت. هل لدينا عشر أخوات للعمل على جمع التبرعات يا أيان؟

وقد شهد فصل الصيف تغييراً في أسلوب ملابس أيان حيث جاءت إلى أول درس في الفصل الجديد بملابس سوداء تغطيها من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها.

فافترضت معلمة الاقتصاد التي درست في أمريكا أن والديها فرضا ذلك عليها، وما إن سنحت لها الفرصة سألتها:

- لماذا ترتدين هذه الملابس؟ لماذا اللون الأسود؟ لماذا البني؟ لم ليس أخضر أو أزرق أو وردي؟

ردت أيان:

- آه... هذا ما تقوله أمي أيضاً!

فتفاجأت المعلمة بردها... أليست الأم المسؤولة عن غطائها؟ لا بد أن

الوالدين هما السبب، ففي الثقافة الصومالية أصبحت أيان في سن الزواج منذ مدة. لفتت أيان نظر المعلمة في الممرات في السنة الماضية لأنها كانت تعتقد أن أيان أنيقة للغاية في وشاحها الملون وسروالها العصري، ولطالما كانت معجبة بطريقة تناسق وشاح الرأس مع ما ترتديه.

وفي أحد الأيام جاءت أيان ترتدي اللون الأسود فحسب فسألتها المعلمة:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- اليوم الجمعة... ينبغي أن أذهب إلى المسجد.

فأخذتها المعلمة جانباً وسألتها:

- هل تلبس أمك هكذا؟

- لا... لكنها ستفعل عما قريب... وأختي تلبس هكذا أيضاً.

ثم سألت أيان إن كان بإمكانها المغادرة أبكر قليلاً لتلحق بالصلاة، وهو طلب أصبحت تطلبه كل يوم جمعة.

تم استدعاء والديها إلى اجتماع فجاء والدها وحده فسألته المعلمة:

- ما الذي يحصل بالضبط؟

لم يكن لباس أيان الشيء الوحيد الذي يقلقها إذ إنها توقفت عن إنجاز واجباتها المدرسية ولم تعد تحضر دروسها مع أن برنامج البكالوريا الدولية يتطلب من التلاميذ القيام بالكثير من العمل حسبما أكدت معلمة الاقتصاد.

تفاجأ صديق إذ لم يكن مدركاً لذلك حيث كان يظن أن أيان مشغولة بواجباتها المدرسية طوال الوقت، فاعتذر معترفاً أنه قد يكون منشغلاً زيادة عن اللزوم بدراسته ليصبح مهندساً.

فنظرت إليه المعلمة بتجهم وقالت إن على التلاميذ العمل بأنفسهم إذ إنها هي وصلت إلى ما هي عليه الآن من خلال الالتزام التام.

فأضاف صديق أن أيان تمضي معظم وقتها على جهاز الحاسب في غرفتها.

قالت المعلمة:

- نعم... بالضبط... إنها تشغل جهاز الحاسب في الصف أيضاً.

في بعض الأحيان تضطر المعلمة التوجه إلى أيان وإغلاق الجهاز، وفي إحدى المرات وجدت أن أيان تفتح صفحة إسلام نت فقالت لها:

- ليس لهذا أي علاقة بهذا الدرس!

وقد طالب تقرير اجتماع اللجنة التنظيمية التالية بنظام أكثر صرامة.

- لقد تعرضت أنا ومادية لمشاكل في التواصل مع اللجنة إذ إنكم لا تجيبون على رسائل البريد الإلكتروني أو تتحملون المسؤولية أو تنجزون المهام... لا يمكننا الاستمرار بهذا إن أردنا الوصول إلى هدفنا من إسلام نت.

ثم شدد فهد قريش على أن من المفترض باللجنة أن تعمل كيد يمنى للمجلس، وأكد على فكرة:

- اليوم سنطبق نظام غرامات حيث سيكون لكل مهمة موعد نهائي، وعدم الالتزام بالقيود الزمنية سيتطلب فرض عقوبة. على الجميع الرد على رسائل البريد الإلكتروني الواردة مني ومن أعضاء المجلس الآخرين خلال 24 ساعة وإلا سيدفعون غرامة. وينبغي إرسال التقارير قبل الساعة 3 صباحاً من يوم السبت كل أسبوع، وإن كان هناك تأخير سيتم فرض غرامة وتحديد موعد نهائي ظهر يوم الأحد. الغرامة الأولى 100 كرونر أما الغرامة الثانية 200 كرونر، وفي حال عدم الالتزام بالموعدين النهائيين سيتم دفع 300 كرونر. وبعد ذلك سيتم تحديد موعد نهائي جديد وفرض غرامة جديدة في كل حالة.

كانت العقوبات السوط الجديد الذي سيستخدمه.

لم تكن هناك سوى مجموعة من الأعضاء في اللجنة مما تطلب الكثير من الجهد منهم. كانت أيان موكلة بمهمة توجيه جمع التبرعات لمؤتمر السلام في 2012، وتم تحديد مدة أسبوعين لتجمع 50000 كرونر ونشر إعلانات

في صحيفتين محليتين وإرسال الشعارات وتوقيع عقود مع شركة هواتف محمولة. كانت اللجنة تبحث عن مكان لعقد المؤتمر، ولسوء الحظ الكثير من الأماكن لا تسمح بفصل النساء عن الرجال.

تم توكيل أميرة بمهمة الحصول على تمويل عام للمؤتمر:

- بحلول الأربعاء القادم عليها الحصول على مساعدات والبدء بعملية التسجيل وتعلم كيفية إدارة الحسابات.

في نهاية سبتمبر حصلت أيان على غرامتها الأولى حيث فشلت في نشر إعلان في إحدى الصحف المحلية إذ ذكر التقرير:

«لم يتم الالتزام بالموعد النهائي... يتم تغريم أيان بمبلغ 100 كرونر... هل تم دفع ذلك؟».

كانت اللجنة تخطط لحدث يشمل الواعظ المصري فاضل سليمان بهدف تحسين العمل الدعوي، وقد ذكر التقرير:

«سيتم الحديث عن مهارات الإلقاء ومهارات الخطابة وتقديم الطقوس والمعتقدات الإسلامية وأسئلة غير المسلمين».

كان القبول مجانياً بالنسبة لأعضاء إسلام نت وسيقوم فهد بتنظيم الأخوة المتطوعين بينما تنظم أيان الأخوات.

وقد كان سليمان مثيراً للجدل حيث قال إن من المقبول ضرب الزوجة التي لا تطيعك... يمكنك صفعها أو ضربها بالعصا لكن عصا صغيرة. وقد كانت أفكاره مقبولة فيما يتعلق بإسلام نت لكن القائد لم يكن راضياً عن التحضيرات لزيارته.

- على أيان تنظيم الأخوات للعمل أما مادية فعليها معرفة من هم مسبقاً لا في اليوم ذاته. كما أن مادية تعتقد أن الأشخاص الذين قدمتهم أيان غير كفؤين. سيتم فرض غرامة على أيان بسبب عدم استلامي قائمة الندوات التي روجت أميرة للحدث بناء عليهم... الموعد النهائي الجديد غداً!

لاحظت معلمة الاقتصاد أن أيان ترتدي خاتماً جديداً ذهبي اللون تعبث به في الصف... هل هو خاتم خطوبة؟ استدعت المعلمة والديها مجدداً فجاء الأب.

- ما هي خططكم لأجل أيان؟

حين تردد صديق تكلمت المعلمة بصراحة:

- هل ستزوجونها؟

رد صديق:

- لاااا! نحن لسنا متطرفين.

لم تخطر فكرة التطرف في بال المعلمة إذ كان كل ما يهمها هو أن لا يكونوا يضغطون على أيان لتلتزم بدور المرأة التقليدي المنغلق.

ومع نهاية الخريف وجدت المعلمة نفسها غير قادرة على تجاهل تشتت انتباه أيان الدائم في الصف. وفي صباح أحد الأيام كانت تشرح مفهوم العرض والطلب في الاقتصاد حين لاحظت أن شفتي أيان تتحركان بسرعة وصمت بينما تحركت أصابعها وهي تعد شيئاً غير مرئي، وفي عينيها نظرة تأمل.

ضربت المعلمة مقعد أيان بيدها وصاحت:

- لا يمكنك فعل هذا أمامي!

لم تكن تلك المرة الأولى التي تطلب فيها من أيان أن تتوقف عن الصلاة خلال الدروس حيث كانت تعتبر ذلك إهانة وتشتيتاً لتركيزها بالإضافة إلى إظهار قلة الاحترام، ثم طلبت المعلمة من أيان مغادرة الصف إن أرادت الصلاة.

في اليوم التالي قررت المعلمة أن الوقت قد حان لإجراء حديث جدي إذ كانت تريد معرفة ما يحصل بالضبط في حياة التلميذة، وقد استفهمت المعلمة عن عدم بذل أيان لأي جهد في مهامها المدرسية.

- أنت متأخرة كثيراً! ستضيع السنة بكاملها... استجمعي قواك.

كان البرنامج كثير التطلب... ربما ترغب أيان بالانتقال إلى المنهج

الدراسي العادي لتتسنى لها الفرصة لتعويض ما فاتها؟

ردت أيان:

- سأفكر في الأمر.

كان ذلك في بداية نوفمبر والصقيع يغلف الجو بينما بدأت أول دروس اليوم. كانت أيان مغطاة بعدة طبقات من القماش فوق معطفها وتحته، وحين حاولت إزالة الطبقة الخارجية ارتفع الوشاح فعلقت ذراعاها فوق رأسها. جاءت زميلة لها لمساعدتها حتى تمكنت أيان في النهاية من إزالة ما تريد خلعه وإعادة ما تريد إبقاءه.

سألها صبي:

- لماذا ترتدين كل هذا؟

- لأنني أريد الناس أن يروا فكري لا جسدي.

- ولماذا لا ينبغي أن يروا جسدك؟

- لأنه ينبغي أن تكون مهتماً بعقلي.

فردت معلمة الاقتصاد:

- في تلك الحالة من الأفضل لك أن تستخدميه لنعرف أن لديك واحداً.

كان ذلك آخر يوم لأيان في نيسبرو.

9

هذا اللباس

«كن التغيير الذي تتمنى رؤيته في العالم».

ظهر الاقتباس المنسوب خطأ إلى المهاتما غاندي بأحرف سوداء على الجانب الداخلي من باب مدرسة دونسكي الثانوية وإلى جانبه اقتباس لمونتي بايثون:

«دائماً انظر إلى الجانب المشرق من الحياة».

وعبارة «أهلاً وسهلاً» مكتوبة بعدة لغات وبأحرف مختلفة إلى جانب منشورات تحذر من خطر تعاطي المخدرات. عند المدخل هناك سلم يؤدي إلى الطابق الثاني حيث توجد صفوف ومكتبة في طرف ومكتب المدير وغرف الموظفين في الطرف الآخر. وهناك باب زجاجي يقسم الممر بالنصف كان فيما مضى مفتوحاً دائماً حتى قام أحد التلاميذ بسرقة حقائب المعلمين وهواتفهم المحمولة وحواسيبهم، ومنذ ذلك الحين تم وضع قفل ورمز لفتح الباب.

كانت تلك مدرسة أيان الجديدة.

في بداية نوفمبر 2011 أبلغت أيان المستشار في مدرسة نيسبرو أنها تريد الانتقال إلى دونسكي لأن جميع أصدقائها هناك.

من محطة القطار القريبة من المدرسة يمكنها الوصول إلى مركز مدينة أوسلو خلال نصف ساعة، وقد تكيفت بسرعة مع الجو الجديد لأن المعايير الأكاديمية في دونسكي أخفض والروتين أكثر مرونة مما منحها مزيداً من الوقت من أجل إسلام نت.

وفي نهاية نوفمبر تراكمت المهام الموكلة من إسلام نت:

- علـى أيـان أن تجـول على المتاجر في أوسـلو لتجد راعين... هل تم إنجاز ذلك؟ إن لم يتم إنجازه سيتم فرض غرامة وإن لم يتم إنجازه حتى نهاية اليوم هذا يعني غرامة أخرى. لم يعد هناك الكثير من الوقت حتى الموعد النهائي للتمويل وأيان لم تتمكن من إيجاد راعٍ واحد... هل تم تنفيذ ذلك؟ إن لم يتم تنفيذه هناك غرامة.

وقد كتبت أيان على نسختها من التقرير:

- تكلمي مع مادية!!! تواصلي مع مادية! اسألي فهد!

وتحت العنوان «مشتت» يذكر التقرير:

«الموعد النهائي لدفع الغرامة بعد أسبوع من فرضها، وهنا غرامة وموعد نهائـي فـي الغـد بالنسـبة لأولئك الذين لم يرسـلوا التقارير مـن الدروس التي شاركوا فيها... هل قام الجميع بدفع غراماتهم؟».

وفي أيام الأحد استمرت مدرسة القرآن في بيرم.

كانت نظرة مصطفى مماثلة لنظرة أفراد إسلام نت... عيش حياة نقية أمر مستحيل في حال تمسكت بالمجتمع النروجي بكل فساده وانحلاله الأخلاقي، فأسلوب الحياة الغربـي يعني النوادي الليلية والمخدرات والجنس، وهذا كله يؤدي إلى الجحيم.

وقد شارك قادة إسلام نت بالخطاب ذاته:

- النروجيون يشعرون بالملل من يوم الإثنين حتى الجمعة ثم تأتي عطلة نهاية الأسبوع كراحة مليئة بالثمالة والجنس.

وقد أخبر فهد قريش مجموعة من المراهقين أن معظم النروجيين يعانون من الاكتئاب، وكلما انشغلنا بهذا العالم أكثر كلما ازددنا اكتئاباً.

ومـن أجـل إيجـاد الخلاص عليك أن تعيش وفقاً لقواعد الإسـلام الحق

مما يعني حجاب المرأة وعدم مصافحة الرجال وتجنب الاختلاط وعدم الخلوة برجل أجنبي لأن الشيطان موجود دائماً.

أحياناً تتم إقامة دروس القرآن في منزل عائلة جمعة مما جعل من الصعب على إسماعيل التغيب عنها لكن كلما تعلقت أختاه بنظرة مصطفى للحياة كلما ازداد هو تمرداً حيث وجد أن أفكار مدرس القرآن مثيرة للقلق حيث أخبر أيان أن مصطفى يروج للمجموعات الإرهابية بتمويل من ماما والأمهات الأخريات.

في إحدى المرات سأله إسماعيل صراحة إن كان يدعم القاعدة لكن مصطفى لم يرد، فسأله إسماعيل:

- وماذا عن المجموعة الإرهابية الشباب؟

فكان رد مصطفى غامضاً:

- ليس لدي أي شيء سيئ عنهم.

ارتاع إسماعيل وأخبر أمه أن المدرس رفض إدانة تلك التنظيمات الإرهابية لكن سارة اكتفت بقول:

- لا بد أنك سمعت خطأ.

وتجاهلت ابنها ظناً منها أنه يحاول التملص من دروس الأحد.

كان إسماعيل يرى أن مصطفى يدفع تلاميذه الصغار الذين يبلغ عمرهم حوالي اثني عشر عاماً إلى معسكر الكراهية ويخلق صورة للعدو ويعزز فكرة عدم الثقة في أذهانهم: وسائل الإعلام متواطئة مع المؤسسات الأمنية في الغرب وهي تقف في صف أولئك الساعين إلى تدمير الإسلام.

وفي أحد الأيام قال مدرس القرآن:

- أريد أن أعرف إن كان بإمكاني الثقة بكم... لنقل أنني فعلت شيئاً ضد الغرب وجاء مكتب التحقيقات الفيدرالي أو الاستخبارات المركزية للقبض علي لكنني اختبأت في الخزانة هناك. وحين دخل العملاء الغرفة مدججين بأسلحتهم سألوكم:

- أين مصطفى؟ أين هو؟
هل ستخبرونهم بمكاني.
نظر الصغار إليه بصمت وبعضهم هز رأسه بالنفي.
لكن ذلك ليس كافياً.
- ارفعوا يدكم! ارفعوا يدكم إن كنتم ستخبرونهم أنني في الخزانة!
لم يرفع أحد يده ولا حتى إسماعيل الذي لم يكن يرغب بالنقاش.

أصبحت عائشة أول شهيرة نروجية ترتدي النقاب إذ جذبت مشاركتها في «غير مغطاة» اهتمام منظمة «رابطة اقرأ» الحكومية التي تهدف إلى الترويج للقراءة والعلم بين الأطفال والمراهقين. وقد أرسلوا نصوصاً من الكتاب للمدارس الثانوية وعرضوا التسهيل لقيام الكاتبات بزيارات للمدارس، فقبلت عائشة الدعوة إذ إنها لو نجحت في هداية شخص واحد في الحملة التي ترعاها رابطة الكتاب والمترجمين النروجيين ستكسب الكثير من الأجر.

ولم يتأخر الانتقاد حيث زعم الأستاذ كجيل لارس بيرج من جامعة أوسلو أن هذا الزي يحمل معانٍ سياسية ولا ينبع عن خيار وجودي أو خاص، وقد ذكر في صحيفة كلاسيكيمبين في يناير 2012:

- إنه يدل على معتقد ديني متطرف ويرتبط ببرنامج سياسي قائم على التوجه الفاشي. نحن نعلم جيداً ما تمثله هذه المجموعات التي ليس لها مكان في صفوفنا المدرسية.

وكاحتجاج على هذا الأمر قام الكاتب مورتين سكاردال بإعادة جائزة حصل عليها من رابطة اقرأ كما قامت المحررة الثقافية في صحيفة بيرجينز تيدند هيلد ساندفيك بالمقارنة بين عائشة شيزادي والمتطرف اليميني أنديرس بريفيك مدعية أن داعمي النقاش في المدارس يبررون العنف أما زميلها في صحيفة آفتنبوستن النروجية كنوت أولاف آماس فحذر من ربط النقاب بالتطرف قائلاً:

- أينبغي منع شابة نروجية من بيرم ترتدي النقاب من التجوال بين المدارس لمجرد أن الغالبية تكره ما ترمز له؟ لا.

وأكد على أن المجتمع بحاجة إلى مزيد من الانفتاح والنقاش بعد الهجمات الإرهابية في 22 يوليو 2011 كاستراتيجية ضد تلك القوى التي لا تريد أياً من تلك الأمور.

ولم تجذب جولة المدارس الكثير من الاهتمام حتى أعربت عائشة عن دعمها لهجمات طالبان على الجنود النروجيين حيث كتبت تحت صورة لجندي من جنود التحالف الدولي ومقاتل من طالبان على صفحتها على الفيسبوك:

- مهما كان عتادهم لن يغلبوا أسود الله.

وقد شجعت الناس على الاعتراض، وعلى صفحة فيسبوك أخرى لمناسبة تدعي «اعتراض: أخرجوا الجنود النروجيين من أفغانستان» كتبت:

- إن شاء الله سينجح الاعتراض... كلما جذب اهتماماً أكبر كلما كان ذلك أفضل لأن ذلك يعني أن الناس مهتمين ويمكننا إظهار نقاطنا الإيجابية.

وفي صفحة نقاش لدعم إدخال الشريعة إلى النروج كتبت:

- ما الجدوى من الديمقراطية حين تكون لدينا الشريعة؟

كان المتحدث الرئيسي في الاعتراض عرفان بهاتي وهو رجل جذاب في منتصف الثلاثينات ذو عينين داكنتين ولحية طويلة وخطى رشيقة متوسط الطول وعريض المنكبين، وبعد أن قضى عدة فترات في السجن بسبب ارتكابه أعمال عنف تحول من عالم الإجرام إلى الإسلاميين المتشددين لينصب نفسه أميرا.

- ينبغي على شعب النروج أن يعرفوا أن أمنهم في خطر طالما أن هناك جنود في أفغانستان... هذا ليس تهديداً! إنه تحذير من أجل مصلحتكم!

وقد قال الرجل الذي يخلط بين الأحاديث النبوية ولغة الشوارع أن البلد في حرب مع الإسلام وبالتالي مع جميع المسلمين، وقد نعت الجنود النروجيين بالإرهابيين وتوعد بالانتقام.

وقد أثنت عائشة بنقابها خارج مبنى البرلمان في ذلك اليوم من شهر يناير على ما سمعته ورأته.

هذا الزي سياسي بشكل لا لبس فيه.

مكتبة
t.me/t_pdf

10

الأمر كله وفقاً للقلب

في 25 ديسمبر 2011 بلغت أيان الثامنة عشرة من عمرها وأصبح بإمكانها الحصول على جواز سفر وبطاقة ائتمان وشراء الأغراض عبر الإنترنت والحصول على رخصة قيادة والتصويت، ولم يعد بإمكان المدرسة التواصل مع والديها حول أية مشاكل لديها إذ إن الحضور أصبح الآن من مسؤوليتها.

في يناير فتحت حساباً على تويتر وكتبت في مساحتها المكونة من 140 حرفاً اقتباساً دائماً يعتمد عليه مدرس القرآن محمد الترمذي:

«فلتعلموا أن النصر يأتي مع الصبر والفرج مع المصيبة واليسر مع العسر».

وبعكس حساب عائشة لم يعبر حساب أيان عن أي كراهية أو تطرف، وقد نشرت روابط لمحاضرات ومقابلات كتلك التي تكلم فيها الصحفي الأمريكي غلين غرينوالد عن انعدام المغزى من مصطلح «إرهاب» وكتبت:

- الولايات المتحدة تطرد 1000 مهاجر في اليوم وهو أمر ليس سيئاً بالنسبة لأولئك الذي سرقوا الأرض بالأصل.

لقد كانت مهتمة بهويتها الإفريقية:

- والله أن كونك أسود ليس بالأمر السهل! كم أن العالم مناهض للناس السود أحياناً! الحمد لله على الإسلام وخاصة في بلاد كالنروج! الحمد لله على الإسلام!

دخل الربيع العربي عامه الثاني حيث مضى عام على هروب الدكتاتور التونسي بن علي إلى المملكة العربية السعودية بعد المظاهرات الجماعية

أما حسني مبارك فتم الزج به في السجن في القاهرة وقبل بضعة أشهر تم سحب معمر القذافي من أنبوب صرف صحي وضربه بشدة وطعنه بحربه ورميه بالرصاص في رأسه قبل أن يتم عرض جثته في موقع للميليشيا في مصراته حتى فاحت منه رائحة نتنة اضطرتهم لإزالتها.

وفي سوريا بقي بشار الأسد في السلطة حيث تتبعت أيان التطورات عن بعد مجاهدة بقلبها ولسانها ولوحة مفاتيحها حيث كتبت على تويتر في مارس 2012:

- أقبح كلب في العالم يموت... يا له من عنوان خادع... ظننتهم قتلوا بشار أخيراً.

وقد امتنع الزعماء الغربيون عن دعم الثورة السورية كما ساندوا الليبيين حيث تنحوا جانباً بينما هاجم نظام الأسد المتظاهرين السلميين، وحين حمل المتظاهرون السلاح تركوهم ليدافعوا عن أنفسهم لأن التدخل في سوريا سيشمل مجموعة مختلفة من التحديات لأن الجيش السوري أقوى ويمتلك نظام طيران روسي متقدم كما أن النظام مدعوم من إيران، وأي تدخل سيدفع إيران لمساعدة الأسد على نحو مباشر أكثر وهو ما سيؤثر في المصالح الأمريكية في العراق الأمر الذي سيعرض المحادثات مع إيران حول برنامجها النووي للخطر... بكل بساطة الأمر لا يستحق ذلك.

وقد تجاهل زعماء الغرب دخول أول المقاتلين الأجانب من أوربا إلى ميدان الحرب حيث تم اعتبارهم كعاملين في مجال المساعدات الإنسانية أو مقاتلين من أجل الحرية، وعلى الرغم من أن بعضهم التحقوا بالجيش السوري الحر على أمل إدخال الديمقراطية إلى البلاد لكن معظمهم من الجهاديين وينتمون إلى فرع القاعدة في سوريا.

ومع اقتراب موعد مؤتمر السلام الذي يعقده إسلام نت ازداد نشاط أيان على تويتر حيث تبادلت الرسائل النصية مع العديد من المتحدثين لكونها عضواً في اللجنة التنظيمية، وقد كانت اللهجة شخصية وواثقة حيث كانت

تخاطبهم بعبارة «أخي». كان المؤتمر من أهم أحداث العام بالنسبة للشباب السلفيين ومن المفترض أن يبدأ في بداية أسبوع الفصح حين يكون معظم النروجيين يوضبون حقائبهم ويتوجهون إلى الجبال.

في إيكيبيرغالين وهو صالة رياضية مغلقة جنوب مركز مدينة أوسلو حيث حجزت اللجنة التنظيمية في النهائية تم وضع مدخلين واحد للشباب وآخر للفتيات كما ستكون هناك مساحات استراحة منفصلة حيث يمكن شراء السمبوسة والكعك والمشروبات الغازية.

وعلى طاولة في قسم النساء وظفت أيان بعض الفتيات لتوزيع كتيبات الدعوة وهي كتب تم إرسالها من ناشر في مصر ليتم توزيعها مجاناً... كانت منشورات وردية اللون حول «حقوق المرأة في الإسلام» مع اقتباسات من القرآن محاطة بقلوب: «وليس الذكر كالأنثى» «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن».

وقد تغيبت أيان وليلى عن المدرسة لحضور الافتتاح في صباح يوم الجمعة في نهاية أبريل حيث كانت أزهار التوليب والزعفران متفتحة في حدائق الفيلات في بيرم كما أن أشجار الكرز مزهرة. التقطت أيان صورة شجرة قضبان لامعة وخلفها السماء الزرقاء المشرقة على منحدر أخضر اللون ونشرتها على تويتر:

- لأنه بعد كل هطول مطري يتشكل قوس قزح! #الربيع في النروج #الحمد لله!

واستقلت الأختان الحافلة في بيرم وهما ترتديان ثوبين أسودين طويلين، وقبل أن تصلا إلى الساحة أمام محطة أوسلو الرئيسية وضعتا النقاب ثم ركبتا الحافلة التي ستوصلهما إلى إيكيبيرغ، وكلما اقتربتا من وجهتهما كلما ركب المزيد من الناس بملابس مشابهة حيث سيذهبون جميعهم في نفس الطريق... في سبيل الله.

اجتازت الأختان طابور النساء لأن أيان عضو في اللجنة التنظيمية،

وخلف الطاولات عند المدخل جلست فتيات قامت هي بتوظيفهن للعمل كموظفات استقبال.

امتلأت المقاعد ببطء... الفتيان في المقدمة والفتيات في الخلف حيث كان الشباب يتجهون فرادى أو في مجموعات إلى آخر القاعة للصلاة بعد أن يخلعوا الأحذية الرياضية البيضاء أو الأحذية ذات الكعب العالي أو الأحذية الشتوية أو الأحذية المكشوفة بينما يتوضؤون ثم يقولون «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قبل أن يعودوا ليملأوا صفوف المقاعد.

وبعد بضع ساعات وبسبب عملية التسجيل المفصلة والمطولة رحب فهد قريش بالجميع وهو يرتدي بذلة سوداء ضيقة وقميصاً أبيض ويعتمر كوفية.

وقد استمتع النروجي من أول باكستانية بالشهرة وتمجيد الأسماء الشهيرة التي ستعتلي المنصة عما قريب إذ كان الغرض من عطلة نهاية الأسبوع إيصال الرسالة الحقيقية لكبح الخوف والكراهية والتحيز... ربما كان من الممكن تجنب الهجوم الإرهابي اليميني المأساوي في 22 يوليو لو كان لدى المجتمع معرفة أكبر بالإسلام؟

كان الناس يتجمدون من البرد إذ إن الصالة باردة كالثلج حيث لفت الفتيات المعاطف والأوشحة حولها... بعضهن يرتدين النقاب وبعضهن الحجاب بأشكال متنوعة... جلد النمر... مخطط... وردي فاتح... ألوان أرضية...

إن المتحدث الأبرز البريطاني المسلم عبد الرحيم غرين الذي ولد في تنزانيا حيث كان والده يعمل ضابط وأمضى طفولته في مدرسة داخلية كاثوليكية قبل أن يفتح القرآن في سن الرابعة والعشرين ويعتنق الإسلام.

كان يرتدي بذلة طويلة بنية اللون ويشبه مقاتل فايكينغ حيث بدا طويلاً وقوي البنية بعينين زرقاوين ولحية شقراء ملفتة للنظر. لقد تم منعه من الحديث في كندا أو الدخول إلى أستراليا أو إلى ملعب الإمارات أرض نادي أرسنال لكرة القدم بسبب تصريحاته «لا يمكن للمسلمين والغربيين العيش مع بعضهم

بسلام» و«أنت تموت وأنت تجاهد واحد من أضمن الطرق لدخول الفردوس والحصول على رضى الله». وقد تم التقاط صورته بكاميرا في طرف منتزه هايد في لندن وهو يصرخ ليتم إخراج رجل يضع قلنسوة يهودية على رأسه:

- لِمَ لا تبعدون هذا اليهودي لئلا يزعجنا بنتنه؟

وقد اعتبر إسلام نت أفكاره مقبولة وكان عنوان محاضرته «قلوب فارغة... حياة جنونية».

وبعد أن ألقى تحية الإسلام الاعتيادية:

- لننظر إلى طبيعة القلب... قطعة لحم... وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام أن قطعة اللحم هذه حين تكون سليمة يكون الجسد كله سليماً وحين تكون فاسدة يفسد الجسد كله.

وما يحويه القلب يخرج من الفم. لقد سمعتم مقولة «أنت ما تأكله»... إن استمررت بأكل القمامة لوقت طويل ستصبح أنت قمامة وتدمن القمامة ولن تتمكن من تناول أي شيء آخر. لقد أصبح الناس كالجرذان يتناولون أي شيء مما يعني أنك لا تحصل على الغذاء الذي تحتاجه والذي تحتاجه روحك... الله.

القلب يتوق لمعرفة الله وطاعته وعبادته وتقديسه وهو ما يمنح الحياة للقلب.

عليك أن تنظر داخل قلبك وتفحص نفسك... ما الذي يدفعني... ما الهدف؟ هل هذا لأنني أريد الشهرة؟ ليتم التقاط صورتي؟ الحصول على الإعجاب؟ أشتهر على فيسبوك؟

وبينما هو يتكلم كان الناس في الصفوف الخلفية يثرثرون والأطفال يلعبون لكن ذلك لم يؤثر في غرين الذي بدأ بذكر جميع الأمور المؤذية.

- الموسيقى تملأ قلبك فتشعر بالسعادة قليلاً وأنت تسمعها لكنها حين تذهب وتبقى وحيداً ويتعطل جهاز تشغيل الموسيقى ستدرك مدى الفراغ في قلبك، والأمر ذاته ينطبق على الأفلام ومع الجنس...

إنها مجرد طرق لملء القلب الفارغ... أنا بحاجة لشيء يلهيني... المارجوانا... الكوكايين... الهيروين... الكحول... نفس الشيء. والنتيجة ازدياد نسبة الإدمان على الكحول والمخدرات والعنف والاكتئاب والانتحار.

ولحسن الحظ هناك علاج.

اقرأوا القرآن! إنه الكتاب الذي أنزله الله من السماء لنعرفه! صلوا! صلوا بقلوبكم! افهموا ما تقولونه... الله أكبر! ماذا تعني؟ إنها تعني أن الله عظيم؟ لا! إنها تعني أن الله أعظم من أي شيء.

استمر بالحديث لساعة متواصلة تقريباً حتى حان وقت الأسئلة من الجمهور حيث سأل شاب غرين كيف يعرف أن الله هو الشيء الوحيد المناسب لنملأ قلوبنا به.

- إنها الطبيعة التي منحها الله للقلب... كيف نعرف أن الإسلام حق؟ القرآن يعلمنا أن لهذا الكون خالق وهذا الخالق لا مثيل له... لا شيء في هذا الكون يشبه الله.

هناك نظام ومنطق في العالم كجهاز لوحي تم صنعه بخطوات ولم يظهر نتيجة سلسلة من الأحداث العشوائية أو من رمي الأشياء حول بعضها وهزها وخلطها.

وعلى الرغم من أن النصرانية فيها مفهوم مماثل لله لكنهم يخلطون ذلك بقولهم إن المسيح هو الله وهو أمر غير منطقي وليس له أي معنى.

وحين انتهى الشباب من طرح أسئلتهم حان دور الفتيات حيث وقفت إحداهن وقالت:

- رأيت مسلمين يملأون قلوبهن بالكراهية ورأيتهم يقتلون بعضهم حيث هاجم السلفيون المساجد الصوفية وهم يصرخون أنهم سيدخلون الجنة ويأكلون مع النبي. كيف يمكننا منع الكراهية من الانتشار بين المسلمين؟ كيف يمكننا منع القلب من أن يمتلئ بالكراهية بدلاً من

الحب حين نتخلص من القمامة؟

فرد غرين أنه سؤال جيد وسيجيب عليه في كلمته يوم الأحد.

ثم سأل:

- هل من أسئلة أخرى؟

فتكلمت فتاة أخرى أنه مع بداية الهجمات الإرهابية في 22 يوليو أدت الأغاني دوراً مهماً في عملية الحزن وفي مساندة الناس لبعضهم... هل الأغاني أيضاً حرام؟

لم يفهم غرين ما قصدته الفتاة ولهذا طلب منها تفسيراً... ألا يمكن للأغاني أن تخلق وحدة وانسجاماً بعكس ما قاله عن أن الموسيقى تترك القلوب فارغة؟ ولم يفهم غرين ما تشير إليه فكررت السؤال بعصبية للمرة الثالثة وهي تشير إلى الهجمات الإرهابية في أوسلو التي أعلن المتكلم جهله التام بها.

فأجابها:

- قد يقول البعض أن العلماء أثبتوا أن كأساً من النبيذ الأحمر في اليوم ستجعلك بصحة أفضل لأنه مليء بمضادات الأكسدة وله فوائد للصحة إلا أن أضراره تفوق فوائده، والأمر ذاته ينطبق على الموسيقى التي قد يكون لها خصائص علاجية لكن ذلك لا يوازي الضرر الناتج عنها.

كانت أيان تنصت حين يكون لديها متسع من الوقت إذ إن لديها أمورا تهتم بها كما كانت لدى عائشة وأميرة مهمات تقومان بتنفيذها خلال مؤتمر السلام، وقد أضافت أيان اسم دلال إلى قائمة المتطوعين لكن مادية رفضت الفتاة الكردية قائلة لها:

- إن أردت أداء دور في منظمتنا عليك ارتداء الحجاب.

فأصرت دلال على أن الحجاب ليس فرضاً في الإسلام لكن الملكة مادية لم تكن مهتمة بالنقاش وطلبت من دلال أن تجد مقعداً في القاعة.

فجلست كعضو عادي من الجمهور بينما شغلت صديقاتها مناصب مهمة

وهن يرتدين جلابيب طويلة وحجابات.

حين توجهت دلال إليهن في الاستراحة وقالت إن مادية «خنزيرة» رفعت عائشة يدها قائلة:

- لا يمكنك قول هذا! لا يمكنك استخدام كلمة «خنزير» وخاصة لنعت شخص مسلم.

فهزت دلال كتفيها إذ إنها معتادة على عائشة.

استمرت المحاضرات بعد الاستراحة وبدأ الدفء يسري في القاعة بينما كانت أميرة قلقة وهي تراقب مدخل الرجال إذ إنها أخبرت دلال بالشخص الذي تحب... رجل تلتقيه سراً.

- سيأتي فيما بعد أو ربما غداً... سأخبرك حين أراه لكن لا يمكنني الحديث معه هنا.

ثم همست أنه باكستاني يدعى أرسلان.

هزت دلال كتفيها:

- مَن هو؟

كان اسمه أرسلان معروف حسين لكنه غيره مؤخراً إلى عبيد الله. عمل الرجل وسيم الوجه كحكم سابق لكرة القدم ويعمل حالياً في شركة الطرقات في أوسلو إلا أنه يحلم أن يصبح إسلامياً طوال الوقت.

كان المتحدث الأخير في أمسيات يوم الجمعة واحدا من المفضلين لدى أيان رياض أورزازي الكندي المولود في المغرب حيث كانت لجهة التواصل بينهما على تويتر مليئة بالإطراء وقد ألمحت له أنها قد تكون مشغولة للغاية ولن تتمكن من حضور محاضرته.

فرد الواعظ:

- لماذا؟ هل تخططين للمجيء في وقت متأخر إلى واحدة من مناسباتي.

فسألته أيان:

- وهل لديك عقاب لمن يتأخر؟!

فرد على الفور:

- ليس في هذا النوع من المناسبات.

لتجيبه أيان:

- أنا واحدة من منظمي هذه المناسبة ولهذا لن أتأخر.

وبالطبع تمكنت من الحضور والتقطت صوراً له وهو على المنصة ونشرتها مع عبارة:

«الشيخ أثناء محاضرته!».

خفض أورزازي ورفع صوته وكأنه في رقصة حيث صرخ وهمس وابتسم وعبس.

- الملائكة هنا... إنهم ينزلون ويحيطون بنا... لو تمكنا من رؤيتهم لأغمي علينا.

كانت المحاضرة عن الرحمة.

- في أحد الأيام كان النبي يبكي فأرسل الله جبريل لسؤاله عن سبب بكائه ليرد النبي «أمتي أمتي» وطلب من الله أن ينجي أمته.

وحبس أورزازي دموعه وهو يروي ما أمر به الله جبريل:

- اذهب وأخبره أننا سنرضيه ونرضي أمته!

لكن عيون الحضور الشباب ظلت جافة إذ إنهم ترعرعوا في النروج حيث من غير الشائع التعبير عن المشاعر.

خفض المتحدث رأسه ليركز وهو يقترب من النقطة الرئيسية عن محمد على سرير الموت مع زوجته عائشة:

- الآن النبي في الثالثة والستين من عمره وشعره أشيب.

وخانه صوته مجدداً فاختتم حديثه بإعلان حبه لمحمد وسؤاله إن الجمهور الشاب يحب النبي كما يحبه هو.

- هل تحبونه؟ هل تحبونه حقاً؟ كم تحبونه؟ كم أنتم مستعدون للتضحية

من أجله؟
والتقطت أيان صوراً للواعظ وهو يبكي ونشرتها على تويتر.

في اليوم الثالث من المؤتمر ظهرت مجموعة من الرجال يرتدون ملابس سلفية تقليدية من السراويل العريضة القصيرة فوق الكاحل وقمصاناً حسب ما أمر النبي ولديهم لحى بدون شارب لأن النبي نهى عن إطالة الشارب وارتدى بعضهم الكوفية.

كان لهؤلاء الرجال ماضٍ سيئ حيث كان عدد منهم أعضاء في عصابات وبعضهم لديهم سجلات إجرامية أما الآخرين فترعرعوا تحت رقابة خدمة رعاية الطفل.

أحد هؤلاء الشباب هو هشام حسين أحمد الذي درس في دونسكي لبضع سنوات قبل أيان، وكلاهما أشرفا على قسم الدعوة التابع لإسلام نت في بوابة كارل جوهانس وهو الشارع الرئيس في أوسلو حيث كانت أيان تتعامل مع الكفار والمسلمين وفقاً لورقة التعليمات وهي تبتسم ابتسامة عريضة في المساحة المخصصة للمشاة محاولة إعطاء الناس صورة عن الإسلام بينما وقف هشام يراقب معظم الوقت دون أن يتجرأ على التعامل مع الناس مباشرة مكتفياً بتوزيع المنشورات.

كان هشام قد وصل إلى النروج عام 2003 أي بعد أيان بثلاث سنوات، وفي حين أنها وصلت بطائرة كجزء من برنامج لم شمل العائلات التابع للأمم المتحدة فقد سافر هشام وحيداً من أريتريا وسجل عمره عند وصوله على أنه ثلاثة عشرة فتم اعتباره طالب لجوء قاصر ووضعه مع عائلة لترعاه في بيرم، وسرعان ما أصبح لديه أصدقاء ليمضي وقته بلعب كرة القدم حيث قالت العائلة إنهم لم يحظوا من قبل بطفل أكثر انسجاماً ليرعوه.

وبعد عام في صف الاستقبال وبعد إنهاء المدرسة الإعدادية تم قبوله في البرنامج الرياضي في دونسكي إذ إنه لاعب كرة قدم ماهر ورياضي موهوب

ويتمتع بابتسامة بيضاء عريضة كما أن لديه صورة من دونسكي يستلقي فيها على أحضان الفتيات.

لكن ما لم يخبر به السلطات عند وصوله هو أن عائلته في أوسلو إذ إن لديه أعمام وأبناء أعمام يقطنون في المدينة مما جعله يعيش حياتين منفصلتين... واحدة في بيرم وأخرى مع أعمامه.

وقد تغير كثيراً منذ أن رأته أيان آخر مرة حيث طالت لحيته وخشنت ملامحه وأصبح يرتدي ملابس النبي كما تغير شيء آخر... وضعه العائلي... لقد تزوج هشام.

حان وقت المحاضرة الختامية التي كان موضوعها يوم القيامة حيث بدأ محمد عبد الجبار رئيس منظمة دعوية في بيرمينغهام:

- إخوتي وأخواتي الأعزاء... اقتربت النهاية!

كانت أيان قد أنشأت حساباً على يوتيوب حيث تنشر روابط الصفحات الإلكترونية والقنوات الدينية ومن بينها خطاب عبد الجبار «روح المؤمن».

كانت التأثيرات الخاصة التي تظهر نهاية العالم مستوحاة من هوليود حيث هناك برق ورعد وحريق وأناس يحترقون وصراخ وسقوط.

....

أولئك الذين أطاعوا الله وعاشوا وفقاً لأوامره سيرتفعون لأن الله أمر بذلك في حين سيهلك الآخرون... تجار المخدرات والقوادون ومدمنو المخدرات والكوكايين... جميعهم سيهوون ومعهم الكثيرون... رجال أغووا النساء وجعلوهن يفعلن أشياء لا يرغبن بها... تاركوا الصلاة والصيام... الزناة... السارقون... الكاذبون... القتلة... لا أحد سينجو من الحساب... الكفار سيموتون ككفار ليلقوا عقاباً شديداً دون أن يساعدهم أحد إذ إن الله قد قال في كتابه: «ومن يرض غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

أما العلامات التالية فهي زلازل عظيمة واحد في الشرق وآخر في الغرب وواحد في شبه جزيرة العرب التي تشكل مركز العالم كما ستهب ريح عظيمة في أرجاء العالم وتشرق الشمس في الغرب ثم ستنتشر نار عظيمة في اليمن، وما إن تظهر هذه العلامات لن يعود من الممكن التوبة ودخول الإسلام وسيفوت الأوان.

كان جبار يقترب من نهاية حديثه... مسلمو العالم منجذبون للثقافة الغربية كما أن قدوة الشباب من أمثال ليدي غاغا وسنوب دوغ وفيفتي سينت حلوا محل النبي. وحث الحضور باتباع السلف الصالح والعمل لآخرتهم من خلال التبرع بأموالهم. وفي تلك اللحظة دارت علب على الحضور ليتم التبرع فيها بالمال لإسلام نت كشكل من أشكال الاستثمار في سبيل الله للحصول على حسنات إضافية يوم القيامة.

صرخ صوت عبر الصالة:

- بالنسبة لغير الأعضاء ستجدون استمارة تسجيل على الأرض تحت مقاعدكم يمكنكم ملؤها والدفع عند الطاولة هناك!

ثم غادر الرجل الملتحي الذي يرتدي ملابس النبي بعد أن جمعوا المال لقضيتهم كما كان يظهر بعضهم مع صناديق جمع المال في محطة المترو في غرونلاند وخارج المساجد ليقول إنها مساعدات طارئة للأرامل وللأطفال في سوريا.

11

أمة الفالنتاين

كانت عائشة تمضي وقتاً عصيباً.

حين تزايد النقد في وسائل الإعلام النروجية حملت على عاتقها مواجهة العاصفة حيث طلبت من إسلام نت أن يساندوها في دفاعها عن النقاب وطلبت الدعم من فهد قريش ليرد عليها أن المجلس بحاجة لدراسة الأمر.

وقد استغرق ذلك وقتاً.

أخبرتهم عائشة عن تعرضها لهجوم من قبل رجل وهي تمر أمام البرلمان وكيف سحب لها نقابها.

كان المجلس يؤيد ارتداء المرأة للنقاب في المدرسة أو العمل لكن هل هذا الوقت المناسب لإثارة القضية؟ وهل عائشة هي الشخص المناسب لمواجهة الأمر؟

كانت عائشة تميل للفظاظة وهو أمر لا يفضله المجلس إذ إنها لا تخضع سوى لله ولا تخضع للرجال كما لا تسمح لأحد آخر باتخاذ القرارات عنها.

كما لم يشعر إسلام نت بالارتياح للخطاب القوي الذي ألقاه عرفات بهاتي في المظاهرة ضد التورط العسكري النروجي كما أزعجهم فيديو تم صنعه للترويج لمظاهرة أظهرت عائشة دعمها لها. كان مخرج الفيديو باستيان فاسكيز المولود لوالدين تشيليين في سكين على بعد بضع ساعات جنوب أوسلو حيث صنع الرجل القصير والبدين المعتنق للإسلام فيديو عن القوات النروجية في أفغانستان يظهر صوراً لولي العهد الأمير هاكون ورئيس الوزراء جينز ستولتنبرغ ووزير الخارجية جوناس غاهر ستور ثم وضع التهديد: «يا

الله! دمرهم وعذبهم عذاباً أليماً!».

وبعد بضع ساعات من نشر باستيان الفيديو على الإنترنت للترويج للمظاهرة وصلت الشرطة إلى منزله، ففتح لهم الباب وهو لا يرتدي سوى منشفة حول خصره، فتبعوه إلى غرفة النوم بينما يرتدي ثيابه وبدأوا يفتشون الغرفة، ثم رآه أحد رجال الشرطة يضع شيئاً في فمه وسمعه يصدر صوتاً قوياً بين أسنانه. فأمسك به رجل الشرطة بسرعة ومنعه من ابتلاعه حتى أجبره على بصقه ليتبين أنه بطاقة ذاكرة تحوي الفيلم وتعليمات لصنع قنبلة وصوراً لمئات أساليب التعذيب وقطع الرؤوس بتوقيع القاعدة.

أحد أول الأمور التي طالب بها باستيان فاسكيز حين كان محتجزاً أن يتم إبلاغ عرفان بهاتي ولم يطلب زوجته.

وفقاً لمذكرات استجواب الشرطة قام باستيان بإنشاء ملف جديد على الإنترنت قبل بضعة أسابيع بنية إيجاد زوجة مسلمة ثانية لأن تعدد الزوجات حلال في الإسلام كما أنشأ صفحة على الإنترنت باسم محمد جند الله ليحصل على أكبر عدد من الأصدقاء على الإنترنت. وقد ذكرت المذكرات أن المتهم عضو في إسلام نت ويعتبر هداية الناس أمر في غاية الأهمية.

وأكد باستيان أنه هو وعرفان بهاتي ينظمان مظاهرة ثم تكلم عن علاقته بعرفان.

ونفى باستيان قيامه بتهديد أحد وحين تم سؤاله عن التهديد في الفيديو فقال إن الله هو من سيعاقبهم ويخرجهم من النروج ومن أفغانستان.

فسأله المحقق:

- من هم؟
- الجنود النروجيون الذين يقتلون الأبرياء.
- وكيف سيتم عقابهم؟
- بالحمى أو أي شيء أو... لا أدري... مرض... أي شيء يجعلهم يغادرون.

وبالنسبة للأسئلة حول كيفية اختيار الناس في الفيديو قال إنه اختار رئيس الوزراء ستولتنبرغ فقط لوجود شعار الناتو خلفه. ولم تكن لديه فكرة عن هوية ولي العهد وإنما رآه فقط كرجل في صورة يحيي جندياً نروجياً في أفغانستان وظن أن رئيس الوزراء ضابط أو لديه منصب في الجيش.

وقد كان يقصد أنه يتمنى أن يعاني الجنود من مشاكل نفسية عند عودتهم إلى وطنهم.

كان نوع الشباب الذين يثيرون إعجاب عائشة على قائمة الأشخاص المراقبين من الشرطة وهي قائمة لا يرغب أفراد إسلام نت أن يندرجوا ضمنها.

ناقش المجلس حالتها ليتوصلوا أن أي تركيز أكبر على قضية النقاب ستزيد من شهية النقاد وقد تؤدي في أسوأ الحالات إلى منع ارتداء النقاب، وهكذا ستضر عائشة بالنقاب وبالمسلمين، وهكذا صوت المجلس لعدم دعم عائشة.

وفيما بعد أخذ فهد قريش عائشة جانباً وأخبرها:

- من المحزن أنك تتلقين كل هذا النقد... أتمنى أن يلقى ذلك الرجل الذي سحب نقابك عقابه الذي يستحق لكن النروج ليست مستعدة للنقاب والنروجيون لا يقبلون من يختلف عنهم، ونتمنى أن يصبح سلوكهم عما قريب أكثر تقبلاً.

وفي المنزل استمرت المشاكل حيث تعيش العائلة في شقة صغيرة في قبو في بيرم. وفي إحدى الليالي كانت إحدى أخواتها تتوسل إلى والديها وهي تبكي أن يتوقفا عن الشجار فدفعها والدها جانباً وانفجر غاضباً مما جعلها تفقد أعصابها وترمي كل ما على الطاولة على الأرض ثم ترمي كل ما على الرفوف وعلى المنضدة وهي تصرخ:

- أنا فقط أفعل مثل بابا!

ثم حطمت التلفاز وكاميرات والدها ورمت بحاسبه المحمول على الجدار.

وحين عاد الأب إلى المنزل جن جنونه وضرب ابنته على رأسها عدة مرات ثم رمى بأمها على الأرض وركلها، فقامت إحدى الأخوات بعض يده لتوقفه عن ضربهما بينما أخذت عائشة الأخوات الثلاثة الصغيرات إلى غرفة أخرى وأقفلت الباب ثم اتصلت بالشرطة لتصل سيارة دورية وتعتقل الأب وتوجه إليه تهمة الاعتداء مما أدى إلى لقاء جديد في خدمة الوساطة ليتم الحكم بانتقال الأب من المنزل وانفصال الوالدين، وبعد حادثة عنف أخرى تم إصدار حكم على الأب بعدم الاقتراب منهم في ربيع 2012 وأخذت عائشة على نفسها عهداً بعدم رؤيته من جديد.

وما إن تحررت من نفوذ والدها بدأت تطمح لملء الفراغ بشيء جميل وقوي وخاص بها.

لفت الرجال الذين يرتدون ملابس النبي انتباه عائشة... بمن يمكنها أن تثق أكثر من رجل يتبع محمد؟

لم يكن لدى الرجال الملتحين الذين ظهروا في مؤتمر السلام تنظيم هرمي للعضوية والمناصب لكن لديهم قائد – أمير – ومجلس حكم بالشورى. كانوا يريدون أن تصبح النروج دولة إسلامية تحكمها الشريعة لكنهم اختلفوا حول أفضل طريقة لتحقيق ذلك الهدف ليكتفوا في الوقت الحاضر بالمظاهرات وإلقاء المواعظ في الشوارع.

لم يكن هناك ضوء عقائدي لحل الأمور الخلافية لكن هناك العديد من الشخصيات القوية التي حكمت بنفس أسلوب العصابات متبعة روابط الولاء.

وقد اهتم بعضهم بالقرآن وعقدوا جلسات ذكر في مسجد في غرونلاند حتى طلب منهم القائد الديني هناك أن يغادروا خوفاً من نشوء مشاكل مع السلطات، فقاموا باستعارة مكان آخر أو باللقاء في منازل بعضهم.

حين تم إطلاق سراح صانع الفيديو باستيان فاسكيز من الاحتجاز كان

عرفان بهاتي في انتظاره، ولم يكن لدى عرفان أي خلفية أكاديمية وإنما كان ينزعج من القراءة:

- هذا ليس الوقت المناسب لتنظيف الكتب القديمة وإنما وقت العمل.

ومع الفيديو الذي صنعه كان قد حقق جزءاً من هدفه... الاحترام من قبل عرفان بهاتي... وهكذا أصبح الاثنان يخرجان سوية كل يوم تقريباً.

وبينما حاول البعض في الوسط أن يتثقفوا فضل آخرون مناقشة استخدام الإرهاب، وبعد إعادة طبع رسومات محمد في صحف نروجية وكاحتجاج على التورط العسكري النروجي في أفغانستان توصل معظم المجاهدون أن الهجوم على أهداف في النروج أمر مشروع إذ ينبغي الثأر لقتل المسلمين في أجزاء أخرى من العالم.

إذ كانوا يتبعون مبدأ العين بالعين.

وقد ناقش عدد من الشباب الأهداف المحتملة واتفقوا على أفضل موقع للهجوم... آكر بريغ... منطقة سكن وتسوق راقية على ضفة الماء في أوسلو حيث لا يكون في المساء أي أطفال أو مسلمين ملتزمين وإنما مجرد موظفين ماليين في المطاعم والحانات بالإضافات إلى أناس ريفيين يزورون المدينة.

كما اتفقوا على أن البرلمان ليس هدفاً سيئاً أيضاً.

لكن وبعد نقاشات مطولة قرر مجلس الشورى أنه لا يمكن استهداف المدنيين النروجيين حتى في بلد شعبه مسؤول عن قادته إذ إن بعض ضحايا الهجمات الإرهابية قد يكونوا لم يصوتوا للمجرمين ولهذا من الأفضل مهاجمة فرقة من الجيش.

ربما كان لديهم الكثير ليخسروه وربما كان البلد الصغير الذي يعيشون فيه ليس سيئاً جداً لكن وفي كل أحوال وجد أكثرهم تشدداً ميداناً جديداً للقتال أكثر إغراء من الهجوم على قاعدة عسكرية محلية.

كان عبد الله عزام قد كتب:

«الدعاء مقابل شن الجهاد في ميدان المعركة مثل لعب الأطفال.

على المجاهدين التضحية بدمائهم عند الهجوم على أراضي المسلمين، وفي سوريا يمكنهم القتال من أجل إقامة دولة إسلامية مع إخوة حقيقيين وحينها ينتشر الإسلام شمالاً من هناك.

كان بعضهم مهتماً بالمغامرة وبعضهم بالصداقة الحميمة وبعضهم بالوعد بأن تزول ذنوبهم لكن الأمر المؤكد هو أن سوريا ستمنحهم توجهاً في الحياة وشعوراً بأنهم يقومون بالأمر الصواب، وفي حال لقيت حتفك فستضمن لنفسك مكاناً تحت عرش الله.

كانت الطرق المستخدمة لإثارة الناس من الأدوات الشائعة لتجنيد الإرهابيين.. صور فظيعة لأطفال قتلى وجرحى في أفغانستان وسوريا مقابل الجهود العسكرية النروجية بالإضافة إلى اقتباسات مختارة من القرآن تعزز رسالة أن الغرب يشن حرباً على الإسلام كما أن أسطورة أن أوربا تسعى لمحو الإسلام أثبتت أنها دعاية فعالة إذ إن عدم محبة النروجيين للمسلمين حقيقة ثابتة كما أن هناك تمييز واضطهاد ضد المسلمين بالإضافة إلى أن دعم الجهاد عمل يسعى للدفاع عن النفس.

وقد كان لتلك المجموعة علاقة حب وكراهية مع وسائل الإعلان حيث كانوا يسعون للشهرة لكنهم يتجنبون الظهور بين العامة بالإضافة إلى أنهم يسعون لنشر وجهات نظرهم. وفي الوقت الذي كان فيه بعض الصحفيين يتلقون تهديدات قام أحدهم بإطلاق الرصاص من نافذة منزله حيث تم تصوير المتهم عرفان بهاتي وهو يقيم علاقة سرية مع مذيعة تلفزيونية شقراء بعينين زرقاوين.

أعلنت عائشة أنها تريد الزواج حيث أخبرت دلال:

- من أمير.

فسألتها دلال مستغربة:

- مَن؟

- اسمه عبيد الله حسين.

وأرتها عائشة صورته على الإنترنت وهو يبتسم للكاميرا ويبدو رقيقاً بشعره الجعد ووجهه المدور.

تساءلت دلال إن كان هذا نفس الشاب الذي على علاقة سرية بأميرة.

فسارعت عائشة للمعارضة ثم أخبرتها أنها طلبت من أحد الوسطاء أن يخطبه لها.

تفاجأت دلال:

- أنت خطبته؟

فهزت عائشة رأسها قائلة إنها لم تتكلم معه قط وإنما رأته وهو يحمل مكبر صوت بيده ويرتدي كالنبي فأحبته. لقد كان الإسلامي ذو الوجه البريء متكلماً بارعاً كما أنه حافظ للقرآن.

وقد كان الوسيط عراقي نروجي من لارفيك وهو من أبرز الشخصيات في الموجة الجديدة للإسلاميين إذ دخل محي الدين محمد عالم الشهرة حين نظم مظاهرة ضد الرسوم الكاريكاتيرية للنبي محمد حيث قال:

- متى ستفهم السلطات النروجية ووسائل الإعلام مدى خطورة هذا الأمر؟ ربما بعد فوات الأوان... ربما بعد قيام هجمات كهجمات 11 سبتمبر على الأراضي النروجية... هذا ليس تهديداً وإنما تحذيراً.

وقد أدت المظاهرة إلى طرد محي الدين من الجامعة الإسلامية في المدينة حيث رأت المؤسسة التعليمية أنه محرض ثم تم اعتقاله من قبل قوات الأمن السعودية عند عودته إلى البلاد وترحيله إلى النروج.

وقد تأخر الرد الذي تنتظره عائشة، وفي كل مرة تستفسر يخبرها محي الدين أنه لم يتكلم معه بعد.

كانت دلال تتابع عن بعد وهي متعجبة من خطبة عائشة لنفسها! لقد قامت بالخطوة التي ينبغي على الرجل القيام بها... إنها تكسر التقاليد على نحو كبير. لقد كانت عائشة غير تقليدية ولا تهتم بما يقوله الناس، وحين تريد

شيئاً تتجه نحوه كقطار حمولة... الآن هي تريد المتحدث باسم التطرف في النروج... الرجل الذي قد تشك قوات الأمن النروجية أنه الشخصية الأساسية التي تعمل على تشدد وتجنيد المسلمين النروجيين للذهاب والقتال في سوريا.

أدركت دلال عدم وجود أب وأساس آمن في حياة عائشة وبدا لها أن ما تسعى إليه صديقتها هو المكانة والاحترام لا الحب إذ إنها تريد أن تصبح زوجة أحد القادة في الوسط الإسلامي الذي أصبح بيتها الجديد، فهي قد وجدت هناك شعوراً بالانتماء والدعم والتعاطف... نحن مختلفون... إنهم يضطهدوننا... يجب علينا الانتقام.

وفي النهاية وصل الاقتراح إلى عبيد الله فاستفهم ممن حوله ليعرف المزيد عن المرأة الشابة التي وراء العرض الصريح لكن ما سمعه دفعه لرفضها... ليست في غاية الجمال... سمينة قليلاً... ليست بالعرض المغري.

لكن الرفض لم يعق عائشة وإنما نظرت إلى شخصية أكثر تميزاً لكن لم يعد بإمكانها استخدام محي الدين فتولت هي القيام بالأمر حيث أنشأت حساب بريد إلكتروني وتواصلت مع الهدف الجديد الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً والذي أمضى القسم الأكبر من حياته كشخص بالغ داخل السجن والذي تم اتهامه بإطلاق الرصاص على الكنيس اليهودي في أوسلو لكنه تمكن من الحصول على البراءة من الاتهامات بالإرهاب... عرفان بهاتي بذات نفسه.

كان متزوجاً مسبقاً لكن ذلك ليس بعائق، وقد كانت هناك عدة أجزاء لخطتها حيث كتبت عائشة:

- إنني أتواصل معك بالنيابة عن صديقتي... إنها متدينة للغاية وترغب بمعرفة إن كنت مهتماً بالزواج... هي مستعدة أن تصبح زوجة ثانية.

نعم... بالطبع... بهاتي مهتم بالزواج.

تساءلت عائشة عما ينبغي لها أن تفعل بعد ذلك ثم سألت دلال التي اقترحت:

- أفترض أن عليك أن تظهري نفسك على أنك تلك الصديقة على بريدك الإلكتروني... لكن هل أنت متأكدة من أنه هو الشخص الذي تريدينه؟

فأكدت عائشة أنها لم تكن واثقة بشيء من قبل بقدر ثقتها الآن.

كانت حياة عرفان بهاتي الإجرامية قد بدأت في سن الثالثة عشرة حين انضم إلى عصابة من الشباب المسلحين، وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره طعن مالك متجر في مركز مدينة أوسلو بسكين مطبخ بعد أن ضربه على رأسه بزجاجة شراب ليتلقى أول تهمة في حياته. كان يمضي سنوات صباه بين المدرسة الابتدائية في النروج والبقاء مع عائلته الكبيرة في باكستان مما دفع مركز رعاية الطفل لزيادة الاهتمام به ووضعه في مؤسسة خاصة. أما سنوات المراهقة فتميزت بانضمامه إلى العصابات الإجرامية وإمضائه الوقت داخل وخارج السجن حتى اشتهر في أوسلو بسبب الابتزاز والعنف، وفي سن الحادية والعشرين تم اعتقاله احترازياً لإطلاقه النار على شخص أثناء استرداد قرض مما دفع المحكمة لتعيين طبيب نفسي فتوصل الطبيب بيرتهولد غرونفيلد إلى أن قدراته العقلية لم تتطور على نحو كافٍ، وفي قضيتين تاليتين في المحكمة شخص الأطباء معاناته من اضطراب الشخصية اللااجتماعية حيث أظهر خللاً في شعوره بالمسؤولية واحترام الالتزامات والتقاليد الاجتماعية ومقت مشاعر الآخرين وانعدام القدرة على الشعور بالذنب.

تظاهرت عائشة أنه تم التواصل معها من قبل صديقتها الخيالية وتواصلت مع عرفان ليبدآ بالدردشة على فيسبوك ثم تبادلا الرسائل وتكلما على الهاتف. كانت قد رأته في المظاهرة في يناير التي حضرها مع أبنائه الصغار لكنه لم يرها من قبل، فعرضت عليه أن ترسل له صورة إلا أنه رفض قائلاً إنه يريد أن تسير الأمور بالطريقة الصحيحة... بالطريقة الإسلامية.

قدمت دلال لصديقتها بعض النصائح لتسهيل وقوع عرفان في حبها.

- عليك وضع مساحيق التجميل يا عائشة والتأنق وتصفيف شعرك

وارتداء بعض الملابس الجميلة.

فتحت كل الطبقات السميكة التي ترتديها عائشة لم تكن ترتدي سوى كنزات وسراويل عريضة مما دفع دلال لتقديم بعض النصائح:

- تذكري أن عليك خلع النقاب حين تصبحا وحدكما

لترد عائشة:

- الله لا يرى المظاهر وإنما فقط القلب.
- لكنك لا تتزوجين الله!
- لا تكفري!
- مزيل عرق... عطر... أو حتى...
- هذا حرام.

دخلت عائشة من باب النساء بينما دخل عرفان من المدخل الرئيسي مرتدياً الملابس الباكستانية التقليدية أما هي فترتدي نقاباً. كان قد أحضر رجلاً لإتمام مراسم الزفاف بالإضافة إلى شاهدين وولي من أجلها.

كان ذلك نكاحاً وفقاً للتعاليم الإسلامية.

وبعد دقيقتين أصبحا زوجاً وزوجة.

تجمعت المكالمات الفائتة من أمها في هاتفها إذ كانت تعرف أن أمها لم توافق على زواجها من بهاتي ولهذا لم تبح بذلك السر سوى لصديقاتها المقربات. وفي النهاية وبينما هي تجلس في مقعد السيارة بجانب أخطر رجل في النروج في طريقها لقضاء شهر العسل اتصلت بأمها وأخبرتها أنها في طريقها إلى الجبال مع زوجها.

كما أنها لم تتكبد عناء الاتصال بأبيها الذي سمع بخبر زواجها فيما بعد من أحد معارفه.

كانا سيقضيان شهر العسل في هافجيل وهو منتجع تزلج على بعد ساعات بالسيارة من أوسلو حيث أقيمت مناسبات التزلج خلال الألعاب

الأولمبية الشتوية عام 1994 إذ استأجر عرفان كوخاً. وعلى الطريق توقف العروسان لشراء الطعام.

كان شهر العسل كارثياً ففي السيارة في طريق العودة بالكاد تبادلا أية كلمة.

لقد مل الإسلامي منها على الفور، وفي أوسلو استلقت عائشة على الأريكة في شقتهما في ستونر في الضواحي الشرقية وبكت بعد أن أخبرها عرفان أنه ندم على الزواج وأنها لم تعجبه.

- لست كما ظننتك.

اتصلت بدلال باكية وسألتها:

- ماذا أفعل؟

بدت دلال تائهة وهي تفكر:

- ما رأيك أن تتزيني قليلاً؟

لكن رد عائشة جاء غير مسموع.

- هل لديك أي ملابس سوى الملابس الرياضية الواسعة؟

فردت عائشة بخنوع أن لديها ثوباً باكستانياً جميلاً.

- ارتديه وضعي بعض مساحيق التجميل وحضري بعض الطعام ورحبي به على الباب مع قبلة!

لكن ذلك لم يجد نفعاً إذ مر بها دون أن ينظر إليها وبدءا ينامان في غرفتين منفصلتين.

لم يخبر عرفان زوجته الأولى بأمر عروسه الجديدة وإنما سمعت بالخبر من شخص آخر بعد بضعة أسابيع مما أدى إلى شجار رمت فيه مكواة ملابس عليه فضربها ليتم اتهامه بالعنف المنزلي. وفي صيف 2012 تخلى عن حضانة أطفاله وبدأ يخطط للسفر إلى المناطق القبلية بين باكستان وأفغانستان بعد أن أخبر أحد الصحفيين أن في قلبه كراهية شديدة وأن مجرد التفكير بالسلطات

يجعله يستشيط غضباً إلى حد البكاء. ولم يعد العيش في الغرب خياراً بالنسبة له وإنما عليه الذهاب لتفجير قافلة لئلا يكبر أبناؤه متأثرين بالثقافة النروجية.

وقبل أن يغادر قال لعائشة:

- حين أعود لا أريد أن أراك هنا.

لكنه بعد أن قال ذلك طردها في منتصف الليل.

وفي ساعات الصباح الأولى اتصلت عائشة بالرجل الذي تعتبره الأكثر لطفاً بين الإسلاميين الألباني الكوسوفي إيغزون آفديلي وهو متسبب مشاكل سابق من دونسكي حيث طلبت منه وهي جالسة على سلم شقة عرفان أن يأتي ويأخذها، فأحضر معه أمه وأوصل عائشة إلى منزلها في بيرم.

غادر عرفان بهاتي البلاد بعد وقت قصير وكتب على الإنترنت أنه يشارك في العمل ضد القوات الدولية في أفغانستان، ومن المناطق القبلية أرسل إلى عائشة رسالة نصها:

«طالق... طالق... طالق.

انتهى الأمر.

لكن حينها كانت عائشة حبلى».

مكتبة
t.me/t_pdf

12

ممارسات مستهدفة

كتبت أيان لفهد القرشي:

- الأسباب التي تدعوني للمغادرة لا تستند إلى خلفية دينية.

وأرسلت رسالة الاستقالة في نهاية أغسطس 2012 بعد أن بدأت سنتها الأخيرة في المدرسة.

- أشعر أنني قدمت كل ما بوسعي في الوقت الحالي... ربما في المستقبل حين تصبح لدي معرفة أوسع سيصبح لدي ما أشارك به إن شاء الله. شكراً على كل ما علمتموني إياه وعلى منحي هذه الفرصة. إنني أشعر أن إسلام نت قد جعلني أكبر لكن بعد ذلك تغير الأمر ولم أعد أشعر أن هناك حاجة لي... تحياتي... أيان.

فكتبت لها فهد قريش:

- أتمنى أن تعودي يوماً ما إن شاء الله بمزيد من المهارات والطموح والأهداف والمساعي.

كما تركت أميرة التنظيم لكنها قدمت أسباباً أكثر وضوحاً.

- لدي فهم مختلف للعقيدة.

وقد كان مجلس إسلام نت يعرفون بالشائعات عن علاقة الحب السرية بين أميرة وعبيد الله حسين واعتقدوا أنه أثر في قرارها بالمغادرة... وقد أسف أعضاء إسلام نت لخسارة مهاراتها في الحاسوب.

وقد كانت أميرة استنكرت ونددت بالغرب مرات عدة أمام أحد أعضاء التنظيم الذي تتركه الآن فسألها:

- أتقصدين أنك تدعمين الإرهاب ضد الأهداف المدنية؟

في البداية لم تجبه أميرة.

فأكمل الرجل:

- مثل مقهى على سبيل المثال؟

فابتسمت أميرة.

وهكذا غادرت عائشة التنظيم بخيبة أمل بينما استأذنت أيان بأدب وكذلك أميرة وأيضاً دلال التي لم تشعر أن هناك ترحيباً بها في إسلام نت.

كما أنهن جميعهن لديهن أبطال جدد.

وفي نهاية سبتمبر 2012 تجمع عدة مئات من الناس خارج السفارة الأمريكية في أوسلو للتظاهر ضد فيلم «براءة المسلمين» الذي اعتبروه مسيئاً للنبي محمد. وعلى الطريق بين منتزه القصر وبناء السفارة لاحت الأعلام السوداء مكتوب عليها الشهادتين الإسلاميتين لتظهر تبايناً حاداً مع السماء الزرقاء.

كان الجميع يهتفون بصوت مرتفع:

- أوباما! أوباما! كلنا مع أسامة!

وقد صورت الشرطة المتظاهرين الذين يضمون إسلاميين جهاديين ومعتدين سابقين وخارجين عن إسلام نت وقرابة عشرين امرأة منقبة. كانت قد جرت نقاشات داخلية حول إن كان بإمكان النساء المشاركة في المظاهرات وتم التوصل إلى أنه بإمكانهن ذلك طالما أنه ليس هناك اختلاط مع الجنس الآخر. وضع شاب يدعى أبو معاذ القواعد للمظاهرات على مجموعة سرية على الفيسبوك:

- يقف الإخوة والأخوات منفصلين... الأخوة في المقدمة والأخوات في الخلف بينما يشكل بعض الأخوة فرقة حراسة لضمان عدم تعرض الأخوات والأمهات للسخرية من أعداء الإسلام.

وتمت تسمية المجموعة «أمة النبي».

خاطب عبيد الله حسين المجموعة:

- لا شيء أحب إلينا نحن المسلمين أكثر من النبي! إننا متعطشون للثأر! عقاب الاستهزاء من الإسلام هو الموت! العالم بحاجة إلى أسامة بن لادن جديد!

كان بعض الناس الواقفين عند بوابة هنريك إبسن في ذلك اليوم الخريفي منشغلين بالتفكير بشأن السفر إلى سوريا للمشاركة في الجهاد.

وأحد هؤلاء الأشخاص هشام حسين أحمد الذي جاء وحيداً من أريتريا إلى النروج كقاصر وسكن في حي عائلة جمعة وعمل مع أيان في الشارع الرئيسي لأوسلو السنة الماضية وكان مؤدباً وخجولاً جداً ولم يجرؤ على الاقتراب من المارة.

لقد هرب هشام من الحرب حين كان في الثالثة عشرة من عمره والآن يفكر في الحرب مجدداً إذ أصبحت حياته مؤخراً بلا هدف أو توجه وإنما يعمل كعامل توصيل في شركة نقل غير مسجلة أي أن مديره يدفع له مباشرة.

ومن النقاط الجيدة في الوظيفة التي يتم دفع أجرها مباشرة هو أنه يمكنه أيضاً تقاضي مساعدات بطالة كما يمنحه مزيداً من الوقت لفعل ما يحب أي صيد السمك... كان بإمكانه الذهاب إلى ساندفيكسيلفا وهو أهم نهر يتواجد فيه السمك المرقط في منطقة أوسلو مع صديق في منتصف النهار والبقاء حتى منتصف الليل أو يمكنه النهوض من السرير في الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً ويأخذ معدات صيد السمك ويعثر على مكان هادئ ليسترخي.

لم يكن مثقفاً إذ إنه حين وصل إلى النروج كان أمياً وعانى في الكثير من المواد في المدرسة حيث بدت اللغة الإنكليزية صعبة للغاية، وليزيد الطين بلة رفض إنجاز أية واجبات مدرسية كما أنه يستسلم على الفور حين يشعر بالملل. وقد كان الأساتذة لطفاء وجعلوه ينجح لكن بأدنى الدرجات بينما قام أستاذ الرياضة بإرساله إلى وايلد إكس وهي منظم أنشطة متعددة الثقافات

في الهواء الطلق للمهاجرين وأطفال الشوارع حيث انضم هشام إلى فريق التجذيف وصيد السمك. وقد شكل ذلك راحة له من الساعات التي يمضيها بالتزلج في دروس الرياضة، ففي أيام التزلج لم يكن يكمل المسافة إلا بعد ساعات من أول الواصلين لأنه لم يترعرع في مكان للتزلج أو حتى يتعلم كيف يتزلج. ومع نهاية المدرسة الثانوية بدأت حياته بالانحدار على نحو كبير حيث بدأ يتسكع مع الفتى الكوسوفي السيئ إيغزون آفديلي ويدخن الحشيش ويشرب النبيذ ويرتاد الحفلات كما زادت غياباته عن المدرسة.

في وايلد إكس يمكنه الاسترخاء وتحدي نفسه إذ تعلم كيف يقرأ خريطة ويستخدم بوصلة ويشعل نار التخييم. وفي الشتاء قاموا ببناء كهوف ثلجية وقضاء الليل فيها كما تمكن المشاركون الذين حصلوا على رخصة صيد من الذهاب لصيد الدواجن.

وبعد انتهاء اليوم المدرسي عمل لصالح مؤسسة مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة ليصبح مشهوراً بين زملائه وبين من يعتني بهم بفضل قدرته على التسلية أكثر من عمله الجاد. وحين حان الوقت ليضع مخططات لحياته بعد المدرسة اقترح عليه مستشار المدرسة بما أنه يستمتع بوقته الذي يعمل فيه في المؤسسة ينبغي أن يفكر بتأهيل نفسه ليصبح عاملاً اجتماعياً ويحصل على شهادة بالعمل الاجتماعي والصحي.

وقد ذكر وصف شهادة العامل الاجتماعي أن المجتمع بحاجة إلى عمال اجتماعيين مؤهلين يفهمون كيف تنشأ المشاكل الاجتماعية والعقلية وكيف تساعد بأسلوب احترافي. وعلى الرغم من درجاته المتدنية تم قبوله في جامعة فولدا.

فولدا منطقة جميلة تقع عند خليج وتنتشر فيها المنازل على طرف الجبل، وحين تشرق شمس الصيف يتألق البحر والطبيعة باللونين الأزرق والأخضر ومن خلفهما القمم المغطاة بالثلوج التي تلامس السماء... مكان مثالي لكل ما يحب... النزهات الجبلية ورحلات صيد السمك وصيد الدواجن.

لكن سرعان ما حل الخريف وتلون كل شيء باللون الرمادي ثم الأسود تدريجياً ليختفي المحيط الآمن للمدرسة الثانوية إذ إنه لم يكن مستعداً لمزيد من الدراسة وبالكاد يعرف كيف يكتب باللغة النروجية.

وقد لاحظ زملاؤه في الغرفة في السكن الجامعي أنه يعزل نفسه عنهم بكتاب... لكنه لم يكن كتاباً دراسياً وإنما القرآن.

وقبل انتهاء الفصل الأول ترك الجامعة، وعند عودته إلى أوسلو حصل على وظيفة كعامل في مرأب سيارات، وقد كان أحد زملائه هناك عبيد الله حسين.

وفي أواخر شتاء 2012 تلقى مدير وايلد إكس تور باخ مكالمة من هشام إذ لم يكونوا قد التقيا منذ ثلاث أو أربع سنوات، وقد سعد باخ لسماعه أي خبر من رفيقه السابق حيث قال له:

- لقد مضى زمن طويل!

وطلب منه أن يمر عليه.

كان تور باخ رجلاً قوياً ومنفتحاً ولا يطلق الأحكام على الآخرين كما أنه يدعم موقعاً إلكترونياً يدعى واسب الذي يشارك في الصحافة التحقيقية عن الأوساط والمجموعات العنيفة والعنصرية والاستبدادية وغير الديمقراطية. وقد حملق باخ بعينيه حين دخل هشام مع ثلاثة من رفاقه ملتحين كالجهاديين.

في المرة الأخيرة التي رأى فيها هشام كان مراهقاً صغير البنية لكنه الآن منفوخ من رفع الأثقال.

ضحك تور باخ قائلاً:

- تبدون كأفراد تنظيم الشباب!

لكن تعليقه لم يثر ولا حتى ابتسامة لدى هشام ففكر باخ أن الجهاديين يفتقدون لحس الفكاهة.

كانت هناك قسوة في عيني هشام أم أنه يتصرف كشخص صارم؟ ما

الذي حصل؟ تذكر أن هشام كان يميل في بعض الأحيان إلى بعض نظريات المؤامرة الغريبة لكن هذه...؟

لم يضيع الزوار متجهمو الوجه أي وقت في الثرثرة ودخلوا مباشرة في موضوع العمل إذ كانوا يريدون الانضمام إلى دروس الصيد.

ظل باخ صامتاً وهو ينظر إليهم متردداً أمام التفاصيل العملية... في البداية هناك تسعة دروس نظرية موزعة على ثلاث أمسيات في الأسبوع لثلاثة أسابيع حيث سيكون عنوان الدرس الأول «الصيد الإنساني وأخلاقياته» ثم يتم الانتقال إلى الصيد العملي وتقنياته ليتعلموا القواعد والقوانين وأنواع الحيوانات والاستخدام الآمن للسلاح كما سيتعلمون عن الأصناف المختلفة لكلب الصيد ويحصلون على معلومات عن التعامل مع الفرائس. وبعد إتمام الدروس يمكنهم إجراء اختبار رخصة الصيد الرسمية الذي تجريه السلطات المحلية، وعند نجاحهم في الاختبار يمكنهم الحصول على رخصة حيازة سلاح ناري.

سأل هشام:

- متى تبدأ الدروس؟

وحين غادر الإسلاميون الثلاثة اتصل باخ بقوى الأمن النروجية ليجيبه رجال الشرطة:

- لا يمكننا منع أحد من اتباع دروس اختبار الصيد طالما أنهم لم يرتكبوا أية جريمة لكننا سنبقي أعيننا عليهم.

لكن الجواب لم يشعر تور باخ بالارتياح.

قام باخ بتسجيل انضمامهم وبدأت الدروس حيث كان هشام وأصدقاؤه مهتمين بالأسلحة أكثر من اهتمامهم بالدواجن والغزلان، وقد أخبر أحد المشاركين باخ أنه سمع الملتحين يتكلمون عن صيد اليهود.

عند إتمام القسم النظري كان عيد الفصح قد مضى وبدأت شمس الربيع

تذيب الثلج ليحين وقت التدريب في ميدان إطلاق النار حيث أخذ تور باخ كل واحد من يده وأخبره بالقواعد ثم تم السماح للمشاركين بالبدء بالصيد.

حين يصيب هشام وأصدقاؤه الهدف كانوا يصرخون:

- الله أكبر!

وقف تور باخ يراقب بصمت وعلى الجانب الآخر من السور وقفت سيارة بيضاء بداخلها رجلان من قوى الأمن النروجية يراقبون الوضع ويلتقطون الصور.

لقد اقترب موعد الاختبار... ماذا عساه أن يفعل؟

اتصل بقوى الأمن مجدداً فكان ردهم:

- لا يمكننا التدخل ولا يمكننا منعهم من التقدم للاختبار.

لكن تور يستطيع حيث خرق قوانين تعليم الكبار ولم يسجلهم، وحين اتصل هشام ليسأل متى يمكنه إجراء الاختبار رد عليه:

- هناك خطأ ما...

اتصل به هشام مجدداً وسأل غاضباً:

- ماذا يحصل؟ متى موعد الاختبار؟

فأخبره تور باخ أنه ليست لديه أدنى فكرة لكن النظام رفض السماح له بتسجيل أسمائهم ثم سأله باخ:

- أيمكن أن يكون ذلك بسبب سجل إجرامي من نوع ما؟

ولم يعد هشام يتصل مجدداً.

كانت زوجة هشام في المنزل تقترب من نهاية حملها حيث سيولد الطفل في ديسمبر.

اختلف الزوجان بشأن مكان إقامتهما حيث كان هشام مصراً أن الإقامة في بلد غير مسلم حرام وأراد السفر إلى سوريا ليملأ حياته بالصلاة والقتال وإعلاء كلمة الله في الأراضي المقدسة. لقد أراد أن يذهبا سوية وينجبا الطفل

هناك ويعيشا بالأسلوب الإسلامي القويم، وإن لقيا حتفهما فسيدخلان الجنة.

لكن المرأة الحامل لم تعجبها الفكرة إذ إن حياتها هنا حيث تعمل في روضة وناقشته أن بإمكانهما عيش حياة إسلامية جيدة في النروج كما يفعلان في الوقت الحاضر.

لكن الزوج استمر بعناده وأصر أن الجهاد أهم من أي شيء آخر... أهم منه ومنها ومنهما... إنه في سبيل الله.

وقد اعتقد أحد الأصدقاء أن خطة هشام متسرعة وقال له:

- عليك التعمق في الإسلام قبل أن تسافر... حينها يمكنك اتخاذ القرار الصحيح.

فعلى الرغم من كل شيء قرأه في القرآن لم تكن لدى هشام سوى بعض المعلومات المنتقاة عن الإسلام.

فرد هشام:

- لست صالحاً للدراسة والقراءة... طالما أنني أوفي بالتزاماتي وأصلي يومياً هذا كافٍ بالنسبة لي.

كما بدا صديق آخر مرتاباً:

- ينقصك هدف في الحياة... أنت تنام وتستيقظ حين تريد... تصيد السمك في الليل وتنام في النهار... والآن تريد أخذ عائلتك إلى سوريا دون أن تعرف السبب... اقرأ القرآن أولاً ثم فكر في السفر.

فرد هشام على كلتا النصيحتين بما أصبح شعار جموع الأمة:

- نحن لسنا أمة علم وإنما أمة قتال.

وفي نوفمبر 2012 غادر النروج قبل بضعة أسابيع من موعد ولادة زوجته ليتركها وحدها مع ركلات الطفل والقلق بشأن الولادة... وحين بدأت التقلصات كانت وحيدة وكذلك حين خرج الطفل إلى هذا العالم.

وبعد الولادة مرت بوقت عصيب وانتقلت للعيش مع والديها وبالكاد تقبل النهوض من السرير حيث بقيت داخل المنزل ورفضت طفلها... لقد

أصيبت باكتئاب ما بعد الولادة مع بعض نوبات الذعر الشديدة... وقد خشي والداها أن تكون ممسوسة من الشيطان وهما يراقبان نوباتها الحادة. وقد حاولا تهدئتها بقراءة القرآن لها.

في سوريا انضم هشام إلى جبهة النصرة وتبعه عدد من الشباب الآخرين من تنظيم أمة النبي، ومن بينهم باستيان الشيلي الذي لم يسافر بيدين فارغتين، وإنما جمع المال لمنظمة الفرقان الإسلامية للإغاثة في غرونلاند حيث وضع الناس مبالغ كبيرة من المال في صناديق التبرع وفي بعض الأحيان تم التبرع بمغلفات سميكة مليئة بمال الزكاة بالإضافة إلى تبرعات كبيرة يتم دفعها بعد صلاة الجمعة.

هناك عدة معايير ينبغي الالتزام بها قبل أن تجمع المال لمنظمة الفرقان حيث ينبغي أن تبايع أمير المنظمة وتكون مسلماً ملتزماً وتتدرب على الفنون القتالية وتنصر المسلمين في الحق ولا تطع سوى الله.

لم يكن باستيان يطيع أحداً سوى نفسه، وحين غادر إلى سوريا أخذ كل الأموال التي جمعها معه مما أغضب رئيس الفرقان وأقسم أنه سيلقى الله يوم القيامة لكن باستيان قال إن المال سيتم استخدامه على نحو أفضل لأن الفرقان حين يرسلون المساعدات للاجئين فإنهم يخاطرون بمساعدة المذنبين بمن فيهم المدخنين أي أن سيطرته على النقود أمر مشروع.

وكما هي الحال مع هشام ترك باستيان خلفه طفلاً حيث تزوج من مراهقة صومالية بمراسم إسلامية قبل عام لكن الفتاة هربت من الزواج بعد أن حملت بطفل وغادت للعيش مع والديها بسبب تعامله معها بعنف حيث أبلغت عنه الشرطة الذين كتبوا في التقرير:

- ضربها وحبسها ومنعها من الخروج ما لم ترتدِ ملابس تغطيها من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها وتخفي وجهها خلف النقاب.

وقد استمر في محاولة رؤيتها ولهذا طلبت إصدار قرار منع اقتراب منها حيث ذكر التقرير:

- إنها واثقة أن سبب رغبة باستيان بالعيش معها لا لأنه يحبها وإنما ليتحكم بالطفل إذ إنه أخبرها أنه يتمنى أن يترعرع الطفل في بلد مسلم ويخطط لتربية طفل ينفذ مهمة انتحارية.

انضمت امرأة أخرى إلى باستيان... أميرة... طالبة هندسة الحواسيب... تركت وراءها جامعتها ووالديها وزفافها المخطط له... رمت لاعبة كرة القدم السابقة كل شيء وراءها من أجل ما اعتبرته حريتها... سوريا. وفي تركيا وجدت أميرة باستيان الذي يحمل اسم أبو صفية في انتظارها وتزوجا قبل أن يقطعا الحدود سوية.

وهشام أيضاً أراد زوجة ثانية وإن غيرت زوجته الأولى رأسها وأخذت طفلها ولحقت به فلن تكون هناك مشكلة إذ يمكنه في سوريا الزواج من أربع زوجات، إلا أنه لا يتكلم العربية أو الإنكليزية والنساء الأريتيريات في سوريا نادرات ولهذا فقد وجد أن الخيار الأفضل أن يفعل كباستيان ويحضر زوجة من النروج.

سأل من حوله.

أرسلت أميرة معلومات دائمة عن وضعها إلى أصدقائها... الأمور جيدة الحمد لله... حصلت على مكان تبقى فيه مع باستيان... منزل كبير مع حديقة وباحة.

بدا والداها منكوبين إذ فقدا ابنتهما أما ابن عمها في باكستان فخاب أمله حيث فقد بطاقة دخوله إلى الغرب.

وعائشة أيضاً أرادت الذهاب إذ إنها الدافع الرئيسي للعصابة لكن حملها أخرها حسبما قالت لدلال التي كانت تدرس التمريض في جامعة أوسلو.

فأجابتها صديقتها مستغربة:

- هل جننت؟ ذلك المكان غير مناسب لطفل صغير... ولا حتى لك.

لكن دلال أيضاً كانت تتجه نحو الرجال الخشنين في أمة النبي إذ إن إحدى صديقاتها النروجيات اعتنقت الإسلام ثم عرفتها عليهم قائلة إنهم

جلفون بعض الشيء لكن قائدهم وسيم وجذاب.

وقد طلبت دلال الانضمام إلى صفحة الفيسبوك الخاصة بأمة النبي إذ إن العضوية تخضع لإشراف القائد الوسيم والجذاب بذات نفسه... عبيد الله حسين... الرجل الذي كانت أميرة معجبة به والذي خطبته عائشة قبل أن تتزوج من عرفان بهاتي. كان يعمل على التأكد من أن من يطلب القبول من المسلمين الملتزمين لا من الصحفيين أو الباحثين أو عملاء قوى الأمن النروجي.

وبعد وقت قصير من طلب دلال العضوية في المجموعة تلقت رداً على الماسنجر من عبيد الله حسين:

- أنت لا ترتدين الحجاب في صورة صفحتك الشخصية... لماذا؟

فردت دلال أنها غير مستعدة بعد.

- ولماذا تريدين الانضمام؟
- لأتعلم... مجرد فضول.
- أنت شيعية؟
- لا.

وهكذا انتهت المحادثة.

هل يعود سبب ذلك أنها لا ترتدي الحجاب؟ أم لأنها كردية؟ من يظن هذا الرجل نفسه؟

وبعد بضعة أيام تلقى أخوها الأصغر رسالة نصية فقال:

- ماذا...؟ عبيد الله حسين أرسل لي رسالة نصية يسألني فيها إن كنت شيعياً... ماذا يريد هذا الإرهابي مني؟

تظاهرت دلال أنها لا تعرف شيئاً لكنها شعرت في سرها بالرضا... لا بد أن عبيد الله بحث في ملفها الشخصي ووصل إلى صفحة أخيها مما يعني أنه يتعامل مع طلبها بجدية... وقد أدرك أخوها الذي يدرس مع أيان في نفس السنة في دونسكي أن هناك خطب ما فحذرها:

- آمل أن تدركي ما تفعلينه.

وفي المرة التالية التي دخلت فيها إلى فيسبوك وجدت إشعاراً أنه تم قبولها في المجموعة الخاصة فبدأت بقراءة المنشورات والتعليقات.

وقبل وقت طويل تواصل معها عبيد الله من جديد حيث أراد أن يهديها مما جعل دلال تشعر بالإطراء، فعلى الرغم من أنها تخالف معظم ما كتبه لكن هناك أشياء جذبتها إليه. وهكذا أصبحا يدردشان عبر الإنترنت في النهار والليل، وأحياناً تتخلى عن آرائها وتعترف أن ما يقوله صحيح... لقد قرأ القرآن كاملاً وحفظه عن ظهر قلب... كيف يمكنها معارضته؟

وخلال وقت قصير أصبح كل ما يقوله حقيقة واضحة وجلية.

وفي أحد الأيام سألها:

- كيف يمكننا التعرف إلى بعضنا؟

وهكذا اتفقا على الخروج للمشي سوياً مما جعل دلال تتوتر إذ إنه أخبرها أنه على علاقة بفتاة أخرى لكنه على وشك الانفصال عنها. مشيا لعدة ساعات، وفي منتصف الطريق توقف فجأة وسألها:

- ماذا تريدين؟ هل تريدين أن نلتقي مجدداً؟

نعم... إنها ترغب بذلك.

وبعد لقائهما الأول افتقدته طوال الوقت ولم تعد ترغب سوى بالبقاء معه، وحين أرسل لها مجموعة من الرسائل ذابت في الكلمات وفي الأسلوب العقلاني الجميل النقي الذي يعبر به عن الأشياء. كان لدى عبيد الله والقادة الآخرين في أمة النبي قوة سحرية لجذب النساء اللواتي في الوسط.

كتب لها:

- أشتاق إليك.

فردت عليه:

- وأنا أيضاً!

من الغريب أن يكون شخصا مثله وديعاً إلى هذه الدرجة... هل أنا من

أخرجت الجانب الوديع من شخصيته؟ هذا ما فكرت به دلال وهي ترتعش كلما خطر ببالها. التقيا في منزله عند مضمار سباق الخيل في بجيرك وأحياناً في شقة عرفان بهاتي في الضاحية الشرقية لستوفنر، وفي النهاية أصبحت تمضي الليل معه بينما تخبر والديها أنها في منزل صديقتها.

أخبرها في النهاية:

- علينا أن نتزوج. لقد فعلنا كل شيء وعليك أن تتزوجي مني.
- لا أستطيع... عائلتي لن تقبل... إخوتي سيقتلونك.
- إن لم تقبلني عائلتك فهذا يعني أنهم كفار... لا يمكنهم منعك من الزواج من مسلم... ليس هناك سبب منطقي للرفض.

لا... ما من سبب منطقي... إنهما مرتبطان ببعضهما بروابط خفية.

وهكذا أصبحت شقته في بجيرك عالمها الخاص حيث صادر عبيد الله هاتفها المحمول ومحفظتها وبطاقتها المصرفية وبطاقة تعريفها الشخصية وحاسبها المحمول ولم يسمح لها بإكمال دراستها الجامعية أو التواصل مع عائلتها أو الخروج بدونه.

الغرب في حرب مع الإسلام.

الحرب ضدنا.

النروج أرض الكفار.

شعبها سيدخل النار.

إنهم العدو.

إنهم يريدون لنا الأذى.

إنهم يسخرون منا.

علينا أن نقاتلهم.

علينا التوحد كأمة.

نحن أخوة وأخوات.

سندخل الجنة!

وبعد أن غادر عرفان بهاتي إلى باكستان تم اختيار عبيد الله كأمير جديد لأمة النبي.

تم إرسال دلال إلى المطبخ حين وصل الشيخ الذي سيزوجهما، وجلست على واحد من المقاعد الثلاثة وانتظرت. كان المطبخ نظيفاً إذ إن عبيد الله يهتم بالنظافة والترتيب ويمسح الأرض عند ظهور أصغر ذرة غبار. والآن ها هو يجلس مع الشيخ والشاهدين ووليها في غرفة الجلوس... لم تسمع دلال اسمه جيداً... أبو... إنه نفس الشخص الذي كان ولي عائشة... إنه الدور الذي ينبغي أن يؤديه والدها... وفي حال عدم وجود الأب ينبغي أن يكون أخوها الكبير وليها وفي حال لم يستطع فأخوها التالي، وإن لم يكن لديها أخوة فتنتقل الولاية إلى جدها ثم عمها فابن عمها لكنها لم تطلب من أي منهم.

استطاعت سماع أصواتهم المكتومة من غرفة الجلوس ثم تحرك مقبض الباب ليدخل أبو... فرفعت نظرها إليه.

- اخفضي نظرك.

فخفضت عينيها.

- اسمعي... هناك أمران لتقومي بهما... انظري إلى الأسفل وقولي نعم.

فجلست صامتة تحدق بيديها بينما سألها إن كان ما قاله عبيد الله صحيح أن عائلتها تعارض الزفاف لمجرد كونه باكستانيا فأجابت نعم. وفقاً للقرآن لا يمكن للأب منع ابنته من الزواج من رجل جيد طالما أنه مسلم ملتزم أما الاختلاف في العرق والقومية والثقافة والتقاليد فهي أسباب غير مقبولة.

ثم سأل الرجل العجوز بصوت وقور إن كانت تقبل بعبيد الله زوجاً لها فأجابته بالإيجاب.

فقرأ بعض آيات القرآن وأعطاها عبيد الله قطعة مجوهرات وأصبحا زوجاً وزوجة.

غضبت عائلة دلال إذ إن ابنتهما الوحيدة تركتهم... وبدأ بعض الكلام عن الانتقام.

وقد أدت الطريقة التي تجاوز بها عبيد الله العائلة وعدم طلبه يد دلال إلى خلاف في أمة النبي كما أن أسلوب حياته بكامله محل خلاف ضمن المجموعة حيث تورط في العديد من الفضائح والنزاعات وترك عدة قلوب محطمة. وقد مقت الكثيرون عناوين الأخبار السلبية التي تسبب بها حين كان يتوعد الدولة النروجية لطلبها الضرائب من المسلمين في حين أنها تشن حرباً على الإسلام لكن المشكلة هي أنه يعيش على حساب نفس الدولة التي يدفع لها الآخرون الضرائب حيث يتلقى كل شهر 3000 كمساعدات بعد استقالته من وظيفته. وقد امتلأت صفحته على فيسبوك بتهديد المجموعات المختلفة الأخرى، وحول موضوع اليهود الذين شعروا بالتهديد وعبروا عن طلبهم بحماية الشرطة كتب:

- سأعطيهم الحماية إن شاء الله... ما إن أجتاز اختبار الصيد وأحصل على بندقيتي.

وقد نشأت خلافات ونزاعات مهددة وحدة المجموعة، وفي بداية مارس 2013 تخلى عبيد الله عن القيادة بعد أن كتب عدة أسباب على الفيسبوك:

- من بين أمور كثيرة هناك الكثير من التركيز على حياتي الشخصية لا على إيديولوجية ورسالة المجموعة، وعلى الرغم من أن أفراد أمة النبي يعارضون بوضوح أسلوبي في القيادة فإنهم جميعاً إخوتي في الإسلام طالما أنهم يعملون وفقاً للقرآن.

لكن سمعتهم كمسلمين صالحين تلطخت بسبب مغازلة الإسلاميين والسلوك غير الرسمي تجاه الزواج: خطبة ثم قراءة بضع آيات من القرآن تليهما مساكنة لأسبوع أو شهر أو اثنين ثم ينتهي كل شيء بطلاق صريح من الزوج.

أحد الأعضاء الذي كان يعارض وبشدة هذا الأمر هو إيغزون الألباني

الكوسوفي الذي كان على علاقة جيدة بإخوة دلال حين كانوا يافعين، وقد أبلغهم بمدى غضبه قائلاً:

- لو كانت أختي من أخذها عبيد الله لقتلته.

وقد حذر الأعضاء من هذه الزيجات المتسرعة والطلاقات السريعة إذ كتب على النت مستخدماً لقبه أبو إبراهيم:

- الزواج الإسلامي أمر جميل ولا ينبغي التعامل معه كزواج المتعة الشيعي الذي يعتبر باطلاً ولاغياً عند مواجهة أي خلاف.

وحصد منشوره عدداً كبيراً من الإجابات والتعليقات المؤيدة.

شعرت العديد من الصاحبات السابقات للإسلاميين أنه تمت إهانتهن واستخدامهن وخداعهن، فبعضهن كأميرة كانت حبيبة سرية متعلقة بوعود الزواج، وأخريات كعائشة تزوجن على الطريقة الإسلامية دون علم والديها ثم تم التخلي عنها، والبعض كزوجة هشام تم هجرها فحسب.

كتب أبو خراسان:

- أيها الأخوة! عاملوا زوجاتكم كما تريدون أن تتعامل أخواتكم وبناتكم! ولا تتزوجوا في السر فمن المفترض أن يتم الزفاف مع إعلان وفرح لا أن يبقى مخفياً.

لقد كانوا يدعون أنفسهم أمة النبي لكنهم لم يتبعوا النبي إلا حين يناسبهم ذلك.

13

مواعدة حلال

ازداد زخم الدروس مع أستاذ القرآن حيث امتلأت أيام الأحاد بالموت وغضب الله ليليهما النجاة والنعيم.

وبفضل شعبية مصطفى المتزايدة بحثت الأمهات الصوماليات عن مكان أوسع حيث تمكنوا من استعارة مركز ريكين الترفيهي التابع للسلطات المحلية في بيرم إذ تم تسجيل المجموعة التي تستخدم المنشأة باسم رابطة الأمهات الصوماليات.

وقد ذكر العقد صراحة أنه سيتم استخدام المكان للأنشطة الثقافية لا لأي أهداف سياسية أو دينية، وقد افترضت رابطة النساء أنه ما من أحد سيتحقق من الأمر.

كان هناك حوالي عشرين طالباً في الصف كما قام مصطفى بتدريس بعض منهم في منازلهم في المساء حيث بدأ يعطي دروساً في كافة أنحاء المدينة وزادت سمعته.

كان يتقرب من الطلاب الذين أعجبوا به لأنه يجعلهم يشعرون بالتميز حيث يهتم بهم واحداً تلو الآخر ويدقق على لفظهم للكلمات العربية ويكرر كلامه باستمرار. وبين الفينة والأخرى هناك من سيبقى بعد الدرس لأن مصطفى ليس راضياً عن حفظه أو تلاوته، وسيبقى الاثنان يتدربان وحدهما.

من يتم انتقاؤه يشعر أنه محظوظ إذ قالت فتاة قبل درسها الإضافي:

- فقط فكروا أنه سيخصص وقتاً ليقرأ معي وحدي.

وحين غادر الآخرون بقي كلاهما لوحدهما. كان أستاذ القرآن الرجل

الوحيد من خارج العائلة الذي يمكنه أن يختلي بفتاة شابة دون أن تنتشر الأقاويل.

كانت أيان من بين الطلاب المتفوقين، وإلى جانب تلاوتها للقرآن قرأت عن المجموعة الثورية السورية جبهة النصرة وشاهدت ما نشرته المجموعة كما تابعت فيديوهات لهجمات الأسد. كانت ملتزمة في صيامها وصلاتها وحجابها وعفتها لكن ما يثير اهتمامها أمر مختلف... الحصول على حبيب!

تتطلب السلفية من المرأة أن تنتظر حتى تخطب لشخص ما وهو أمر صعب لكن أيان متحررة على الإنترنت، وقد أضافت فيديو إلى قائمتها الخاصة على اليوتيوب يدعى «المواعدة الحلال» من خمسة مقاطع يجلس فيها شاب وسيم وأنيق يرتدي ثوباً وكوفية ويبتسم للكاميرا وخلفه رفوف الكتب تغطي الحائط.

تكلم عن اتصال أتاه من شاب سأله:

– كيف يمكنني أن ألتقي بفتاة في حين أنكم تضعون الحواجز بيننا؟

كان الواعظ الذي بدا في منتصف العشرينات من الصومال ويدعى سعد راجح وقد درس في المملكة العربية السعودية قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة ومنها إلى كندا، وبلغة إنكليزية طليقة أكد للشاب أنه إن تبع الشريعة فسيكون كل شيء على ما يرام.

– الشريعة تعمل لمصلحتك وهي تحميك من الحرام.

وقبل أن يقدم النصائح عن المواعدة الحلال أكد أن من الضروري التخلص من إغواء الشيطان، فالشيطان حاضر دائماً حين يكون هناك اختلاط بين الرجال والنساء، وحين تغادر المرأة منزلها يتبعها الشيطان دائماً بغض النظر عما تخطط له. وأعطى مثالاً عن أختين خرجتا من منزلهما للذهاب إلى المرأب، وإن رآهما فتى ما من نافذته فسيتبعهما مهما كان الأمر لأن الشيطان سيضع بذرة الرغبة في قلبه، وحين يمر الرجال بهما يضع الشيطان شهوة في أجسادهم... تخيلوا لو أن تسعة أو عشرة رجال مروا بهما... فقط فكروا

بمدى الرغبة التي ستظهر لمجرد أن الفتاتين خرجتا من باب منزلهما! ثم بدأ الواعظ يتكلم بجدية وتوسل إلى النساء أن يحترسن ولا يجازفن بلا داعٍ... أفضل شيء هو أن يبقين في منازلهن... هذا الشيء الأفضل.

ثم شرح الواعظ أن الشيطان حاضر دائماً، فعندما يختلي رجل بامرأة أجنبية سيكون الشيطان ثالثهما، وحتى على الهاتف يثير الشيطان تلك المشاعر، فأنت تظن أن ما من أحد يراكم إلا أن الشيطان يدخل بينك وبين الشخص الآخر. لهذا لا تتصل أو تدردش أو تنكز على الفيسبوك.

ثم خاطب الرجال من جمهوره... كيف سيتعاملون مع الوضع إن دعتهم امرأة متزوجة إلى منزلها؟ إنهم سيسمعون صوت الشيطان بداخلهم يخبرهم أن لا أحد سيعرف. وتكلم الواعظ أنه يعرف الكثير من حالات الطلاق التي حدثت لأن الزوجة ظنت أن لا أحد سيعرف لكن الله يعرف وهو حاضر دائماً.

وقد ظن الواعظ الشاب أنه مطلع على دوافع الناس وأخبر الشباب من مستمعيه أنه يعلم أنهم يبحثون عن جمال المرأة لكن المرأة تبحث عن الرجل الناجح، فهي قد تتزوج من رجل يبدو كالقرد لأنها لم تره وإنما رأت سيارته ومنزله والمجوهرات التي يمكنه شراؤها لها. الرجال يكدحون ويتعبون ويعملون لساعات مضاعفة لكي يعطوا المرأة ما تريد أما هي فلا تهتم سوى بمظهرها، ولهذا فقد حذرهم أن ينتبهوا لأن لدى الرجال والنساء أجندات مختلفة. المرأة تحاول إغواء الرجل في هذا المجتمع لكن ذلك خطأ الرجل لأنه يقدم الإطراء مثل:

- أنت جذابة.

مما يجعل المرأة ترتدي شيئاً فاضحاً أكثر في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده ترتدي لباساً حتى الشيطان نفسه لا يرتديه أمام الناس.

انتهت أربع من الحلقات الخمسة لكنه من المقرر أن يذكر في الحلقة الخامسة نصائح حول كيفية المواعدة بطريقة ترضي الله. ابتسم نفس الواعظ

وهو يجلس في نفس المكان ليكشف ما هي المواعدة الحلال.

- ليس هناك مواعدة حلال في الإسلام وإنما المواعدة الحلال الوحيدة هي حين تتزوج من ذلك الشخص وتواعده قدر ما تشاء! يمكنك أخذها معك إلى السينما أو إلى المنتزه أو إلى شلالات نياغارا أو مهما يكن ما تريد... الزواج هو المواعدة الحلال الوحيدة.

وقد كانت التعليقات كثيرة تحت الفيديو حيث أشاد الكثير من المشاهدين بالنصيحة على الرغم من وجود بعض الأصوات الناقدة:

- قال إنه سيقدم نصائح... لقد انزعجت للغاية أنني شاهدته كله لكن لم أجد أية نصائح.

وجازفت فتاة بالتعليق أن الشيخ مغرٍ ومثير فتم نعتها بالمريضة نفسياً لكتابتها شيئاً كهذا عن رجل مقدس سيشعر بالخزي إن قرأ ما كتبته عنه... إنه ليس هنا ليثير إعجابك بمظهره وإنما ليعلمك بمشيئة الله!

حفظت أيان فيديو آخر لنفس الواعظ بعنوان «الزواج الإسلامي» وأيضاً من خمسة أجزاء، وشاهدت الجزء الأخير «ما المسموح أن تراه من المرأة» وقد أكدت النتيجة ما تعرفه مسبقاً... من الأفضل ارتداء النقاب لإبقاء الشيطان بعيداً. وبعد ذلك انتقلت إلى فيديو آخر على يوتيوب بعنوان «أيمكن للشباب والفتيات أن يكونوا أصدقاء؟» والنتيجة لا.

ونشرت حركة الشباب المسلم نقاشاً على صفحتها بعنوان «تزوج أو مت صائماً...» مؤكدة على أهمية الزواج في سن مبكر قدر الإمكان لأن تأجيل الزواج قد يمنح الشيطان فرصة للسيطرة عليك.

وعلى الصفحة الرئيسية لموقع «زواج طاهر» مكتوب «إن كنت عازبا وتريد لقاء زوج طاهر بطريقة حلال اضغط هنا!» ليأتي بعد ذلك إعلان يظهر رجلاً وجد زوجته من خلال هذا الموقع وتأكيد بأن الموقع يستخدم وسائل علمية للربط بين الناس.

ثم ظهر عبد.

في أحد الأيام قالت سارة:

- علينا ترتيب غرفة الصبيان.

سيأتي ابن عمهم من كندا ولهذا ينبغي أن ينتقل الصبيان إلى غرفة والديهم.

كان عبد طويلاً ووسيماً وسياسياً ويتكلم الإنكليزية بمهارة بينما يتلعثم بالصومالية... لقد كان يمر بالنروج في طريقه إلى الصومال حيث ظن والداه أن من الجيد بالنسبة له أن يطلع على ثقافته وعائلته. وقد وجده إسماعيل لطيفاً بينما رأته ليلى رائعاً أما أيان فوقعت في حبه، وبما أنهما قريبان فما من حاجة لأن تضع حجابها ويمكنها الاستمتاع بحرية أكبر قبل أن تقيد نفسها وراء جدار من القوانين.

كان عبد سيبقى لشهر.

ولم يمض وقت طويل حتى بدت الشقة مزدحمة.

وعند نهاية زيارته طلب يد أيان للزواج من صديق فاتصل صديق بأقاربه في كندا الذين بدوا مرتابين إذ إن عبد في طريقه إلى هارغيسا ليتلقى تعليماً دينياً ويتعلم اللغة الصومالية أما أيان فما زالت في المدرسة الثانوية... أليس من الأفضل الانتظار لمعرفة كيف ستتطور الأمور؟ أليس الأمر متسرعاً؟ وهكذا بدت العائلتان مع فكرة أن ابنيهما سيبليان بلاء حسناً قبل الزواج.

وهكذا تم الاتفاق على أن يكمل الاثنان دراستهما أولاً على الرغم من توسلات عبد وأيان لكي يغير والداهما رأيهما.

14

فقرات

أسرع أستاذ الديانة غير لي على الطريق المؤدي من مدرسة دونسكي إلى موقف الحافلات ليتسقل حافلة توصله إلى البلدة.

وعلى الطريق الرئيسي رأى امرأة ترتدي اللون الأسود بالكامل وتقترب منه. كان وجهها مخفياً بنقاب أسود فتحرك إلى يمين الطريق وقد أخفض بصره احتراماً لأنه افترض أن المرأة حين تغطي نفسها فإنها تعبر عن انزعاجها من نظرات الذكور. وحين أصبحت المرأة بجواره تماماً سمع صوتاً يقول:

- مرحباً يا غير!

فتعرف إلى العينين مما جعله يشعر بالارتياح إذ تغيبت أيان عن المدرسة في الآونة الأخيرة مما جعله يخشى أن تكون انقطعت عن الدراسة أو تم إرسالها إلى الصومال، ولهذا فقد اتصل بها عدة مرات لكنها لم ترد، كما فكّر بالاتصال بوالديها لكنه تذكر أنها أصبحت في السن القانوني وليس له حق في فعل ذلك، وربما يكون الوالدان هما المشكلة.

قال لها:

- لقد كنت قلقاً عليك... وحاولت الاتصال بك على الهاتف...

ردت أيان:

- أموري كلها بخير.

- عظيم... حسنا سأراك في الصف.

فنظرت إليه وقالت:

- أوه... بالمناسبة... قررت من اليوم فصاعداً أن أرتدي النقاب طوال الوقت.

- حسناً... علي المضي في طريقي لألحق بالحافلة.

كانت واحدة من طلابه المفضلين إذ إنها مجدة وتحب النقاش والجدل وواسعة الاطلاع لكنها غريبة الأطوار في بعض الأحيان كما حين رفضت الذهاب في رحلة مدرسية إلى الكنيسة الكاثوليكية القريبة أو إلى المعبد البوذي إلا أن الأغرب من ذلك هو رفضها الذهاب إلى المسجد القريب من المدرسة حيث قالت إن تعاليمهم مليئة بالبدع. وقد كانت أيان واضحة في آرائها حول ما هو صحيح وما هو خاطئ، وغالباً تعبر عن آرائها في الصف.

كانت ثقتها بنفسها من الناحية الدينية لم يسبق لها مثيل عند أي طالب سابق لديه، فهي تتكلم بحماس عن عقيدتها. وبالنسبة لغير لي فإن مجرد تمتمتها «عليه الصلاة والسلام» كلما ذكرت اسم النبي هو تصرف ديني سابق أي أنه كان معجبا ومأخوذا بتلميذته الصومالية لا لأنه يحب كل أفكارها - بل على العكس - وإنما لأنها تؤمن بأفكارها بقوة وكأنها منارة في بحر من اللامبالاة.

كان درساً صعباً ومليئاً بالمشاكل مع الكثير من الغيابات والفتيان الصاخبين وصعبي المراس. كان الكثير منهم مسلمين والعديد منهم يريدون الإمساك به في الخارج وتلقينه درساً لا ينسى كما أنهم دائمو الاعتراض والنقد لتعاليمه لكن وبصورة إجمالية فإن معرفتهم سطحية. في حين أن أيان حريصة على الحصول على درجات مرتفعة فإن الكثير من نظرائها الذكور لم يظنوا أنهم بحاجة إلى شهادة، وقد كان غير لي طيب النية ولا يلجأ إلى التأنيب المفرط. وفي إحدى المرات طلب من أحد التلاميذ مغادرة الصف بسبب المشاكل التي أثارها لعل الآخرين يتعلمون شيئاً ما، وحين رفض التلميذ المغادرة اقترب لي من مقعده فصرخ التلميذ:

- لا تقترب مني أيها الكافر!

فصرخ غير لي:

- اخرج! اخرج من هنا!
- لا تلمسني!
- اخرج!

بعد ذلك جمع الفتى بعض زملائه في الصف وتوجه إلى مدير المدرسة ليشتكي على أمل التخلص من أستاذ الديانة. وحين علمت أيان بذلك اتجهت نحو مكتب المدير مع بعض من صديقاتها للاحتجاج على الشكوى.

المثير للاهتمام برأي لي ليس تمتع أيان بسلطة في الصف إذ لا أحد يصدر أي صوت حين تتكلم كما أن شخصيتها قوية ولا تتقبل النقد. وفي إحدى المرات كان على كل تلميذ الحديث عن موضوع من اختياره فتكلمت هي بحماس عن الإسلام. وقد تجاهل بعض تعليقاتها الخاطئة عن المسيحية ومنحها أعلى الدرجات.

وصلت الحافلة المتجهة إلى مركز المدينة فاستقلها لي ليصل إلى الكنيسة الأمريكية اللاتينية قبل الظهر.

بينما دخلت أيان مبنى المدرسة متجاوزة لافتة «مرحباً» المكتوبة باللغات العربية والفارسية والأوردو والفرنسية ومشت في الممرات دون أن تخلع نقابها ثم دخلت الصف وجلست في مقعدها.

«لقد تم تزويجها».

هذا أول ما خطر في بال معلمة اللغة النروجية عند دخولها الصف ورؤيتها مغطاة بالكامل بعد غياب طويل، وبينما كانت تدور بين صفوف المقاعد وتقترب من مقدمة الصف رأت أن وجه التلميذة مغطى بالكامل كما أن ملابسها تشمل قفازات سوداء مما عزز من شكوك المعلمة بأن والديها أجبراها على الزواج. ربما هكذا ترتدي نساؤهم المتزوجات لضمان عدم نظر أي رجل آخر إليهن. في ذلك العام كان هناك تركيز خاص على الزواج

القسري والختان في المدارس في منطقة أوسلو، وقد تم إرسال مواد مع معلومات حول هذا الموضوع للأساتذة.

كانت معلمة اللغة النروجية امرأة شقراء قصيرة في الخمسينات من عمرها تفضل طلاب السنة الماضية لأنها تجد نفسها باستمرار تشرح كلمات بدت تتلاشى من اللغة «الجدول» يتدفق في الربيع و«المرعى» حيث تأكل الماشية... كما أن لديها طلاب لا يعرفون معنى «الأرستقراطية». هل من الممكن أن تمر بالنظام المدرسي النروجي ولا تسمع بهذه الكلمات؟

ومن المؤسف أن كنوت هامسون لم يعد يثير مشاعر الشباب كما أن الكاتبة الطبيعية والأنثوية أمالي سكرام لم تعد تثير الدموع حيث فقد أدبها سيطرته على العقول الشابة. وفي بعض الأحيان يمكن للتلاميذ تذكيرك بالأرواح الميتة إذ إنهم منعزلون في الصف لكن ليس جميع الطلاب سيئين، فبعضهم ما يزالون يرغبون بالمشاركة في نقاشات وربط الأعمال الأدبية بحياتهم ومشاعرهم ويبحثون عن التقارب بين الأدب والواقع.

إحداهن أيان حيث كانت تضيف شيئاً جديداً إلى الدرس سواء كان ذلك بشأن أدب القرن التاسع عشر أو الرسوم الكاريكاتيرية أو حرية التعبير. وكما حصل مع معلمة الدين كان على معلمة اللغة النروجية الحديث مع أيان بينما كانت المدرسة تجمع تبرعات لحدثها السنوي لجمع التبرعات حيث أقنعت العديد من زملائها بعدم المشاركة لأن المال سيتم دفعه لمساعدة الكنيسة النروجية. وفي مناسبة أخرى كتبت في مقال قامت بتسليمه أنها تعتبر غير المسلمين كالأعشاب الضارة.

سألتها المدرسة:

- أي نوع من الإنسانية هذه؟

ألا تفهم أيان معنى الأعشاب الضارة؟ فالتلاميذ المهاجرون ضعيفون أحياناً في اللغة ولا يدركون بعض المفاهيم بدقة... ربما قصدت قول شيء آخر؟ كيف أنك في الحديقة تحتاج للكثير من الأنواع المختلفة من النباتات... التنوع؟

طلبت المعلمة من أيان أن تبقى في الصف.

- هل تم تزويجك؟
- لا.
- إذن لماذا تلبسين هكذا؟
- إنني أتدرب.
- على ماذا؟

لم ترد أيان.

- لتتزوجي؟
- أنا لم أقل هذا.
- هل سيرسلونك إلى الصومال؟
- أنا لم أقل هذا.
- ارتداء مثل هذه الملابس سيعزلك عن المجتمع والناس والحياة العملية...
- ومن قال إنني أريد العمل في النروج؟
- ستغلقين الباب أمام الكثير من الفرص...
- ومن قال إنني أريد العيش هنا؟

من أين تعلمت أن ترد بهذه الطريقة؟ أن تجيب على السؤال بسؤال آخر أمر في غاية الوقاحة والثقة المفرطة، وبغض النظر عن ذلك فإن القانون يمنع الغطاء في الصف.

- هنا في النروج علينا إظهار وجوهنا.
- لا يمكنك منعي من ارتداء الملابس التي أريدها.
- بل يمكنني... هناك قوانين واضحة بشأن هذا.
- أريني القوانين... أين هي؟

ارتبكت المعلمة وهي تفكر في الأمر إذ إنها لم تذكر أنها رأت شيئاً مشابهاً بشأن الغطاء فقالت:

- سأناقش الأمر مع المدير.

فأعلنت أيان:

- ارتداء مثل هذه الملابس جزء مهم من ديني، وهذا بلد حر... أليس كذلك؟

أصبحت هان رود مديرة مدرسة دونسكي الثانوية في نفس الخريف الذي انتقلت فيه أيان من نيسبرو، وقد لفتت نظرها التلميذة القادمة من برنامج البكالوريا الأدبية وافترضت أن أيان تريد تغيير مدرستها لأنها شعرت هنا بالارتياح أكثر إذ إن حوالي نصف الطلاب من عائلات مهاجرة والكثير منهم مسلمون وعدد كبير منهم يرتدون ملابس مشابهة لملابسها... تنورة طويلة مع قميص فضفاض وغطاء للرأس بينما يرتدي التلاميذ النروجيون الأصليون سراويل من الجينز الممزق وكنزات بألوان محايدة. كانت بذلة هان مكونة من سروال من الجينز الضيق وسترة فضفاضة وغالباً ما ترتدي حذاء بكعب عالٍ.

كانت تلك ثاني وظيفة لها كمديرة حيث شغلت نفس المنصب في ثانوية ناديرود – وهي ثانوية تتطلب أعلى درجات للقبول في بيرم – قبل أن تعود إلى دونسكي حيث كانت تدرس سابقاً. وفي حين أن الكثيرين يفشلون في اختبار القبول في ناديرود فإن دونسكي مليئة بالأماكن الشاغرة. ومع حلول الموعد النهائي للتقدم بطلبات الالتحاق في الربيع الماضي لم يتقدم سوى أربعمائة تلميذ في حين يوجد أكثر من خمسمائة مقعد لكن هان لم تضعف أمام الشدائد إذ كان هدفها جعل المدرسة أكثر شعبية. لقد تقدمت بطلب الالتحاق بالوظيفة لأن الموضوع قائم على مدرسة تواجه التحديات، فنسبة التسرب الدراسي مرتفعة وخاصة بين الفتيان.

أمضت فترة جيدة من الوقت في الممرات حيث كانت تريد معرفة أكبر عدد من الطلاب وتظن أن من المهم أن يعرفوا من هي ليتمكنوا من الحديث معها في حال وقوع أمر ما.

ولم يخف عليها وجود العديد من مجموعات الفتيات غريبات المظهر

في المدرسة حيث أن الكثيرات منهن من الأقليات ويردن إثبات أنفسهن. وقد فكرت أن من الجيد أن يبدين الاعتزاز بثقافتهن ودينهن ويمتلكن الشجاعة للتعبير عن آرائهن لا أن ينزوين عن المشاركة في النقاشات في الصف وتحدي القيم الأساسية للمجتمع النروجي.

اعتقدت هان أن ذلك يعني أنهم يقومون بعملهم على النحو الصحيح مما يعزز التنوع.

جلست الآن تنصت لمدرسة اللغة النروجية التي قالت لها:

- إنها ترتدي النقاب في الصف اليوم... شخصياً لا أظن أن علينا السماح بذلك... نحن بحاجة إلى رؤية زملائنا.

ردت هان:

- أنا أدعمك في ذلك.

كان ضوء الشمس يتدفق من خلال النوافذ التي تمتد على طول الجدار، ومن حيث تجلسان هناك إطلالة على مدخل المدرسة والمرأب.

في وقت أبكر من السنة الدراسية تقدمت أيان بطلب خطي ليتم إعفاؤها من دروس اللياقة البدنية مع باقي زملائها في الصف لتتلقى استمارة من هان إلا أن الفتاة المراهقة كانت قد اطلعت على قانون المديرة النروجية للتربية والتدريب. فوفقاً للفقرة 3.3:

«يمكن للمدير عند الطلب منح الطلاب في التعليم الثانوي إعفاء من دروس اللياقة البدنية بعد أن يقدم الطالب شهادة من طبيب تشير إلى أن الدروس تتسبب بالضرر للطالب وأن التعليمات المعدلة غير ممكنة.

وقد تم إرسال طلبها إلى محامين في إدارة المقاطعة حيث سيستغرق ذلك بعض الوقت لوجود العديد من الأسئلة التي تحتاج إلى التوضيح. وأبلغتها هان بتبعات الغياب المتكرر فإن لم تأتِ أيان إلى دروس اللياقة البدنية فإنها تخاطر بعدم الحصول على درجة في تلك المادة وبالتالي عدم الحصول على شهادة.

كانت أيان فيما قبل فعالة ونشيطة للغاية حيث كانت تذهب للجري في المنتزه المحلي مع إيلا وإيفانا كما مارست الرياضة مجاناً في مركز فريسكيس وسفيتيس للياقة البدنية مقابل عملها في مكتب الاستقبال مع دلال. وبعد العديد من الشكاوي حول اختفائها لتصلي حذّرها مديرها من فصلها إن بقي الوضع على حاله فاختارت ترك العمل على الفور.

وقد بدأت المشاكل بشأن تمارين اللياقة البدنية في الخريف ذاته.

اشتكت أيان لمدرسة اللياقة البدنية أنها لا تشعر بالراحة للاستحمام مع الفتيات الأخريات، فعرضت المعلمة الشابة عليها أن تستخدم غرفتها الخاصة. وبعد أن استخدمت أيان المرافق الخاصة بالمدرسة قالت إن هناك مشكلة أخرى: لا يمكنها المشاركة في درس الرياضة مع الفتيان، وحين سألتها المدرسة عن السبب قالت إن دينها لا يسمح بذلك، فاقترحت المدرسة أن تجد أيان الحل ربما من خلال تجنب الاحتكاك مع الفتيان عن قرب.

وفي الأسبوع التالي قالت أيان إنه لا يمكنها المشاركة في حال وجود موسيقى ثم ظهرت مشكلة ملابسها إذ إن من الصعب التدريب في الملابس التي فرضها عليها دينها.

كان هناك الكثير من المسلمين في الصف وقد أخذت المعلمة الشابة ذلك بعين الاعتبار حيث تحققت على سبيل المثال من موعد شهر رمضان وهي تضع الخطة السنوية، وخلال تلك الفترة حرصت على أن تكون الجلسات غير مكثفة ومجهدة إذ إن أهم هدف من الدروس في نظر المعلمة هو دعم رغبة الطلاب على النشاط والحركة، فهي لا تريد لأيان أن تجد عذراً للامتناع عن النشاط البدني، ولهذا سمحت لها بالتدريب على دراجة تدريب وهي ترتدي تنورة طويلة وتتسكع في المكان كما تريد.

في النهاية، اقترحت على أيان أن تتدرب لوحدها إذ إن مدرسة دونسكي تدير برنامج دراسات رياضية متفوق يشمل التزلج والهوكي وكرة القدم كما تضم صالة رياضية حديثة مع آلات ركض ودراجات وأدوات تدريب وأوزان

حرة. كانت هذه المرافق محجوزة لطلاب الدراسات الرياضية لكن المدرسة منحت أيان استثناء حيث ستجمع برنامج تدريبها الخاص الذي يركز على القوة والتحمل لتقوم باتباعه وتسجيل النتائج.

وهكذا تبعت أيان برنامجاً ثم أعلنت بعد بضعة أسابيع أنها لم تعد قادرة على استخدام الصالة الرياضية، فقد يراها أحد وهي هناك، وهكذا لن توافق على التدريب هناك إلا إن حصلت على ضمان بعدم دخول أحد وهي تتدرب.

اشتكت أيان:

- هناك ثلاثة أبواب مؤدية إلى الغرفة، ويمكن لأي أحد الدخول في أي وقت!

فكرت مدرسة اللياقة البدنية أن هذا لا يمكن أن يكون مجرد اعتراض بسيط على التمارين البدنية وإنما هناك شيء أعمق، وهو في الغالب أعمق بما أن أيان بخلاف الكثير من الفتيات المسلمات الأخريات اللاتي التقت بهن تتمتع بمهارات حركية متميزة، ولا بد أنها كانت كثيرة الحركة في صغرها.

ثم اقترحت أيان أمراً وقالت إن لديها بعض المعارف في مركز فريسكيس وسفيتيس وقد عملت سابقاً موظفة استقبال هناك، ويمكنها أن تطلب منهم فتح الصالة الرياضية لها بعد أوقات الإغلاق ويمكن للمعلمة الذهاب ومراقبتها.

هنا بدأت المعلمة تتساءل... هل هناك أي خطب لدى أيان؟

في اليوم التالي للنقاش حول نقاب أيان في الصف جاءت إلى المدرسة مرتدية له ورفضت خلعه.

ومجدداً اشتكت معلمة اللغة النروجية للمديرة.

مرت بضعة أيام... هل ستبقى مرتدية له أم ستخلعه؟

وفي 25 فبراير 2013 تلقت هان رود رسالة بالبريد الإلكتروني.

«مرحباً... بدأت بارتداء النقاب وتغطية وجهي باستثناء عيني، وكنت أتساءل ما القوانين المتعلقة بذلك في المقاطعة. لقد بحثت قليلاً على الإنترنت

لكنني لم أجد أي شيء يذكر أنه غير مسموح، فتساءلت إن كنتم تعرفون شيئاً عن الموضوع.

تحياتي.

أيان.

إسلام نت».

وقد ردت هان على الفور:

«برأيي من المهم للغاية أن نتمكن من التعرف إلى تلاميذنا طوال الوقت، وبالتالي لا أريد تشجيع أي نوع من الملابس يجعل ذلك الأمر صعباً».

وقد جاء رد أيان خلال بضع دقائق:

«أعلم أن هذا قد يثير المتاعب في الصف أو خلال الاختبارات لكن ارتداءه في المدرسة لا يسبب أية مشاكل لأحد. وإن أراد أحد التعرف إلى يمكنه بكل بساطة أن يأخذني جانباً ويتكلم معي».

كما طلبت التلميذة تسريع الموضوع الآخر:

«فيما يتعلق بدروس اللياقة البدنية فإن مشاركتي في جلسات منتظمة مع باقي الصف أمر غير قابل للنقاش، وبالنظر إلى ذلك يجب أن يكون هناك طريقة ليتم تقييم أدائي إذ من غير المنطقي أن يكلفني ذلك شهادتي».

عرضت هان أن ترسل استفسارات التلميذة بشأن النقاب إلى شخصيات أعلى في النظام أي إلى المحامين على مستوى حكومة المقاطعة.

«لكن سنرسل معها توصيات بأن هذا الأمر غير مرغوب به من جانبنا.

فردت أيان على الفور:

- هذا جيد لكن في الوقت الراهن سأرتديه في المدرسة وأخلعه في الصف إن طلب مني أحد الأساتذة».

وجاء رد هان على الفور:

«لا يمكنك فعل هذا... عليك اتباع تأويلي للنظام حتى يتم إصدار قرار آخر.

استغرقت أيان بضع دقائق لتفكر في الأمر ثم كتبت:

«إذن أريد رؤية هذه الأنظمة التي تقومين بتأويلها».

فطلبت منها هان إلقاء نظرة على القواعد المدرسية وخاصة الفقرة الرابعة، وكتبت إن قيام كل أستاذ بالطلب من أيان إزالة النقاب مضيعة للوقت لا حاجة لها، فذلك سيؤدي إلى فوضى غير ضرورية إذ إن موظفي المدرسة بحاجة للتعرف إلى التلميذ دون أن يضطروا إلى أخذه جانباً والحديث معه.

«سأقرأ الفقرة إن شاء الله. الأساتذة يطلبون في العادة من التلاميذ خلع قبعاتهم فلماذا لا يضيعون نفس القدر من الوقت معي؟ كل ما أريده هو أن أرتديه في الممرات ولا أفهم ما الصعوبات التي قد يسببها ذلك».

في ذلك الوقت كانت هان قد غادرت إلى اجتماع بعد أن كتبت رداً قصيراً لرسالة أيان قبل أن تغادر العمل في ذلك اليوم:

«لن نستمر في مناقشة الأمر، وتعليماتي ستبقى كما هي. سترد سلطات المقاطعة على استفساري بعد فترة وجيزة لكن في الوقت الحالي عليك الالتزام بتعليماتي».

في ذلك المساء وجدت أيان كتيب القواعد المدرسية وبحثت عن الفقرة الرابعة التي تحمل عنوان «الالتزام والسلوك» وتنص على أنه يتوجب على التلاميذ أن يكونوا دقيقين في مواعيدهم والقدوم مستعدين والمشاركة بفعالية في الصف وتنفيذ الأعمال المدرسية خلال الوقت المذكور. وعلى جميع التلاميذ التصرف باحترام وأدب والمساهمة في خلق بيئة مريحة وإظهار الاحترام لزملائهم التلاميذ وللآخرين. كما أن اللغة البذيئة والعنف والسلوك العدواني والتهديد وغيرها من الخروقات للتقاليد السلوكية المقبولة عموماً أمور غير مقبولة، وكذلك المواد الإباحية والعنصرية وغيرها ذات الطبيعة العدوانية جميعها غير مسموح بها في المدرسة.

لم يكن هناك أي ذكر للملابس.

في الصباح التالي قامت بنسخ ولصق النص بكامله في رسالة إلكترونية

أرسلتها إلى المديرة:

«هل هذه هي الفقرة التي تتكلمين عنها؟ لأنني لم أجد هنا أي شيء يسمح لك بفرض ما أرتديه كما أنني لا أتسبب بأية إساءة إلى أحد ولا أعرضهم للخطر».

فردت هان:

«من الجيد أن تطلعي على القواعد المدرسية... كنت أشير إلى العبارة التالية التي تنص أن على التلاميذ اتباع توجيهات المدرسة وموظفيها».

وأضافت هان أنها تلقت رداً من مدير المقاطعة يدعم فيه رأيها فيما يتعلق بالنقاب.

وجاء رد أيان سريعاً:

«لقد أخذت تلك العبارة في عين الاعتبار، ويمكن لموظفي المدرسة أن يطلبوا مني إنزال قدمي عن مقعد أو خفض صوتي لكن ما دخلهم بما أرتديه. أرغب بقراءة القانون الذي جعل مدير المقاطعة يتخذ هذا القرار... لا يمكن أن يكون ذلك يعتمد على توصياتك فحسب.

أرسلت هان رداً مقتضباً أن على أيان الالتزام بقرار المديرة وختمت رسالتها بعبارة:

«عليك الالتزام بذلك».

أظهرت لهجة التلميذة التي في سنتها الأخيرة انعدام ثقة شديدة لا بسلطة هان كمديرة فحسب وإنما بالنظام بأكمله. لقد أرادت أيان وضع قوانينها الخاصة وتحدي القوانين السابقة. وقد أثار ذلك إعجاب هان في سرها إذ إن هذا ما تشجع عليه الطلاب... فكروا بأنفسكم! شقوا طريقكم! ابحثوا عن المعلومات واكتشفوا الأمور وتحققوا!

وقد كانت هان حريصة على معرفة إن كانت أيان ستتبع أوامرها وهي تأمل أن تتصرف الفتاة الشابة الواثقة من نفسها بعقلانية دون أن تدمر تعليمها.

15

طائر غريب

بلغت ليلى أخت أيان الخامسة عشرة من عمرها، وفي اليوم الأول من المدرسة الإعدادية أي قبل عامين ذهبت بسروال أخضر مشرق اللون وكنزة حمراء وهي تضع على عينيها نظارة مدورة كبيرة في حين ارتدت الفتيات الأخريات ألواناً هادئة.

كانت تلعب كرة القدم في صف اللياقة البدنية وتحب السباحة كما أن صفحتها الشخصية على الفيسبوك كصفحة أية فتاة أخرى إلا أنها مع ذلك مختلفة. وحين ارتدت ثوباً أبيض قصيراً كما فعلت الأخريات في احتفالات عيد الدستور تلقت المديح على مظهرها من الفتيات الأخريات للمرة الأولى.

قالت زميلاتها حين ارتدت في النهاية مثلهن:

- تبدين رائعة!

وحين ظهرت وعلى يديها رسوم الحنة الجميلة بعد عيد المسلمين قالت زميلاتها:

- هذا جميل!

كانت كطائر جميل يتم تقبلها في بعض الأحيان والإعجاب بها في أحيان أخرى لكن في معظم الأحيان يتم تجاهلها، ولم تحاول أية فتاة التقرب منها كما لم تطلعها أية واحدة على أسرارها... وما مغزى المراهقة دون الأسرار المشتركة؟

أنشأت مدونة لم يقرأها أحد فألغتها وبدأت بمدونة جديدة أسمتها «وجه اليقطين».

- سأستمر بالكتابة في المدونة كالمعتاد إذ إن المدونة السابقة لم تكن جيدة ولهذا سأركز جهودي على هذه... هههه... آسفة... لقد أدركت للتو أنه... لا... لقد نسيت... لكنني كنت أفكر أن عليّ الكتابة في المدونة أكثر ولهذا سأكتب ما أفكر فيه إلا إن نسيته لأن هذا قد يحصل... ابنة عمي تنعتني «دماغ سمك الزينة» لأنني أنسى بسرعة بالغة.

إلا أن أحداً لم يقرأ هذه المدونة حتى.

وسرعان ما تشكلت عصابات بين الفتيات في الصف وسرعان ما تم تصنيف الفتيات الأنيقات واللطيفات والفتيات السخيفات والتافهات والفتيات الراقيات وغير الراقيات.

لكن ليلى لم توافق أية مجموعة، وفي حالات نادرة حين يكون هناك وظائف جماعية كانت تذهب إلى منازل التلاميذ الآخرين، وفي تلك الحالة كان عليهم حبس الكلب في مكان بعيد إن كان لديهم كلب لأن ليلى لا تستطيع الاقتراب من الكلاب إذ إن ذلك حرام... وهي كلمة حفظها باقي الصف... حرام تعني غير مسموح أما حلال فتعني مسموح. كانت ليلى تعرف الكثير لأنها تذهب إلى مدرسة القرآن كما أنها عضو في منظمة إسلامية في أوسلو مع أختها، وهي تحمل كتاباً أحمر صغيراً مليئاً بالأحاديث والقصص عن النبي... وهكذا مرت السنة الأولى من المدرسة الإعدادية.

ثم جاء فصل الصيف، وبينما عاد باقي زملائها في الصف ببشرة مسمرة قليلاً من الشمس وقامة أطول تغيرت ليلى بالكامل إذ إن العطلة الصيفية التي أمضتها مع عائلتها الكبيرة في الصومال قد جعلتها تتخلى عن السراويل الخضراء والكنزات الحمراء لتأتي إلى المدرسة مرتدية تنورة طويلة، وسرعان ما ارتدت رداء طويلاً مع حجاب بلون مطابق يتناسب مع ألوان الخريف من حولها.

سألتها فتاة:

- لماذا ترتدين هذا؟

- لقد أعطوني إياه.

فأخبرت الفتاة زميلاتها في الصف أن جماعة التجمع الديني هم من اشتروه لها.

وقد لاحظ أولئك الذين يعرفون أختها أيان تغيراً مماثلاً حيث أصبح كل شيء باهتاً وداكناً. وفي الخريف انتعلت ليلى حذاء رياضياً بألوان محايدة أما في الشتاء فانتعلت حذاء مشي كذلك الذي يرتديه الصبيان في الصف باستثناء أن حذاءها من الجلد الصناعي... وقد اتفقت الفتيات على أنه ليس من النوع الأجمل.

وفي دروس الطبخ تم إعفاؤها من صنع أي شيء يحوي على مشتقات الخنزير أو من تناول اللحم غير الحلال، وغالباً ما يصنع التلاميذ في مجموعتها نوعين من الحلويات في حال كانت الحلوى التي يصنعونها تحتوي على الجيلاتين لأنه مصنوع من جلد وعظام وأنسجة الخنزير وهو ليس حلالاً.

وفي إحدى المرات حصلت مجموعتها على علامات جيدة على عملهم، فرفع الفتى الجالس بجوارها يده ليصفقها بيدها إلا أنها حدقت إليه ففهم أن ذلك حرام.

وفي مناسبة أخرى طلب فتى نسي محفظة أقلامه أن يستعير منها قلماً فقالت:

- لا بأس لكن لن يمكنني بعد ذلك استخدامه.

لم يفهم الأمر تماماً فرمت القلم إليه وقالت:

- احتفظ به... لا يمكنني لمس شيء أمسكت به.

وفي مرة أخرى ابتهج زميل آخر من أمر ما فعانق أقرب شخص إليه وصدف أنه ليلى، فابتعدت عنه وصرخت:

- إياك أن تفعل هذا مجدداً!

فتلعثم:

- أوه... آسف... أنا حقاً آسف...

لم يكن يقصد الإساءة إليها.

وحين يرن الجرس تصعد إلى الصف باكراً لتجنب الاكتظاظ لكي لا تصطدم بأي فتى كما أنها لم تعد تشارك في أي أنشطة من خارج المنهج، وعلى الرغم من حضورها دروس الرياضة لكنها رفضت المشاركة في ألعاب الكرة لوجود فرصة ملامستها لفتى كما رفضت السباحة لئلا يراها أحد في ملابس السباحة بالإضافة إلى أن الرقص والجمباز حرام.

وهكذا مرت السنة الثانية من المدرسة الإعدادية.

وفي اليوم الأول من السنة الأخيرة عاد زملاؤها أكثر سمرة من الشمس بينما عادت ليلى مرتدية النقاب.

وقد ضحك بعض الفتيان، وحين اتجهت إلى آخر الصف لتصلي التقطوا لها الصور وقال أحدهم:

- إنها ليست سليمة فكرياً.

وبدأوا ينعتونها «بقعة الطيف».

في السنة السابقة لم يرها أحد تصلي في المدرسة أما الآن فأصبح همها الالتزام بأوقات الصلاة وحملت ساعة منبه على حزام يهتز حين يحين وقت الصلاة، فإن عمل المنبه خلال الدرس ترفع يدها وتطلب الإذن للخروج.

لم يكن المدرسون واثقين كيف ينبغي لهم التعامل مع هذا الورع الحديث حيث سمح لها بعض الأساتذة بمغادرة الغرفة عندما تطلب في حين رفض أساتذة آخرون إذ كانت سياسة المدرسة تشجع التنوع. وبعد فترة تم تخصيص مكان لها لتصلي فيه مع خزانة لتضع فيها مستلزماتها في الممر كما حصلت على مفتاح لتفتح الباب وتعود حين تنتهي. وأحياناً تكتفي بالرجوع إلى آخر الصف والتوجه نحو مكة ومد بساط الصلاة والركوع وهي تتمتم بدعواتها. كانت تتبع الساعة بدقة وتقاطع المحاضرات والاختبارات لكي تصلي.

في حال تم عزف الموسيقى كانت تغادر الصف، وأثناء عرض الأفلام

تخرج أيضاً، وحين يقومون بأداء الأدوار ترفض المشاركة لأنها لا تستطيع التظاهر أنها شخص مختلف عما هي عليه فذلك حرام. وقد حذفت حسابها على الفيسبوك وفتحت حساباً جديداً باسم «بنت صديق» ولم تنشر عليه سوى نصوصاً دينية.

تم عقد اجتماع للأساتذة حيث كان المدير يشجع على تقبلها «هذه النقطة التي نركز عليها دائماً»، وقد كانت هناك رغبة بإظهار التسامح والتفاهم الثقافي كما أن التمييز آخر ما يبحث عنه الجميع لكن الوضع لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال.

تم استدعاء ليلى إلى مكتب المدير وإبلاغها أنه من غير المسموح لها مغادرة الصف للصلاة إذ إن ذلك يتسبب بفوضى ويجعلها تفوت عليها بعض الدروس... ألا يمكنها الصلاة في أوقات الاستراحة؟

لكن ليلى لم تحترم الطلبات الجديدة واستمرت برفع يدها عندما تهتز ساعة المنبه، وفي بعض الأحيان تخرج من تلقاء نفسها.

وبدأت تظهر بعض المشاكل بينها وبين الأساتذة حيث لم تتردد في قول ما يدور بخاطرها حين تشعر بالإساءة أو سوء الفهم كما أنها لم تظهر الكثير من الاهتمام بالمدرسة وتدهورت درجاتها من جيد إلى متوسط.

بالإضافة إلى أن المصطلحات غير المألوفة التي تستخدمها في دروس الدين إما أن تثير إعجاب زملائها أو تستفزهم، وفي السنة الأخيرة من المدرسة الإعدادية كان على التلاميذ إلقاء كلمة عن موضوع من اختيارهم فاختارت صوفي «غطاء الرأس الديني في المدرسة» وجمعت الكثير من المواد من مقالات في صحف وكتب لتثير كلمتها نقاشاً حامياً لينتقل الجدل إلى موضوع الإسلام.

قالت صوفيا:

- أفهم أنك تريدين وضعه لكنك حين تضعينه فأنت تستسلمين لسلطة الرجل!

فردت ليلى:

- لقد خلقنا الله مختلفين وأمر المرأة بتغطية نفسها.

إلا أن صوفي استمرت في النقاش أن ذلك يخدم في جعل المرأة خفية، وبعد فترة وجيزة أصبح الصف بكامله ضد ليلى.

وفي النهاية اختتمت ليلى حديثها وهي تكبت دموعها:

- الله يميز بين نوعين من الناس... أولئك الذين يطيعونه وأولئك الذين لا يطيعونه إلا أن عقاب أولئك الذين لا يطيعون أوامره قاسٍ!

وقال أستاذ الدين:

- أظننا سنوقف النقاش هنا.

في إحدى المرات سألت صوفي إيميلي وهما تتكلمان عن أن ليلى تبقى لوحدها كثيراً حتى خلال أوقات الاستراحة:

- أتظنينها تشعر بالوحدة؟ يا إلهي! مجرد وقوفي لوحدي لبضع ثوانٍ يجعلني أشعر بإدراك الذات.

ثم اتفقتا على الحديث معها لكن ذلك لم يحصل إذ إن لدى الصديقتين الكثير من الأمور التي تشغلهما.

كما أن باقي طلاب الصف لا يعرفون عن ليلى سوى القليل إذ إنهم لا يرونها خارج المدرسة، وقبل الدرس الأول صباحاً تجلس وحيدة في مقعدها بينما يتجمع الباقون ويتكلمون مع بعضهم. وفي صباحات أيام الاثنين نادراً ما يسألها أحد كيف أمضت عطلة نهاية الأسبوع لأنها لم تذهب قط إلى حيث يذهب المراهقون لتذوق حياة الكبار... الحفلات والجنس والكحول.

في بعض الأحيان تمضي ليلى وقت الاستراحة مع فتاة من صف مختلف في نفس السنة حيث كانت أمل فتاة صومالية تعرف ليلى منذ كانتا طفلتين كما أن والدة كل منهما قريبة من الأخرى لكنهما مختلفتان إذ إن والدة أمل نحيلة وقوية ونشيطة وبدأت العمل في النروج ما إن استطاعت وكثيراً ما

تـوازن بيـن وظيفتيـن كالأعمال اليدوية والتنظيف وحمل الأشـياء الثقيلة كما تقوم بمناوبات طويلة كممرضة مساعدة في مركز رعاية.

وفي إحدى المحادثات قالت ليلى:

- أتعرفين يا أمل أنك تعيشين حياتين... هذه الحياة والحياة الآخرة... هذه الحياة مجرد اختبار تنجحين أو تفشلين فيه... في كل ليلة يقبض الله روحـك ثـم يقـرر الله إن كان سـيعطيك فرصة جديدة أو لا... أي أنـك كلمـا غططـت فـي النوم تموتيـن وعليك أن تحمـدي الله لأنك تستيقظين كل يوم... تذكري ذلك... لقد حصلت على فرصة جديدة لكن عليك الاستعداد للموت في أي وقت.

وقـد رافقـت أمـل ليلـى وأيان إلـى الاجتماعات في إسـلام نت وتأثرت بدعوات ليلى المستمرة:

- عليك يا أمل أن تستيقظي! عليك فتح عينيك! عليك الاقتراب من الله.

وبـدأت أمـل تشـغل نفسـها بالقرآن لا بمجرد حفظه عـن ظهر قلب كما كانت تفعل في مدرسة القرآن وإنما أيضاً تقرأه وتفهمه بأسلوب جديد وكأن الله يتكلم معها مباشرة... كانت تفتح روابط ترسلها لها ليلى عن كون الإسلام الطريق القويم والوحيد وعن شـدة عقاب أولئك الذين لا يتبعون رسـالة الله وتوقفت عن ارتداء السراويل.

وفي المنزل بدأت أمل تنتقد جميع الأشياء النروجية:

- العنصرية والتمييز منتشران في هذا البلد والمسلمون يتعرضون دائماً للإزعاج.

ولـم تعـد تبـذل الكثيـر من الجهود فـي أعمالها المدرسـية مفضلة قراءة القـرآن أو مشـاهدة الفيديوهـات علـى اليوتيوب، وفي النهاية أعلنت أنها تريد ترك المدرسة لأنها تتعرض للتنمر.

- مـا الـذي يحصـل؟ أنـت مع نفـس الأولاد ونفس الأسـاتذة... لماذا يتنمرون عليك فجأة؟ إن كان هناك من يزعجك فأخبريني أو أخبري

الأساتذة وسنحل الأمور.

لكن أمل لم تقل شيئاً سوى أنها تكره المدرسة.

- أرجوك يا حبيبتي... هذه السنة الأخيرة... لا يمكنك الانقطاع الآن!

- أريد إعفاء من دروس الرياضة على الأقل.

وهنا فقدت والدة أمل أعصابها:

- ها أنا ذا... أركض لأجلكم وأقتل نفسي بالعمل ورعايتكم كلكم من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية ليصبح لديك مستقبل هنا! وتريدين ترك المدرسة! ما مشكلتك؟ سأتصل بأستاذك.

وقد أثار الحديث عبر الهاتف مخاوف أم أمل إذ كانت المدرسة قلقة أيضاً، وقد تزامن التغيير في سلوك أمل مع إمضائها مزيداً من الوقت مع ليلى حيث أصبح من الصعب الحديث معهما ورفضتا أي شيء نروجي.

وقد أخذتا تكرران عبارتي «أنا أكره النروج» و«النروجيون لا يحبون المسلمين» حيث تكلمت أمل عن شعورها بأنها محاصرة في مجتمع لا تنتمي إليه.

صرخت الأم في ابنتها الوحيدة:

- النروج لا تحاصرك! طالما أنك لا تزعجين أحداً فلا أحد سيزعجك!

وقد علقت أمل بين أمها التي تراقب كل تحركاتها بعين الصقر وبين ليلى التي ظلت تلاحقها بأفكار عن الجنة.

لكن أمل تشعر أيضاً بالحرج أحياناً بسبب سعي ليلى لإثبات نفسها، ففي صباح أحد الأيام كانت ليلى مغطاة أكثر من المعتاد وتضع قماشاً أسود رقيقاً فوق النقاب بحيث لا يستطيع أحد رؤيتها. وقد تلقت ليلى نظرات غامضة من سكان بيرم الذين يركبون الحافلة مما أغضب ليلى فوقفت في ممر الحافلة وقالت:

- أتظنونني لا أستطيع رؤيتكم... حسناً... أستطيع رؤية نظراتكم والأكثر من ذلك هو أنني أرى بوضوح أكثر منكم!

ثم جلست بجوار النافذة في حين تمنت لو أن الأرض تنشق وتبتلعها.

كثيراً ما كانت ليلى تعبّر عن رغبتها بالحياة في بلد مسلم حيث توسلت هي وأيان إلى والديهما ليسمحا لهما للسفر للعيش مع جدتهما في الصومال لأنهما لم تعودا قادرتين على العيش كما تريدان في النروج لكن والديهما أخبراهما أن عليهما إنهاء دراستهما أولاً.

لكن ليلى لم تكن تكترث لدراستها حيث أخبرت أصدقاءها أن لديها أحلاما أخرى.

وحين بلغت الخامسة عشرة من عمرها قالت:

- أريد أن أتزوج بأسرع ما يمكن. وما إن أتزوج سأكمل نصف ديني ونصف طريق الصلاح في هذه الحياة.

فاعترضت أمل:

- لكنك صغيرة للغاية.
- أنا كبيرة بما يكفي... أريد أن أتزوج وأنجب أطفالاً الآن.
- ممن؟
- لا يهم طالما أنه مسلم متدين.

وفي أحد الأيام قالت ليلى:

- أريد إنجاب ثمانية أولاد.

وفي اليوم التالي:

- أريد الانتقال إلى صحراء والعيش حيث لا ينمو شيء سوى الرمال لأحيا على الرمل والماء وأتقرب من الله لأثبت أنني لست بحاجة إلى أي شيء آخر.

16

الانفصال

نـادراً مـا كانـت دلال تخـرج لكن في ذلك المسـاء كان هناك بازار يقيمه الفرقان في شـقة بالقرب من سـاحة غرونلاند إذ إن نسـاء الأمة لا يسـتطعن الوقوف في الشارع مع صناديق التسول ولهذا يقمن ببيع ملابسهن ومجوهراتهن لبعضهن حيث يلتقين في منزل امرأة نروجية مسلمة متزوجة من رجل مغربـي. فكـرت دلال بمظهرهـا واختـارت ارتداء زي باكسـتاني أعطتها إياه أم زوجها الجديـد كمـا وضعـت مسـاحيق التجميل وصففت شـعرها وتعطرت بعطرها المفضل لأنها ستلتقي بالناس.

وقد تم الترحيب بها باحترام حيث تهامست النسوة:

– هذه زوجة عبيد الله.

كان الجميع يعلمون بشأن زواجه السري لكن قلة منهم رأوا عروسه.

هـل هـي مسـلمة صادقـة؟ كيـف يمكـن لزوجـة عبيـد الله ألا تضـع الحجاب؟

وهكـذا انتقلـت التمتمـات والأسـئلة... بالتأكيد سـتكون الزوجة الأكثر تواضعاً مناسبة أكثر للمتحدث باسم أمة النبـي.

كانت النساء في الشقة من أعضاء إسلام نت وزوجات رجال أمة النبـي أو معجبين بهم أو متعاطفين مع المنظمة، وقد اتجهت عائشة الحبلى مباشرة إلى دلال.

– ما زلت هكذا؟ ظننتك غيرت لباسك.

لكن عائشـة لم تنتظر جواباً لأنها كانت منشـغلة بفضيحة أخرى... قبل

أن يغادر باستيان وأميرة اختلسا الأموال المخصصة لسوريا والنقود التي تم جمعها لتخفيف مأساة ضحايا الحرب.

فأخبرتها دلال أن عبيد الله غاضب أيضاً لاستيلاء باستيان على المال وخذلانهم.

- حسنا كيف وجدت الزواج من عبيد الله؟

كان قد مر عام على خطبتها له ثم تزوجت من عرفان وتطلقت منه وهي الآن حامل ووحيدة.

وما إن سمعت النساء السؤال حتى أحست دلال بهن يقتربن منها لتواجه سيلا من الأسئلة.

- كيف يمكن لامرأة كردية الزواج من باكستاني؟
- ما رأيه بخروجك بهذا اللباس؟
- كيف هو؟

وفي وقت لاحق ذلك المساء وصلت أيان مع ليلى فسارعت أيان وعانقت دلال إذ مر وقت طويل منذ أن التقتا!

- أخبريني! أخبريني كل ما يجري في حياتك!

فأجابتها دلال ثم سألتها:

- وماذا عنك؟
- لقد التقيت برجل أريد الزواج منه.
- هذا عظيم!
- لكن أبي لا يوافق عليه.
- مَن هو؟
- اسمه عبد وهو قريبي من كندا لكنه وسيم إلا أن والديّ لا يسمحان لنا بالزواج. لقد رحل الآن لكنني أرغب باللحاق به والزواج والعيش في الصومال وسأرتاح هناك في ذلك البلد المسلم لأنني لم أعد أحتمل النروج.

وبعد شراء بعض المجوهرات لدعم الأرامل والأطفال في سوريا جلستا لوضع خطة حيث كانت لدى دلال عدة أفكار لتقنع أيان والدها قائلة:

- الحب أعظم من أي شيء... حين يكون هناك حب يصبح كل شيء ممكناً.
- ربما يمكنك أن تطلبي من عبيد الله أن يتكلم مع أبي؟ ربما ينصت إليه؟ لقد اخترت أنت شخصاً تعترض عائلتك عليه وأثبت أن ذلك ممكن...

وهكذا ناقشتا ما يمكن أن يقوله عبيد الله ليقنع أباها.

- ليس لدي وقت لأنتظر... أريد أن أتزوج الآن! أريد الابتعاد عن هنا.

فقالت دلال أنها سترى ما يمكنها فعله لكنها لا تظن أن عبيد الله أفضل شخص ليتكلم مع والد أيان إذ إنه لم يتمكن حتى من إقناع والدها بالزواج، ومن جهة أخرى لم تدعه يحاول وإنما غادرت ولم تعد وقطعت التواصل مع عائلتها... ربما يمكن لأيان فعل الأمر ذاته.

فتمتمت أيان:

- ربما.

لقد اختارت أيان موضوع الحب التعيس لتكتب عنه لتقريرها الخاص باللغة النروجية والمستوحى من الفن والأدب حيث ذكرت في المقدمة:

«كثيرون في المجتمع الحديث لا يؤمنون أن هناك حبا صادقا على الرغم من أن الكثير من الثقافات الحديثة مكرسة لهذا الأمر بالذات.

وأنا أيضاً لدي شكوكي لأننا لا نرى الكثير هذه الأيام... أما من أحد مستعد للكفاح بقوة من أجل حبيبه أو للحظة تحت ضوء القمر؟ بالنسبة لي كصومالية نشأت في النروج هذا أمر شائك، فموضوع الحب من المحرمات والحب الرومانسي بين الرجل والمرأة من الأمور الممنوع الحديث عنها كما أنك نادراً ما تسمع رجلاً صومالياً يقول لزوجته «أحبك»، وعلى الرغم من

أن الآباء والأمهات يقولونها دائماً لأبنائهم لكن الأبناء يشعرون بالصدمة إن سمعوا آباءهم أو أمهاتهم يقولونها لبعضهم. وعلى الرغم من ذلك لكنني أعشق الحب وعلى وجه الخصوص الحب التعيس لأنه يبدو صادقاً وواقعياً إذ ليست كل الأمور تنتهي نهاية سعيدة».

ولتسلط الضوء على الحب التعيس اختارت «الانفصال» لإدوارد مونش منذ عام 1896 حيث تظهر اللوحة التي اختارتها على الصفحة الأولى لوظيفتها رجلاً متجهماً يرتدي بذلة سوداء وينظر إلى الأسفل وهو يضع يده على قلبه النازف في حين تقف امرأة شقراء مرتدية ثوباً أبيض وتلتفت بعيداً لتنظر إلى البحر.

«لقد ظننتها مجرد لوحة حين بدأت أقرأ عنها ثم مررت بنص للرسام عن موضوع الصورة إذ كتب مونش:

- لقد رحلت... لا أدري لماذا لكنها ابتعدت ببطء نحو البحر أبعد وأبعد، ثم حصل أمر غريب حيث شعرت وكأن هناك خيوطاً خفية بيننا... وكأن خيوطاً خفية من شعرها لا تزال ملفوفة حولي. وعلى الرغم من أنها اختفت بالكامل عبر البحر لكنني لا أزال أشعر بألم نزيف قلبي لأنه لا يمكن قطع الخيوط».

ثم شرحت أنه من أجل فهم سبب تأثير الحب التعيس فينا علينا أن نفهم الدور الذي يؤديه الحب ومدى أهميته:

«يفتتح كنوت هامسون رواية فيكتوريا بشرح لمعنى الحب لكنني اخترت تجاهله لأنني أعتبره كفراً. فنحن البشر نسعى دائماً نحو ما لا نستطيع الحصول عليه حيث تعاني قلوبنا في ملاحقته لكننا نعاني أكثر إن استسلمنا وتركناه إذ إن تلك اللحظات التي نتنفس فيها بسهولة وننظر في عيني محبوبنا دون أن يحول القدر بيننا هي اللحظات التي تبقينا على قيد الحياة وتكاد توصلنا إلى حافة الجنون... أظن أن هذه العاطفة المتقدة أمر رائع لأنها تمنحنا الأمل في خضم اليأس».

ثم اختتمت مقالها بذكر أن العوائق التي تقف في طريق الحب أضحت واضحة وجلية في كثير من المجتمعات اليوم لكن بإمكانك أن تختار كسر التقاليد وشق طريقك بنفسك، وبالتأكيد ستكون العواقب كثيرة ومتفاوتة بين القتل لحفظ الشرف وبين التجاهل واللامبالاة.

17

اختلاس باسم الله

في الماضي كان المسلمون يحبون الموت كما تحبون الحياة.

هذا ما كتبته أيان على تويتر مقتبسة كلام أسامة بن لادن حيث تكررت هذه العبارة بين الكتاب الجهاديين في كافة أرجاء العالم إذ إن الشهادة هي ما يسعون إليها للخلاص والنجاة... كان الهدف من هذه العبارة إخافة الكفار لأن العدو الذي لا يخشى الموت عدو خطر.

وقد وجدت أيان عالماً أفضل... جنة أعلى... لقد استمعت لتلاوات للقرآن بأصوات قراء ذكور وشاهدت فيديوهات على تلفزيون السلام وتوك إسلام وقرآن ويكلي... هذه ليست الحياة الحقيقية وإنما الحياة الحقيقية ستأتي بعدها حيث سيشكل الموت مرحلة انتقالية.

وفي المدرسة كانت تمضي معظم وقتها في المكتبة حيث تختفي في مستودع الكتب الصغير في الخلف حيث لم تكن للغرفة نوافذ وإلى جانب الباب هناك سلسلة كتب «مزرعة الحيوانات» و«عن الفئران والرجال» وعلى الأرضية هناك صناديق بلاستيكية تحوي كتب الإنجيل المغلفة بغلاف أصفر باهت وقواميس ألمانية للطلاب بالمستوى المتقدم مصفوفة على الرف.

أحياناً تذهب إلى هناك وحدها وأحياناً أخرى مع بعض الأصدقاء وحين دخلت أمينة المكتبة بالصدفة في إحدى المرات رأت الفتيات على سجادات خضراء يصلين... إذن هذا ما يستعملن الغرفة لأجله! وفي إحدى المرات رأت أمينة المكتبة رأس أيان يختفي خلف الأريكة في الزاوية ثم يظهر مجدداً حين انتهت من الصلاة. كانت أمينة المكتبة قد اشترت الأريكة في التنزيلات

لأنها أعجبتها بطرازها الشرق أوسطي وفكرت أنها ستضفي لمحة من الحياة على المكتبة.

لقد انبهرت أمينة المكتبة متوسطة العمر بروتين أيان بممارسة عباداتها في وسط فوضى استراحة الغداء حيث يجلس جميع الشباب في جماعات يتكلمون ويتناولون الطعام في حين لم تكترث أيان لأي شيء وهي تجلس بهدوء وسكينة على الأريكة تحمل كتاباً... قدرتها على الانفصال عن العالم بأسره مذهلة.

أصبح عبد ذكرى بعيدة.

بعد أن غادر وجدت فيه أيان كثيرا من العيوب فهو لم يكن مسلماً صالحاً تماماً.

وهكذا وضعت خطة جديدة... لم يعد هناك سبب لتبقى تنتظر.

ابتسمت أيان بسخرية حين تم ذكر القاعدة في نقاش خلال درس عن السياسة وحقوق الإنسان حيث كان الموضوع يدور حول هجمات 11 سبتمبر. كانت قد بدأت ترفض النقاش بدلاً من المشاركة فيه، وفي هذه المرة اكتفت ببعض التعليقات والنظرات المتعاطفة. وحين سألها زميلها مارتين فيما بعد عن سبب سخريتها من الضحايا أجابت:

- لقد حصل الأميركيون على ما يستحقونه.

وكانت لها رؤى مشابهة حول الاستيلاء على السفن الغربية من قبل القراصنة الصوماليين في خليج عدن:

- الغرب يرمي النفايات السامة عند سواحل الصومال ليضعفنا وهو ما أجبرنا على اللجوء إلى القرصنة للدفاع عن بلدنا.

كانت سعيدة بشأن مقتل جنود في أفغانستان وقالت إن قوات حلف شمال الأطلسي تقهر الشعب كما أنها ترتكب مجازر جماعية، وفي العراق الأميركيون هم الإرهابيون الحقيقيون.

فيما مضى كان أستاذ السياسة وحقوق الإنسان يعتبر وجود أيان في الصف أمراً إيجابياً، فعلى الرغم من كون آرائها متطرفة لكن ذلك دعم النقاش لأنها أيضاً مترابطة ومنطقية نوعاً ما باستثناء كونها مقتنعة دائمة بنظريات المؤامرة لكن خلال ربيع 2013 أصبحت لهجتها أكثر قسوة.

كانت أيان تساند فكرة أنه ينبغي فرض الشريعة الإسلامية في النروج لأن ذلك سيضع حداً لمشاكل مثل الإجرام وتعاطي المخدرات والتمييز الاجتماعي كما أن تغيير القوانين المدرسية سيشكل خطوة في ذلك الطريق. وقد علقت عريضة مكتوب فيها:

«أعطوني الفرصة لأثبت لكم أن النقاب لا يثير مشاكل في التواصل مع الناس! أعطوني الفرصة لأعبر عن نفسي! هل أطلب الكثير؟».

فجاءها رد من شخص ما:

- نعم يا أيان!

ورسم إلى جانب كلماته قلباً.

جمعت أيان حوالي 150 توقيعاً كان بعض أصحاب التواقيع يريدون تغيير القوانين لتناسبها ولم يكن البعض الآخر يكترث لشيء. ومنذ شهر يناير في السنة الأخيرة قامت بخرق عقد اجتماعي آخر... دفع الفواتير.

بدأ ذلك ببعض النقود التي احتاجتها عند بداية العام... ملابس لترتديها تحت النقاب... مكتوب على الفاتورة «حمالة صدر مريحة ومثيرة... كنزة مخرمة... مغطس دافيدا... نعال ليا...» وتكررت الأسماء المغرية مرة تلو الأخرى على كل رسالة تذكير بالدفع.

وبالإضافة إلى الملابس الداخلية طلبت مجموعة إسعافات أولية ضد الماء من الصليب الأحمر وكريم وصابون من إيفس روتشر، وقد وصلتها جميع المنتجات كما طلبتها لكنها رمت جميع الفواتير جانباً.

رسائل تذكير... مطالبات أخيرة... إشعارات بجمع الديون... وسرعان ما تراكمت الرسوم.

لكنها لم تؤرقها كثيراً.

شغلت أيان منصب قائدة مجموعة من الفتيات الصوماليات كن يلتقين بانتظام في غرفة فوق مركز غونيريوس للتسوق في ستورغاتا تم استئجارها من قبل شركة صومالية. كن يتناولن البيتزا الحلال ويثرثرن ويعلمن بعضهن.

كانت أيان تنتقد كل من ليس لديها معتقدات صارمة مثلها لدرجة جعلت بعض الفتيات يعتبرنها متنمرة إذ إنها تحولت من منفتحة وقابلة للنقاش إلى مستهزئة ومتعالية وعالية الصوت كما أنها قادرة على الإقناع وبارعة في التنظيم وتحب تولي المسؤولية. وبين الفينة والأخرى كانت الفتيات يلقين بكلمات أمام المجموعة وقد رغبت أيان بالحديث عن نظرة النروجيين إلى الإسلام لتؤكد أن النروجيين يكرهون المسلمين ثم دعمت نظريتها باقتباسات مختارة من نقاد الإسلام... النروج تريد القضاء على الإسلام... كيف يمكن للفتيات العيش في بلد لا يحترمهن؟

لم تكن لدى الأهالي فكرة عما تفعله بناتهن، فالأمهات يبقين في البيت في معظم الأحيان ونادراً ما يخرجن للحياة العملية كما أن الآباء غائبون معظم الوقت.

كانت إحدى الفتيات اللاتي تلهمهن أيان سميرة وهي صومالية من إحدى مناطق أوسلو الداخلية، وقد كانت ثورية في المدرسة الإعدادية ودافعت عن حقوق المرأة وتحررها. وكانت بطلتها الكاتبة كاميلا كوليت التي تحدثت عن الحياة الفارغة للنساء البرجوازيات في القرن التاسع عشر.

كانت والدة سميرة التي ساهمت في إطلاق مبادرة مدرسة ابتدائية إسلامية في أوسلو تظن أن ابنتها أصبحت نروجية زيادة عن اللزوم، وبعد عطلة الصيف بعد سنة سميرة الأولى في المدرسة الثانوية تركت سميرة مع بعض الأقارب في هارغيسا في حين عاد باقي أفراد العائلة إلى أوسلو. وقد بكت سميرة وتوسلت لتعود معهم إلى النروج لكن بلا جدوى، فقد أخذت

أمها جواز سفرها وغادرت. وفي هارغيسا لم تتلقَ أي تعليم سوى دراسة القرآن المكثفة ولم يكن هناك أي مكان تهرب إليه. وبعد أن أمضت عامين في الصومال تم السماح لها بالعودة إلى أوسلو وبدأت أمها تفكر أنه حان الوقت لتزويجها.

وقد تردد صوت كاميلا كوليت في ذهنها:

«مصيرنا أن نتزوج لا أن نكون سعداء».

جادلتها أيان:

- كفاك يا سميرة.

من ألهمها للمضي قدماً هو أستاذ القرآن الذي يقال إن لديه علاقات قوية مع تنظيم الشباب الإرهابي الذي نفذ سلسلة من الهجمات في الصومال وأجزاء أخرى من إفريقيا، وفي 2012 أعلنت المجموعة ولاءها للقاعدة. كان مصطفى يعرف الكثير من النروجيين الذين توجهوا إلى سوريا وهناك شائعات أنه يساعد أولئك الذين يسافرون إلى هناك لكنه حذر وينبغي أن تأتي المبادرة من الطرف الآخر لا منه إذ إنه يلمح للأمور ويتجنب الصراحة لكن الناس الذين يلتقون به والطلاب الذين يدرسهم يعرفون أنهم إن رغبوا باللجوء إليه فلن يصدهم.

وهكذا ترسخت فكرة سوريا في رأس أيان إذ إنهم هناك سينشؤون خلافة لدولة إسلامية مثالية لتعيش بحرية.

قالت إنها ترغب أن تسافر الكثيرات منهن إلى هناك لمساعدة أطفال سوريا والعيش كما أمرهن الله بأسلوب إسلامي صحيح، فسألتها إحدى الفتيات أن هناك حرباً هناك... أليست أيان قلقة حيال ذلك؟

لا... إنهم برعاية الله كما أن اليوم الذي يموت فيه المرء مكتوب منذ أن كان المرء في رحم أمه.

وقد أعربت العديد من الفتيات عن رغبتهن بالذهاب إلى هناك كما رحبت سميرة بالفكرة وقالت بحماس:

- وسنتزوج هناك... جميعنا... يمكنني العثور على أزواج نروجيين لنا.

وقالت إنها تعرف العديد من المقاتلين النروجيين غير المتزوجين المقيمين هناك في الوقت الحالي وقالت إنهن سيحصلن جميعا على بيوت جميلة أكثر من منازل إسكان السلطات المحلية التي يقطن فيها الآن.

وبعد فترة قالت سميرة:

- أريد الذهاب إلى هناك يا أيان لكنني أرغب بمعرفة طبيعة العيش هناك لسنة أولاً.

فنظرت إليها أيان:

- سنة؟!

- نعم.

- إن كنت ستذهبين إلى سوريا فستبقين هناك حتى تموتين.

ابتلعت سميرة ريقها... كان ذلك غير مقبول بتاتاً... أن لا ترى إخوتها وأخواتها مجدداً؟ وأمها؟ وأختها الكبرى؟ لكنها في الوقت ذاته تريد مساعدة أطفال سوريا والقيام بالأمر الصواب.

وأيان لن تستسلم... ستتكلمان عن الأمر مجدداً فيما بعد حيث أبلغت سميرة بالتعليمات التي أعطاها إياها منظمو الرحلات إلى سوريا... يجب عدم الحديث عن الأمر على الإنترنت أو على الفيسبوك أو الإيميل أو الدردشة... فقط وجهاً لوجه في أماكن غير مراقبة.

- كما أن هذا الوقت الأنسب لنخطب يا سميرة... أليس كذلك؟

إذن لدى أيان خطة مسبقة... الهروب ثم الزواج فالموت.

معظم المقاتلين الأجانب جمعوا المال لتمويل سفرهم قبل الانطلاق، وقد حصلت أيان على بعض التعليمات من أولئك الذين رحلوا أو على وشك الرحيل حول كيفية جني بعض المال إذ إن عليها إبقاء عينيها مفتوحتين ترقباً لعروض مثل «احصل على هاتف محمول بقيمة 1 كرونر» وقم بإنشاء حساب

اشتراك لاحق الدفع، وحينها يمكنها بيع الهاتف والاشتراك، وحين يتم إرسال الفاتورة لها تتركها غير مدفوعة. ومن يشتري الهاتف سيقوم بمكالمات دولية قدر ما يشاء قبل أن يتم قطع الخدمة وإيقاف بطاقة الخط.

وهكذا بدءاً من فبراير وطوال الربيع قامت أيان بالاشتراك بسبع شركات هاتف محمول، وباعت البطاقات والهواتف التي حصلت عليها في كل حزمة لتجني عدة آلاف من الكرونرات نقداً.

تلقت رسالة تحذيرية من وكالة استيفاء القروض نيابة عن إحدى شركات الاتصالات:

«عدم الدفع قد يؤدي إلى تكاليف إضافية وملاحقة قانونية».

كانت أعلى الرسوم للمكالمات الدولية حيث وصلت عدد الدقائق الدولية في إحدى شركات الاتصالات إلى ستمائة في أبريل.

وقد حصلت على ثلاث بطاقات ائتمان واحدة من البنك النرويجي وماستر كارد طلابية وواحدة من تاجر ألبسة على الإنترنت، ومن المهم أن يحصل كل شيء في الوقت ذاته لأن تقييم بطاقتها لن يستغرق وقتاً طويلاً حتى يتأثر.

وهكذا تزايدت الديون على بطاقتها الائتمانية مع رسائل إشعارات لاستيفاء الديون... عشرة آلاف... عشرون ألفاً... ثلاثون ألفاً... أربعون... خمسون... ستون... مائة ألف كرون... وأكثر من نصف المبلغ للمكالمات الدولية... وهكذا تكدست رسائل التذكير لكنها كانت تكتفي برمي المغلفات دون أن تفتحها في صندوق بلاستيكي فوق الخزانة.

كان من السهل تبرير هذه السرقة... إنها مشيئة الله أن تسافر إلى سوريا، وهي بحاجة إلى المال لتصل إلى هناك... لقد منحها الله هذه الفرصة... عدم الدفع لشركات تتمركز قواعد عملها في دولة تهاجم المسلمين هو نوع من الجهاد الاقتصادي.

استمرت أيان بالذهاب إلى المدرسة لتتجنب التعقيدات وهي تخطط للرحلة لكن حضورها سيئ وأحياناً تكتفي بركوب الحافلة إلى المدينة بدلاً

من التوجه إلى المدرسة... مؤخراً تم إلغاء القوانين التي تحدد الحد الأقصى للغياب في المدارس الثانوية مما يعني أنها حرة في الحضور والغياب كما تشاء دون خوف من فقدان مقعدها. ولم تتلق سوى رسالة تحذير من الحصول على درجات سيئة في النظام بسبب غيابها المتكرر.

ولم تعد أيان تكتب على مواقع التواصل الاجتماعي إذ تم نصحها بالابتعاد عن الشبكة لأن الأمن النروجي يراقبها أي أن أي تواصل مع أولئك الذين يساعدونها في رحلتها ينبغي أن يكون عن طريق الرسائل المكتوبة أو الحديث وجهاً لوجه أو سكايب.

كيفية جمع المال... طريق السفر... الأزواج المحتملون... لا يمكنها العيش في سوريا كامرأة عزباء... هناك في الدولة الإسلامية المثالية ينبغي أن يكون هدف المرأة أن تتزوج.

الوقت يمر وعلى أيان مغادرة البلاد قبل أن يأتي الدائنون إلى منزلها وتنكشف فعلتها ويعرف والداها كل شيء، وهكذا التقت بصديقاتها لتقول سميرة إنها ليست مستعدة لا للزواج ولا لسوريا وترغب بتأجيل قرارها قدر ما تستطيع.

ولدت عائشة صبياً أسمته صلاح الدين وذهبت أيان وليلى لزيارتها في شقة القبو التي تتشاركها مع أمها.

كما أتت دلال مع عبيد الله.

حمل المتحدث باسم أمة النبي الصبي بين يديه وقال ضاحكاً:

- إنه يبدو كعرفان! نفس العينين والابتسامة والوجه.

كان والد الطفل في السجن في باكستان ولم ير ابنه قط، وعبيد الله هو الشخص الوحيد الذي يقوم بالتجنيد إلى سوريا لكنه غير قادر على السفر والقتال لأنه مصاب بداء كروهن وهو داء معوي يتطلب حقناً منتظمة.

كان عبيد الله يعمل كوكيل سفر وأي شخص يرغب بالسفر إلى سوريا سيتصل به ويطلب لقاء في مكان لا يمكن لأحد التنصت عليهما سواء في

مرأب أو محطة وقود أو استراحة سفر. وقد شهدت دلال شباباً يتحولون من حالة الفضول العادي إلى القناعة التامة، وفي بعض الأحيان تتشاجر معه حول إن كان هؤلاء الشباب يفهمون تماماً ما يقحمون أنفسهم فيه.

– قد يموتون هناك!

فتذمر منها عبيد الله:

– أنت أسوأ من الكفار!

وأحياناً ترافقه إلى حيث يذهب لتقديم نصائح السفر لكنها تبقى في السيارة تراقبهم وهم يضعون الخطط ويختارون أفضل الطرق. كان الفتيان يتلقون نصائح بحلق لحاهم وارتداء ملابس غربية لتجنب إثارة الشكوك. ولطالما كان أصدقاؤهما ومعارفهما متحمسين بشأن الرحلات حيث يتنافسون بشأن من يوصل المجاهدين إلى المطار. وحين غادر إغزون رافقه العديد من أصدقائه إلى ألبانيا في الطائرة الأولى من رحلته إذ إن السفر إلى سوريا للقتال لم يتم تصنيفه ضمن القانون المحلي للإرهاب حتى يونيو 2013.

وهكذا كانت دلال تسمع عبارات «اتصل الأخ فلان» و«عبيد الله اتصل بالأخ فلان» وبعض العبارات الغامضة مثل «طار الطائر» و«العش جاهز».

في بعض الأحيان تظهر لدى دلال شكوك حول الأمر برمته وحول علاقتهما ومشاعرهما تجاه بعضهما وزواجهما لكن عبيد الله يقنعها بتجاهل الأمر:

– تذكري! عائلتك لن تستقبلك وإن فعلوا فسيكون ذلك ليقتلوك.

وفي إحدى الليالي وبعد شجار بينهما اختفى ليعود معه قطة:

– هذا كل ما تحتاجينه... ماذا تريدين من عائلة يريدون موتك في حين لديك إياي؟

وحين بدأ عبيد الله يتكلم عن إنجاب الأطفال بدأت تشعر بواقعها... لا... لا يمكنني إنجاب طفل في هذا الوضع... هذا جنون... عليّ الخروج من هنا... الهروب... عليّ العودة إلى البيت.

حيث جعل الحديث عن الأطفال الأمور تبدو محسوسة ونهائية.

لكن الأشجار اكتست باللون الأخضر وهي ما تزال معه... نظرت من النافذة إلى الشارع... إنهما يعيشان في الطابق الثالث عشر... كان الناس يدخلون المتاجر ويخرجون منها ويركبون السيارات وينطلقون، وكل ما يمكنها فعله هو الهرب وهو نائم... لكن إلى أين ستذهب؟ لم يعد لديها منزل كما قطعت علاقاتها مع عائلتها ولم يعد لديها مكان تذهب إليه، وهكذا أصبحت أوسلو مكاناً مخيفاً.

وهكذا بقيت.

في بداية شهر مايو 2013 أصدرت سلطات مقاطعة آكيرشوس قراراً بمنع الحجاب الذي يغطي الوجه في المدارس سواء في الصف أو خارجه.

وقد أبلغت المديرة أيان بالقرار عن طريق البريد الإلكتروني:

«أفهم خيبة أملك لكن علينا الالتزام بالقرارات التي يتخذها السياسيون، وهذا ينطبق عليك وعليّ».

وقد جاء رد أيان على الفور:

«هذا التودد المثير للشفقة لن يفيدك على الإطلاق... لقد أظهرت لك الاحترام والتسامح عندما تواصلت معك بالأصل والتزمت بطلبك فيما بعد لكن لا تتوقعي نفس الود والاحترام مني في المستقبل».

حدقت هان رود بالشاشة إذ كانت اللهجة قاسية والرسالة عدائية.

ثم نهضت ونظرت من النافذة بينما مر بعض التلاميذ أمامها وجلس آخرون في مجموعات على العشب وقد اقتربت الامتحانات ليتلوها الصيف... لقد أزعجتها رسالة البريد الإلكتروني... ثم عادت إلى مقعدها وأرسلت الرسالة إلى قسم العلاقات المدرسية في مركز شرطة آسكر وبيرم لتقوم الشرطة بإرسالها إلى الأمن النروجي.

في حي في الجانب الشرقي من أوسلو ازدادت حالة زوجة هشام سوءاً حيث أمضت معظم وقتها في السرير ولم تعد تهتم بالحياة من حولها أو تكترث بالطفل كما كانت تتعرض لنوبات ذعر مفاجئة.

وقد آمن والدها أن هناك قوى خفية تؤثر فيها وأنها ممسوسة من جني، وقام بالتواصل مع رجل في مسجد الرابطة إذ إن الجزائري الذي يؤذن أحياناً للصلاة معروف بقدرته على طرد الأرواح، واتفقا على قراءة بعض آيات القرآن عليها إذ إن لتلك الآيات تأثير علاجي مبارك.

كان العديد من أعضاء المسجد يفسرون الأمراض بسيطرة الأرواح الشريرة على جسد الشخص وخاصة إن كان المرض نفسياً... اقرأ من القرآن وأنت تضع يديك على المصاب وأحياناً تضطر لتثبيته بقوة أو ضربه لأن مقاومة الجن قوية للغاية لكن في النهاية ستخرج الشياطين ببركة كلمات القرآن لأن الله أكبر.

مسجد الرابطة هو واحد من أكبر المساجد في النروج، وفيه أكثر من ألفين وأربعمائة عضو، ويفتح من الصباح حتى الليل، وفيه كاميرات مراقبة عند كل المداخل والمخارج، كما يضم أقساماً مخصصة للنساء وأخرى للرجال. ويمتد المسجد على أربعة طوابق وفيه مساحات وغرف مشتركة يمكن قفلها. وقد تم إحضار زوجة هشام إلى واحدة من هذه الغرف في منتصف مايو 2013.

تلقت تعليمات بالجلوس على الأرض بينما بدأ الجزائري بقراءة القرآن. ظن أنه سمعها تنادي بصوت عميق وشيطاني ومنخفض لا يمكن أن يكون لامرأة... استمر بالقراءة... تأوهت... استمر بالقراءة... صرخت بشيء... فكر الجزائري أن هذا يبدو وكأن الشيطان يتكلم من خلالها... وبدأ يضربها... قاوم الجني... ضربها على ظهرها لكن الجني لم يستسلم... خلع حذاءه البلاستيكي وضربها به حتى صمتت الفتاة في النهاية.

كان قائد المجلس باسم غزلان في المنزل حين تلقى مكالمة هاتفية أن

هناك فتاة في المسجد بحاجة إلى مساعدة وقد تم طلب الإسعاف.

وجد المسعفون أن المريضة تعرضت لنوبة قلبية وتم الإعلان عن وفاة المرأة ذات العشرين عاماً فور وصولها إلى المشفى.

وبدأت الأقاويل تنتشر... هل تم ضربها بقوة لدرجة جعلت قلبها يتوقف؟ هل صدمها؟ قال أحدهم أنه ثبتها بينما كانت تتلوى كالأفعى.

أما قارئ الرقية فلم تكن لديه أي شكوك حول ما قتلها... لقد تسلل الجني إلى قلبها وجسدها وفزع عند سماعه كلمات القرآن، وبينما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة التف حول قلب الفتاة وقطع دوران الدم... كانت ستموت عاجلاً أم أجلاً في كل الأحوال، ومن الأفضل لها أن تموت هنا في المسجد على أن تواجه عذاباً أشد.

كان والدا الفتاة في حالة أسى بالغ إذ إن أبيها هو من لجأ إلى قارئ الرقية وفكر أن الخطأ يعود إلى عدم خبرته، وزعم أن ابنته كانت ستبقى على قيد الحياة وتتخلص من تأثير الجني لو ائتمن على هذه المهمة شخصاً يعرف ما يفعله.

تلقى هشام خبر وفاة زوجته في سورية حيث حضر بضعة أعضاء من أمة النبي الجنازة في غيابه، وفيما بعد حصل نزاع بين عمومه الأريتيريين ووالدي زوجة هشام المتوفاة حول من يرعى الرضيع ابن الستة أشهر، فناشده أقاربه أن يعود إلى النروج. وفقاً للتقاليد الإسلامية يتبع الطفل أباه، وبما أن الأم ميتة الآن فإن المناسب والصحيح أن يتولى الأعمام الوصاية نيابة عنه.

فطلب الجهادي من صديق له أن يتحرى عن إمكانية العودة إلى النروج... لكن تحت أي اسم سيسافر؟ وبأي جواز سفر؟ إنه مطلوب من قبل الشرطة في النروج وعليه السفر متخفياً لئلا يقبض عليه الأمن النروجي.

ليست هناك عودة... لقد رفض هشام الحياة العادية والزوجة ومسؤولية الأبوة وهو يقاتل في سبيل الله وهو الأمر الأهم.

هناك حجر شاهد قبر في مقبرة هويبراتين في أوسلو.

طفلة صغيرة لن تعرف أمها ولن يكون لها أب.

- تفضلي.

وناول عبيد الله دلال هاتفها المحمول.

احتاجت إلى بعض الوقت لتستجمع شجاعتها وتتناوله في النهاية وتكسر السجن الذي كانت تعيش فيه والذي هي من ساعد في بنائه... لم تجرؤ على الاتصال بإخوتها أو والديها لكنها لا تستطيع الاستمرار بالعيش هكذا وعليها تجربة حظها.

وفي وقت باكر من صباح أحد الأيام في نهاية شهر مايو كانت دلال مستلقية في السرير تنظر إلى الرجل النائم بجوارها ثم همست في سرها:

- سأتركك اليوم... فقط لتعرف... اليوم هو اليوم.

وانتظرته حتى غادر الشقة لتتصل بزوجة أخيها وتسألها بخنوع:

- أيمكنني العودة إلى المنزل؟

شهقت زوجة أخيها ثم بدأت تبكي، فتوسلت دلال:

- أرجوك!

- نعم! تعالي! تعالي الآن!

على الفور وصلتها رسالة نصية من أخيها:

- الباب مفتوح.

لم تضيع دلال أي وقت ووضبت بعض الأغراض في حقيبة ووضعت القطة في قفص وحملتهم وغادرت ثم أغلقت الباب الثقيل وراءها وهي تركض في الشارع حتى أدركت أن عليها أن تهدأ وتتجنب لفت الأنظار. وما إن أشارت إلى سيارة أجرة تذكرت أن في دائرة عبيد الله الاجتماعية عدد كبير من سائقي سيارات الأجرة لكن الأوان قد فات.

التفت السائق إليها فقفز قلبها من مكانه حين رأت أنه باكستاني.

- محطة أوسلو الرئيسية عند المدخل المواجه للبحر.

كان ذلك حيث اتفقت على لقاء أخيها وزوجة أخيها.

وطوال الطريق ظل السائق يطرح عليها الأسئلة:

- من أين أنت؟

- كردية. وأنت؟

- باكستاني... ظننتك باكستانية أيضاً... أجنبية في كلّ الأحوال.

وبدءا يتكلمان عن الحياة كأجانب في النروج وأخبرها سائق سيارة الأجرة أنه يحب ذلك وأن أطفاله يعيشون حياة رخاء وأن كل الأمور على أحسن وجه.

- تمنحنا النروج الكثير من الفرص.

- نعم.

ونظرت من نافذة السيارة لترى أخاها ينتظرها فحملت حقيبتها والقطة وركضت نحوه.

جلست دلال في المقعد الخلفي ومسحت دموعها ثم فتحت حقيبتها ورفعت المرآة وعدلت من مكياجها بينما انطلقت السيارة على الطريق السريع... لا يمكنها العودة إلى والديها بهذا المنظر... وهكذا وضعت خافي عيوب وأحمر شفاه وظل للعيون وكحل وماسكارا، ثم مشطت شعرها وصففته بطبقة خفيفة من كريم التثبيت.

وسرعان ما وصلا إلى منزل العائلة في بيرم.

فتحت أمها الباب فاتحة ذراعيها بينما وقف والدها خلفها وسحباها وضماها دون أن يتركاها والدموع تسيل على وجوههما... ابنتهما الوحيدة عادت إلى المنزل... انتهى الكابوس.

بكى أبوها:

- أميرتنا.

وبكت أمها:

- طفلتنا.

وبعد وقت قصير رن هاتفها المحمول برسالة نصية:

«أين أنت؟».

«ذهبت إلى منزل عائلتي... لن أعود».

بعد نصف ساعة وصل رجال الشرطة إلى منزل العائلة الكردية في عدة سيارات ركنوها خارجاً وقالوا إنهم تلقوا معلومة حول التخطيط لجريمة قتل لحفظ الشرف وتعاملوا مع المعلومة بجدية تامة.

وقف والدها مكانه مشدوهاً بينما بكى أخوها الكبير وهو يشعر بالإساءة:

- كيف يمكننا إيذاء أختنا؟

لقد جاءت سيارات الشرطة عدة مرات خلال الأيام التالية بناء على معلومات تردهم من عبيد الله حسين، وفي النهاية تم استدعاء دلال إلى مركز شرطة ساندفيكا. وبعد مقابلة طويلة أعلن المحقق المسؤول إغلاق القضية قائلاً:

- هذه آخر مرة تأتي فيها الشرطة إلى منزلك.

لكن عبيد الله لم يستسلم حيث ظل يتصل ويرسل الرسائل دون أن يتلقى أي رد ثم اتصلت أمه:

- عودي إليه يا دلال... إنه لا يستطيع العيش بدونك! إنه يحبك!

وهنا تذكرت دلال والدة زوجها وهي تقول مرة أنها لا تفهم كيف تحتمل دلال ابنها.

لم تكن هناك أي رسميات ليتم الاهتمام بها إذ إنهما تزوجا بمراسم إسلامية دون تسجيل لدى السلطات النروجية.

لقد غسل دماغها وملأ رأسها بمعلومات جديدة لكن دلال تمكنت في النهاية من الهروب من سجن مبني في رأسها... لقد اتخذت الفتاة الكردية قرارها بعدم السماح لنفسها بأن تتم السيطرة عليها... ستكمل تدريبها كممرضة وتكمل من حيث انقطعت... الحياة لا تزال بانتظارها.

جاء شهر يونيو لتشرق الشمس من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من

الليل واقترب العام الدراسي من نهايته. كان الطلاب ذوي الستة عشر ربيعاً في غجيتوم قد تقدموا بطلب التحاق إلى مدارس ثانوية مختلفة... لكن ما هي الأفضل؟ هل ستكون درجاتهم جيدة بما يكفي ليلتحقوا بالمدرسة التي اختارها كل واحد منهم؟ وقد بدت ليلى – على الأقل بالنسبة لزملائها في الصف – لا تكترث البتة... ربما لا تريد الاستمرار في المدرسة على الإطلاق كما أنها أعربت عن كراهيتها لكل ما يتعلق بالمدرسة. لكن قبل الموعد النهائي قامت بالتقدم بطلب لمقعد في المنهاج الاجتماعي والصحي في ثانوية رود، وهي ثانوية ليست بعيدة عن دونسكي.

كان الربيع السابق لنهاية المدرسة دافئاً ومشمساً لتظهر الفتيات أجزاء كثيرة من أجسادهن كالخصر والأرداف بينما أظهر الفتيان زنودهم وصدورهم.

سألتها إحدى زميلاتها وهما تمشيان خارج بوابة المدرسة:

– أليس الجو حاراً تحت كل هذه الملابس؟

فردت ليلة وهي تضع نقابها وتغادر المدرسة.

– الجحيم أشد حجراً.

اقتربت عطلات الصيف وانتهت الامتحانات والاختبارات، وخلال الاستراحة جلست بضع فتيات على العشب يتكلمن عن خططهن للعطلات، فسألت صوفي ليلى إن كانت ستزور عائلتها في الصومال كما تفعل عادة لكن ليلى لن تسافر وإنما ستعطي دروساً في التاريخ الإسلامي والقرآن للأطفال في المسجد في ساندفيكا. كانت ليلى ترتدي حجاباً أسود اللون وحذاءً رياضياً أبيض، وبما أنها ضمن أرض المدرسة فقد خلعت النقاب بينما جلس الآخرون حولها يرتدون الأحذية المكشوفة والسراويل القصيرة والكنزات بدون أكمام.

– هل سيزدرونك في الصومال إن ارتديت سروالاً قصيراً؟

– سيقتلونك.

حملقت الفتيات أعينهن حين غادرت:

– إنها تخيفني...

ثم ركزن اهتمامهن من جديد على الحصول على بشرة مسمرة.

وقبل أن تغلق المدرسة حدثت بنت الصديق صورة ملفها الشخصي على فيسبوك إلى علم أسود مكتوب عليه الشهادة الإسلامية باللغة العربية كما غيرت صورة الغلاف إلى صورة بالأبيض والأسود لمقاتل معمم لا يبدو منه سوى عينيه ويحمل بندقية مرفوعة وجاهزة لإطلاق النار.

اقترب موعد التخرج والمكان الوحيد الكبير بما يكفي ليتسع طلاب السنة كلهم هي الكنيسة المحلية، وقد ناقشت إدارة المدرسة على نحو مطول إن كان هذا سيثير اعتراضات من التلاميذ المسلمين ليتم التوصل إلى أنه في حال تمت تغطية جميع الرموز الدينية كالمذبح وقدر المعمودية ومنبر الوعظ وصور المسيح سيكون كل شيء على ما يرام.

وحين أصبحت الكنيسة جاهزة لتقديم الأوراق الأكاديمية وتدفق التلاميذ من أجل المراسم لم يكن هناك أي صليب مرئي.

لكن ليلى أثارت الريبة بغيابها حيث قالت في آخر يوم لها في المدرسة:

- أرسلوه لي بالبريد.

في حين اختارت صديقتها أمل تسلم شهادتها شخصياً وحضور الحفل حيث تمت دعوة جميع الطلاب إلى حفل في منزل أولريك، فقد أبقت أمل على روابط قوية مع أصدقاء نروجيين خلال العام الدراسي بعكس ليلى، وضمن ذلك أن يكون لها موطئ قدم في البلد الذي ترعرعت فيه إذ كانت أمها ترى أن مستقبل ابنتها هنا حيث كانت تردد مراراً وتكراراً:

- النروج تسمح لك بعيش حياتك كما تريدين... إن لم تزعجي النروج فالنروج لن تزعجك!

وبدأت أمل تبتعد عن ليلى التي تفسر الإسلام بصورة سوداوية وضيقة وصارمة، وفي النهاية حدث خلاف بسيط أدى إلى تفرقهما بالكامل إذ أصبحت الأمور التافهة مصيرية.

قبل عطلة الصيف كانت أمل تخطط لرؤية فيلم كوميدي رومانسي

فابتسمت ليلى باشمئزاز حين سمعت كلمة «فيلم».

- هذا حرام.
- لماذا؟
- لأنه حرام.
- هذا متوقف حسب الفيلم.
- لماذا قد تشاهدين أناساً يقبلون بعضهم ويمارسون الجنس في حين يمكنك إمضاء الوقت بقراءة الحديث؟
- هل أنت من يتكلم يا ليلى! أنت تشاهدين أناساً يتم قطع رؤوسهم ويرجمون حتى الموت على اليوتيوب... هل هذا ليس حراماً؟
- إنه عقاب الله الذي يستحقونه.

كانت أمل قد اكتفت ولم تعد تحتمل توق ليلى للموت وكلامها عن الشهادة حيث كانت تقول دائماً:

- الموت قريب منا... إنه يلوح لك... الموت قريب... اقبليه.

لكن أمل لم تستجب لتلويحه.

بقيت أيان بعيدة عن المدرسة الثانوية حتى نهاية العام الدراسي لتظهر مجدداً في الامتحان وتخلع نقابها كالعادة وهي تدخل بوابة المدرسة... وبعد الاختبارات الكتابية ذهبت لترى إن تم اختيارها لتجري امتحاناً شفهياً ووجدت أن لديها امتحان شفهي في مادة اللغة النروجية.

وفي الساعة التاسعة صباحاً تم إعلامهم بالموضوع:

«اشرح مفهوم الحداثة وضعه في سياق تاريخي وحدد خصائص الحداثة. كان عليهم تحليل خمسة أمثلة من بينها «الذعر» لإدوارد مونش ومقطع من «المحاكمة» لكافكا.

كان لدى الطلاب يومين للتحضير وينبغي عليهم تقديم محاضرة شفهية قبل أن يجيبوا على الأسئلة التي يطرحها الأستاذ. عادت أيان إلى المنزل لتقرأ وتضع ملاحظات وتدرس وتحفظ، وبعد يومين أجابت على أسئلة المعلمة

بأسلوب صحيح ودون أي تردد... الحداثة تؤكد على أفكار جديدة وانتقالية وتكسر التقاليد وتتميز بالتجربة والتحرر الفني والإيمان بالتقدم.

وقد حصلت على درجات مرتفعة باللغة النروجية.

وبعد بضعة أيام مرت بمعلمة اللغة النروجية في الشارع في ساندفيكا فقالت لها مبتسمة:

- مبارك يا أيان... احرصي على استخدام تلك الدرجات المرتفعة في أمر مفيد الآن!

فأومأت لها أيان من تحت نقابها.

تم التخرج بعد فترة قصيرة وتمت دعوة كل صف لأخذ موقعه على المنصة حيث ينتظر أستاذ مع مجموعة من الأزهار، وكلما تم نداء اسم طالب يتقدم لتناوله المديرة وردة وتتمنى له الحظ الطيب وتخبره أن يتمتع بعطلته الصيفية!

تم نداء صف أيان إلى المنصة بينما تساءلت هان في سرها إن كانت أيان ستحضر، وحين رأتها بين الجموع شعرت بالسعادة... إذن لا بد أنها استمتعت ببعض وقتها هنا... وعلى الرغم من الصراع واللهجة العدائية في ذلك البريد الإلكتروني الأخير لكن أيان صعدت المنصة مع باقي طلاب الصف.

اقترب اسمها... هل ستقف في مكانها وترفض الاقتراب حين يتم نداء اسمها؟ لا... اتجهت الخريجة إلى هان وتناولت الوردة ثم عادت إلى مقعدها.

لم تحصل أيان على أية شهادة وإنما مجرد وثيقة أكاديمية حيث تتراوح درجاتها بين متوسط وسيئ بالإضافة إلى علامة جيد باللغة النروجية أما التربية الرياضية فلم يتم تقييمها أو بمعنى آخر... راسبة إذ إن رفضها المشاركة في دروس الرياضة هو ما منعها من الحصول على الشهادة، وما لم تعد مادة التربية البدنية وتنجح بها ستبقى درجاتها الأخرى بلا أية فائدة وستبقى شهادتها غير كافية لتكمل تعليمها في أية جامعة.

قبل عامين كانت لديها طموحات بأن تكون أول شخص في عائلتها

يكمل دراساته الأكاديمية لكنها انتهت الآن من المرحلة الثانوية من التعليم دون أي مؤهلات.

وبينما هي تخرج من مبنى المدرسة للمرة الأخيرة مرت بالعبارات المكتوبة حيث كانت إحداها منسوبة إلى نيلسون مانديلا على الرغم من أن قائلها شاعر إنكليزي من العصر الفيكتوري:

«أنا سيد قدري... أنا قائد روحي».

وهكذا اتخذت قرارها:

أنا سيدة قدري.

18

ثورة أكتوبر

في صباح أحد الأيام في بداية العام الدراسي في خريف 2013 كان أحد رؤساء الأقسام في ثانوية رود ينظر من النافذة حيث كان بإمكانه مراقبة المدخل الذي يتجمع فيه الطلاب. اقتربت فتاة ترتدي اللون الأسود وتبدو كما لو أن أحداً رمى قماشة سوداء فوقها ووضع حقيبة مدرسية على ظهرها. نزل السلم مسرعاً واعترض طريق الفتاة التي ترتدي اللون الأسود وهي تدخل من الباب.

- مرحباً... اسمي توتو سكريد... من أنت؟

عرفت ليلى عن اسمها ثم أشار إلى نقابها قائلاً:

- عليك أن تخلعي هذا.

- لا مشكلة.

وخلعته.

- نعم... هذا ما نريده هنا.

كان اجتماع إدارة المدارس في المقاطعة ما يزال في ذهنه كما تذكر هان رود مديرة دونسكي وهي تخبرهم بالتفصيل عن القرار الذي توصلت إليه مقاطعة آكرشوس... تغطية الوجه غير مسموح في المدارس.

في اليوم التالي كان جالساً مرة أخرى عند النافذة وتكرر الأمر ذاته حيث دخلت الفتاة المبنى وهي ترتدي النقاب فنزل إليها:

- يجب خلع هذا.

- كنت على وشك خلعه.

- ينبغي خلعه وأنت على الرصيف خارج المدرسة... ينبغي خلعه قبل أن تطأ قدمك أرض المدرسة.

في ذلك العام قامت مديرية الدمج والتنوع بزيادة الوعي بشأن ختان الأعضاء التناسلية والزواج القسرية كما عينت سلطات المقاطعة مستشاراً وأوكلت إليه مهمة في مدرسة رود الثانوية... ربما كانت الفتاة في خطر بطريقة أو بأخرى؟

اتصلت معلمة الأسلوب لدى ليلى بوالديها للاجتماع لكنهما لم يحضرا.

فقررت تجاهل الأمر في الوقت الحاضر والتواصل معهما فيما بعد إذ كانت المعلمة تعتقد أن ليلى مثيرة للاهتمام وتظهر نضجاً أكثر من الآخرين في منهاج الرعاية الصحية وتطور الطفل والشباب الذي لا يضم هذا العام سوى فتيات. بدت الفتاة متصالحة مع لون بشرتها وواثقة من نفسها ودائماً ترى أنها المحقة.

كما لاحظت المعلمة أنها لا تختلط مع زميلاتها كما لا تحاول فتح أي أحاديث ولا تخرج مع الأخريات وإنما تفضل الذهاب للصلاة في غرفة موضوعة تحت تصرف كل من يرغب باستخدامها. وأحياناً لا تأتي على الإطلاق وهي نقطة مثيرة للقلق إذ وفقاً لتجارب المعلمة يتزايد الغياب مع مضي العام مما يعني أن ليلى تبدأ بداية سيئة.

لكنها لم تكن بداية سيئة وإنما مجرد تمويه.

فعلى الرغم من الأعذار تركت ليلى بضعة أدلة حول ما يشغلها بالفعل إذ إنها بعد مضي أسبوع في رود غيرت صورة صفحتها الشخصية على الفيسبوك ووضعت صورة جديدة تمجد أنور العوالقي الرجل المعروف على أنه «بن لادن الإنترنت» حيث شرح في محاضرة بعنوان «دعوة إلى الجهاد» بالتفصيل لم من واجب كل مسلم قتل الأمريكان، وفي فيديو آخر على الإنترنت قام بتعليم مقاتلي القاعدة كيفية مزج المواد الكيماوية لصنع القنابل وذكرهم بكل هدوء بشد المسامير والبراغي حول الأداة للحصول على فعالية أكبر وتتطاير

الشظايا الحامية إلى الأجساد المحيطة بمكان القنبلة.

وقد وضع باراك أوباما العوالقي في قائمة الأشخاص الذين يمكن لوكالة الاستخبارات الأمريكية قتلهم وقد حصل ذلك في هجوم بطائرة بلا طيار في اليمن عام 2011 ليكون أول مواطن أمريكي في التاريخ الحديث يتم إعدامه دون رقابة قضائية. وبعد الهجمات بطائرة دون طيار أعلن أوباما أنه تمت إزالة العوالقي من ميدان المعركة لكن لم تتم إزالة قائد الإرهابيين من ميدان المعركة الافتراضي.

بينما كانت ليلى في المدرسة أمضت أيان أيامها على الإنترنت، فبالإضافة إلى المواقع الدينية بدأت بمشاهدة أنواع جديدة من الفيديوهات... برنامج «لورا في المطبخ» يقدم وصفات أمريكية كشرائح اللحم والجبن وكعك الشوكولا بالفول السوداني ولفافات القرفة. أما برنامج «أرني الكاري» فيظهر كيفية تحضير الأطباق الآسيوية، ويصف «الطعام الصومالي» طهي الأطباق من موطن والديها. وعلى أحد المواقع درست أيان الطبخ بما يتناسب مع الظروف البسيطة أما برنامج «الطهي بدون ملاعق» فيصف كيفية تحضير الطعام دون وزن أو قياس.

كما أمضت وقتاً طويلاً وهي تتابع نصائح التدبير المنزلي وتزور مواقع مثل «تنظيم ديكور منزلك» و«تعلم الحياكة» و«اخلق سحراً في منزلك» وهكذا ظلت تجلس وراء الحاسب تتلقف المعلومات بنهم منتظرة السحر كي تبدأ الحياة الواقعية.

وعلى تويتر أصبحت صفحتها الشخصية سياسية أكثر من ذي قبل حيث كانت أول تغريدة لها في ذلك الخريف بعد فترة انقطاع طويلة تتكلم عن جهاد النكاح:

«أظنكم سمعتم بالحريم التونسي اللواتي يتجهن إلى سوريا ليقدمن أجسادهن الشابة لإشباع شهوات الثوار النهمين... ثم يرجعن إلى بلادهن وبطونهن ممتلئة بأطفال الجهاديين».

وقد رد موقع يعنى بأمور المسلمين على تغريدتها:

«ليس هناك دليل!».

غضبت أيان لأن النوايا الصادقة لتلك النساء قد تمرغت بالوحل إذ إنهن بهجرتهن غسلن ذنوبهن السابقة لكن هنا يتم إظهارها وكأنهن يسافرن إلى سوريا لارتكاب ذنوب جديدة.

لقد جذبت القصة الاهتمام حين ذكرت قناة تلفزيونية لبنانية أن الواعظ السعودي محمد العريفي الذي لديه ملايين من المتابعين أصدر فتوى تجيز الاغتصاب الجماعي للنساء السوريات ليعقب موقع إلكتروني عربي أن الرجل ذاته قد شجع النساء المسلمات على السفر إلى سوريا لممارسة الجنس مع المقاتلين من أجل إبقاء معنوياتهم مرتفعة. وقد قال وزير الداخلي التونسي أنه يتم خداع النساء ليذهبن إلى سوريا ويرجعن حبالى.

أنكر الشيخ إصدار الفتوى ولم تجد أية مجموعة لحقوق الإنسان أي دليل على سفر النساء من أجل جهاد النكاح لكن على ما يبدو كان لدى الوزير دافع ليثير القصة حيث سجلت تونس أعلى نسبة من الشباب الذين يسافرون للانضمام إلى صفوف الجهاديين لكن ربما يقل عدد النساء في حال تم نعتهن بالمومسات.

كانت معظم منشورات أيان حكماً إسلامية ودعوات للدعاء لسوريا.

من ناحيتها لم تكن تنوي الاكتفاء بالدعاء... وليس لوحدها وإنما ستأخذ معها ليلى التي تنام في السرير الذي فوق سريرها حيث غردت على تويتر:

«أهم ما يفيد المرء هو الرفيق المناسب».

بدأت صديقاتها بالانسحاب واحدة تلو الأخرى أما هي فأصبح الأمر بالنسبة لها طارئاً حيث تكدست جميع الفواتير وإشعارات التذكير في صندوق على ظهر الخزانة كما تلقت أيان رسائل من عدة مصارف ومن شركات الهاتف المحمول التي اشتركت بها ثم إشعاراً من مفوض التنفيذ يطالبها بالحضور أمام لجنة تحكيم لكنها تركت الرسائل مختومة ولم تذهب إلى المحكمة إلا

أنه عاجلاً أم آجلاً سيأتي أحد ما إلى بيتها.

بعد أسبوع من عيد ميلاد ليلى السادس عشر أي قبل يوم من ميعاد رحلة الطائرة إلى تركيا غيرت ليلى صورة صفحتها الشخصية على الفيسبوك للمرة الأخيرة حيث وضعت صورة مكتوبة بالأحمر «مجاهدة».

وقد وجدت أيان رفيقاً مناسباً في سوريا حيث تبين أنه كان يعيش في نفس الشارع الذي تقطن فيه كل تلك السنوات... الأريتيري... فتى دونسكي... الأرمل... هشام.

فبعد وفاة زوجته في مسجد الرابطة صار والدا زوجته يعتنيان بطفل هشام، والآن في أكتوبر 2013 أي بعد خمسة أشهر من الوفاة بدأت الشرطة بالتحقيق لمعرفة إن كان هناك أية صلة بين الرقية والنوبة القلبية لكن بحلول ذلك الوقت كانت جميع التسجيلات من الكاميرات قد تم مسحها ولا أحد يعرف ما الذي حصل قبل أو خلال الحادثة.

أي أنه سيتم إغلاق القضية.

في كل الأحوال الأرمل خطب من جديد.

ليس هناك شيء يدعى المواعدة الحلال وإنما هناك زواج... ما إن تصل أيان حتى يتزوجا.

رن حسابها سكايب على حاسبها المحمول... ضغطت على رمز الرد على المكالمة لكنهما لا يفتحان الكاميرا أبداً أثناء الحديث.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

أخبرها هشام عن منزله وسيارته وحياته بين المجاهدين الآخرين وطلب منها فتح الكاميرا فوضعت نقابها ونقرت على رمز الكاميرا ورأته بينما رأى هو عينيها.

سألها بنبرة غزل وهو يضحك بنعومة:

- إذن كيف أصبحت متطرفة؟ ألست من فتيات إسلام نت؟

كان يقصد أنهن فتيات لا يقطعن الطريق كله وإنما يقفن على العتبة.

– لا لست كذلك! سأريك!

– إذن ارفعي غطاء وجهك.

فرفعت وأرته وجهها.

تحداها:

– اخلعيه!

فخلعته.

الجزء الثالث

ماشا: يبدو لي أنه يجب على المرء أن يتحلى بالعقيدة أو يبحث عن العقيدة وإلا فستبقى الحياة فارغة... فارغة... أن تحيا دون أن تعرف لماذا تطير طيور الكركي ولماذا تولد الأطفال ولماذا هناك نجوم في السماء... إما أن تعرف لماذا تعيش أو يصبح كل شيء تافهاً ولا يساوي قشة.

أنطون تشيكوف - ثلاث أخوات - 1901

19

رقصة الموت

ما كانت ابنتاي لتغادرا... ابنتاي دائماً تطلبان الإذن... إنهما لا تخدعانني أبداً...

كانت تلك الأفكار التي تتردد في ذهن سارة.

ثم تم غسل دماغهما.

أحد ما غسل دماغهما.

إنه ليس خطأ الفتاتين.

إنه ليس خطأ والديهما.

هناك أحد أو شيء ما يقع عليه اللوم.

الإنترنت؟

المعارف؟

لأن ابنتيه ما كانتا لتذهبا.

مر أسبوعان على لحاق صديق بهما... أولاً إلى تركيا ثم إلى سوريا... كان ذلك أمراً مربكاً للغاية بالنسبة لها. على التلفاز كانت ترى القنابل والحرب وإطلاق النار والبيوت المدمرة والناس الهاربة... لقد كانت مراهقة حينما اندلعت الحرب الأهلية في الصومال من حولها لكنها هربت لتنقذ ابنتيها من الحرب لكنهما عادتا بملء إرادتهما؟ لا... هذا مستحيل.

لقد هربت سارة إلى النروج من أجلهما... من أجلهما.

لو كان الأمر راجعاً لها لبقيت في وطنها في هارغيسا، فعلى الرغم من وجود أصدقاء لها هنا وفي بيرم أيضاً لكن ذلك لا يشبه كونك بين عائلتك

مكتبة
t.me/t_pdf

وأقربائك وأخواتك... لقد كانت تدرك ذلك تماماً.

للمرة الأولى في حياتها أصبح عليها التعامل مع كل شيء بنفسها... دائماً صديق يهتم بكل شيء أما سارة فلا تفتح حتى رسالة إذ كانت كل تلك الأمور من مسؤوليات زوجها. وقد كان صديق في أحيان كثيرة يذهب إلى مكتب المساعدات الاجتماعية في نهاية الشهر ليطلب نقوداً إضافية.

اتصلت بزوجها عدة مرات في اليوم... هل وجدت الفتاتين؟ هل سمعت شيئاً؟ ألم تتصلا؟

لقد كانا خط الحياة لبعضهما... إنها بحاجة لسماع صوته وهو بحاجة لسماع صوتها... عليهما أن يتعاونا في هذا.

قصرت الأيام وأصبح الظلام يحل باكراً. كانت أبسط الأمور تزعجها مثل رؤية فرشاة أسنان الفتاتين في الحمام أو العثور على ربطة شعرهما تحت الأريكة أو الدخول إلى الغرفة حيث أوشحتهن مطوية وشم روائحن عليها.

لم تسمع خبراً من ابنتيها منذ يوم رحيلهن... لقد ارتكبتا خطأ فادحاً لكنها سامحتهن وعليهما العودة إلى المنزل وحينها سيتناقشون في الأمر.

كان الحكم ضمن المجتمع الصومالي قاسياً حيث انتقدوا صديق كأب وسارة كأم واعتبروا أنهما توجهتا إلى سوريا لأنه متحرر كثيراً ولأنها غبية كثيراً... رحيلهما عقاب من الله.

كانت سارة في المطبخ تحضر العشاء حين رهن الهاتف.

- ماما!
- أيان!
- نحن في سوريا!
- أعرف! أبوك هناك أيضاً!
- ماذا؟ لماذا؟
- بسببكما!
- كيف دخل؟ لماذا أتى؟

- ليجدكما!
- أوه...
- ارجعا معه إلى المنزل يا أيان... أحضري أختك الصغرى وتعالي... سأعطيك رقم هاتفه... لو سمحت... أرجوك... افعلي كما أقول... اتصلي به وعودي معه!
- والله أنه مجنون.

أعطتها سارة رقمه ثم اتصلت بصديق.

- لقد اتصلت بي الفتاتان وستتصلان بك الآن!

قفز صديق الذي كان جالساً يدخن في باحة عثمان على قدميه وعانق مضيفه وصرخ:

- الفتاتان ستتصلان بي الآن!

لكنهما لم تتصلا.

لا في ذلك اليوم ولا الذي بعده ولا الذي بعده... كانت سارة من تتصل به مراراً وتكراراً.

وبما أن صديق لم يكن هناك ليوصل الأولاد إلى المدرسة كانت ستستقل الحافلة معهم كل صباح وتعيدهم في الظهيرة مما أرهقها وشغلها. وحين فرغت الثلاجة ونفدت الأطعمة الجافة توجهت مع صديقتها إلى مكتب الخدمات وشرحت لهم الوضع، فمنحوها دفعة لتغطية الضروريات العاجلة وراتباً إضافياً لشراء الطعام في نوفمبر بالإضافة إلى فوائد الكهرباء والأجرة.

كانت سارة قد حضرت بضعة دروس باللغة النروجية لكنها لم تتعلم الكثير، وعلى شهادتها مكتوب أنها غابت ما يقارب مائتي ساعة كما لم تبذل أي جهد بتعلم اللغة النروجية ولم تراجع أي خطة درسية ولم تفهم ما هو مكتوب في الرسائل الواردة من المدرسة ولا تستطيع قراءة الملاحظات التي يتم إرسالها من قبل روضة إسحاق أو من قبل مدارس الأطفال. وإن كان هناك شيء تهتم به في الأخبار فإنها تطلب من الأطفال أو من زوجها أن

يترجموا لها.

أما صديق فكان دؤوباً في تعلم اللغة النروجية وادعى أنه يعرف السبب في عدم محاولة سارة تعلم اللغة حيث قال:

- سارة تنحدر من عائلة متكبرة. حين تتعلم لغة ما عليك أن تستعد لارتكاب الأخطاء وسارة لا تتقبل ذلك... تكبرها يقف عقبة في طريق المعرفة.. إنه يمس كرامتها.

قبل ثلاث سنوات أمن لها مكتب المساعدات الاجتماعية وظيفة في متجر تخفيضات لتكسب خبرة في العمل وتدخل سوق العمل، وقد كان وصف الوظيفة «خدمة الزبائن وتسجيل النقد والتكديس والترتيب وإبقاء المبنى نظيفاً» لكنها ما إن عادت من يومها الأول من العمل تذمرت لصديق.

- إنهم يعاملونني كالعبيد... يوكلون إليّ أصعب المهام... لقد جعلوني أقف على سلم وأكدس الأغراض على الرفوف.

فرد صديق أنها لو تعلمت النروجية لكانت الآن تعمل كمحاسبة لكنها قالت:

- لكنني لا أحب المحاسبة... أنا لا أحب الأرقام.

وقد كانت تعود مرهقة بعد كل يوم عمل وتشتم العمل. وفي إحدى ليالي يونيو اندلعت النار في مخزن سلسلة المتاجر مما تسبب بإغلاق المتجر بشكل مؤقت، وقد مازحها صديق بقولها إنه من يقف وراء الحريق.

وبعد انتهاء فترة تدريبها لم يتم الاتصال بها مجدداً.

جلست سارة على الأريكة تنظر إلى التراس المليء بصناديق تحوي أشياء قد يحتاجونها يوماً ما مكدسة فوق بعضها وتغطيها أوراق الخريف وبقايا الطيور... لم يعد الألم ينتشر في جسدها وإنما تركز في صدرها ومعدتها وقلبها... الفقد... الأسف... الخداع... تاقت للشعور بدفء وجنتي ابنتيها... شمس الصومال... الحياة كما كانت.

رن جرس الباب... وقفت امرأتان في الخارج فدعتهما سارة للدخول.

حين غادرتا لم تكن لديها أية فكرة من هما وما اسميهما لكنهما تبدوان لطيفتين وقد تكونان معلمتين... لقد سألتاها إن كان هناك أي شيء يمكنهما فعله لمساعدتها فطلبت المال.

بعد بضعة أيام عادتا وناولتاها مغلفاً يحوي 9000 كرونر حيث تمكنت المعلمتان من ثانوية رود من الحصول على بعض المال المخصص للإجراءات الاجتماعية... كانت ليلى قد غادرت المدرسة لكن إسماعيل لا يزال تلميذاً هنا، وهما لا تريدان تركه في الطوفان.

كانت باحة عثمان مليئة بالرجال دائماً حيث توجد مقاعد وثيرة وطاولات قصيرة في ظل عرائش العنب كما توجد مرتبات على طول الجدار مع وسائد لإسناد الظهر عليها... كان المهربون وقادة الميليشيات يتبادلون الأقاويل ويدخنون ويشربون الشاي ويضعون الخطط.

يقع المنزل خلف بوابة زرقاء فوقها رماح حادة أما الطرف الأعلى الإسمنتي للجدار المرتفع المحيط بالساحة فمغطى بقطع الزجاج، وكانت الرياح الصحراوية القوية تحمل كل شيء معها بما في ذلك أكياس النايلون والحبال وجميع الأشياء الخفيفة لترتطم بالجدار.

كانت العاصفة هادئة والجهاديون مسيطرين على الوضع بينما يقصف الأسد حلب على بعد بضع ساعات والأكراد يبعدون بضع أميال غرباً وفي الشمال تقع تركيا.

كانت التحالفات المتغيرة تشكل ستارة ممتازة للأرباح حيث تتكدس الأموال... ذخيرة... بنادق... سيارات... أختان... لكل شيء ثمنه في نقطة اللقاء هذه بين معسكر ووكر عصابة.

باستثناء والدة عثمان لم ير صديق أية امرأة في المنزل لكنه سمع أصواتاً افترض أن أحدها لزوجة عثمان وآخر لأخته لكنه لم يكن يعرف أسماءهن إذ إن عثمان لا يذكر أسماءهن ولم يكن من اللائق أن يسأل.

في المساء حين يستلقي صديق في غرفة الضيوف يهيمن صوت عثمان الذي لم يكن زوجاً تسيطر عليه زوجته وإنما يصرخ وسريع الغضب وعديم الصبر، وكان لعثمان وزوجته ابنتان... رندة ابنة الأربعة أعوام لها نفس لون شعر والدها ونفس عينيه وبشرته الفاتحة وطاقته أي أنها تشبهه في كل شيء حيث كانت شجاعة ومرحة لكن ذلك أزعجه لأنه لم يعتبر هذا السلوك ملائماً لفتاة. ولم ير صديق عثمان يلاعب ابنته قط إذ إنها كلما اقتربت منه يبعدها عنه قائلاً:

- اذهبي إلى أمك!

وفي إحدى المرات تسلقت على كتفيه وهو جالس في الظل يتحدث فسحبها وأمرها أن لا تفعل ذلك مجدداً. وفي مرة أخرى وهي تركض حول الباحة مع ابن الجيران أوقعت كأس شاي فلطمها أبوها على وجهها بقوة وصرخ في زوجته:

- لا تدعيها تخرج مرة أخرى!

ثم تنهد:

- هذه الفتاة كثيرة الحركة... لا أدري ماذا أفعل بها... هذا سيوقعها في مشاكل إن بقيت على هذا الحال.

أما صديق الذي كان دائماً يسمح لابنتيه بالتسلق والسباحة ولعب الكرة فكان يبتهج كلما رأى رندة تفلح في التسلل خارجاً حيث كان يركل لها الكرة التي نسيها ابن عمها في الباحة مما يبهجها بينما يعبس عثمان لهما لكنه لا يقول شيئاً.

فكر صديق أن لدى العرب أفكاراً غريبة فيما يتعلق بالمرأة... كم ستحتاج روح رندة من الوقت حتى تنكسر؟

استمر البحث ببطء إذ كان عثمان يتولى أعمالاً جديدة بعضها رابحة حيث يقوم بتهريب مجموعة من الجهاديين عبر الحدود من تركيا ويمضي

وقته في التخطيط للعمليات ويهتم بأمور الرشاوي والوسطاء والسائقين. ينبغي أخذ المقاتلين من المطار في هاتاي وإيصالهم إلى منزله في واحدة من القرى بالقرب من الجانب التركي من الحدود قبل أن يتم نقلهم عبر الحدود وتسليمهم لقاعدة داعش، وبمساعدة عثمان يحصل الجهاديون على الإمداد.

لم يكن هناك أية دلالة على وجود الفتاتين إذ لم يرهما أحد أو يعتقد أنه قد رآهما.

وفي أحد الأيام بينما كان صديق وعثمان ينتظران الغداء رن هاتف صديق المحمول:

- مرحباً يا بابا.

كانت ليلى.

نهض صديق على قدميه وابتعد إلى زاوية... لا تخفها... لا تروعها... وبذل قصارى جهده ليتكلم بهدوء.

- ليلى... أين أنت يا عزيزتي؟

- توقف يا بابا عن البحث عنا... عد إلى النروج إلى ماما والآخرين.

- أريد رؤيتكما... أين أنتما.

لكن ابنته لم تجبه فأخبرها بمكانه.

- أنا في أطمه بجانب الحدود التركية...

انقطع الخط بينما بقي هو واقفاً ينتظر اتصالها من جديد.

تم وضع الدجاج المشوي مع البصل النيء والخبز على الطاولة. جلس دون أن ينطق بكلمة... عليه أن يتولى الأمر بمفرده.. كان الرجال الآخرون منشغلين بوجبتهم ثم دخنوا وشربوا الشاي.

التفت إلى عثمان وقال:

- اتصلت بي الفتاتان!

بينما كان والده ينتظر في شمس الظهيرة في أطمه تلقى إسماعيل رسالة

نصيـة مـن فاطمـة عبد الله فور عودته من المدرسـة إلـى البيت. كان ذلك بعد ثلاثة أسابيع على رحيل أختيه.

«لقد تكلمنا مع بابا وسنلتقيه عما قريب... كل شيء على ما يرام:

1. لم يتم اختطافنا أو احتجازنا دون رضانا.
2. لقد خططت أنا وليلى لكل شـيء من خط الرحلة إلى التمويل، وقد ألهمتني ليلى وشجعتني على الذهاب لذا توقفوا عن لوم الآخرين... لقد خططنا لهذا منذ سنة.
3. قمنـا بهـذا مـن أجـل الله لا مـن أجل حبيب أو أحد آخر لذا خافوا الله ولا تستمعوا لأكاذيب الكفار ووسائل الإعلام».

كانت اللهجة مألوفة ولم تتغير... أختاه اللتان تعرفان كل شيء.

فرد عليهما بسخرية:

- رائع... من الرائع السماع منكما.
- إننـا نرغـب بالبقـاء على تواصل لكن لسـوء الحظ لا يمكننا إخباركم بكل شيء إن كان سيصل إلى وسائل الإعلام.

لم يرد إسماعيل فأضافت الفتاتان:

- نحبكم كثيراً.

وراء البوابـة الزرقـاء فـي أطمـه ذرع الرجال المكان جيئـة وذهاباً بانتظار الهاتف ليرن مجدداً.

بدأ هاتف صديق يهتز.

- نحن في طريقنا إلى أطمه يا بابا.

قفز عثمان من على المرتبة.

- الطريق الملتوي! أخبرهم أن يتجهوا إلى الطريق الملتوي!

وبدأ يشير إلى الرجال ليتبعوه من أجل التفاوض لإطلاق سراح الفتاتين كما وعد.

استعد صديق للذهاب معهم لكن صديق رفض أن يأخذه قائلاً:

- ستخرب الأمر... أنت الأب ولديك الكثير من المشاعر.

- سأذهب وأتحقق من الأمر.

أصر صديق على الذهاب معهم لكن والد عثمان أبو عمر تدخل:

- ابني سيضمن إطلاق سراح ابنتيك.

غادر عثمان وندم صديق على الفور لأنه ترك يذهب بدونه... إنهما ابنتاه! وجلس ينتظر وهو يدخن سيجارة ثم اتصل بعثمان ثم أشعل أخرى ودخنها واتصل مجدداً وأشعل أخرى ثم فرك راحتي يديه ببعضهما ونقر بأصابع إحدى يديه على الأخرى ثم نهض على قدميه وبعدها جلس.

سمع صوت إطلاق رصاص فخرج إلى الباحة وأنصت محاولاً معرفة مصدر الصوت. لقد اعتاد صديق على أصوات تبادل إطلاق النار هنا بسبب العدد الكبير من الميليشيات التي تتنافس للسيطرة على طريق التهريب إذ إن من يسيطر على الطريق الملتف هو من يسيطر على أطمه... كانت الطلقات صادرة من وسط البلدة.

توقفت سيارة في الخارج وسمع صوت الإطارات ثم سمع صوت سيارة كبيرة مكشوفة وفتح الباب ودخل عثمان متعرقاً وأحمر اللون.

- تعال!

وما إن ركب صديق حتى قفز صديق خلف المقود وبدأ يروي ما حدث.

- أكثر من سيارة واحدة... رجل أسود... رجلان في الأمام والفتاتان في المقعد الخلفي... إنهما مع داعش!

لقد دخل سائق السيارة الأولى منطقة النصرة دون أن يتوقف عند نقطة التفتيش وهو خرق واضح للاتفاقية بين الميليشيات المحلية، وحين انعطفت السيارة إلى الطريق الملتوي قام الرجل الذي وراء المقود بدورة كاملة كاستعراض للقوة وليثبت أن معه الفتاتين قبل أن يمضي لكنه اضطر للتوقف بسبب النصرة هذه المرة إذ اتجه القائد وهو رجل كبير وخبير نحو السيارة.

حين اقترب عكس الرجل الأسود السيارة وداس على دواسة البنزين لكنه فقد السيطرة واصطدم ببعض البائعين على جانب الطريق الذين يبيعون الوقود المهرب بأوعية زجاجية.

رأى القائد فتاتين تضعان النقاب في المقعد الخلفي وخمن من هما، فقال للرجل الذي خلف المقود:

- والد الفتاتين في أطمه وهو تحت حمايتنا مما يعني أن الفتاتين أيضاً تحت حمايتنا.

فعكس السائق السيارة من جديد وانطلق من الطريق الملتوي بسرعة قصوى بينما أطلق جنود النصرة الرصاص خلفه... لقد كانوا يصوبون على الإطارات لكن العديد من الطلقات اخترقت هيكل السيارة التي وصلت إلى منطقة تسيطر عليها داعش على بعد بضعة شوارع.

لم نتبعهم إذ إن داعش هي من تسيطر هناك لكن هناك شيء آخر... سمعت... أحدهم قال... أن ابنتك الصغرى أصيبت!

شعر وكأن قلبه سيتوقف... ليلى مصابة!

إنها في المشفى هنا في أطمه.

- علينا الذهاب إلى هناك.

كانت مشفى عريان تحت سيطرة داعش وهناك رجال مسلحون يحيطون بها، وقد تم منع دخول صديق وعثمان. حاول صديق الدخول بالقوة لكن تم صده ورميه على الأرض، فمشى حول المبنى على أمل أن يجد طريقة أخرى للدخول.

توسل إليه عثمان أن يحترس.

- علينا أن نمشي بحذر في بلدتنا الصغيرة.

شعر صديق بالإرهاق وغفا أمام جدار المشفى... أراد تدخين سيجارة لكن ذلك غير ممكن أمام حراس داعش... مرت الساعات وبدأت الشمس بالمغيب. جلسا على الأرض وظهريهما إلى الحائط في حديقة المشفى الذابلة

إذ لا أحد يعتني بالأزهار في زمن الحرب.

تمتم عثمان:

- الوضع غير مستقر... لا شيء مستقر.

كان الحراس الشباب جائعين، فناول صديق حزمة من النقود لعثمان الذي قام بعد بعض الأوراق النقدية وأعطاها للحراس ليعود الفتية ومعهم شاورما ولحم الضأن الحار. تناول صديق واحدة وشعر بالفلفل الحار الطازج في فمه.

ثم جلسوا بانتظار حراس المشفى ليغيروا رأيهم أو ليلى لتخرج. وفي منتصف الليل سأل الشباب:

- أيمكننا أن نستلقي ونغفو قليلاً؟

وسرعان ما غطوا في النوم على الأرض وأسلحتهم تحت رؤوسهم وملامحهم مسترخية وتعابير وجوههم مرتاحة، ولم يبق سوى صديق يجلس متيقظاً ومتيبساً ومترقباً.

وفي تمام الساعة الواحدة صباحاً اتصلت زوجة عثمان وأمرت زوجها أن يعود إلى المنزل.

- أحضر صديق معك!

- أريد أن أبقى هنا حين يقرروا إدخالنا.

- تعال إلى المنزل... لا نريد صداماً مع داعش الآن... لقد قمنا بذلك مرة اليوم... انظر كيف انتهى الأمر.

- أنت أب... ابنتي الصغرى في الداخل... سأبقى هنا.

لكن ما لا يعرفانه هو أن ليلى لم تعد في الداخل.

لقد دخلت المشفى برصاصة في ساقها فوق كاحلها مما آذى العديد من الأعصاب والأوتار. قام طبيب شاب يدعى فراس بإزالة الرصاصة، وبينما هو يضمد الجرح دخلت مجموعة من الرجال الملثمين.

سأل فراس ليلى باللغة الإنكليزية عن حالها وإن كانت تشعر بالغثيان

والدوار بسبب المخدر فصرخ به رجل:

- لا تتكلم مع زوجتي!

كانت بنيته قوية لكنه ليس طويلاً ولديه أسنان ناصعة البياض. نهض فراس وضمد ليلى بصمت بينما وقف الرجال يراقبون.

وما إن انتهى فراس حتى قال الرجل الأسود:

- سآخذها الآن.

- ينبغي أن...

ثم نظر فراس إلى المجموعة الملثمة ثم إلى الأسنان البيضاء واستأنف:

- تحتاج إلى فحص من جديد... أعدها خلال أسبوع لأفحص الجرح.

حمل الرجل ليلى دون أن يقول كلمة وخرج بها ثم وضعها في المقعد الخلفي لسيارة لاند روفر وانطلق مسرعاً.

بينما جلس صديق غير مدرك لذلك طوال الليل بانتظار أن يحصل على إذن بالدخول، وفي النهاية غادر عثمان بدونه ثم جر صديق قدميه عائداً إلى بيت عثمان وحده خلال شوارع أطمه وهو يحمل سلاحاً على كتفه وذخيرة حول خصره.

في ذلك اليوم وجد ابنتيه ليفقدهما من جديد... لقد اتصلتا وجاءتا... لكنهما رحلتا.

هذا غير منطقي... لم يتصل بسارة.

في غرفة الضيوف الصغيرة في باحة عثمان لم يستطع الراحة... إنهما هنا... في مكان قريب... لكن أين؟

وخلال الوقت القصير المتبقي من الليل كان يتقلب وتراوده الكوابيس... أصوات إطلاق نار... الرصاص يمطره... جنود داعش يصوبون ويطلقون النار... الحرب تندلع من حوله... دافع عن نفسه وبادلهم إطلاق النار... شعر برصاصة تخترق كتفه اليسرى في مكان الإصابة من معمل كوكا كولا... استيقظ مبللاً بالعرق... حاول العودة للنوم لكن أفكاره لم تفارقه... هل إصابة

ليلى خطرة؟

قبل ساعة من شروق الشمس نادى المؤذن لصلاة الفجر... الله أكبر... نهض من السرير... أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله... ثم غط في نوم عميق.

- لن نخرجهما بالقوة... لا يمكننا شن حرب من أجل ابنتيك.

كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت وهم يقفون خارج المستشفى وممنوعون من الدخول. اقترح عثمان:

- لنذهب إلى المحكمة الإسلامية ونطلب حكماً بأن لك السلطة عليهما... علينا التقدم خطوة قبل أن يبعدوهما.

لقد سافرت الفتاتان إلى سوريا دون إذن والدهما الذي كان وليهما، وبالتالي ووفقاً للشريعة ستكون هذه قضية واضحة في رأي عثمان... بالالتزام بحكم القرآن والسنة يحصل صديق على سلطة على ابنتيه. إن حكمت المحكمة الإسلامية لمصلحته فسيلتزم الإسلاميون بالحكم إذ ما من أحد فوق الشريعة.

عند الوصول إلى المحكمة الإسلامية المحلية تم إبلاغهم أنه سيتم البت في القضية من قبل المحكمة في الدانة التي تبعد ساعة بالسيارة.

هناك استقبلهم رجل يرتدي عباءة تقليدية وسروالاً طوله حتى الكاحل فأخبره صديق بسبب مجيئه فطلب منه أن ينتظر القاضي. مر الوقت... ربما تريد المحكمة مالاً؟ فدية؟

تم تقديم الشاي قبل أن يقابلوا أبا كاظم التونسي حيث أخبر صديق مشكلته للقاضي التونسي مشيراً إلى ما يذكره من أحاديث عن النبي حول الأبناء وآبائهم وقال بهدوء قدر ما يمكنه:

- لقد غادرتا دون إذني، وبالتالي لي الحق في استرجاعهما... وفقاً للقرآن للأب سلطة على بناته.

فنظر التونسي إليه باستغراب من تحت عمامته وقال:

- نعم لكن السلطة للزوج الآن.
- لكن أياً من ابنتي ليستا متزوجتين.
- بلى...

حدق صديق بالقاضي مذهولاً.

- لقد تم عقد زواج ابنتك الكبرى في هذه الغرفة وتم تثبيت الزواج بعقد شرعي.

فكر صديق أنه لا بد أن هناك من أجبرها على ذلك! اعترض صديق:

- ينبغي إلغاء الزواج! لقد قال النبي أنه لا يمكن أن يتم النكاح دون ولي.

هذا مثل الهروب مع حبيب... منذ متى هذا مسموح؟

فكر القاضي في الأمر ثم أومأ:

- ما من سلطة أعلى من كلام الله المكتوب في القرآن.

لقد انتصر المنطق... متى يمكنه الحصول على ابنتيه؟

أكمل القاضي بصوت هادئ:

- هذا جهاد... من واجب كل مسلم أن يشارك فيه... إنه فرض عين مما يعني أنها ليست بحاجة إلى إذنك... لقد منحها الله الإذن.

هز صديق رأسه بقوة... هل هذا إسلام حقيقي؟

دخل رجل يرتدي عباءة وسروالاً بطول الكاحل وجلس مقابل صديق كما وقفت مجموعة من الرجال معصوبي الرأس يحملون راية الإسلام.

لقد اتخذت داعش ختم محمد شعاراً لها... دائرة بيضاء عليها رموز عربية باللون الأسود: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الرجل:

- نحن في حرب ونحتاج إلى كل مساعدة نستطيع الحصول عليها. ما رأيك أن تصبح واحداً منا؟ يمكنك العيش هنا مع ابنتيك كما يمكن لباقي عائلتك المجيء والانضمام إليكم. يمكننا تأمين حياة جيدة

لكم... منزل... كل ما تحتاجونه.

- هذا جيد لكن ليس الآن...

- كل ما عليك فعله هو مبايعة أبي بكر البغدادي وستصبح واحداً منا... هذا كل ما عليك فعله... قسم بالبيعة. ومع الوقت سنبني دولة قائمة على القانون الإسلامي... على القرآن وأوامر الله.

نفد صبر صديق.

- ليس لدي وقت لهذا... أنا لم آتِ إلى هنا كمجاهد وإنما كأب... لقد أتيت بدافع الحب الأبوي... غايتي إعادة ابنتي إلى أمهما... كل ما أريده الآن هو أن أراهما.

- جيد... كما تريد.

بقي صديق جالساً ينتظر، وبعد قليل جاء بعض الجنود لأخذه ومرافقته إلى خارج المبنى حيث عبروا باحة ثم دخلوا خيمة كبيرة فيها مراتب وأغراض وأكياس أرز.

دخلت أيان منتصبة القامة وتضع نقاباً يغطي كل شيء باستثناء عينيها.

حين اقترب منها صديق قال له أحد الحراس:

- لديك خمس دقائق.

عانق ابنته وتلمس رأسها المغطى وتحسس شعرها الجعد تحت الخمار... حين كانت طفلة كان يضع يده على جبهتها ويمرر أصابعه على شعرها ويداعبها حتى تهدأ وتخبره بما يزعجها أما الآن فابتعدت عنه.

أربع دقائق.

ليس هذا الوقت المناسب ليطلب منها الذهاب معه وإنما عليه مواساتها.

- سيكون كل شيء على ما يرام... اهدئي... ستعودين معي الآن... لا يمكنهم إبقاؤك هنا... لا تخافي... أنا هنا لأعيدكما أنتما الاثنتين.

- لكن يا بابا هذا وطننا الآن.

- أنت مشوشة يا أيان و...

- اسمعني... نريد أن نعيش هنا.

ثلاث دقائق.

- لقد تم خداعكما يا أيان... لقد تم إطلاق النار على ليلى... أنت.

اهتز الهاتف المحمول في جيبه... إنها سارة.

- هل سمعت خبراً عن الفتاتين؟

- أيان هنا!

ناول الهاتف لابنته:

- تكلمي مع أمك!

دقيقتان.

سمع صوت سارة تصرخ على الهاتف:

- أيان! عودي! ارجعي مع أبيك!

وقفت أيان هناك صامتة بينما أكملت أمها:

- اذهبي مع أبيك!

أخذت أيان نفساً عميقاً:

- لا يمكنني يا ماما...

- بلى يمكنك!

دقيقة.

- لا يمكنني يا ماما... هذا غير ممكن... لقد تزوجت!

شهقت سارة.

بدأ الحراس يتحركون نحوهما.

ناولت أيان الهاتف لأبيها فنظر صديق إليها وقال:

- لا يمكنك الزواج دون... اسمعيني! أتعلمين ما عقوبة هذا؟

وقفت ابنته تحدق فيه ثم قالت بصوت هادئ:

- لقد اتخذنا قرارنا يا بابا... أرجوك احترم هذا... نحن نحظى بدعم الشيوخ هنا.

أراد أن يضمها لكنها استدارت لتغادر.

انتهى الوقت.

رافقها الحراس إلى الخارج لتختفي كموجة سوداء.

لقد خدعتهم وخانتهم ومنحت نفسها لرجل لا يعرفه... من تزوجت؟ لم تسنح له الفرصة ليسأل.

أمضى دقيقة يفكر في الأمر... أيان سجينة وليلى مصابة... عليهم العودة إلى المشفى لأخذها ثم العودة إلى هنا في الغد لتسوية الأمور.

استعاد صديق سلاحه وذخيرته وغادر مع عثمان الذي كان ينتظر في الخارج... شعر السوري بالراحة حين رآه من جديد إذ إن الجميع يخاف المحكمة.

في فجر اليوم التالي اقترح عثمان إحضار صديقه حمزة معه وهو قائد في النصرة ليقوم بالتفاوض. كان حمزة يحمل لقب «الأسد» ولدى الرجل الشاب لحية طويلة ويمشي كمفترس شاب مفعم بالطاقة والمرونة. كان هو من يلطف الجو في باحة عثمان أما الآن فهو يجلس صامتاً في السيارة. وقد ذهبوا إلى المشفى في وقت أبكر في الصباح ولم يتمكنوا من الدخول.

قال حمزة لصديق:

- علينا أن لا نجعل ذلك موضوع هيبة ونتجنب تحديهم.

إن تعامل معهم صديق بتواضع فسيتمكن من الوصول إلى ابنتيه إذ إن داعش يحبون أن يشعروا بالسيطرة ويقاومون عند أدنى دلالة على المعارضة. وعلى الرغم من أن عثمان مهرب مشهور في أطمه ويحترمه رجال النصرة لكنه لا يعني شيئاً لداعش... لقد أتى هؤلاء الرجال من كافة أنحاء العالم واقتسموا بلده وبلد حمزة والآن يتصرفون وكأنه ملك لهم.

حين وصلوا إلى المحكمة تم ترك رفاقه السوريين في الخارج ولم يسمحوا سوى لصديق بالدخول كما ترك سلاحه مع حمزة وعثمان.

تمتم عثمان:

- لا أحب ذلك.

ووعده حمزة:

- أنت تحت حمايتنا يا صديق... سيكون كل شيء على ما يرام.

التفت عثمان في مقعده:

- فقط ادخل وحل الموضوع!

أصر حمزة:

- لا يمكن أن يحصل شيء طالما أننا هنا.

في الداخل قدموا لصديق كرسياً وكوب شاي.

ومرة أخرى طلبوا منه الالتحاق بالدولة الإسلامية في العراق والشام... هل لديهم نقص كبير بالمجاهدين؟

وكما في اليوم السابق حاول صديق تجاوز الطلب مجيباً أن ذلك ممكن ولا يستبعد الأمر لكنه يريد رؤية ابنتيه أولاً.

مضى الوقت حتى أشار إليه رجل في النهاية لينهض ثم قاده الرجل الذي يتكلم باللهجة التونسية ويرافقه عدة رجال إلى الخارج وتوقفوا في الباحة.

اقترب منهم رجل ملثم:

- صهرك يريد لقاءك.

- مَن؟

- صهرك؟

- أين؟

أشار الرجل إلى سيارة كبيرة فضية اللون على بعد عشرين ياردة مركونة بجانب الجدار المحيط بالباحة.

- صهرك في السيارة... إنه من النروج ويريد الحديث معك.

نظر صديق باتجاه السيارة وفكر في الأمر للحظة ثم قال:

- إن كان يريد لقائي فعليه المجيء إلى هنا.

مشى الحارس نحو السيارة وتبادل من خلال النافذة بضع كلمات مع

راكبها الذي أصر على أن يذهب صديق إليه.

شعر صديق بالسخط... ما هكذا يفترض أن تتزوج المرأة... ينبغي للخاطب أن يطلب يدها لا أن يأخذها فحسب. لقد أتى هذا الصهر دون التعريف عن نفسه حتى لدرجة أن صديق لا يعرف اسمه أو أي شيء عن عائلته والآن هذا الشاب يريده هو الأب والولي والوصي ورب الأسرة أن يذهب إليه! أجبر نفسه على الالتزام بالهدوء إذ إنه في أرض غريبة وعليه الالتزام بنصائح حمزة... تصرف بتواضع واذهب إليه وقل:

- هل تحب ابنتي؟ هل تحبك؟ دعني أجلس معها وأتفاهم معها... إن كنت فعلاً الشخص الذي تريده فسأكون أباً لكليكما.

يمكنه قول ذلك... هل يجب ذلك؟ لا... هذا مرفوض! لو أراد هذا الرجل أيان لكان عليه أن يطلبها! أو يطلب من أبيه القيام بذلك نيابة عنه. هناك بروتوكول ينبغي اتباعه... حتى في مناطق الحرب... لم يمض على مجيء أيان إلى سوريا سوى بضعة أسابيع... والآن فجأة هي متزوجة!

انتصر الكبرياء الصومالي... لن يتبع نصيحة حمزة ويظهر الخنوع... انتصب وقال:

- ليس لديّ صهر.
- كما ترغب.

وعاد الرجل إلى السيارة وتبادل بضع كلمات مع السائق بينما ظل صديق واقفاً في الباحة وهناك رجلان ملثمان يراقبانه.

حل الظلام وقال صوت:

- تعال... يمكنك لقاء ابنتيك... اتبعني.

دخلوا مبنى ومشوا في ممر وخرجوا في باحة أخرى.

- تحرك! تحرك!

ثم تبعهم الرجال الملثمون وشعر صديق بفوهة بندقية في ظهره وتلقى ضربة على رأسه ثم ضربة أخرى وتبعتها أخرى... شعر برأسه يدور وسقط

على الأرض حيث ركلوه وبصقوا عليه وشتموه:

- جاسوس!

- خائن!

ثم رفعوه وغطوا عينيه وربطوا يديه وساقيه ورموه في سيارة حيث ظل ملقى هناك في الخلف بين أقدام الرجال. أحياناً يدوسونه بأحذيتهم أو يركلون رأسه. انطلقت السيارة مسرعة وهو يشعر بالغثيان وعلى وشك الإغماء. امتد ألم حارق في مؤخرة عنقه مما دفعه ليحاول الالتفات لكنه تلقى ضربة على فكه:

- نعرف من أي نوع أنت... لقد قتلنا الكثيرين من أمثالك.

مشت السيارة لوقت طويلة ثم توقفت، ففكر أن هذا المكان الذي سيقتلونه فيه... سحبوه وحلوا الحبال التي حول كاحليه لكنهم تركوه معصوب العينين وأمروه بالمشي وهم يقودونه إلى منزل ثم نزل سلماً وفتح باب ثم رموه إلى الأمام ليشعر برائحة نتنة وكريهة، ثم أغلق الباب بقوة فسحب العصابة عن عينيه لكن كل ما حوله مظلم كما لو أن العصابة ما تزال على عينيه. تمكن من النهوض عن الأرض وتحسس طريقه على الجدار... حجارة خشنة وطلاء مقشور وبعض الأنابيب وإطار نافذة مغلقة... كانت الجدران رطبة والرائحة النتنة منبعثة من الأسفل... مد ساقيه وشعر بفتحة وسط الأرض... لقد كان في مرحاض.

أسند ظهره إلى جدار وهو يشعر بألم شديد في جسده وحرقة في رأسه ثم انهار على جانبه بينما ابتل سرواله بمياه المجاري.

ومن شدة الإرهاق نام أو أغمي عليه.

حين استيقظ تمكن من النهوض على قدميه، وبعد بضع خطوات وصل إلى جدار... حاول توجيه نفسه لكن جسده آلمه من كل أجزائه.

كان بحاجة إلى استراتيجية لكي ينجو... أولاً تنفس من أنفك لا من فمك... ثانياً وفر قوتك.

خمن أن الوقت صباحاً وسمع أصوات أناس يتكلمون في الخارج وأصوات أبواب تفتح وتغلق لكن بابه ظل مغلقاً... شعر بتورم ما في فمه... لسانه متورم وشفتاه متشققتان. شعر بالعطش لكنه لم يجرؤ على النقر على الباب لطلب الماء... علت الأصوات في الخارج... هل يخططون لتركه هناك؟ ربما هناك تغيير في الحراس والحراس الجدد لا يعرفون بوجوده... ماء! ماء! وتلاشى كل شيء من جديد.

استيقظ على أصوات صراخ وإغلاق أبواب... حاول إيجاد صوته لكنه لم يستطع. حاول النهوض لكن قواه خائرة فاستلقى على جانبه.

لم يكن الاستلقاء خياراً فالزنزانة ليست طويلة بما فيه الكفاية.

فتح الباب وتسلل النور من الممر ثم دخل ثلاثة رجال وركلوه حتى نهض على قدميه ثم سمع صوت مسدس يدوي ووقف رجل يصوبه إليه.

قال الرجل بلغة عربية صافية:

- الحمد لله أنه يقربنا إليه بسفك دم خائن! الله أكبر!

وانضم إليه الاثنان ليتردد صوتهما بشكل مخيف بينما بقي ذهنه مشوشاً.

غادروا بينما انهار هو على الأرض واضعاً يده على وجهه ثم لاحظ أنه مبلل وأنه يتذوق طعم دمه.

وقع شيء عليه... مبلل... ثقيل... دافئ... شخص.

للحظة ظل مستلقياً وهناك رجل فوقه ثم ابتعد جانباً ونهض. دخل رجلان... هل هما من ضرباه أم غيرهما؟ أمسكا بالرجل ورفعاه وضرباه بمؤخرة بندقيتيهما. حاول صديق الابتعاد لكنه لم يستطع الإفلات من ضربات على رأسه وكتفيه وعنقه. صرخ الرجل الآخر:

- يا أمي!

ورفع يديه ليدافع عن نفسه ثم سقط واستجمع قواه ونهض ليسقط على الأرض بلا حراك... آخر الضربات لم تثر أية ردة فعل.

دخل رجل ورفع ذراع الرجل ثم أفلتها لتقع يد الرجل بلا حياة على الأرض ثم قال الذي عذبه:

- لقد رحلت فريستنا.

وأمسك كل منهما بقدم وسحبا الرجل ككيس ليصطدم رأسه بالأرض وهما يجرانه على العتبة ويسحبان خلفهما شريطاً من الدم على طول الممر.

صرخ الرجل الملتحي بعربية مكسرة:

- أقفلوا الباب على ذلك التافه!

فأغلق الحارس الباب وأقفله ليبقى صديق وحيداً.

استلقى مشوشاً وضعيفاً... كم مضى على وجوده هنا دون طعام أو ماء؟ يوم أو اثنان أو ثلاثة؟ أغمي عليه من العطش ثم استيقظ مجدداً... شعر وكأنه يغرق في رمال متحركة... غرق أكثر وأكثر وامتلأ فمه ثم أنفه فحنجرته... فقد كل الهواء... اختنق... غرق في الأعماق.

تيقظ جسده الضعيف حين فتح الباب وتسلل النور ثم رأى خيال رجل في الممر... طويل وقوي البنية... جثم صديق في الزاوية مستعداً للضربات... لقد جاؤوا ليأخذوه... حان دوره... حان وقته.

ناوله الرجل كوباً من حساء العدس شربه ببطء ووجده من ألذ ما تذوق في حياته... وحين فرغ الكوب لعقه من جوانبه ثم مسحه من داخله بإصبعه حتى آخر قطرة ولعق أصابعه حتى لم يتبق أي طعم للحساء.

عاد الحارس مع ماء وكسرة خبز... لماذا يعطونه الطعام فجأة... ماذا يعني ذلك؟ هل هي إشارة جيدة؟ إشارة سيئة؟ وجبة أخيرة؟

حين عاد الحارس لأخذ الكوب سأله صديق عما حصل للرجل الذي أخذوه.

فرد الحارس بلهجة محلية وهو يصفق الباب خلفه:

- من الأفضل أن لا تعرف.

في ذلك المساء أو تلك الليلة أو أي كان عاد الرجال الثلاثة وقام الحارس بتركيب مصباح نور في السقف مما مكن صديق من التعرف على ملامحهم على نحو أفضل.

تعرف على أحدهم... قائد عملية الضرب في الليلة الماضية قصير ومكتنز الجسم وله لحية سوداء تغطي وجنتيه الممتلئتين أما وجهه فعريض وشعره أشعث. أما الرجل الآخر فطويل ربما يقارب الستة أقدام وبشرته فاتحة وشعره داكن وناعم، ومن لهجته خمن صديق أنه ليبي. أما الرجل الأخير فنحيل وبشرته سوداء ذهبية وقد يكون من القرن الإفريقي وربما أريتيريا.

جلس الرجل ذو الوجه العريض والبنية القوية القرفصاء أمام صديق دون أن يقول شيئاً وإنما اكتفى بالتحديق فيه وعيناه مثبتتان على عيني صديق بينما وقف الآخران خلفه وهما يحملان مسدسات يدوية ولم ينطق أحد منهم بكلمة.

حدقوا إليه بصمت.

فكر صديق... إنهم يحاولون كسري... ظل ذلك الرجل جالساً القرفصاء أمامه... قرر صديق أن يبادله النظرات ويجابهه... لست سهلاً لتكسرني... حاول فحسب.

غير وضعيته لكن نظيره لم يتحرك... كان الرجل أصغر مما كان يظن... ربما في بداية العشرينات... استمر صديق بالتحديق في عينيه... أنا ذئب أكبر منك وسأهزمك لو كانت المعركة متكافئة.

شعر بقلبه ينبض بقوة وحاول أن يتنفس بهدوء... استخدم التقنية التي تعلمها كقناص ليهدئ من نبضه لكن قلبه لم يستسلم.

نهض الرجل الملتحي على قدميه فجأة دون أن ينطق بكلمة وركل صديق ثم مشى خارجاً في حين تبعه الآخران.

في الصباح التالي سأله الحارس:

- لِمَ أنت هنا؟

أجاب صديق:

- لا أدري.

- عليك أن تعرف لأن هذا طابور إعدام.

شعر صديق برعشة تسري في جسده.

- ماذا فعلت؟

- أنا بريء... دعني أشرح الأمر... دعني أرى قاضياً!

- هذا مستحيل... لقد قال القاضي كلمته.

- أنا هنا لأبحث عن ابنتي... لأعيدهما إلى البيت...

- أنت خائن!

- أنا أب!

بصق الحارس في وجهه:

- كذاب! أنت جاسوس لصالح الاستخبارات الغربية!

مسح صديق البصاق عن وجهه ونظر إلى الحارس:

- لقد تركتني ابنتاي والآن أنا أبحث...

- أنت تكذب... كذاب! كذاب!

وغادر الحارس لينتشر شعور قاتم.

بعد فترة عاد الحارس ممسكاً بنسخة من القرآن وقال وهو يحدق في عيني صديق:

- أيمكنك أن تقسم على القرآن؟

- لا... لا يمكنني. أنا مغطى بالقذارة... لا يمكنني مس كتاب الله وأنا على هذه الحال.

خرج الحارس ممسكاً بالمصحف وحين عاد قاد صديق إلى الباحة وفتح صنبور مياه وسلطه عليه لتتدفق الحياة في أوصاله بينما غسل الماء الدم والقذارة والعرق عن جسده... وكأن الماء البارد أعاده إلى الحياة...

اشرب! اشرب! ترددت اللازمة في رأسه.

ما إن عاد إلى الزنزانة حتى عاد الحارس حاملاً القرآن فوضع صديق يده عليه وردد الكلمات التي قالها الحارس بصوت مرتفع:

- أقسم على القرآن...

أنه ليس جاسوساً أو خائناً أو كافراً...

ثم قال صديق:

- لدي مهمة واحدة في سوريا... أن أجد ابنتي.

تفحصه حارس داعش لبعض الوقت:

- أنا أصدقك... نادني أبو أحمد.

فرد صديق:

- اسمي أبو إسماعيل.

خرج أبو أحمد وعاد حاملاً بطانية جافة.

- لا يمكنني مساعدتك لكنني سأحاول... لا أريد أن ألقى الله وقد ارتكبت ذنباً عظيماً... لكنهم إن أتوا من أجلك فليس هناك ما أستطيع فعله.

ماذا سيحصل حينها إن أتوا؟ من هم؟

في تلك الليلة استيقظ صديق مجدداً حين رموا شخصاً في الزنزانة... رجل ثقيل وضخم ارتمى فوقه... كان جسده مبللاً لا بالماء أو العرق وإنما كان مغطى بالدماء. حاول الرجل النهوض وداس على صديق الذي دفعه لكن لم يكن هناك متسع لكليهما. صرخ الرجل:

- وش الجحيم هذا؟

- اهدأ!

- مَن أنت؟

ضحك صديق بجفاف وقال:

- ما من طائل من سؤالي من أنا.

وقفا وأسند كل واحد ظهره على جدار وواجها بعضهما.

سأل الرجل مجدداً:

- أي نوع من الجحيم هذا؟

قال صديق باللغة العربية:

- زنزانة القتل بالقصاص.

أمسك الرجل بصديق وضغطه على السطح البارد الرطب:

- ماذا قلت؟

لف صديق يده حول عنق الرجل الآخر وضغط عليها وشعر بالقوة في جسد الرجل الشاب والدم اللزج على بشرته.

قال صديق:

- انظر إلى عيني.

ضحك الرجل بمرارة:

- أي عينين؟

- فوق المكان الذي ينبعث منه صوتي.

أفلت الرجل قبضته.

- لا يمكنهم قتلي... أنا من هنا... أنا سوري... أما أنت من سقطت من السماء فيمكنهم قتلك.

- استجمع قواك واسمعني... كونك من سوريا أو كوني سقطت من السماء لا يشكل أي فرق... نحن في زنزانة الموت... هذا هو الوضع.

- لا! يستحيل ذلك!

ركل الباب بقدمه وضربه بقبضة يده ففتح الباب وقال أبو أحمد:

- أنتم مجانين؟ خلاص! توقفا! اخرسا! اخفضا صوتيكما وابتعدا عن الباب.

فركل الشاب ركلة أخرى لكن على الجدار الرطب.

سأله صديق:

- من أين أنت؟

- من هنا... قرية في سفح التلة... إلى الغرب من هنا.

- اسمي أبو إسماعيل وأنا من الصومال.

- سليمان.

- ماذا فعلت؟

أخذ الشاب نفساً عميقاً:

- والداي يملكان بستان زيتون...

صمت لبعض الوقت ثم بدأ يروي قصة بستان الزيتون الذي اعتنت به عائلته لأجيال... كان قديماً إذ يمكن لأشجار الزيتون أن تعيش ألف عام... كان عمر أشجارهم مئات السنين وإن مات الجذع والأغصان تنمو فروع جديدة مشكلة جذعاً جديداً تنبت منه أغصان جديدة. كانت أولى أشجار الزيتون المزروعة هنا في شمال سورية في دولة إيبلا خارج مدينة حلب الحديثة... هناك ألواح يبلغ عمرها ألف عام تظهر حدود المزارع وكمية جرار الزيت المخصصة للملك وكمية الجرار المخصصة للشعب.

قبل وقت تم تقسيم بستان الزيتون الذي تملكه عائلته بطريق، وبعد القتال الذي جرى في الصيف وقعت الأرض التي على أحد جانبي الطريق تحت سيطرة داعش أما الأرض على الجانب الآخر فاستولى عليها الأكراد. حذرته داعش من الذهاب إلى هناك وهددته بإطلاق النار عليه لأنها أراضٍ معادية.

مر الصيف ولم يعتن سليمان سوى بالأشجار على جانب الإسلاميين من الطريق أما على الجانب الكردي فأثمر الزيتون أيضاً بفضل الشمس وبعض المطر.

كان الحصاد في شهر نوفمبر، وقد قام الأسبوع الماضي بجني ثمار الزيتون على أرض داعش، وحين انتهى نظر إلى الجانب الآخر ووجد الأشجار مثقلة بثمارها.

ليس من السهل على مزارع أن يرى محصوله يضيع.

عند شروق شمس هذا الصباح عبر الطريق... كان المحصول ملكه والعام عام خير. وضع شبكة على الأرض وهز الأغصان ثم تسلق سلماً وهو يحمل سلة حول خصره ليقطف ثمار الزيتون التي لم تسقط. وفي طريق عودته إلى المنزل رأته دورية لداعش ليست من السكان المحليين الذين يعرفونه وإنما من الأجانب، فاعتقلوه واتهموه بالتجسس لصالح الأكراد مما أغضبه واعترض وهو يشير إلى الزيتون لكنهم ضربوه بوحشية وجاؤوا به إلى هنا.

انفجر الشاب باكياً.

- لقد أخذوا أختي و... لقد أتت معي لتساعدني بالقطاف اليوم لنقوم بذلك بسرعة أكبر لأنها أسرع منا كلنا... أختي الصغيرة... ليست لدي أدنى فكرة أين هي... أين أخذوها... ماذا يفعلون بها!

ثم صرخ:

- أولاد الحرام!

نهض على قدميه وركل الباب فحاول صديق منعه لكن سليمان كان كثور هائج.

جاءت مجموعة من الحراس.

تسلل الضوء إلى الزنزانة... كان صديق قد تصور شاباً عادياً من شمال سوريا مثل عثمان... أبيض البشرة بني الشعر لكنه كان أسود البشرة كصديق وشعره ولحيته أسودا اللون وناعمين ولامعين. وقف مدمياً لكن بلا رهبة... مستعد لمواجهة عشرة رجال.

أمر الرجال صديق:

- تنح جانباً.

وأمسكوا بالفلاح الشاب وجروه للخارج وانطلقوا عبر الممر.

غضب صديق من نفسه... ما كان ينبغي عليه قول شيء عن زنزانة الموت أو جعل الشاب يتكلم على الإطلاق... لماذا فعل هذا؟

كان من المريح الإنصات له وهو يقتبس آيات من القرآن عن أشجار الزيتون:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35].

بعد قليل فتح الباب مجدداً ورموا الفلاح الشاب على الأرض فمرر صديق يده عليه وتحسس نبضه... هل هو على قيد الحياة؟ نعم... استمر في التحقق من نبضه في أوقات منتظمة... هل هو على قيد الحياة؟ نعم. حاول صديق تجنب ملامسة الأصابع المغطاة بماء المجاري للجروح... ينبغي أن لا يتسبب بالمزيد من الأذى.

مر الليل ثم فتح الباب على مصراعيه ودخل الثلاثي الرهيب.

جروا سليمان إلى الخارج.

نور الله يوقد من شجرة مباركة... زيتونة.

طلع الصباح وأتى أبو أحمد حاملاً الشاي.

نظر إليه صديق وسأله:

- أين سليمان؟

لم يرد أبو أحمد.

أصر صديق:

- ماذا حصل له؟

- من الأفضل أن لا تعرف.

مرت بضع ساعات قبل أن يستجمع صديق نفسه من جديد. استلقى على الأرض القذرة يبكي. لم يبك من قبل على أحد كما بكى على سليمان... شخص لم يعرفه سوى لفترة وجيزة... شخص كان ينبغي أن يكون على قيد

الحياة... شخص يتمتع بحيوية وقوة نادراً ما ترى مثيلها... مزارع كان ينبغي أن ينجب الكثير من الأولاد والبنات. ظهر صوت في رأس صديق وصرخ بما كان سليمان يقوله عندما رموه في الزنزانة النتنة:

- أي نوع من الجحيم هذا؟

بعد بضع ساعات كان راكعاً في الباحة الخلفية معصوب العينين وموثق اليدين خلف ظهره... ورجلان يثبتانه.

شعر بنصل سكين على عنقه حيث قطعت الحافة الحادة بشرته قليلاً مما جعله يشعر بألم حاد وسيلان الدم... حضر نفسه ذهنياً وتخيل الإحساس بحافة السكين وهي تقطع لحمه وعروقه وأعصابه ثم الشريان.

سارة المسكينة... أمه العجوز المسكينة... كانا أكثر من يفكر فيهم... الأطفال سيتدبرون أمرهم.

قال صوت من فوقه:

- نعلم أنك جاسوس... لحساب من تعمل؟ من الذي يعطيك المعلومات؟

- أنا لست جاسوساً... أنا أب. إن كنتم ستقتلونني فاقتلوني لأنني أب رفض التخلي عن ابنتيه لكن لا تقتلوني لأنكم تشكون في كوني جاسوساً.

فكر صديق أنه إن اعترف بالجاسوسية فسيقتلونه وقال... مهما ضربوني يجب أن لا أقول نعم.

أبعدوا السكين عن عنقه وبدأوا بضربه وهو معصوب العينين... أسوأ نوع من الضرب هو عندما لا ترى ما الذي يحصل... ليست لديك فرصة لتشد عضلاتك قبل أن تصيبك الضربة... أنت غير مستعد.

رموه في الزنزانة من جديد وبعد قليل دخل أبو أحمد وأحضر له الماء فشربه صديق ثم أصيب بالإسهال... لا يمكن أن أمرض الآن... وضعي حرج... عما قريب سيقطعون رأسي.

وفي اليوم التالي شفي من الإسهال حيث استعاد جسمه توازنه.

وفي المساء تم رمي سجين جديد في الزنزانة عرف من صوته وسعاله أنه رجل كبير في السن. لم يسأله صديق عن أي شيء فهو لا يريد أن يعرف إذ يكفيه حزنه على سليمان.

ومع ذلك بدأ الرجل بعد قليل بالحديث في الظلام. كان سائق شاحنة يجول في كافة أنحاء سوريا يقطع خطوط الجبهة جيئة وذهاباً عدة مرات في الأسبوع. وفي رحلته الأخيرة كان ينقل حمولة من الزيتون المقطوف حديثاً ليتم حفظه أو عصره إلى زيت. وقد انتقل من منطقة تابعة للنصرة إلى منطقة تسيطر عليها داعش وتم إيقافه على حاجز وقاموا بتفتيش سيارته ليجدوا عدة صناديق من السجائر ضمن الشحنة.

- ليست لدي أدنى فكرة عن وجودها على الإطلاق.

وعلى الرغم من أن السجائر ليست محرمة في القرآن لكن داعش تعتبرها حراماً لأنها شكل من الانتحار البطيء ولا ينتج عنها سوى المتعة. وقد كانت داعش صارمة مع الأشخاص المدخنين حتى ولو في منازلهم وتعاقبهم بالجلد. أما البيع والتهريب فعقوبتهما أسوأ.

في الصباح التالي ذهب الرجل العجوز لكن صديق لم يسأل أبا أحمد عما حصل له.

عاد الثلاثي.

قال الرجل الملتحي:

- نعرف أنك شبيح.

- هذه أول مرة يا بني أسمع فيها بهذه الكلمة... ماذا تعني؟

كان في الواقع قد تعلم هذه الكلمة في بيت عثمان حيث كانت تستخدم للإشارة إلى رجال استخبارات الأسد حيث يظهرون من الخفاء ويقبضون على الناس ويعذبوهم ويقتلوهم ثم يختفون من جديد. إن أمسك الشبيحة

بك فمن غير المعتاد أن ترى ضوء النهار من جديد.

قال الرجل الملتحي:

- مَن الذي يدفع لك؟ ماذا أخبرتهم؟

- أنا مجرد أب... أقسم لكم... لو كنت جاسوساً كنت سأخبركم... أنا هنا كأب... أريد أن أعيد ابنتاي إلى البيت...

- نحن نحب ابنتيك فهما مسلمتان صالحتان.

جفل صديق... هل يعرف هذا الشاب ابنتيه؟

- ولأننا نحبهما سنجعل ليلتك الأخيرة أحلى قليلاً لأننا سنقتلك غداً.

ورموا له كيساً من الحلوى.

حدق صديق به.

أضاف الرجل الملتحي:

- الحلوى من صهرك... لقد طلب مني أن أعطيها للرجل العجوز ووعدته بإيصال سلامه.

ورمى عبوة ماء على الأرضية القذرة وغادر.

لم يشرب الماء أو يلمس الحلوى إذ لم تكن لديه رغبة بتذوق حكم إعدامه.

في تلك الليلة تم رمي فتى صغير في الزنزانة لمحه صديق في الثواني القليلة التي كان الباب مفتوحاً فيها والضوء يملأ الزنزانة... فتى لم ينضج بعد ووجهه طفولي. لم ينبس صديق بحرف إذ لم يكن قادراً على ذلك وإنما انتظر واستمر بالمراقبة إذ لم يكن بإمكانه النوم وهو يعرف أنه سيتم قتل أحدهم خلال الليل. وقبل الفجر عادوا من جديد ووقفوا عند الباب للحظة قبل أن يسحبوا الفتى ويختفوا.

وضع صديق رأسه على الأرضية القذرة إذ اعتاد على الرائحة الكريهة والقذارة والظلام... فكر في الحراس والجنود والجلادين الذين يحيطون

به... أي نوع من الناس هؤلاء؟ كيف تعمل عقولهم؟ كان صديق يظن نفسه رجلاً يحترم الآخرين بلا استثناء لكنه لم يستطع فهم الرجال في هذه الدولة الإسلامية... ليس لهذا علاقة بالإسلام أو بالجهاد أو حتى بالله لأن الله رحيم، وهم قد نسوا ذلك.

في الليلة التالية كان هو من أخذوه حيث أوثقوا يديه وعصبوا عينيه بينما تساقط المطر الخفيف على جبينه المتعرق. تلقى لكمة وسقط أرضاً ليتمرغ وجهه بالطين ويدخل فمه ثم توقفت اللكمات وتساءل صديق عما سيأتي بعد ذلك... أزالوا العصابة عن عينيه وأداروه.

قال الرجل البدين:

- لم يأت أبي للبحث عني ولا حتى آباء أخوتي من أريتيريا وليبيا... لا أحد يأتي إلى هنا لإحضار أحد... أنت تكذب!

أمر صديق بالنهوض على ركبتيه بينما يتساقط رذاذ المطار مما بلل السكين التي تضغط على حنجرته.

إذن هم يريدون اعترافاً.

أجاب صديق بطريقة تلقائية:

- أنا مجرد أب.

ابتعدت السكين. وبينما هو راكع في الوحل تناقشوا إن كان عليهم قتله على الفور أو تركه على قيد الحياة.

استمر المطر بالهطول.

أجبروه على النهوض على قدميه وأعادوه إلى زنزانته.

حتى الآن شاركه أربعة أشخاص الزنزانة لكنهم جميعاً رحلوا!

حاول تجنب التفكير بهم وتصفية ذهنه. نهض على قدميه ثم نام وهو جالس وبعدها استيقظ ونهض على قدميه. قام بتمارين الضغط القرفصاء لتنشيط دورته الدموية.

حاول عد الأيام لكنها اختلطت عليه ببطء حيث اعتاد على الوجود في

مساحة أربعة ياردات مربعة.

بعض الحوادث جعلت الحياة أفضل قليلاً، ففي أحد الأيام ظهر أبو أحمد يحمل قارورة فارغة وقلبها وحشرها في الحفرة التي في الأرض مما خفف من الرائحة النتنة.

وفي صباح أحد الأيام أخرجه سجانه إلى الباحة وقال:

- إنهم لا يعملون في أيام الجمعة.

يوم الجمعة... يوم عطلة... ما من ضرب.

كانت تلك أول مرة يرى فيها الباحة في ضوء النهار... تسلقت أزهار صغيرة وردية اللون الجدار وقد نبتت من الأرض الترابية الصغيرة. كان هناك بضع مقاعد وطاولة بينما تملأ بضع سيارات المساحة المتبقية. وخلف الجدار تقف أشجار زيتون مبعثرة... تزايد الحزن في قلب صديق... التفكير بالمزارع الشاب القوي... سوريا تفقد خيرة شبابها.

كانت هناك راية سوداء تحمل ختم محمد ترفرف فوقهما كما توجد لافتة لم يتكلف أحد عناء إزالتها مكتوب عليها «مؤسسة الدانة للمياه ومعالجة الصرف الصحي». الإسلاميون خبراء في صنع سجون من كل شيء.

أرجح صديق ذراعيه الممدودتين واستمتع بالمساحة والهواء حول جسده وبالشمس وبالنسيم العليل. قال أبو أحمد:

- لقد تكلمت مع أحدهم وأخبرته عنك. إن كنت محظوظاً فسيأتي إلى هنا اليوم.

ووسط الباحة وقفت مجموعة تدردش لهم لحى حمراء وبشرة بيضاء فقال له أبو أحمد أنهم من الشيشان ومعروف عنهم أنهم من أفضل الجنود وأشجعهم وأكثرهم انضباطاً وإتقاناً لتكتيك حرب العصابات بفضل عقود من الحرب مع الروس.

- إنهم يريدون رؤية القتال حالهم كحال جميع من يأتي... الكثير من الناس يصابون بخيبة الأمل حين يتم تكليفهم بحراسة السجناء فهم

لم يلتحقوا لهذا الغرض.

أراد صديق أن يسأل أبا أحمد كيف انتهى به المطاف هنا ولماذا يعمل لصالح داعش لكنه لم يفعل وإنما بقي غارقاً في أفكاره إذ تنقصه القوة ليستوعب أفكار الآخرين. نظر حوله... سجناء وحراس... ضحايا وجلادون... تنفس نفساً عميقاً من هواء الخريف... آه لو يستطيع تدخين سيجارة الآن!

اقترب رجل من أبي أحمد وهو يعرج ويسند ثقله على قدم واحدة فاستقام الحارس وأشار إلى صديق، فأشار له الرجل أن يتبعه وقاده مع أبي أحمد إلى داخل المبنى إلى أحد مكاتب منشأة المعالجة وعرف عن نفسه باسم أبي سياف.

- ما الذي جاء بك إلى سوريا؟

وحين سمع قصة صديق ذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يتمتم ببعض آيات من القرآن، ثم التفت ونظر إلى صديق:

- إن بقيت في تلك الزنزانة سيقتلونك عاجلاً أم آجلاً.

وغادر الغرفة بينما جلس صديق وأبو أحمد ينتظران، وحين عاد كان معه اثنان من الشيشان وأمر صديق بمرافقتهما ليجد صديق نفسه يعبر الباحة ويدخل مبنى آخر ويمشي في ممر ثم يدخل غرفة كبيرة على أرضيتها سجاد وقال له حارس:

- جد لنفسك مكاناً فارغاً.

مرتبة! يا للنعيم! واستلقى على إحداها. وبينما هو يتمدد بطوله الكامل نادى المؤذن:

- الله أكبر الله أكبر!

وامتزجت أصوات من المساجد والمآذن في أنحاء البلدة... أصوات جميلة مقدسة... حتى في هذا الجحيم النداء للصلاة جميل.

حين كان صديق في الزنزانة لم يكن يسمع الأذان أما الآن فتبدو كصرخات الحرية... استعد للصلاة.

أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله
حي على الصلاة
حي على الفلاح
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

وحين خفتت أصوات الأذان استلقى صديق مرتاحاً على المرتبة وإلى جانبه رجل يئن، فنظر صديق حوله... كان الموجودون في الغرفة من أعمار مختلفة... هناك فتية ورجال كبار والكثير منهم يئنون ويتأوهون من الألم.

سأل الرجل المجاور له الذي كان يحاول كبت أنينه:

- ماذا حصل لك؟
- لا يهمك أن تعرف.

لكن صديق دائماً يريد أن يعرف.

- لقد قاموا بشوي خصينا... أحرقوهما.

لقد أحرقوها بولاعة... الألم لا يطاق... وقع عدة رجال في غيبوبة ليستيقظوا على ألم مبرح.

- ما تهمتك؟
- كنت أرشد رجلاً عبر الحدود... إنه من مقاتلي داعش لكنه لقي حتفه فاتهموني بخيانته... والله أنني بريء.

نظر صديق حوله... مجدداً السوريون هم أكثر من يعاني... كل من شاركوا معه زنزانة الموت من السوريين المحليين وهم من يموتون.

بدا الليل لامتناه إذ إن المرتبات لم تخفف عنه، وكأن كل من في الغرفة يبكي ويصرخ داخل رأسه.

في الصباح التالي تم أخذ صديق إلى مكتب، وحين رأى الرايات التي

تحمل ختم محمد فقد الأمل.

ما من سبيل للخروج من هنا... لقد قرروا مسبقاً من سيموت ومن سيحيى.

طلبوا من صديق أن يجلس وينتظر القاضي ثم دخل رجل مهيب بلحية رمادية طويلة... أبو فحص النجدي من المملكة العربية السعودي مسؤول عن المحكمة الشرعية في الدانة، وقد بدأ بسماع قصة صديق.

حاول صديق استخدام الكلمات والعبارات الصحيحة كما تعلم في المملكة العربية السعودية وحرص على سرد التفاصيل الدقيقة في قصته... قصة الابنتين اللتين سافرتا إلى سوريا دون إذنه والأب الذي لحق بهما.

التفت القاضي إلى بعض الرجال وطلب الدليل في القضية فسمع صديق كلمات مثل «جاسوس» و«استخبارات» و«النروج» و«تركيا». وأمسك أحد الرجال بهاتف صديق المحمول ليراه القاضي.

- إنه يحوي رسائل نصية من الجهات التي يعمل لديها.

المتهم في مهمة بتكليف من الاستخبارات الغربية وهذا البحث المفترض عن ابنتيه مجرد قصة للتغطية.

- بأي لغة هذه الرسائل؟

- النروجية.

- من يتكلم النروجية هنا؟

ذكروا له مغربياً يعمل في المرأب.

- أحضروه.

تم إحضار القهوة للقاضي ورجاله.

وفي النهاية وصل المغربي فسأله القاضي:

- هل تفهم العربية والنروجية؟

فأومأ الرجل برأسه وهكذا أوكلوا إليه مهمة ترجمة الرسائل في هاتف صديق.

عرف صديق أن مصيره يعتمد على ما يقوله الرجل وعليه إقناع المغربي أنه يقول الحقيقة دون أن يستخدم صوته... أنا مجرد أب... لست خائناً... أنا مجرد أب. كان يأمل أن تصل الرسالة إلى الرجل الذي التفت إليه فجأة.

- مَن إسماعيل؟

استيقظ صديق من أفكاره ومحاولاته للتخاطر وشعر أنه مجرد مراقب عن بعد لما يحصل في المحكمة.

- مَن إسماعيل؟

ظل ذهن صديق يعمل بسرعة... ما علاقة إسماعيل بهذا؟

- أقول مَن إسماعيل... ألا تسمعني؟

- إنه ابني.

ترجم المغربي رسالة إسماعيل لأبي حفص:

- جاءت الشرطة اليوم لاستجوابي وسألوني عن مكانك فقلت لهم أنني لا أعرف. أين أنت؟

لا أحد في المنزل يعرف بأمر سجنه إذ إنه بالنسبة لهم قد اختفى فحسب بعد آخر محادثة مع أيان... لقد وصلت الرسائل النصية إلى هاتفه وهو محتجز لدى داعش.

استمر المغربي بالترجمة:

- بابا أين أنت؟

- بابا اتصل بنا!

- بابا...؟

بعد بضع ساعات من الجلسة وقف أبو سياف الرجل الذي قاده من باحة السجن في اليوم التالي فوق مرتبته. حين أوضح المغربي محتوى الرسائل النصية من إسماعيل سأل أبو حفص الجلادين إن كان هناك أي دليل آخر على كونه جاسوساً لكن لم يكن هناك أي شيء، وهكذا تمت إعادة صديق

إلى الزنزانة التي يتشاركها مع السجناء الآخرين.

تم إطلاق سراحك. أنت حر لتذهب لكنك بحاجة إلى ترخيص لعبور الحواجز ونقاط التفتيش... ستحصل على الأوراق غداً وحينها يمكنك المغادرة.

شعر صديق أنه على وشك الطيران... لقد نجا! الضربات والركلات واللكمات ومحاولات قطع رأسه... إنه حر!

لكن الأمر لم ينتهِ... إنه على قيد الحياة لكنه لم ينجز ما جاء من أجله كي يستعيد ابنتيه.

كان ذهنه مشوشاً وأفكاره متضاربة وهو ينظر حوله إلى الرجال الذين يئنون من الألم.

أكمل أبو سياف قائلاً إن مدير السجن يعارض إطلاق سراحه... لماذا؟ شعر صديق بقواه تخور... هذا لا يشبه كونك في الميدان في الصومال وإنما هذه أرض غير مألوفة.

لكن ولأول مرة منذ وصوله إلى مؤسسة معالجة المياه نام مترقباً ثم استيقظ على صوت باب يفتح.

نهض على مرفقيه... إنهم الرجال الثلاثة الذين كانوا يضربونه في العادة... شعر بتوجس ثم تذكر وتنفس الصعداء... لقد خسرتم هذه المرة.

سيطر عليه شعور بالانتصار... في اليوم التالي سيغادر كرجل حر...

اقترب الثلاثي منه وسمع القائد يقول:

- لم ننته منك بعد.

20

مخطط

مَن المسؤول هنا؟

القاضي أطلق سراحه ورئيس السجن اعترض... من قرر مصيره؟

المقاتلون الشباب مجرد بيادق والحراس يقفلون الأبواب والمسؤولون عن التعذيب يضربون كل من يقع تحت أيديهم والجلادون يقطعون الرؤوس حسب الأوامر.

دون هؤلاء الشباب سينهار النظام... إنه يحتاج إلى وحشية وهمجية على السطح أما وراء الواجهة فهناك هرمية صارمة، ووراء هذه الهرمية توجد خطة موضوعة بعناية... وصفة لحكم بالإرهاب... آلة عنف ملطخة بالدماء.

في مكان ليس ببعيد في الشرق بالقرب من الحدود الشمالية جلس العقل المدبر للنظام الذي يحتجز صديق... سمير عبد محمد الخليفاوي رجل نحيل بلحية يملؤها الشيب. كان يبدو لطيفاً وهادئاً وغائب الفكر في معظم الأحيان لكن كل من يعرفه يدرك الذاكرة القوية والمهارة اللوجيستية العظيمة اللتين يتمتع بهما.

وفي توسع صغير خلف منزل في قرية تل رفعت في ريف حلب وتحت بعض الصناديق وكومة من البطانيات كان هناك مغلف يحوي أوراقاً مكتوبة بخط اليد... مخطط تنظيمي وصفحات من الرسوم البيانية وقوائم من الأسماء بالإضافة إلى تعليمات وإرشادات وجدول أعمال... إنه مخطط الدولة الإسلامية.

يشغل الرجل الذي وضع الخطط واحداً من أهم المراكز في الاستخبارات

العراقية، ففي 17 مارس 2003 حين منح الرئيس جورج بوش الابن صدام حسين ثمان وأربعين ساعة ليتنازل عن السلطة على نظامه المنهار قام أيضاً بمخاطبة القوات العسكرية العراقية في محاولة منه لدفعهم للتخلي عن أسلحتهم:

- لن نقبل منكم عبارة «كنت أطيع الأوامر فحسب».

وقد كان أكثر من ربع مليون جندي أمريكي جاهزين في الكويت استعداداً لغزو العراق، وفي 20 مارس عبروا الحدود حيث كان التقدم عبر الصحراء سريعاً، وقد أخلت الكثير من القوات العراقية قواعدها قبل وصول الأمريكان. وبعد حملة استمرت لثلاثة أسابيع وصلوا إلى بغداد التي لم تستغرق السيطرة عليها سوى بضع ساعات. وقد حمى الأمريكيون وزارة النفط بجدار من الدبابات وحطموا تمثال صدام خارج الفندق الذي يقيم فيه الصحفيون. وقبل مرور شهر انهار حكم البعث في العراق، وفي 1 مايو أعلن جورج بوش إنجازه للمهمة.

وفي نهاية العام في مزرعة بالقرب من وطنه في تكريت تم العثور على الديكتاتور في مخبئه تحت الأرض بست أقدام مع بندقيتين ومسدس و750,000 دولار نقداً.

تم نشر صورة الرجل المدمي بلحيته الطويلة في وسائل الإعلام حول العالم بينما قال جورج بوش:

- لن تخشوا حكم صدام حسين بعد الآن.

انتهى صدام لكن رجاله لم ينتهوا.

معظمهم من المسلمين السنة العلمانيين الذين بدلوا ولاءهم حيث كانوا يطمحون للحصول على عمل ضمن النظام الجديد.

أما الأمريكان فلديهم خطط أخرى. حين قام رئيس الإدارة المدنية في بغداد بول بريمر بحل الجيش العراقي بكل بساطة ومنع جميع من شغلوا مناصب قيادية تحت حكم صدام من تولي مناصب في العراق الجديد وجد

رجال مثل الخليفاوي أنفسهم عاطلين عن العمل وممنوعين من ممارسة مهنتهم. تم تجريد أكثر من مائة ألف موظف وضابط عراقي مدرب من مناصبهم ولقمة عيشهم... وهكذا أصبح لدى الولايات المتحدة عدو خطير... مسلح ومضطهد.

اتجه الخليفاوي إلى الأنبار ذات الأكثرية السنية غرب البلاد وغير مظهره وسمى نفسه حجي بكر إذ إن الضباط المرفوضين سعوا وراء تحالفات استراتيجية وجدوها مع رجال القاعدة في العراق بقيادة الأردني «أبو مصعب الزرقاوي» الذي أسس الإسلام المتطرف. وفي الثمانينات من القرن العشرين انضم الزرقاوي للقتال ضد قوات السوفييت في أفغانستان لكنه اكتشف بخيبة أمل أن الحرب قد فاتته حيث كان الانسحاب قد بدأ عند وصوله. وفي أفغانستان أخذه أسامة بن لادن تحت جناحه وهو يؤسس تنظيم القاعدة لكنه بعد ذلك وجد أن الزرقاوي متشدد للغاية ولم يدعم حماسه للقتل الجماعي للمسلمين الشيعة.

وقد قاتل الزرقاوي بإخلاص مع طالبان حين هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان بعد 11 سبتمبر وأصيب فغادر إلى إيران ثم سافر إلى كردستان العراق حيث انضم إلى المجموعة الجهادية أنصار الإسلام. قبل غزو الولايات المتحدة للعراق كان نظام صدام حسين هو عدو أنصار الإسلام لكن وزير الخارجية الأمريكي كولن باول ادعى أن صدام حسين يساند القاعدة وأن العراقيين قاموا بتدريب المجموعة على استخدام أسلحة الدمار الشامل ويمكن أن يتعاونوا معها في هجوم ضد الغرب إلا أن تلك مجرد اتهامات باطلة.

بالنسبة للقاعدة غدت الحرب في العراق فرصة للتعبئة من جديد بعد خسارة قواعدها في أفغانستان، وبدلاً من المجتمع الودود الذي كان بوش يتصوره في العراق أصبح البلد معقلاً لموجة جديدة من الإرهاب حيث كان الزرقاوي وراء العديد من الهجمات بما فيها تفجير مقرات الأمم المتحدة في

بغداد وما تبعها من سلسلة هجمات ضد القوات الأمريكية وزعماء الشيعة والمزارات المقدسة.

كان لدى البعثيين والمتطرفين الإسلاميين اعتقاد واحد مشترك... السيطرة على الشعب من خلال نخبة قليلة غير معرضة للمساءلة من أحد.

وفي 2004 تشكلت القاعدة في العراق بزعامة الزرقاوي وجندت مقاتلين من كافة أنحاء العالم العربي حيث وصل الكثيرون منهم من خلال طرق التهريب عبر سوريا إذ أمن لهم الأسد ممرات آمنة بسبب رغبته بفشل المهمة الأمريكية في العراق خوفاً من أن يدفع نجاحها القوى الكبرى إلى محاولة القضاء على حكمه. ومن مخبئه في باكستان أعلن أسامة بن لادن ابتهاجه من الهجمات على القوات الأمريكية لكنه ناشد المقاتلين على الأرض ليتجنبوا قتل المسلمين الآخرين إلا أن نداءاته لم تلق أي آذان صاغية.

الأنبار حيث يقيم زعيم الإرهابيين الزرقاوي والقائد السابق لدى صدام حجي بكر هي أكبر محافظة في العراق لكن أراضيها قاحلة وعدد سكانها قليل إذ تتكون من مساحات شاسعة من الصحاري مما ترك الأمريكان مكشوفين ومعرضين للهجمات، فثلث الجنود الذين لقوا حتفهم في العراق قضوا هناك. وتزايد العصيان المسلح بسبب شعور السنة في العراق بالاضطهاد من قبل حكومة بغداد التي يهيمن عليها الشيعة وتدعمها أمريكا كما أن الإسلاميين يدفعون رواتب أعلى من مبلغ 300 دولار أمريكي الذي تدفعه السلطات.

بذل الأمريكان قصارى جهودهم ليوقفوا الزرقاوي، وفي يونيو 2006 تتبعت طائرة تجسس مرافقه الروحي إلى اجتماع مع القائد الإرهابي ثم ألقت طائرتا إف 16 حمولتهما على المنزل الذي دخله.

وقد أكد جورج بوش للعالم أن الزرقاوي لن يتمكن من قتل أحد بعد اليوم.

ومنذ عام 2006 ظهر اسم حركة مقاومة جديدة... الدولة الإسلامية في

العراق... وكان حجي بكر واحداً من الاستراتيجيين العسكريين، وحاول الأمريكان خنق نمو الشبكة وقاموا بحملة اعتقال جماعية قبضوا فيها على الضابط السابق.

تم تقسيم السجناء على أساس طائفي: السنة لوحدهم والشيعة لوحدهم، وتشارك الجهاديون القدامى مهاجعهم مع الشباب الذين ليست لهم أية علاقة بالعصيان، وتمت محاكمة السجناء في محاكم شرعية سرية ثم تم الحكم عليهم بالضرب أو قلع العينين أو الموت، وكلما كانت معرفة السجناء بالإسلام أقل كلما كان إقناعهم أن الجهاد واجب ديني أسهل.

أصبحت معسكرات السجن ملاذاً لحركة المقاومة، فحتى لو كان وضعهم السابق كهاربين من العدالة يعني أن لقاءهم ببعضهم محفوف بالمخاطر أصبحت الآن لديهم الحرية ليجلسوا في ظل جدار ليقوموا بالتجنيد ووضع المخططات. وطالما أن السجناء لا يثيرون أية مشاكل ويتبعون الروتين فإن الحراس لا ينزعجون من تحركاتهم بل على العكس كانوا ينتقون السجناء الذين يبدو أنهم يشغلون مناصب ذات سلطة ليسيطروا على الآخرين. وأحد أولئك الذين تم انتقاؤهم هو أبو بكر البغدادي حيث أوكل الأمريكان لزعيم داعش المستقبلي دوراً في سجن بوكا.

وحين أدركوا في النهاية ما يحصل قام الأمريكان بنشر التعليم الدنيوي للتخفيف من التطرف حيث تم تعليم السجناء القراءة والكتابة كما تم إحضار أئمة معتدلين لإلقاء دروس عن الإسلام المسالم وتخفيض عدد السجناء من خلال إطلاق سراح من يعتبرونهم غير خطرين مثل حجي بكر، فبعد عامين من الاحتجاز تم إطلاق سراحه من سجن بوكا عام 2008 ليختفي على الفور، وبعد عام تم إطلاق سراح «أبوبكر البغدادي» بعد تسجيله كسجين من المستوى المنخفض.

تسببت وحشية الدولة الإسلامية في العراق في نزاعات مع العديد من القبائل السنية ذات النفوذ حيث سعت القبائل إلى الحكم الذاتي لا الخضوع

إلى ميليشيا عقائدية، وبمساعدة الولايات المتحدة والقوى الأمنية المحلية شكلت القبائل مجالس وميليشيات تدعى «الصحوات» تتجذر بعمق في المناطق المحلية وتهاجم الدولة الإسلامية في العراق بمساعدة السلاح الأمريكي.

وبعد أن تم إبعاد معظم قيادات الدولة الإسلامية في العراق في ضربة جوية أمريكية في أبريل 2010 توقع الكثيرون نهاية العصيان حيث تم قتل أربعة وثلاثين من أصل اثنين وأربعين قائداً ولم يعد هناك قادة كفؤين وأصبح التنظيم بحاجة لقائد قوي يجمع القطع ويمنحها الشرعية من جديد بشكل سريع.

وفي مايو تم تعيين «أبو بكر البغدادي» غير المعروف نسبياً كرئيس للتنظيم بفضل علمه الشرعي إذ ينبغي أن تقوم الدولة الإسلامية في العراق على أسس دينية صلبة والأهم من ذلك أنه قرشي.

ولد «أبو بكر البغدادي» عام 1971 في سامراء لعائلة من المعلمين والواعظين، وفي مراهقته كان يحب لعب كرة القدم، وهي رياضة قام فيما بعد بمنعها. عاش حياة هادئة ونأى بنفسه عن أي شكل من أشكال العنف، وفي العقد السابق للغزو الأمريكي عاش في غرفة مجاورة لمسجد صغير في منطقة فقيرة على أطراف بغداد وأمضى معظم وقته بالقراءة وإمامة الصلوات دون أية شهرة.

وسرعان ما وضع الرجل المعروف بلقب «الشيخ الخفي» بصمته في التنظيم حيث أبعد من قد ينتقده واستبدلهم بأشخاص يثق بهم وخاصة الرجال الذين كانوا معه في سجن بوكا. وتحت قيادته نفذت الدولة الإسلامية في العراق مجموعة من التفجيرات الانتحارية جيدة التنظيم في بغداد والموصل إلا أن الإسلاميين يخوضون معركة خاسرة، فالناس يريدون السلام والقبائل تريد حكم نفسها. وعلى الرغم من خطب الدولة الإسلامية في العراق حول إقامة دولة وإسلامية إلا أن التنظيم بقي كمجموعة إرهابية لا كبناة أمة.

ثم وقع الحدث الذي سيغير العالم العربي، ففي ديسمبر 2010 أشعل بائع متجول النار في نفسه خارج مقر ولاية سيدي بو زيد بعد أن قامت شرطية بمصادرة عربته، وعندما اعترض صفعته الشرطية أثار إحراقه لنفسه الفوضى والاحتجاجات في أنحاء تونس، وبعد بضعة أسابيع هرب الدكتاتور زين العابدين بن علي إلى المملكة العربية السعودية بعد عشرين عاماً في السلطة ليبدأ الربيع العربي.

انتشرت الاحتجاجات شرقاً إلى مصر وليبيا، ففي سوريا خلقت الحرب الأهلية سريعة الانتشار فراغاً في السلطة مما جعلها فرصة ذهبية.

وفي أواخر 2012 عبر حجي بكر ومجموعة صغيرة الحدود من العراق إلى سوريا، وهناك في المحافظات الشمالية تم إخراج قوات الأسد الحكومية من معظم المناطق مما ترك عدداً كبيراً من الفرق المحلية والمجالس العسكرية والميليشيات لتسرح على راحتها بجوار ألفي مجموعة مختلفة تتوق للسلطة مما أدى إلى صراع على السلطة إذ ما من أحد قوي بما يكفي ليسيطر على السلطة كما أن الجميع أقوياء بما يكفي ليمنعوا الآخرين من السيطرة على السلطة.

فوضى مثالية عرف حجي بكر كيف يستغلها.

كانت سوريا وسيلة لتحقيق غاية... سيطرة السنة على العراق... أولاً ينبغي السيطرة على سوريا شيئاً فشيئاً واستخدام الأراضي المناسبة كجسور مع العراق. وفي قرية تل رفعت وضع حجي بكر اللمسات الأخيرة لخطته إذ كان مفتاح النجاح مزيج من الحسابات الاستراتيجية والمؤمنين المتعصبين إلا أن الضابط نفسه لم يكن إسلامياً وإنما قوميا وانتهازيا.

سيتم افتتاح مكاتب دعوة في جميع المدن والبلدات التي استولى عليها الجيش السوري الحر والثوار الآخرون لتقوم بالتجنيد، ويتم اختيار بعض الرجال من بين من كانوا يأتون لسماع المحاضرات وحضور الدروس ليقوموا بالتجسس.

كتب الحاج بكر:

- سنقوم بتدريبهم لبعض الوقت ثم نرسلهم للعمل.

وسيقوم الجواسيس بما يلي:

وضع قوائم للعائلات القوية وأهم الرجال فيها

معرفة مصادر دخلهم

تسجيل الأنشطة المحرمة في الشريعة

جمع المعلومات عن العلاقات غير الشرعية والمثلية الجنسية.

تقديم التفاصيل عن مجموعات الثوار

معرفة هوية قادة الفرق وخلفية عائلاتهم

ملاحظة التوجهات الدينية والسياسية.

وبتلك الطريقة سيتم جمع عوامل مساعدة للتهديد والابتزاز.

وسيسهل الجواسيس فهم هيكلية السكان المحليين الذين يدعمون الأفكار الديمقراطية ويساندون النظام ومعرفة العائلات المتدينة وتوجهاتهم الدينية والخطب التي يلقيها الأئمة وأفكارهم حول الجهاد وكم يتقاضون ومن يدفع لهم وما المصادر الأخرى للدخل التي يحصل عليها الناس وكم زوجة لدى كل قائد وكم طفل وما أعمارهم.

كل تلك المعلومات ستكشف أي تصدع ليتم توسيع التصدعات إلى فجوات ثم هدم بنية المجتمع حتى ينهار ويتهاوى. وعلى الرغم من عدم ذكر كلمة الله إلا نادراً في مخطط حجي بكر المكتوب بالتفصيل إلا أن الضابط أكد على ضرورة استغلال عقيدة الآخرين.

تم وضع طريقة حجي بكر بهدف نشر الخوف إذ ينبغي أن يتولى مجلس محلي بقيادة أمير مهام التجسس والابتزاز والاختطاف والقتل كما أنه مسؤول عن الاتصالات وترميزها، وفي نفس الوقت يقوم أمير آخر بالإشراف عليه والعديد من الأمراء الآخرين في حال لم يقوموا بعملهم على النحو الصحيح لكن لن يكون من الواضح من يراقب من بالنسبة لأي من الأفراد ذوي الصلة.

ويتم الإشراف على النظام المحلي من قبل قسم الاستخبارات الذي سيرسل تقارير لأمير الأمن في كل منطقة الذي يكون مسؤولاً عن مساعدي الأمراء في المناطق المختلفة، ويرسل رئيس خلية التجسس السرية تقريراً لكل مساعد أمير حيث ترسل خلية التجسس تقريراً لمساعد الأمير في المنطقة. لقد حاك حجي بكر الذي أصبح لقبه «سيد الظلال» شبكة لزجة بهدف أن يترك الجميع يراقب الجميع.

ومنذ بداية 2013 تم افتتاح عدد كبير من مكاتب الدعوة في البلدات التي يسيطر عليها الثوار في أنحاء شمال سوريا، ويمكن بسهولة الخلط بين تلك المكاتب والمنظمات الخيرية حيث يتم نداء الجميع بلقب «أخي» ودون أي ذكر للدولة الإسلامية. كان رجال حجي بكر يستأجرون الغرف والمساكن كما منعوا أي جنود عراقيين من الانضمام إليهم بالإضافة إلى أنهم لم يرغبوا بتجنيد الكثير من السوريين إذ قد تكون لديهم صلات محلية قوية تؤدي إلى تضارب في الولاء. لقد أراد حجي بكر رجالاً من الخارج وكثفت داعش تجنيدها للمجاهدين من المقاتلين الأجانب إذ إن هؤلاء القادمين الجدد لا يعرفون أحداً خارج معسكرهم وليس لديهم أي سبب لإظهار الرحمة ويمكن إعادة نشرهم بسرعة حسب الحاجة. يتم تدريبهم لبضعة أشهر كما يتلقون تعليماً دينياً قبل إرسالهم للقتال أو تكليفهم بعمل ضد الدولة كما يحاول الجواسيس اختراق العائلات ذات النفوذ الأقوى من خلال الزواج.

نادراً ما تسعى الميليشيات المحلية للمواجهة المباشرة مع داعش، فعلى الرغم من أن لديهم رجال أكثر من داعش بكثير لكنهم لا يرغبون بالمخاطرة بفتح جبهة جديدة لأنهم يعتبرون الحكومة العدو الرئيسي. ودائماً يبقى قادة داعش الدينيون على اطلاع على نقاط الضعف والهفوات والشقاقات وبوادر النزاع عن طريق شبكة التجسس مما يسمح لهم بالدخول في تحالفات مع ميليشيات مختلفة دون معرفة أي من «حلفائهم» بالاتفاقات التي قاموا بها مع الآخرين.

وبحلول شتاء 2013 هزمت المعارضة السورية النظام في أجزاء كبيرة من شمال سوريا لكن عليهم أيضاً السيطرة على مدينة كبيرة، فخططت المجموعات الثورية لهجوم مباغت على مدينة الرقة.

أدت الحرب الأهلية إلى إغلاق الطرق ونقص في المواد الأساسية كما تدهور الوضع بالنسبة لأهالي الرقة حيث تقع المدينة في منطقة الصحراوية وليس فيها أراضٍ خصبة سوى في الجنوب على طول نهر الفرات مما أدى إلى نقص في الطعام وانقطاع تام للكهرباء إذ كان نظام الأسد يعاقب المدن التي تسيطر عليها المعارضة بقطع خطوط الإمدادات.

وفي الصباح الباكر من 3 مارس دخل الجيش السوري الحر والنصرة وأحرار الشام المدينة أولاً من الشمال ثم من الشرق وأخيراً من الغرب والجنوب، ومع نهاية اليوم سيطروا على معظم أجزاء مركز المدينة، وعمت الاحتفالات عند إسقاط التمثال الذهبي لحافظ الأسد.

كيف يمكن لمدينة كاملة أن تسقط خلال ساعات؟

غادرت قوات الأسد في الجانب الشرقي من المدينة مواقعها قبل بزوغ الفجر بينما تراجعت القوات في الوسط إلى المطار خارج حدود المدينة في حالة من انعدام التنسيق لدرجة أنهم تركوا الكثير من الملفات دون أن يأخذوها. ولم يبق سوى بعض الضباط الذين قاتلوا حتى نفدت ذخيرتهم، وحين استسلموا تم أسرهم وإعدامهم وعرض جثثهم في الساحة الرئيسية.

اقتسمت المجموعات الثورية المختلفة الرقة فيما بينها حيث خرج الناس إلى الشوارع يصرخون:

- حرية! ديمقراطية! عدالة!

تشكلت مجموعات شبابية ومجموعات نسائية وفرق مسرحية كما تم نشر صحف غير مرخصة... لقد وصلت الثورة المحافظات قبل العاصمة... تجمع المحامون وتنظم الأطباء وتشكلت الأحزاب السياسية واعتنق الناس

روح الحرية كما تم افتتاح عدد من مكاتب الدعوة وإنشاء مجلس مدينة ثوري لتنظيم الفوضى المتوقعة... كل تلك الأمور التي لم تكن مسموحة تحت حكم الأسد سيتم تجريبها.

لم يتأخر انتقام الأسد حيث أطلق صواريخ سكود مدمرة مناطق سكنية كاملة لكن الناس أزالوا الركام بكل بساطة ودفنوا الموتى وظلوا صامدين. كان هناك من ينظف الشوارع تطوعاً، ونظم الناس خدمات توقفت السلطات عن تقديمها منذ زمن طويل كما عملت مولدات الطاقة بالتناوب وتكدست البضائع على رفوف المتاجر إذ إن الحدود مع تركيا مفتوحة مما سمح بتوفر أفضل البضائع بأرخص الأسعار. وأعلن مجلس المدينة مدينة الرقة منطقة حرة من الرسوم الجمركية وبدأت المنتجات التي لم يرها الناس من قبل قط بالوصول كما تم افتتاح سوق للسيارات الأمريكية... مدينة تملؤها الأفراح.

حتى بدأ الناس يختفون.

في البداية بعض النشطاء الشباب... صحفي... بعض الشباب الذين رسموا علم الثورة على جدار المدينة... ممثل في فرقة مسرحية... كاهن... محامٍ... طبيب... صحفي... كاتب. وفي منتصف مايو تم إجبار رئيس مجلس الرقة على ركوب سيارة مع رجال ملثمين ولم يره أحد بعد ذلك كما تم قتل أحد قادة الميليشيا في كمين ثم قائد آخر وبعدهما قائد ثالث... من وراء ذلك؟ تزايد التوتر وبدأ الجميع يلومون الآخرين واندلعت الصراعات بين النصرة والجيش السوري الحر وأحرار الشام والفاروق والرسول التي يسيطر كل منهم على أجزاء مختلفة من المدينة.

لم يتحمل أحد مسؤولية الاختفاء والقتل وبقيت لدى الناس شكوكهم لكن قلة من يتجرأ على البوح بها... بدأت الرايات السوداء ترفرف في أنحاء المدينة.

لم يتوقع السكان أن يقوم باضطهادهم وتهديدهم سوى رجال الأسد.

ما إن هزمت قوات النظام حتى بدأ المتطرفون يتسللون إلى الرقة من

خلال مكاتب الدعوة المفتوحة حديثاً كما استمر حجي بكر بتحديث ملفاته إذ إن بعض من يتجسسون لحسابه قد عملوا في السابق كوكلاء استخبارات لحساب الأسد في حين أن الآخرين ثوار استبعدهم قادة الميليشيات المحلية وطلبوا الانتقام بالإضافة إلى أولئك الذين أرادوا كسب لقمة العيش. كان معظم الرجال في كتبه في بداية العشرينات من العمر وبعضهم ما يزالون مراهقين، وكما من قبل كان الجيل القديم حذراً بشدة.

ما إن اكتملت القوائم حتى بدأت عملية الإقصاء... أولاً أولئك الذين يرفعون أصواتهم دعماً للحرية والديمقراطية ثم أولئك الذين من الممكن أن يفعلوا ذلك.

لقد عاد الخوف.

حين أصبح لدى الإسلاميين أناس كافيين ليتجسسوا عليهم ومقاتلين كفؤين للدفاع عن جواسيسهم أعلن «أبو بكر البغدادي» توسيع الدولة الإسلامية في العراق إلى الدولة الإسلامية في العراق وسوريا أو داعش.

لم تساعد أي من المجموعات الثورية بعضها عند تعرضها للهجوم حيث كانوا يتجاهلون الأمر طالما أنه لا يمسهم إذ كانوا جميعاً يظنون أنفسهم حصينين من هجمات داعش.

وفي 17 أكتوبر 2013 وفي نفس اليوم الذي استقلت فيه أيان وليلى طائرة بعد الظهيرة إلى إسطنبول استدعت داعش القادة المدنيين والشيوخ والأساتذة والمحامين في الرقة إلى اجتماع تسوية لمناقشة كيفية حكم الرقة. ومن بين الثلاثمائة شخص حاضرين لم يجرؤ سوى رجلين على انتقاد تصرفات الإسلاميين واتهامهم بالوقوف خلف حوادث الاختطاف والقتل.

وقد تم العثور على أحد الرجلين بعد بضعة أيام مقتولاً برصاصة في رأسه وتلقى أهله رسالة بريد إلكتروني مع صورة لجسد الرجل المشوه وعبارة:

- هل تفجعون على صديقكم؟

ثم اختفى الرجل الآخر. كانت داعش تعرف من صديق من ومن لديه علاقات مع من ومن ليس لديه سجلات نظيفة بالمعنى الإسلامي ومن منظم أو قد يظهر المقاومة... هرب العديد من المعارضين إلى تركيا وانتهت الفترة الذهبية التي أنشأها الثوريون في الرقة.

تم تقسيم السيطرة على شمال سوريا بين داعش والعدد الكبير من الميليشيات، ففي أطمه كانت داعش قريبة من السيطرة على الوضع بالكامل.

في نوفمبر الماضي وقف صديق عند الباب الأزرق في البلدة وطرقه بعد أن تم إطلاق سراحه من الحجرة النتنة في الحمام قبل بضعة أيام... عانقه عثمان وضغط عليه بين ذراعيه القويين.

- الحمد لله أنك عدت!

كما ركضت أم عثمان لتعانقه وجرى زوجها خلفها ورندة من ورائهم بينما بقيت النساء الأخريات خلف الباب.

وأخيراً تم وضع صديق في عربة وإخراجه من الدانة بصحبة رجال القاضي فقدم لهم عثمان الشاي والتين والكعك، وحين غادروا ظهر رجال النصرة... اغرورقت الدموع في عيني حمزة رائد الفرقة المعروف بلقب الأسد:

- أنا من تركتك مع داعش ذلك اليوم...

أراد عثمان معرفة كل التفاصيل، فأخبرهم صديق بكل شيء... عن زنزانة دورة المياه... عن السكين على عنقه... عن تبرئته والليلة التي تلتها.

- قبل الفجر بينما كان الظلام مخيماً والسجن هادئاً استيقظت على صوت خطى سريعة في الغرفة وسمعت أصواتاً خافتة... ماذا الآن؟ إنهم ثلاثي التعذيب... مجدداً؟ ظننت أنهم سيضربون أولئك الرجال المساكين المصابين في خصيهم... ثم وجدت أنهم في طريقهم إلي... رفعوني ورموا بي على الحائط ثم قيدوني وجروني من الغرفة. حاولت أن أقاوم وأصرخ لكنني كنت مكمماً، ثم اكتشفت

أن الليبي ليس مسلحاً بمسدس كالعادة وإنما أيضاً ببندقية. جروني عبر الممر وهم يضغطون بفوهة بندقية بين كتفي ثم توقف الأريتيري وقال شيئاً أخافني:

- لا... هذا خطأ! لن أكون جزءاً من هذا!

حينها أدركت أنني في خطر شديد... جروني عبر الممر والبندقية في ظهري وأنا أدعو أن يسمع الحراس الآخرون صرخاتي المكبوتة... رموني في سيارة لم تبتعد كثيراً وإنما إلى المبنى المجاور فقط... خشيت أن يكون هذا المكان الذي يقومون فيه بقطع الرؤوس ليتم إزاحة الجثث بسهولة دون أن تتسخ الباحة بالدم. همس الليبي في أذني:

- لقد انتهت حياتك... في العادة نسمح للمحكوم عليه بالإعدام بالصلاة قبل أن نقتله لكن ليس أنت لأنك لست مسلماً... كافر!

وقال الرجل البدين المسؤول:

- انظر حولك! هذا آخر مكان ستراه... أريد أن أكون طاهراً حين ألقى وجه الله ولهذا سأمنحك طلباً صغيراً... ماذا تريد أيها الكافر.

فقلت لهم أنني لا أخشى الموت لكني أرجو أن يعاملوني باحترام فأنا لا أريد أن أموت خلف ظهري... هذه الأصفاد مؤلمة وأنا لست شاباً مثلكما.

أخرج الرجل البدين مفتاحاً صغيراً من جيبه وناوله لليبي وقال:

- أجب طلبه الأخير.

عبث الليبي بالأصفاد إذ إن الظلام حالك ولا يمكن الرؤية جيداً... انفتحت الأصفاد عن معصمي الأيمن لكن المعصم الأيسر بقي مقيداً... لمعت كلمتان في ذهني:

- انج بحياتك!

توقف صديق قليلاً ثم أكمل:

- رفعت ذراعي وبحركة سريعة ضربت الليبي على وجهه بالأصفاد مما أفقده توازنه لكنه بقي ممسكاً بي فسقط كلانا على الأرض. رفع

يديه إلى حلقي فقاتلته لأحرر نفسي إلا أنه أصغر مني وأقوى مما جعلني لا أقوى على الحراك... ظننت أن أمري انتهى فهو فوقي... فتح الرجل البدين الذي يقف على بعد عشر أو خمس عشرة ياردة النار علينا لتسقط رصاصتان على الحصى بجوارنا ثم صرخ الليبي... لقد أصيب في فخذه. أفلت قبضته وصرخ وهو يضع يده على الجرح إذ إن الرصاصة أصابت عظم الفخذ وتدفق الدم خارجاً. حاول إيقاف النزيف بينما خطفت أنا البندقية التي على الأرض وهربت. ما إن خرجت حتى ركضت بشكل متعرج... ركضت فحسب.

جلس عثمان ورجاله على المرتبات يحدقون بي.

- ثم ماذا؟ توقف صديق وطلب سيجارة وسيطر عليه شعور مريح إذ إن النيكوتين غمره بالنشوة للحظة.
- ركضت باتجاه حقل الزيتون لكن الأشجار متباعدة مما سيجعل من السهل العثور علي ولهذا استمررت بالركض لكنني خفت أن ألتقي بدورية لداعش كما خشيت ما سيجلبه معه ضوء النهار إذ بدأ الظلام الحالك يتحول إلى وهج رمادي. سمعت أصواتاً ثم رأيت شخصين... رجل كبير وشاب يرتدون ملابس فلاحين ويحمل أحدهما بندقية قديمة. لم يكن أمامي خيار سوى أن أثق بهما وأمشي باتجاههما.

حين رأياني التفتا إذ كنت ما أزال أحمل بندقية الليبي ويبدو أنهما ظناني جندياً من داعش ثم لاحظا الأصفاد المتدلية من معصمي وعرفا أنني هربت. أشارا إليّ بتردد:

- تعال!

تبعتهما عبر بعض الأراضي وعبرنا مزرعة حتى وصلنا إلى ركام حجارة في سفح تلة وهناك وجدت فتحة صغيرة بين الصخور بدت لي في البداية كوكر ثعلب لكنها اتسعت لتغدو كهفاً عميقاً. قالا لي:

- اختبئ هنا.

وهكذا دخلت واستلقيت على بطني وأنا أصوب سلاحي إلى المحيط. قالا لي أن بإمكاني الوثوق بهما ولم يسألاني إن كان بإمكانهما الوثوق بي... سوريان... أول الناس الذين يعانون في هذا الجحيم... حين تطلب منهما المساعدة يقدمانها.

في وقت لاحق عادا فطلبت منهما:

- ساعداني على الوصول إلى أبي حفص.

كان القاضي الذي برأني أملي الوحيد إذ إن صومالي هاربا ليس له أي أمل بالهروب من أراضي داعش. علي أن أجد أبا حفص وأشرح له ما حصل. خلع الرجل الشاب بعض ملابسه ولف وشاحاً أبيض وأحمر حول وجهي لأتنكر كمزارع محلي. غادرت الأرض الزراعية واتجهت إلى الطريق وتمشيت في الأميال القليلة باتجاه الدانة حيث تقع قاعدة أبي حفص في مركز البلدة بين قاعة المدينة والسوق. بدا ذلك كدخول عرين الأسد إلا أن مواجهة أولئك الذين في السلطة أفضل من أن يتم القبض عليك على حاجز عشوائي على الطريق. حين سمعت لهجة الحراس عرفت على الفور أنهم سعوديون كالقاضي. قادوني إلى غرفة انتظار فيها علم أسود معلق على الجدار، وبعد قليل طلب مني حارس أن أتبعه. لم يتفاجأ أبو حفص من رؤيتي وقال:

- إنهم يبحثون عنك... لقد مات الليبي.

لقد أطلق الرجل البدين النار على شريان رئيسي ولم يستطيعوا إيقاف النزيف، وقد أخبرهم البدين أنني هاجمتهما وهربت ففكرت أنني في مأزق كبير إلا أن أبا حفص هز كتفيه بلا مبالاة وقال إنه يمكن استبدال أي أحد ثم اقترح:

- يمكنك أخذ موقع الليبي... لقد كنت جندياً وتعرف كيف تدافع عن نفسك. ينبغي أن تنضم إلينا.

لم أرد فسألني:

- هل أنت متردد.

وفجأة شعرت بيد أبـي حفص على كتفي ثم أمسك بخصري ومرر يديه على ساقيّ قبل أن يقيس عرض منكبـي.

- إنني أتحقق من مقاسك من أجل البذلة.

وعرض عليّ المال ومنزلاً كبيراً فتوسلت إليه أن يوصلني إلى هنا فنادى بعض السائقين وأوصلوني مباشرة إلى هنا.

طلب صديق سيجارة أخرى فناوله أحد الشباب علبة سجائر كاملة:

- أتعرفون لماذا انتهى بـي المطاف في ذلك الجحيم؟ لقد أراد صهري قتلي ليتخلص مني كي لا أتمكن من إنقاذ ابنتيّ. في كل الأحوال ما حصل كافٍ والآن نحن بحاجة لإيجاد طريقة لتحرير ابنتي.

سـاد الصمـت فـي الغرفة بينما انتظـر الجميع أحداً آخر ليتكلم حتى قال عثمان:

- نحن بحاجة إلى خطة جيدة. في الوقت الحالي عليك أن تغادر إذ إن هذا ليس الوقت المناسـب للاسـتمرار بالبحث... هذا وقت عصيب والمـكان ليـس آمنـاً بالنسـبة لك... لقد سـيطرت داعـش على معظم أجزاء أطمه...

في تلك الليلة توقفت سـيارة مكشـوفة خارج المنزل لتوصل صديق إلى الحدود عبر بسـتان الزيتون حيث قطع الحدود في المرة الماضية، وبينما هو يركب السيارة ناداه عثمان:

- لن تذهب إلى تركيا بهذه.

وابتسم وهو يشير إلى بندقية الهجوم التي يحملها صديق على كتفه، فأنزل صديق البندقية وناولها لعثمان قائلاً:

- إنها هدية لك ولعائلتك... اعتن بها.

والتفت إلى الشـارع حيث تقترب سـيارتان بأقصى سرعة وعلى سقفهما أعلام سوداء، ففكر صديق:

- انتهى أمري.

وخارت قواه.

لكن السيارتان مرتا به ثم توقفتا عند بوابة في آخر الشارع وترجل رجال ملثمون ركلوا الباب واقتحموا المنزل.

راقب... اختطف... أبعد... الخطة تعمل.

21

البيت

- هل أرسلت أحداً ليقتل بابا؟

كتب إسماعيل السؤال لأخته وهو مصدوم بعد أن أخبره والده بما حصل له وهو أسير... زوج أيان هو المسؤول عن سجنه وتعذيبه ومحاولة قتله.

ما من رد.

بعد أن قطع الحدود إلى تركيا جال صديق في أرجاء هاتاي ليومين وهو يفكر إن كان عليه العودة والقيام بمحاولة أخرى لإنقاذ ابنتيه أو العودة إلى منزله لاستجماع قواه، وفضل الخيار الثاني.

حين هبطت طائرته في أوسلو تزايدت عواطفه... يظن النروجيون أنه ليست لدينا نحن اللاجئين أية مشاعر تجاه هذا البلد... ركب سيارة أجرة وأعطى العنوان للسائق... لكنني أحب النروج.

سارة... إسماعيل... جبريل... إسحاق... عانقوه في مكان الضربات، وحين حضن سارة تلك الليلة في السرير شعر وكأنه طفل صغير وجد أمه أخيراً.

كانت سارة قد مرت بأكثر وقت عصيب في حياتها... أسوأ من الحرب الأهلية في الصومال... أسوأ من حين سبقها صديق إلى النروج... أسوأ من وصولها إلى ذلك البلد البارد المتجمد. بعد مكالمتها الأخيرة مع أيان حين توسلت إلى ابنتها لتعود إلى المنزل مع أبيها وعرفت أن أيان قد تزوجت شعرت بفراغ في روحها كما لم تعد تسمع أي خبر من ابنتيها أو من صديق، فخشيت أن يكونوا ثلاثتهم قد لقوا حتفهم... ربما تم إطلاق النار عليهم...

كلهم سوية؟ ربما بقيت جثثهم في الصحراء لتتآكل تحت الشمس الحارقة؟ هل أصبح أبناؤها أيتاماً؟

كانت كل يوم تشعر بالرعب خوفاً من أن تأتي خدمات رعاية الطفل ليأخذوا جبريل وإسحاق وعليها أن تجعل الأمر يبدو وكأنها أم يمكنها التعامل مع الوضع.

وحين اتصل صديق في النهاية غمرها شعور بالراحة:

- أنت على قيد الحياة!

لكن سرعان ما سيطر اليأس من جديد حين عرفت أنه وحده وأن الفتاتين ما تزالان مع تلك المجموعة الخطرة.

كتبت إيلا:

- أشعلي التلفاز!

كان ذلك في بداية ديسمبر وقد بدأت أخبار المساء للتو.

كتبت إيفانا:

- تباً! لقد أدركت ذلك للتو!
- وأنا أيضاً... أمر لا يمكن تصديقه! أينبغي أن نزور عائلتها غداً؟ لنظهر لهم الدعم؟
- لا أدري... لم أتكلم معهم كثيراً من قبل ولا أدري إن كنت أرغب بالمرور عليهم أو إن كان من المناسب زيارتهم وهم يحاولون إبقاء الأمور بعيداً عن الصحافة.
- نعم... فهمت... وأنا أيضاً لا أدري ماذا أقول.

لقد كانوا فيما مضى لا ينفصلون عن بعضهم أما الآن فإيلا تغني في فرقة بوب وإيفانا ستتجه عما قريب إلى أستراليا للدراسة هناك في حين ذهبت أيان للمشاركة في حرب مقدسة.

ركز المراهقون في غرف نومهم في بيرم على تغطية وسائل الإعلان حيث

ظهر خط جديد على صفحة الفيسبوك الخاصة بصف ليلى:

- لقد أصيبت ليلى.
- جسدياً؟
- نعم... أصيبت بالرصاص.
- يا إلهي.
- هل تم إعلان ذلك في الأخبار؟
- نعم.
- أخبرتني أمل منذ أسبوع أن ليلى أصيبت لكنني لم أصدق ذلك.
- تذكر الصحيفة أن والدهما وجدهما.
- الحمد لله.
- وجدهما والدهما لكن ليلى مصابة بطلق ناري.
- لا! هل أنت متأكد؟
- ماذا؟!

بعد وصول صديق إلى البلاد استجوبته قوات الأمن إذ كانوا يريدون معرفة فكرة عامة عن الميليشيات المختلفة في سوريا وكيفية عملها، وقد اكتسب صديق بعض المعلومات خلال الوقت الذي أمضاه مع عثمان بالإضافة إلى اطلاعه على ظروف سجون داعش. وقد كانت قوات الاستخبارات مهتمة على نحو خاص بالجهاديين النروجيين في سوريا... هل تكلم مع أي منهم؟

حين غادرت الفتاتان طلب صديق المشورة من غير ليبستاد الذي اشتهر كمحامي الدفاع للإرهابي اليميني أنديرس بيهرينغ بريفيك إذ إن ليبستاد المحامي الوحيد الذي سمع به صديق وبالتالي قام بالاتصال به. والآن أصبح المحامي يتكلم مع وسائل الإعلام باسم العائلة وأخبر وكالة الأنباء الحكومية أن الفتاتين ستغادران سوريا ما إن تتمكن الفتاة الصغرى من الوقوف على قدميها من جديد.

وقد تفاجأ أحد الشباب الصوماليين من أصدقاء هشام حين سمع بالخبر... هل ستترك أيان صديقه بعد شهر واحد من الزواج؟

كان الشاب يعرف كلاً من أيان وهشام كما أنه صديق لأستاذ القرآن مصطفى الذي تبادل الرسائل مع أيان قبل أن تغادر... رسائل افترض أنها عن الرحلة إلى سوريا... هل ستنتهي إقامة أيان وليلى في سوريا بهذه السرعة؟

اتصل بهشام في سوريا ليسأله إن كان ذلك صحيحاً.

فرد هشام:

- اهدأ يا أخي ولا تصدق كل ما تسمعه!

- ماذا حصل؟

كان يريد السفر إلى سوريا أيضاً كما أنه من الأشخاص القليلين المطلعين على مخططات أيان وحثها على إعادة النظر في الأمر لا لأنه لا يدعم الجهاد وإنما لأنه يعتقد أن على النساء ألا يذهبن حتى يتوقف القتال... الحرب ليست مكاناً ملائماً لهن... لكن أيان استاءت من ذلك.

فقال لها:

- بغض النظر عن مدى رغبتي بالذهاب لكنني لا أستطيع فعل ذلك بأمي.

فابتسمت أيان بكل بساطة وقالت إنها تفعل ذلك من أجل والديها أيضاً.

كان صديق هشام يعرف أنه إن غادر فسيحطم قلب أمه التي كانت امرأة صومالية تقليدية كسارة.

- يا أخي هشام! ماذا حصل؟ أخبرني!

- لقد جاء أبوها وبدأ بتهديدها أنها إن لم تعد معه فإنه سيفعل كذا وكذا، وقد أخبرته أيان مراراً وتكراراً أنهما تريدان البقاء في سوريا ولن تعودا إلى النروج.

- أوه صحيح.

- أي أن كل ما سمعته مجرد أكاذيب.

- حسناً... جيد.
- لقد فقد أعصابه حين رفضت الذهاب معه وهدد بقتلها قائلاً إنه سيخنقها بيديه الاثنتين مما اضطر الحراس لسحبه بعيداً عنها ثم صرخ أن عقوبة عصيان الوالدين هي الموت.
- واو! إذن لن تعودا؟
- لا تنويان ذلك... لا.
- حسناً... استمتعوا!

في أطمه خاب أمل الشباب في مجموعة عثمان لعودة صديق إلى وطنه دون أن ينقذ ابنتيه... كيف يمكنه تركهما مع داعش بهذه البساطة؟ كان ينبغي أن يبقى لوقت أطول ويبذل جهداً أكبر بلا استسلام... لقد فشل في مهمته.

في منتصف نوفمبر بعد سجن صديق اندلع القتال في البلدة الحدودية حيث كان النزاع على سبع شاحنات محملة بالسلاح أرسلتها القيادة العادة للجيش السوري الحر في تركيا إذ ستنطلق الشاحنات من أطمه وتوزع حمولتها في أرجاء المنطقة لكن صقور الشام وهي حركة إسلامية معتدلة انشقت عن الجيش السوري الحر طالبت بحصتها.

استمرت المناوشات لبضع ساعات حتى تم التوصل إلى حل، وعند توقف إطلاق الرصاص وبينما كانت الفصائل المختلفة تضمد جراحها دخلت مجموعة من جنود داعش البلدة بهدوء وركنوا سيارتهم خارج مقر صقور الشام وفجروه. وبعد تبادل إطلاق النار لفترة قصيرة قاموا باعتقال قائد الميليشيا المحلية مع عشرات الرجال وقادوهم إلى الدانة حيث كان صديق مسجوناً أما في أطمه فبدأ مقاتلو داعش المدججون بالسلاح بوضع نقاط التفتيش.

وقف رجال النصرة يراقبون لأن داعش لم تهاجم سوى أراضي صقور الشام لكن بعد فترة وجيزة تم الهجوم على النصرة وسيطرت داعش على طرق الدخول إلى أطمه والخروج منها بما في ذلك الطريق الملتوي بينما

بقيت النصرة مسيطرة على أجزاء غير ذات أهمية في البلدة. بالنسبة لمنافسي داعش تعتبر أطمه خسارة استراتيجية كبيرة لأن الأسد لا يمطرها بصواريخه بسبب قربها من الحدود التركية.

بعد السيطرة بدأ الإسلاميون المتطرفون بحملة تطهير حيث قاموا باعتقال الرجال وحذروا النساء من الخروج دون محرم كما فتشت داعش المتاجر بحثاً عن بضائع محرمة كالسجائر والكحول. وقد عرف الجميع أن هذه السلطات الجديدة قوية واستسلموا لمطالبها.

بعد بضع ساعات من السيطرة على السكان بدأت داعش بالعمل ضد الطبيعة حيث أزعجتهم شجرة بلوط يزيد محيط جذعها على محيط أذرع أربعة رجال حيث رأى الجهاديون أن الشجرة تبدو متكبرة واتهموا السكان بعبادتها. وفي نفس الأمسية التي سيطروا فيها على البلدة قاموا بقطع الشجرة ليجدوا 150 حلقة نمو في الجذع.

- الحمد لله جل جلاله أنه تمت إزالة هذه الشجرة القديمة بعد أن كان الناس يعبدونها بدلاً من الله.

هذا ما نشره أحد الجهاديين على واحد من حسابات دعوتنا هي جهادنا على تويتر ووضع صورة رجل مقنع يرتدي ملابس سوداء ويحمل منشاراً وأمامه الشجرة المقطوعة، وقد وضعوا علماً أسود في الجذع الضخم.

بعد فترة قصيرة من رجوع صديق إلى بيرم ظهر نص على موقع إلكتروني كتبه الشباب الذين رافقوه خلال إقامته ويحمل عنوان «القصة الخفية للفتاتين الصوماليتين النروجيتين اللتين انضمتا إلى داعش» وتم نسب القصة إلى المجاهد جزراوي.

«قد تكونوا قرأتم في وسائل الإعلام عن الأختين الصوماليتين الشابتين اللتين تركتا عائلتهما لتنضما إلى داعش قبل بضعة أشهر وكيف لحق بهما والدهما وكيف ظنناهما أسيرتين لدى العصابات. لقد بقيت الكثير من الأسئلة

بلا جواب كما بقيت التفاصيل مبهمة لكننا اليوم سنقدم لكم القصة الحقيقية لمصيرهما ونأمل أن يكون هذا تحذيراً ودعوة للصحوة لكل أخواتنا إن شاء الله».

وكتب الجندي أن ابنتي صديق تركتا رسالة في المنزل في النروج مكتوب فيها:

«لقد علمتمونا الجهاد نظرياً وسنطبقه الآن عملياً».

«بدأنا نسأل من حولنا وأصدر أمراء الكتائب أوامر لرجالهم أن يبقوا متيقظين أما الأب فأخبرنا أن ابنتيه رهينتين. وبعد بعض الوقت تلقى مكالمة هاتفية من ابنته».

وكتب الجزراوي أن الإخوة – كما كان يشير إلى رفاقه الجنود – توجهوا إلى موقع محدد مسبقاً ظناً منهم أنهم سيتفاوضون على فدية لإطلاق سراح الفتاتين لكنهم فوجؤا حين أتى رجل أسود نيجيري ومعه الفتاتين في المقعد الخلفي لسيارته، فأوقفه الأخوة ليتبع ذلك حديث محموم واستدار النيجيري بسيارته وانطلق بينما فتح الأخوة النار على السيارة التي توقفت على نقطة تفتيش لداعش في أطمه حيث طلب السائق المساعدة لكونه واحداً منهم، فحاصر مقاتلو داعش الأخوة وبدأ إطلاق النار.

بعد أن أصيبت إحدى الابنتين في ساقها توجه الجميع إلى المحكمة في أطمه فأخبروهم أنه سيتم البت في القضية في المحكمة في الدانة، وهناك تم إبلاغه أن ابنته الكبرى تزوجت أحد مقاتلي داعش من خلال عقد شرعي في المحكمة نفسها! ثم زجوا به في السجن لاثني عشر يوماً أمضى تسعة منها في سجن انفرادي وتم اتهامه بالتجسس لصالح تركيا! وتمت إهانته وتعذيبه كما هدد مدير سجن داعش بقتله.

ثم كتب جندي النصرة أن قاضياً يدعى النجدي هو من قرر مصير الأب.

لقد طلب القاضي من المدعين أن يحضروا دليلاً ضده لكنهم لم يستطيعوا تقديم شيء يثبت كفره أو كونه جاسوساً فحكم القاضي ببراءته

وإطلاق سراحه مما أغضب مدير السجن الذي احتج على الحكم!

وفي أطمه التقى المقاتل بصديق في منزل عثمان فسأله:

- ماذا عن ابنتيك؟

فأجابه:

- لم أستطع فعل شيء من أجلهما فقد منعوني حتى من الجلوس معهما!

وكتب الجندي:

- حاولت أن أجعله يغير رأيه ووعدت بحمايته وفعل كل ما بوسعنا لضمان إطلاق سراح ابنتيه لكنه رفض وأصر على الرحيل لينجو بنفسه من القتل.

فيما بعد التقى الجندي الشاب بالنيجيري وناقش معه موضوع زواجه بالابنة الكبرى قائلاً:

- كيف يمكنك أن تتزوج من فتاة دون إذن أبيها؟

فأجاب:

- ليس لأبيها وصاية عليها وإنما البغدادي هو وليها! لقد تزوجنا بعقد شرعي قانوني!

بذلت قصارى جهدي لأجعله يفهم مفهوم السلطة الأبوية ثم تركته إذ كانت تنقصه المهارة باللغة العربية كما أنه بكل بساطة جاهل.

كانت هذه الحادثة واحدة من حوادث كثيرة ناتجة عن حث قادة داعش النساء على المجيء إلى هنا ليتركن أرض الكفار ويهاجرن إلى دار الإسلام ومعاقلهم في الرقة من خلال قول إن ذلك واجب عليهن.

اقترب عيد الميلاد.

كان صديق وسارة يعيشان في دوامة حيث ينام صديق طوال النهار وتبكي سارة طوال الليل ويشغلان نفسيهما بأي شيء وهما يعيشان في حزن ووحدة.

توقفت الأيام... كانا يتجهان إلى السوبرماركت ليجدا نفسيهما يتساءلان:

- ماذا نفعل هنا؟

لقد انهارت حياتهما وبدت أبسط الأشياء غير ممكنة، وحين يخرجان بين الفينة والأخرى من الفوضى والعزلة المسيطرين على ذهنيهما يتعاملان بعصبية شديدة.

سمعت سارة عن بعض الشباب الذين سافروا إلى سوريا وعادوا إلى البلاد كما سمعت عن أطفال تم إنقاذهم، وأخبرها أصدقاؤها عن آباء في السويد تلقوا المساعدة من الدولة ليخرجوا أبناءهم كما حصلوا على المال والتذاكر وجوازات السفر. وقد دفعت السلطات السويدية للوالدين لقاء إقامتهم في تركيا وهم يبحثون عن أبنائهم.

قالت سارة وهي تلقي باللوم على الدولة التي لم تفعل ذلك:

- أريد تسليم جواز السفر النروجي والانتقال إلى السويد.

كما لامت موظفي الحدود لعدم إيقاف الفتاتين.

ما من لوم على ابنتيها لأنهما ما كانتا لتذهبا.

كان جسده في النروج وعقله في سوريا كما أنه ما يزال في إجازة مرضية لعدم قدرته على العمل لكن الآن ليس بسبب كتفه فحسب.

كان يمضي الليل مستيقظاً يدخن وأحياناً يغط في النوم ليستيقظ مبللاً بالعرق وفزعاً من كوابيسه. حلم أنه كان في الزنزانة وشعر بالسكين على حنجرته أو أنه يركض وراء ابنتيه وهما تهربان منه. وفي إحدى المرات رآه مدير الاندماج في مقاطعة بيرم إخلاق خان يقف في طرف مركز ساندفيكا للتسوق يتكلم مع نفسه. كان خان يعرف صديق من الاجتماعات التي نظمها للآباء المهاجرين فاقترب منه لكن صديق ظل يحدق بنقطة بعيدة وهو يتكلم مع نفسه. كان يتكلم بالصومالية مع بعض الكلمات النروجية قبل أن يغادر مركز التسوق على نحو مفاجئ. وبعد فترة قصيرة مر خان بصديق في المرأب

فوجده على طبيعته حيث حياه صديق بود فتوقف مدير الاندماج وسأله عن حاله ليخبره صديق عن رحلته المثيرة إلى سوريا.

مضى كل واحد في طريقه وأخبره خان أن لا يتردد في التواصل معه إن احتاج أي شيء.

جاء إلى صديق أحد معارفه من مسجد ساندفيكا وأثنى على فعلة ابنتيه.

- يا للهدية التي منحوك إياها! إن تضحيتهما تمهد الطريق إلى الجنة لكل عائلتك.

فانفجر صديق في وجهه:

- إذن أرسل أبناءك إلى هناك! أرسلهم!

فغير الرجل الموضوع لكن صديق لم يلن:

- احتفظ بآرائك لنفسك ريثما ترسل أبناءك إلى سوريا.

بدأ الثلج يتساقط لتنتشر ملاءة بيضاء تغطي مرتفعات كوسلاس... واقتربت نهاية العام وهكذا دخل صديق في مرحلة سبات.

22

رجل لطيف رائع

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا لم نفعل يا إسماعيل وإنما كان الأمر برمته سوء تفاهم... كيف حالك وباقي العائلة؟ ليس لدينا الكثير من الوقت لذا أجب بسرعة!!!».

مر أسبوعان منذ أن سأل إسماعيل أيان إن كانت هي وليلى من أرسلتا أحداً ليقتل والدهما.

وأخيراً اتصلت بالإنترنت! أرسل إسماعيل سؤالاً آخر:

- هل ستتزوجين؟؟؟!!! في سوريا؟
- لقد تزوجت. افتح سكايب! أين أنت؟
- أنا في المدرسة. لا أدري إن كان علي أن أفرح أو أحزن.
- المشكلة أن الجميع يعرف بقصتنا.
- ماذا تقصدين؟
- لم نرسل أحداً ليقتل بابا لكنه قال إنه يتعاون مع الأمن والشرطة في الأخبار... العالم برمته يعرف... التجسس على المسلمين أمر خطير للغاية ولهذا فقد استدعته المحكمة لاستجوابه وطرحوا عليه الكثير من الأسئلة كما حاولوا معرفة إن كان جاسوساً أم لا... ليس للأمر علاقة بنا... نحن لم نرسل أحداً... ثم تمت تبرئته وإطلاق سراحه... لم يحاول أحد قتله وإنما الأمر كما يحصل حين تحتجزك الشرطة في النروج لأنهم يحققون في قضية. هذا لا يعني أنهم يحاولون حبسك أو قتلك.. لقد ظنوه جاسوساً بسبب كل الرسائل بينه وبين الشرطة.
- قال إنهم ضربوه لكن في كل الأحوال لا يهمني ذلك... إنني قلق

عليكما.
- هل أخبرك أن ليلى أصيبت بسببه؟
- نعم في قدمها؟
- لأنه قال إننا مختطفتان وهو أمر كذب... أين ضربوه؟
- في الزنزانة.
- في أي مكان من جسمه؟ بماذا؟
- على معدته بمؤخرة بندقية... لم لا تذهبان إلى الصومال فحسب.
- هذا ممكن لكننا لا نريد الذهاب إلى بلد لا يتم فيه ممارسة الإسلام على نحو صحيح وحيث الشريعة غير موجودة... بالمناسبة ينبغي أن تفرح لزواجي فهو رجل جيد.
- عرفت أن هذا سيحصل.
- ماذا؟
- أنكما ستتزوجان هناك.
- هههههـ... اسمع... ليست لنا أية علاقة بما حصل مع بابا. بسببه تحطمت سيارة زوجي وتمزقت ملابسنا وأصيبت ليلى، ولهذا من الطبيعي أن ترغب السلطات هنا أن تدرس الوضع.
- بصراحة سأكون أكثر سعادة إن ذهبت أنا إلى سوريا ولقيت حتفي من أجل شيء لا أؤمن به إن كان ذلك يعني عودتنا إلى البيت.
- يؤسفني أن الأمر صعب عليك لهذه الدرجة... كيف حال المدرسة؟
- ليست جيدة.
- لِمَ لا؟
- أشعر بالتشتت ولا أستطيع النوم... أريدكما أن تعودا إلى البيت.
- ركز... نحن بخير هنا يا إسماعيل! نحن نعيش في بيت كبير وجميل له حديقة كبيرة وجميلة وتعلمت قيادة السيارة... ما كان ينبغي لك أن تصدق أنني قد أرغب أنا أو زوجي بقتل بابا.

- من زوجك؟ من أين التقيته؟
- عن طريق أصدقاء.
- كيف استطعتما الزواج بكل بساطة؟
- إنه رجل جيد ولهذا تزوجته.
- هل ماما وبابا راضيان؟
- لا... لسوء الحظ لا.
- هل هو على الفيسبوك؟ هل هو من سوريا؟
- لا... من بيرم.
- هل كان متزوجاً من قبل؟
- لا... إنه هنا... هل تريد أن تتكلم معه؟
- ما اسمه؟
- هل تريد أن تتكلم معه؟
- هل كان يذهب إلى مسجد الرابطة؟ ما خلفيته العرقية؟
- هل تريد أن تتكلم معه؟
- أنا في الصف ولا أستطيع الحديث.
- هشام من أريتيريا ولم يكن يذهب إلى الرابطة.
- هشام...؟
- نعم.
- اسم عائلته؟
- هشام عبد القادر. هل ماما بخير؟ كيف حالها؟
- مصابة في معصميها... لا شيء آخر.
- ألديك أسئلة أخرى عن زوجي؟
- لماذا أنتما في سوريا وليس في أريتيريا؟
- لأن الجهاد في أريتيريا قد انتهى هههه.
- أو الصومال؟

- لم آتِ إلى هنا لأتزوج.
- بلى.
- والله لم أفعل.
- أظنك تعرفين الحقيقة بنفسك... إنها واضحة وجلية.
- صدق ما تريد... الحقيقة هي أنني أتيت إلى هنا لأقيم في بلاد الجهاد.
- هل سيخرج زوجك ويجاهد إذن؟
- لقد جاء قبلي بوقت طويل.
- نعم أو لا؟
- كلانا نجاهد كما أنه يذهب أحياناً للقتال... المكان الذي نعيش فيه هادئ لكننا نسمع أصوات القتال من بعيد.
- إذن أنت حامل... وهو يذهب للجهاد في بعض الأحيان... يبدو رائعاً.
- لست حامل.
- تخيلي لو أن شيئاً حصل له... ماذا بعد؟
- حينها سأنتظر حتى أتمكن من الزواج من جديد.
- ستتزوجين المجاهد التالي؟ هذا يبدو مقززاً.
- أليس كل الناس يتزوجون ويتطلقون ويتزوجون من جديد في النروج؟ لا تفكر في الأمر على أنه مقزز يا إسماعيل... نحن نحاول أن نعيش حياة طبيعية هنا.
- سيموت ثم تحاولين إرضاء التالي بعد وفاة الأول.
- لقد جئت إلى هنا لكي أستشهد لا لأكون مومساً... لا تحاول الإساءة لي!!
- هذا ما هو عليه الوضع إن لم تشاركي في القتال بنفسك مباشرة وعشت في منطقة هادئة... بالمناسبة كيف حال ليلى؟
- جيدة... جرحها يتعافى... لم يكن خطراً جداً.

في النهاية لخصت أيان ما تريد قوله من خلال سلسلة من النقاط:

1. لم نرسل أحداً لقتل بابا!
2. لم نأتِ إلى هنا لإرضاء أحد سوى الله.
3. نحن سعيدتان.

- فقط لم أحب فكرة أن تتزوجي مراراً وتكراراً... ليس لدي أي اعتراض على زواجك من ذلك الشخص لكن أن تعرفي أنه سيموت في الحرب وتخططي للانتقال بسرعة إلى رجل آخر.
- أنا الآن متزوجة من رجل لطيف ورائع أحبه للغاية وسيكون بإذن الله الشخص الوحيد الذي أتزوجه وأشيخ معه... لا أحد يدري متى سيموت ولا يمكنني تخيل الحياة بدونه لذا انس موضوع الزواج مرة أخرى.
- أعرف أنه لن يبقى على قيد الحياة لوقت طويل إن استمر بالخروج للقتال.
- ليس الأمر كذلك... هههه... إنه لا يخرج للقتال كثيراً... هههه.

23

غنائم حرب

أرسلت ليلى إلى إسماعيل صورة تظهر قدمها المضمدة ومكتوب تحتها:

- أنا من أصبت أولاً... هههه.

ارتعش إسماعيل... يا لحماقة أخته! كيف يمكنها أن تمزح حول شيء كهذا؟

فيما بعد أخبرته عبر الهاتف أن قدمها شفيت ببركة الله.

- حسناً عودي إلى البيت.
- لا... أنت تعال إلى هنا. لدينا منزل كبير وجميل وحديقة خاصة بنا كما لدينا أرانب بيضاء وسوداء ورمادية... إنها تثير الفوضى في المطبخ وتأكل خبزنا.
- لقد خاطر بابا بحياته من أجلكما لكنكما اتهمتماه بالجاسوسية وحاولتما قتله.
- إن كان جاسوساً فينبغي أن يلقى جزاءه.

لقد كتبت الفتاتان حين غادرتا أنهما تريدان مساعدة المسلمين ومساندتهما في السراء والضراء ولهذا قررتا السفر إلى سوريا لمساعدتهم هناك قدر ما تستطيعان. إلا أنهما لا تساعدان أحداً فقد سمح هشام للأختين بالتطوع في مشفى لفترة قصيرة حيث كان يوصلهما ثم يعود ويأخذهما.

لقد أدت إجراءات المشفى الإسلامية إلى مغادرة عدد كبير من الموظفين حيث هرب الكثيرون إلى تركيا والأطباء الذين لم يصلوا في حياتهم أصبحوا مجبرين على الصلاة خمس مرات في اليوم أما الممرضات فيغطين أنفسهن

بالكامل وهن يعملن ولم يكن مسموحا للأطباء الذكور أن يروا وجوه مرضاهم من الإناث.

كانت أيان وليلى تحاولان المساعدة.

ثم غير هشام رأيه وقال إن المشفى ليس مكاناً جيداً لهما ومن الأفضل أن تبقيا في المنزل.

لأن المرأة حين تغادر المنزل يتبعها الشيطان دائماً.

بدأ طلاب صف ليلى يتداولون موضوعاً جديداً على صفحة الدردشة الخاصة بهم.

ذكرت الصحيفة أن لدى ليلى حبيب وأنها في الأغلب سافرت بسببه... هل يعرف أحد منكم أن لديها حبيباً؟

كاميلا:

- دائماً ما كانت تقول إنها بسبب دينها لم تتخذ ولن تتخذ حبيباً لكن لا يمكننا أن نعرف.

ألكسندر:

- كانت غير اجتماعية... ربما لم تخبر أحداً سوى أختها.

كاميلا:

- لا نعرف إن كانت غير اجتماعية أو لا لأنه ليست لدينا أدنى فكرة عما تفعله في وقت فراغها.

فريدجوف:

- هههههه هذا صحيح.

ألكسندر:

- لقد كانت غير اجتماعية في الصف ولم تذهب في أية رحلة مدرسية ولم تحضر حفل التخرج أو الحفل في منزل أولريك.

جوكيم:

- لا أعتقد أن لذلك علاقة بكونها اجتماعية أو لا وإنما الموضوع مرتبط بالجانب الديني.

فريدجوف:

- لكنني أحترم بشدة جرأتها على الذهاب إلى هناك.

كاميلا:

- أوافقك الرأي يا فريدجوف... إنها إنسانة في غاية الجرأة.

ألكسندر:

- أتمزحان؟؟

فريدجوف:

- حول ماذا؟ اسمع... قد يكون ما فعلته غبياً لكنها تتمتع بالشجاعة... هناك جهاد وقتل هناك.

ألكسندر:

- نعم لكنها لا تستحق أي احترام... ما الأمر الجيد الذي فعلته؟

فريدجوف:

- إنها تستحق الاحترام حتى لو كان ما فعلته أمراً غبياً... لقد تركت كل ما لديها لتذهب وتساعد أشخاصاً غرباء.

ألكسندر:

- فهمت قصدك لكنني لا أحترمها على الإطلاق.

كان زملاؤها في الصف يتكلمون عنها كثيراً حيث قالت إيميلي لصوفي في إحدى الاستراحات وهما تدرسان في ناديرود وهي أرقى مدرسة ثانوية في بيرم:

- لقد عاملتها إدارة المدرسة معاملة جيدة... ربما شعرت بالوحدة لكنها لم تكن من الأشخاص الذين يسهل الحديث معهم.

قالت صوفي:

- لم تكن جيدة ومتفائلة لكنها أيضاً لم تكن شريرة.

اتفقتا على أنه سيكون من الأسهل لها إن ذهبت إلى مدرسة حيث يوجد عدد أكبر من أشخاص مثلها من المسلمين.

ثم تذكرتا ما قالته مرة عن يوم الحساب:

- إنه كمفترق طرق... طريق يؤدي إلى الجنة وطريق يؤدي إلى الجحيم.

فسألتها إيميلي حينها:

- أين سأذهب أنا.

لترد عليها ليلى:

- بسبب ملابسك وعدم تغطيتك لشعرك وعدم كونك مسلمة ستذهبين إلى الجحيم.

وحين رأت الصدمة على وجه إيميلي راوغت ليلى قليلاً:

- ربما تكونين بخير... سنضحي بأنفسنا لأجلكم جميعاً.

فكرت صوفي بتلك الكلمات:

- هل هذا ما تفعله الآن؟ هل هي تضحي بنفسها من أجلنا؟

ردت إيميلي:

- ليست لديّ أدنى فكرة... ماذا تفعل هناك؟ أتظنينها تقدم خدمات جنسية هناك؟

في أول شهرين لهما في سوريا أقامت الفتاتان في مواقع مختلفة حسب عمل هشام حيث بقيتا في الدانة والطبقة ثم انتقلتا إلى محافظة حلب، وفي بداية 2014 انتقل هشام وأيان إلى الرقة حيث سيطرت داعش مؤخراً ورافقتهما ليلى وهم يحاولون العثور على زوج مناسب لليلى التي كانت تتعافى من إصابتها بالرصاص في قدمها.

انهزمت الميليشيات واحدة تلو الأخرى وارتفعت الراية السوداء في أنحاء المدينة.

اعتقلت داعش من تريد متى أرادت وأينما أرادت.

كانت التهم متعددة.

سراويل الجينز ممنوعة... الزينة على ملابس النساء أيضاً... التدخين يعني المخاطرة بفقدان أصابعك التي تمسك السيجارة بينها... الشعر الطويل للرجال ممنوع... إطالة اللحى إجباري... كل من يطمح للحرية تم قتله أو هرب.

استولى الشباب الثلاثة من بيرم على منزل فارغ حيث لم يكن هناك أحد يسكنه لكنه مليء بكل ما يحتاجه المرء... ملاءات أسرة ومناشف وقدور وأطباق وأجهزة إلكترونية.

أولئك الذين لا يدعمون داعش اختفوا أو التزموا الصمت باستثناء مجموعة صغيرة ووحيدة تسمي نفسها «الرقة تذبح بصمت» قامت بنشر صور على الإنترنت ونقل ما لا تريد داعش أن يعرفه العالم... ورأى زعماء أهم قبائل الرقة في أي اتجاه تهب الريح فأعلنوا ولاءهم لأبي بكر البغدادي، وهكذا فإن القوة الجديدة التي تحتل المدينة حلت محل حكم الأسد وإرهابه.

كل شيء يسير وفقاً لخطة حجي بكر.

كان هشام أحد البيادق حيث ارتقى صائد السمك بين الرتب ليصبح قائد فرقة من الجنود إذ إنه وصل إلى سوريا باكراً في خريف 2012 مما جعله يحظى بالأفضلية لقدمه. في البداية انضم إلى النصرة ثم انتقل فيما بعد إلى داعش عندما سنحت الفرصة. بدأ يتعلم عن الإسلام ليصبح مسلماً صالحاً إذ كانوا هنا يتعاملون مع الجميع بنفس المستوى مهما كنت مطلعاً على تعاليم الإسلام وكأنها أول مرة تسمع بها عن الإسلام. بالنسبة للبعض كانت المواد مألوفة أما بالنسبة للآخرين فهناك الكثير من المعلومات الجديدة... لم يفهم هشام الكثير حيث كانت الدروس باللغتين العربية والإنكليزية. قبل الدراسة الدينية يخضع المقاتلون الطموحون إلى سلسلة من اختبارات الصبر كأن يضعوك في غرفة مع بعض القادمين الجدد الآخرين لتجلس وتطهو الطعام...

قد يبقون لوحدهم لعدة أيام دون أية معرفة بما قد يحصل أو متى مما جعل البعض يصابون بالذعر. من الضروري بالنسبة إلى أي جندي أن يحافظ على هدوئه ويبقى منتظراً ورأسه منخفض بانتظار الأوامر... المقاتل الجيد يجري الثلج في عروقه.

بعد أسابيع من التدريب على الصبر والدروس الدينية بدأ المجندون الجدد التدريب على استخدام السلاح.

كانت أعلى المناصب في داعش مخصصة لأشخاص يتم اختيارهم بعناية، وكما هو الحال مع أبي بكر البغدادي فإن معظم القادة العسكريين رفيعي المستوى من العراقيين إذ إن داعش في الأصل تنظيم عراقي. وفي المحاكم يشغل السعوديون أعلى المناصب يليهم التوانسة بينما يعمل العرب القادمون من الخليج في الاستخبارات، وهناك الكثير من الشيشان الذين يتمتعون بخبرة قيمة في حرب العصابات يشغلون مناصب متوسطة في الجيش.

إلا أن هناك فرصة كبيرة للتقدم على الرغم من هذه الهرمية المفروضة عمداً حيث يجد شباب ليست لديهم أية خبرة بجعل الناس يطيعونهم أو لم يشغلوا أية وظائف في الغرب أنفسهم في مناصب قيادية... رجال مثل هشام.

كان الذكور المسلمون الشباب قد انخرطوا في الحرب المقدسة سابقاً في أفغانستان أو العراق أو البوسنة أو الصومال، وفي ذلك السياق كان هشام جزءاً من ذلك لكن الجديد في الأمر هو السرعة التي حصل فيها ذلك وتدفق الإناث اللواتي معظمهن من المراهقات. وبحلول خريف 2013 وصل عدد المهاجرين الغربيين إلى سوريا إلى ثلاثة آلاف منهم عدة مئات من النساء.

ما الذي جعل النساء الشابات يتخلين عن عائلاتهن وأصدقائهن ودراستهن للسفر إلى منطقة حرب؟

حاولت مجموعة من الباحثين في معهد للحوار الاستراتيجي في لندن الوصول إلى إجابة على الإنترنت أو على تويتر أو في المدونات فهذه هي

الأماكن التي اختارتها الفتيات لتشرح سبب ذهابها وخلصت في النهاية إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

السبب الأول هو أن الأمة تتعرض لهجوم فالغرب يريد القضاء على الإسلام وطرد المسلمين.

تم تقديم النزاع كجزء من حرب أكبر ضد الإسلام، وشاركت الفتيات صوراً لأطفال قتلى أو جرحى من فلسطين وسوريا وأفغانستان وكانوا يتعاملون بمنظور الأبيض أو الأسود:

- إما أنك في معسكر الإيمان أو أنك في معسكر الكفر... ما من مكان وسط.

هذا ما أعلنته أم خطاب وهي واحدة من أكثر المغردين فاعلية على تويتر عام 2014 حيث كتبت هي وكثيرات غيرها تحت اسم مستعار كما أن الكثير من النساء استخدمن لقب «أم» في اللغة العربية وكانت ترى أنه لا يمكن للمسلمين العيش في الغرب.

السبب الثاني هو الرغبة بإقامة خلافة حيث سافرت بعض النساء بهدف الانخراط في القتال لكنهن أصبن بخيبة أمل لأن داعش لا تسمح للنساء بالاقتراب من خط الجبهة وإنما تترك ذلك كميزة للرجال، ولا تتلقى أية نساء تدريباً على استخدام السلاح سوى أولئك المسؤولات عن أخلاق النساء في كتيبة «الخنساء» للشرطة النسوية حيث كن يجلن شوارع الرقة حاملات بنادق الكلاشينكوف على أكتافهن.

سافرت المهاجرات حاملات فكرة بناء مجتمع جديد يقوم على شرع الله ودولة نقية عقدياً وجنة للأصوليين، وذكرت بعضهن الدعوة لمساعدة الآخرين كما أرادت أخريات أن يصبحن زوجات وأمهات، فالكثير ممن ذهبن إلى هناك للزواج لم يكن لديهن حبيب فيما مضى.

السبب الرئيسي الثالث هو الهوية والواجب الفردي، فتأدية واجبك الديني وأنت على الأرض سيضمن لك مكاناً في الفردوس. وكتبت أخريات

أنه ليست لديهن رغبة بالعيش في هذا العالم على الإطلاق وأنهن يتقن للحياة الآخرة. وكأيان كتبت أم خطاب شعار الجهاديين في أنحاء العالم:

- نحن نحب الموت أكثر مما تحبون الحياة.

كان البحث عن الإحساس بالانتماء كخيط أحمر بين رسائل تويتر حيث كتبت كثيرات عن الأخوة التي شعرن بها في سوريا بعكس الصداقة السطحية والزائفة التي جربنها في الغرب.

أما أم إرهاب فكتبت أنها ليست في نيتها السعي وراء حياة أفضل إذ إن رحلتها تعطي درساً في السفر والمشقة كما أن معنى الفردوس سيتضح من خلال التجارب التي مرت بها وجعلتها تكتشف إن كانت تستحق دخول الجنة بالإضافة إلى أنها لا تجني ثمار اتباع سبيل الله في الفردوس وحسب وإنما يمكنها أيضاً أن تحصل على ما تريد في هذه الحياة على سبيل المثال وتحظى بزوج نبيل وشجاع، وإن شاء الله قد تحظين بفرصة الزواج من شهيد.

كانت النساء غير المتزوجات تتم دعوتهن «المهاجرات» ويبقين في مقر ولا يسمح لهن بالخروج دون إذن إلا لسبب ضروري للغاية وتذهب معهن مرافقة. أما إن احتجن لشيء فعليهن الطلب من الإدارة. كانت اللواتي وصلن يشرحن النظام لأولئك اللواتي يخططن للقدوم إذ من الضروري أن تأتي بدافع النية الجيدة حيث كتبت أم ليث إحدى الناشطات على وسائل التواصل الاجتماعي:

- الحقيقة هو أن بقاءك هنا دون رجل أمر في غاية الصعوبة. لقد أكدت على هذه النقطة من قبل في تويتر لكنني أريد من الأخوات أن يتوقفن عن الحلم بالمجيء إلى سوريا دون زواج... والله أن الحياة هنا صعبة للغاية بالنسبة للمهاجرات ونحن نعتمد على الإخوان كثيراً.... الأمر مختلف عما هو عليه في الغرب حيث يمكنك الذهاب متى شئت وبكل بساطة إلى المتجر ثم العودة إلى المنزل بسيارتك...

حين يتزوجن وهو أمر يفعلنه سريعاً وغالباً فور وصولهن يتم إعطاؤهن

مكاناً ليقطن فيه يتناسب مع مكانة الزوج.

هناك امرأة ماليزية تسمي نفسها «عصفور الجنان» تزوجت من مغربي لم تره قط قبل يوم زفافهما ووصفت الحياة في الخلافة من ناحية التكاليف:

1. نحن لا ندفع أجرة بيت هنا وإنما يتم منحنا المنزل مجاناً.
2. نحن لا ندفع فواتير كهرباء أو ماء.
3. نحن نحصل بصورة شهرية على مواد البقالة والسباغيتي والمعكرونة والمعلبات والرز والبيض وغيرها.
4. يتم إعطاء مبلغ شهري لا للأزواج فحسب وإنما أيضاً للزوجات ولكل طفل.
5. الفحص الطبي والطبابة مجانيان إذ إن الدولة الإسلامية تدفع عنا.

وأعربت أم أسد عن شعورها بأنها تستحق هذه المزايا:

- على هذه الأرض يكافئونا على تضحيتنا بالهجرة إلى هنا ويعطونا من الغنائم... بصراحة هناك شيء يجعلك تفرح حين تعرف أن ما حصلت عليه تم أخذه من الكفار كعطية من الله. بعض تلك الأشياء تشمل أدوات المطبخ كالثلاجة والموقد والفرن والميكرويف والخلاط والمكنسة الكهربائية ومنتجات التنظيف والمراوح بالإضافة إلى منزل مع ماء وكهرباء مجانيين يقدمهم لك الخليفة دون أي مقابل.

وشاركت أم عبيدة رأيها:

- الحمد لله هم يعطوننا الملابس والطعام ومعظمها من الغنائم، واليوم حصلنا على الخبز الطازج.

قد تكون الكهرباء مجانية لكن التيار كثير الانقطاع ولا يمكنك دائماً شحن هاتفك المحمول كما أن من الضروري أن يبقى لديك شموع ومصابيح يدوية، وعليك أن تتعلم كيف تغسل ملابسك بيديك لأنك لا تستطيع الاعتماد على غسالة كهربائية هنا.

وليلى وأيان أيضاً كانتا منشغلتين بإيصال انطباع جيد عن الخلافة، ففي حين كان السوريون يهربون من منازلهم كتبت أيان لإسماعيل:

- نحن نحصل هنا على المال دون أن نعمل، فالمنزل لا يكلف شيئاً والكهرباء لا تكلف شيئاً والماء لا يكلف شيئاً.

إذن ما المتوقع من النساء مقابل كل هذا؟

أوضحت أم عبيدة:

- أفضل شيء للمرأة هو أن تكون زوجة صالحة وتربي أطفالاً صالحين.

بالنسبة للبعض بدت التجربة بكاملها مخيبة للآمال، فحتى في واحدة من أسوأ المدن سعة في العالم حيث أصبح قطع الرؤوس وسيلة للتسلية فإن الحياة قد تكون مملة لكن قلة من اعترفن أنهن كن يتوقعن من الخلافة أكثر من مجرد أعمال منزلية، وأولئك اللواتي عبرن عن انتقادهن سرعان ما تتم مهاجمتهن من الأخوات.

كتبت أم ليث:

- أمور بسيطة كبعض المهام اليومية التي تقومين بها ستشعرين هنا بقيمتها كل دقيقة لأنها في سبيل الله... والله أنني التقيت بأخوات فاتنات الجمال يمضين الليل والنهار سعيدات لأنهن يطهين طعام المجاهدين.

وقد كانت بعض نصوص المدونات أقرب إلى مدونات طهي من كونها يوميات حرب حيث احتفلت إحدى النساء بكعكة خبزتها ونشرت صورة لها إلى جانب قنبلة يدوية وكتبت:

- تشيز كيك الأوريو مع أم مجاهد 93.

كان هناك وصف للحياة اليومية تحت الهاشتاغ «أمور ممتعة بسيطة في الدولة الإسلامية». وفي أحاديثهن كن يشرن إلى أمور مثل أفلام ديزني والمشاهير ومنتجات الطعام مما يظهر أن الكثير من الفتيات كن يعشن قبل وقت قصير حياة مراهقة عادية إذ بقيت شوكولا نوتيلا من أكثر الأمور الشائعة

حيث نشر الأزواج صوراً للمرطبان مع بنادق كلاشينكوف وقنابل يدوية إذ إن الكثير من المقاتلين الشباب يحبون الطعام اللذيذ وينشرون صوراً للرفوف المليئة بالأطعمة في متاجر البقالة في الرقة.

وهناك مواقع إلكترونية متخصصة بوصفات الطهي ونصائح الطعام للجهاديات وغالباً ما تكون معها صور توضيحية بسيطة.

نادراً ما تعبر النساء على الإنترنت عن ندمهن على الاختيار الذي قمن به لكن بعضهن كتبن عن شوقهن لعائلاتهن في الوطن وتحدثن عن إدراكهن للقلق الذي تسببن به... الخوف من إيذاء والديهن وخاصة أمهاتهن هو أكثر ما يثير الشك حين يفكرن إن كان من الصواب أنهن غادرن. وقد شعرت إحدى الفتيات بالكرب لأنها تركت أمها وحيدة وخاصة أن إخوتها كلهم متزوجون:

- أسأل نفسي إن كان ما فعلته صواباً ثم أقول إنني كنت سأتزوج وأتركها في كل الأحوال.

وكتبت أم ليث:

- العائلة التي تحصلين عليها مقابل العائلة التي تركتها هي كاللؤلؤ مقارنة بالصدفة التي ترميها.

لم تعبر أيان وليلى عن عواطفهما في المحادثات القصيرة التي أجرتاها مع أمهما وإنما ألقتا اللوم في عدم قدرتهما على اللقاء على والديهما حيث قالت أيان لسارة في إحدى المرات على الهاتف:

- لقد ارتكبت خطأ بتبليغ الشرطة عنا... الآن أصبح الجميع يعرف من نحن وسيتم القبض علينا إن عدنا إلى النروج.

أحست سارة بالأمل... هل هذا يعني أن الفتاتان تريدان العودة إلى البيت؟

- يمكننا مساعدتكما...

فقاطعتها أيان قائلة إنها لم تعنِ ذلك.

- يمكنك أنت أن تأتي! أنت وبابا والصبيان... سنستقبلكم بأذرع

مفتوحة... عما قريب ستسيطر الدولة الإسلامية على العالم بأكمله لذا من الأفضل أن تأتوا إلى هنا في أقرب وقت قبل أن يسبقكم الجميع.

في أحد الأيام تلقى صديق مكالمة هاتفية من رقم محجوب، وكالعادة تسارعت نبضات قلبه فقد مر وقت طويل منذ أن تواصلت معه الفتاتان لكنه حين سمع صوت رجل خاب أمله.

حياه الرجل بأدب بلهجة صومالية مكسرة وعرف عن نفسه باسم عمران وبدا صوته صغيراً كمراهق... وقال إنه في الرقة ويريد إذن صديق ليتزوج من ليلى.

نهض صديق على قدميه غير قادر على الكلام وتسارعت الأفكار في رأسه... رجل شاب لا يعرفه يطلب يد ابنته.

- اطلب من ليلى أن تتصل بي.

اتصلت به ليلى على الفور فسألها صديق:

- هل يعجبك؟
- نعم.
- هل هو جيد معك؟ هل تحبينه؟
- نعم.
- في تلك الحالة اطلبي من أبيه أن يتصل بي.

اتصلت والدة عمران لأن أباه متوفى فقال صديق:

- ينبغي أن تتكلمي مع زوجتي.

الرجال يتفقون مع الرجال والنساء مع النساء... هناك قواعد محددة ينبغي مراعاتها حتى ولو كانت جميع القواعد الأخرى متروكة.

قبل اتصال والدة عمران تكلمت ليلى مع سارة فسألت ابنتها سؤالاً واحداً:

- هل تتشاركين معه السرير الآن؟
- لا... هل أنت مجنونة!
- حسناً... جيد... يمكنكما الزواج.

كان عمران بريطانياً من أصول صومالية، وقد قالت أمه لسارة أنه كان متفوقاً في المدرسة في جميع المواد التقنية كعلوم الحاسوب كما أنه الابن الأصغر في العائلة ويعيش وحده مع أمه بعد وفاة أبيه. في أحد الأيام ملأ الفتى ذو الثمانية عشر عاماً ثلاجة أمه بالأرز والمعكرونة والزيت ثم غادر إلى سوريا.

قرر صديق وسارة أن يوافقا على عمران والسبب الرئيسي هو أنه طلب يد ليلى للزواج، وقد تم الاتفاق على مجيء أخي عمران إلى النروج كممثل عن أخيه الصغير بينما سيكون صديق ولي ليلى ليتزوج الاثنان بالوكالة في أوسلو.

وهكذا أصبح لدى سارة وصديق صهران في الخلافة.

في بداية عام 2014 بدأت الميليشيات في أطمه وباقي أنحاء إدلب بالتخطيط لهجوم كبير لاستعادة الأراضي التي خسرتها أمام داعش في الخريف الماضي حيث إن المجموعات المتفرقة تحاول باستمرار عقد اتفاقيات والتعاون لكن داعش ترفض الدخول في أي اتفاقية معهم لأنهم يريدون أن يحكموا وحدهم. وفي ديسمبر 2013 قاموا بدعوة أحد قادة الثوار المشهورين للتفاوض لكنهم عذبوه حتى الموت فكان ذلك الحادث القشة التي قصمت ظهر البعير مما وحد الجيش السوري الحر والنصرة اللذين شنا هجومين متزامنين على عدة مواقع لداعش وجردوا داعش من تميزها التكتيكي أي التنقل السريع للوحدات الصغيرة إلى حيث هناك حاجة لها.

وخلال بضعة أسابيع تم طرد داعش من أطمه ومعظم أنحاء إدلب وحماه وشرق حلب، وحين هاجمت قوات الثوار تل رفعت بالقرب من حلب في يناير الماضي قرر حجي بكر أن يبقى في البلدة متستراً. كان بإمكانه الدخول

إلى معسكرات داعش العسكرية ذات الحراسة المشددة لو أنه أعلن عن هويته لكنه فضل أن يبقى بهدوء في منزله. وخلال ساعات انقسمت البلدة إلى قسمين ليجد سيد الظلال نفسه في الجانب الخطأ.

صرخ رجل للثوار:

- هناك شيخ من داعش يعيش في هذا المنزل.

حين طرق القائد المحلي على الباب فتح حجي بكر مرتدياً ملابس النوم وقال إنه يريد تغيير ملابسه لكن القائد أمره بالخروج فقفز حجي بكر إلى الخلف وأغلق الباب وصرخ:

- لدي حزام ناسف!

ثم خرج حاملاً بندقية فأطلقوا عليه النار ليسقط صريعاً. تم تفتيش المنزل ومصادرة الحواسيب والهواتف المحمولة والكتب والملاحظات ثم وجدوا مخطط الدولة الإسلامية تحت بعض البطانيات المغطاة بالغبار.

كانت عاصمة داعش محاصرة والثوار الذين هزموا الإسلاميين في إدلب يسعون للسيطرة على الرقة بينما نشرت داعش أعداداً هائلة من المقاتلين للدفاع عن المدينة التي تتعرض لهجوم صاروخي كثيف، وقد عانى كلا الجانبين خسائر فادحة وهناك الكثير من الضحايا من المدنيين.

لم تسمع عائلة جمعة أي خبر من الفتاتين لعدة أشهر حتى الربيع حيث كسرت ليلى حاجز الصمت وكتبت لإسماعيل من حساب فاطمة عبد الله في منتصف مارس:

- كيف حالكم جميعاً يا أخي؟ سأخبرك بآخر أخبارنا... جميعنا بخير... لقد كنا نتنقل كثيراً لكننا استقررنا أخيراً... لم تعد لدينا سيارة لذا من الصعب الوصول إلى مكان للاتصال بالإنترنت كما لا توجد تغطية هواتف محمولة لذا لا نستطيع الاتصال بكم... الفوضى تعم المكان في الآونة الأخيرة إلا أننا لا نزال على قيد الحياة... أخبر بابا أنني

أعتذر لإغلاق الخط في آخر مرة تكلمنا فيها فقد كنا متوترين وفي عجلة من أمرنا... نحن لا نحاول تجنبه وإنما الظروف هي التي لم تسمح لنا بالحديث معه. عليك أن تفهم أننا لا يمكننا دائماً الاتصال بالإنترنت أو الهاتف المحمول وأحياناً لا يمكننا الحديث حتى ولو كنا قادرين على الاتصال بالإنترنت. بالمناسبة الندبة على ساقي سيئة للغاية فقد أزلت الضماد وبدأت أتدرب على المشي... الأمر في غاية الصعوبة.

وجد إسماعيل صعوبة في التوفيق بين أسلوبها المبتهج وأشهر الصمت التي مرت كما لو أن أخته ذهبت في رحلة عطلة نهاية الأسبوع وقطعت الاتصال أكثر بقليل مما ينبغي.

رد عليها:

- تكلمي مع ماما وبابا لا معي.

ردت أيان بعد يومين:

- ماذا يعني ذلك؟
- لا يمكنني أن أقلق وأهتم أكثر... إن كنتما لا تخططان للقائنا مجدداً فالأفضل أن لا تتكلما معي... هذا كل شيء.
- بالطبع نريد رؤيتكم... لقد جاء أهالي الناس لزيارتهم من كافة أنحاء العالم.
- لن نأتي إلى سوريا... آمل أن تدركا ذلك.
- إن أردتم المجيء فأهلاً بكم.
- إلى سوريا؟
- لِمَ لا؟
- لأنني لا أخطط لأن ألقى حتفي... لا تريدان مغادرة سوريا ولا نريد الذهاب إلى هناك.
- مهما يكن... كيف حالك؟

- أنا أحبكما كثيراً يا أيان لكنكما عبء يثقل حياتي.
- لماذا؟
- أقترح أن تتواصلا مع ماما لأنني لم أعد مهتماً... وداعاً.
- أنت أخي الصغير لذا لا تحاول قطع الاتصال... عليك أن تهتم لأمرنا.
- أتريدان أن تقولا شيئاً آخر قبل أن أحظركما وأمسحكما من حياتي؟
- إسماعيل! هذا يكفي! نحن عائلة! هل ستتخلى عنا؟ نريد أن نذهب إلى تركيا ونلتقي بكما لكننا لا نستطيع المخاطرة بإعادتنا إلى النروج! فكر في زيارتنا فهناك أشخاص جاؤوا من السويد وعادوا إلى بلادهم بأمان... أنت تتصرف بضعف! أنت لست هكذا يا إسماعيل!
- أنتما كأي شخص غريب في حياتي... أنتما نكرة.
- نحن بحاجة إلى دعمك بالفعل.
- كانت عندي أختان لطيفتان... لكن ماذا لدي الآن؟ فاطمة؟
- أصبح عندك أختان أفضل وأقوى وأذكى من ذي قبل.
- سأحرص على أن لا يتبع جبريل وإسحاق خطاكما... كنت أحترم الدين لكنني لم أعد قادراً على احتمال ذلك.

هناك شيء لم يتم اختباره من قبل... تأسيس خلافة في العصر الحديث بأناس ينظرون إلى ماضي الهداية. لقد كان النبي محمد القدوة حيث أخذت النساء الإلهام من زوجاته... كانت لديه اثنتي عشرة زوجة... «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم». إن كان المشروع سيستمر فعلى النساء أداء دور أساسي، فبدون النساء لن يكون هناك سلالة، ومن دون سلالة لن تكون هناك دولة قابلة للحياة.

ومع خسارة الأراضي شمال غرب سوريا توسعت داعش شرقاً في أرجاء الريف السوري ونشرت الرايات السود في الأماكن التي كانت فيها تماثيل الأسد منصوبة وفي بقايا الكنائس المتهدمة وفي أضرحة الشيعة التي فجرت.

انتقلت الفتاتان من مكان إلى آخر ضمن الخلافة حسبما يتطلب عمل زوجيهما لكن دورهما في الحياة بقي كما هو... ربات منزل.

لم يتضح أن وضعهما يثقلهما أما إسماعيل فكان يشعر بأنه محاصر في الحياة التي لم يبدُ له أنها تستحق الحياة، وقد بدا الشتاء صعباً وهو مليء بالخوف والغضب والأسى والإحباط... في كل مرة يتمكن فيها من انتشال نفسه وإخراج فكرة أختيه من رأسه والعيش في الحاضر تصله رسالة نصية أو بريد إلكتروني أو مكالمة هاتفية فحواها «ادخل سكايب».

- إذن هل أنت مستعد للامتحانات؟ هل تقدمت بطلب لإكمال دراستك؟ هل ما زلت تمارس الرياضة؟

طرحت أيان هذه الأسئلة لتفتح حديثاً في بداية مايو وكالمعتاد لم يتم ذكر أي شيء للإشارة إلى أنها تقيم في منطقة حرب. رد إسماعيل أن أول امتحاناته سيكون يوم الجمعة وأنه تقدم بطلب التحاق بالكلية التقنية شمال النروج وأن زياراته إلى النادي الرياضي توقفت إذ إنه لا يملك حتى ثمن تذكرة للحافلة.

ثم دخل إسماعيل مباشرة في الفكرة التي في رأسه.

- السبب الذي يدفعني لقطع التواصل معكما هو أنني أجد من الصعب التواصل مع أختين لن ألتقيهما بعد اليوم قط. لنكون واقعيين... إن كنتما لا تخططان لمغادرة سوريا وأنا لا أخطط للذهاب إلى هناك فهذا يعني أننا لن نلتقي مجدداً... إن لم نلتق خلال عام فأنا لست مستعداً لإجراء أية محادثات.

استغرق رد أيان أربعة أيام ليصل مجدداً في وقت متأخر من الليل:

- نحن إخوة وهذا هو الأهم... أليست ماما تتواصل باستمرار مع إخوتها على الرغم من أنها لا تراهم إلا كل أربعة أعوام.

وبينما هو يمشي عائداً إلى المنزل من حفل نهاية المدرسة في الرابعة صباحاً كتب لها:

- على الأقل هم يلتقون!

استمرت المحادثات على نفس المنوال على نحو متقطع حيث تكتب الأختان أن الحياة رائعة باستثناء الحر إذ إنهما معتادتان على صيف النروج فانزعجتا من درجات الحرارة الصحراوية، وأحياناً تعبران عن قلقهما حول مدى انسجام أخيهما الأصغر إسحاق في المدرسة:

- هل لديه أصدقاء؟

أو حول إحدى قدميه التي كانت أقصر من القدم الأخرى:

- هل تحسنت؟

أو تستفسران عن مدى سعادة جبريل بالآي باد الذي أعطتاه إياه وإن كان يرتاد دروس الكاراتيه... لا لم يعد يذهب فالعائلة لم تعد قادرة على دفع تكاليف الدروس حيث أنفق والدها جميع النقود التي معه على محاولة إنقاذهما... لقد أغرقت الرحلة إلى سوريا صديق بالديون ولم يعد قادراً على استخدام السيارة لأن اختبار قيادة السيارات في الاتحاد الأوربي باهظ الثمن لترد الأختان أنهما واثقتان أن الله سيرسل الفرج.

كانت أيان تتصل بالإنترنت في أوقات منتظمة بين الساعة العاشرة والحادية عشرة ليلاً وفي إحدى الليالي في منتصف مايو اتصلت به:

- هل أنت في البيت؟
- نعم... لكنني سأخلد للنوم.
- لا... مكالمة فيديو... اتصل بالإنترنت وأوقظ العائلة!!!
- لا أستطيع... عندي امتحان ينبغي أن أدرس لأجله... ليلة سعيدة!

بعد ثلاثة أيام طلبت أيان إجراء مكالمة فيديو من جديد، فسألها إسماعيل:

- لماذا تتصلين دائماً في وقت متأخر؟
- ليس لدي وقت لذلك.
- لديّ امتحان رياضيات غداً لذا من الأفضل أن آوي إلى الفراش.
- عما قريب ستكون لدي أخبار مفرحة.
- حسناً تصبحين على خير.

- يا لك من أحمق! نم جيداً!

وبعد أسبوع تواصلت معه من جديد بين العاشرة والحادية عشرة كالعادة.

- مرحباً... آمل أنك أبليت حسناً في الامتحان.
- أهلاً... هذا ما أظنه.
- جيد وما الامتحانات الأخرى التي تم اختيارك لتجريها؟ وما الامتحانات التي كنت ترغب بإجرائها؟
- من الجيد أن أجري امتحان الرياضيات... لقد كنت أرغب بإجراء امتحان تكنولوجيا المعلومات لكنني دائماً أحصل على الامتحانات التي لا أريدها.
- وأنا أكره ذلك أيضاً... أن يتم اختيارك للخضوع لامتحان في المادة التي أكون فيها ضعيفة.
- ينبغي أن يجري امتحان اللغة النروجية الشفهي والمكتوب على ما يرام.
- إن شاء الله. أخبرني بالمواد التي ستجري فيها امتحاناً شفهياً... قد أستطيع مساعدتك.
- سأفعل.
- اسمع... هل من جديد بالنسبة لبابا؟

هنا جاء دور إسماعيل كي لا يرد... نعم هناك جديد بالنسبة لصديق... لقد أصبح انطوائياً ويعيش في عالمه الخاص ولا يظهر أي اهتمام بما يحصل حوله... لم يكن يكترث بما يقوله إسماعيل أو يفعله كما أنه لم يسأل ابنه عن أي شيء لا المدرسة ولا الأصدقاء أو الامتحانات أو الخطط المستقبلية... إسماعيل لم يخسر أختيه فقط وإنما أيضاً خسر والده.

أمضى صديق كل وقته جالساً خلف جهاز الحاسب يبحث في المواقع الإلكترونية العربية عن أخبار الرقة وداعش وقصف التحالف.

لم يكن يكترث لإسماعيل وإنما ما يهمه هو الفتاتان الغائبتان.

تخيل صديق الطرق المختلفة لاسترجاع ابنتيه لكن هناك مشكلة واحدة... هما لا تريدان أن يتم إنقاذهما.

في البداية ينبغي أن تدرك الفتاتان أنهما ارتكبتا خطأً.

حين اتصلتا سألهما:

- أيمكنكما التفكير بجدية بالخروج من ذلك الجحيم قريباً؟

صرخ بهما حتى أغلقتا الخط ثم ساد الصمت... هما لم تعطيا أي رقم هاتف ليتمكن من الاتصال بهما أي أن العائلة لا تستطيع التواصل معهما وإنما هما من تتواصلان متى تريدان.

طلب من ليبستاد أن يصرح لوسائل الإعلام أنهما ستعودان إلى الوطن ما إن تشفى ساق ابنته الصغرى مشيراً إلى أنهما محتجزتان.

وأخبر الناس أنه كان في طريقه إلى المكتبة في ساندفيكا حين اتصلت به ليلى لتقول له إنها هربت من زوجها، فركض صديق إلى المكتبة وبحث عن الرقة على خرائط غوغل ليجد موقعها من الأشياء التي أخبرته أنها حولها، ومن المكتبة طلب منها أن تنتظر بجانب مسجد حيث وجدت مقعداً وجلست عليه بينما اتصل هو بصديق سوري وطلب منه أن يرسل أحداً لإحضارها. وقد فعل عثمان ذلك والآن ليلى تقيم في منزل أرملة شابة مع طفلين صغيرين. وبعد فترة قصيرة هربت أيان أيضاً وأصبحتا هما الاثنتين مختبئتين من زوجيهما بانتظار إنقاذهما حسبما أكد والدهما للناس الذين روى لهم القصة لكن في الربيع تم قصف المنزل الذي تختبئان فيه...

وإن أراد أحد معرفة المزيد يمكن لصديق تزويده بالتفاصيل.

كان الأطفال الصغار يلعبون في الباحة حين بدأت مروحية محملة بالبراميل المتفجرة بالتحويم حولهم فاندفعت المرأة إلى الخارج وأمسكت بطفل تحت كل ذراع قبل أن تركض وتعود إلى المنزل. كانت المروحية فوقهم مباشرة حين رمت حمولتها ليحصل انفجار ضخم ولم يبق أثر للأم وطفليها.

لكن الأختين اللتين كانتا تجلسان في غرفتهما لم تصابا.
انفتحت البوابة.
لم يعد بإمكانهما البقاء هناك.
اندفعت ابنتاه خارجاً.
والآن لم يعد يعرف مكانهما.
الحقيقة هو أنهما اختارتا حياة بدونه.
لقد كانتا تصنعان الكعك المحلى في الرقة.
وترشان عليه السكر.

24

نهاية سايكس بيكو

جاءت الأيام التي هزت العالم في بداية يونيو حيث انكشف الهدف الأساسي للحجي بكر المتوفى... التوسع شرقاً.

ففي صباح 5 يونيو 2014 اجتازت قوة كبيرة من المركبات العسكرية الحدود من سوريا نحو مدينة سامراء العراقية التي تقع على ضفاف نهر دجلة على بعد ستة أميال من بغداد إذ إن العاصمة السابقة للخلافة العباسية تحوي ضريح العسكري وهو واحد من أكثر المواقع المقدسة عند الشيعة كما أن شوارعها وعمارتها تعود إلى القرن التاسع الميلادي أي أن الحرب تضع الآثار العالمية في خطر.

فتح الانتحاريون الطريق للدبابات والمشاة وتم تفجير مركز شرطة من خلال شاحنة محملة بالمتفجرات ليقاتل الإسلاميون بعد ذلك حتى وصلوا إلى مركز المدينة، وفي المساء رفرفت الرايات السوداء فوق المباني الأثرية الإسلامية إلا أن النصر كان مؤقتاً فقد انطلقت أربعة ألوية من الجيش العراقي مجهزة ومتمركزة منذ أسابيع للدفاع عن بغداد والمدن المحيطة ضد الجهاديين السنة، وخلال الأمسية ذاتها أجبرت الغارات الجوية العراقية الإسلاميين على مغادرة سامراء.

وفي اليوم التالي هاجم خمسة انتحاريون مستودع أسلحة كبير في الموصل وهي ثالث أكبر مدينة في العراق مما سمح للجهاديين بالسيطرة على المواد التي بداخله. وقد تم تنسيق الهجوم جيداً حيث اخترقت داعش العاصمة منذ أشهر لتنتعش الخلايا النائمة وتشارك في الهجوم، وهكذا اجتمعت التفجيرات

الانتحارية مع الهجمات القادمة من كل الاتجاهات ومن بين صفوف الجيش العراق أيضاً مما خلق وهماً بوجود جهاديين أكثر من الواقع إلا أنه في الواقع لم يكن هناك أكثر من ألف رجل بينما يسيطر على الموصل على الأقل في الأوراق الرسمية قوة أكبر بخمس عشرة مرة. لقد وضعت الحكومة الأولوية للدفاع عن المدن الأقرب إلى بغداد وتجاهل رئيس الوزراء نوري المالكي تحذير قادة الكرد بوجود هجوم وشيك على الموصل.

راقب المجتمع الدولي مصدوماً الجنود العراقيين الذين تلقوا تدريبهم على أيدي الأمريكيين وهم يخلعون بذلاتهم العسكرية ويهربون إذ كان الضباط أول من تخلى عن مواقعهم تاركين عناصرهم دون أوامر، فأولئك الذين يتولون القيادة يعرفون الحالة السيئة للجيش حيث إنهم كانوا يختلسون من التمويل الذي كان من المفترض أن يذهب لشراء الذخيرة كما كانوا يرسلون الجنود إلى منازلهم مقابل الاستيلاء على أجورهم الشهرية... الفساد يسود العراق تحت حكم المالكي الذي وضع سياسات تضمن بقاء كل القوة الحقيقية في البلد بأيدي الشيعة وتستثني القبائل السنية ملقية بهم بين أيدي الإسلاميين.

وبحلول 9 يونيو سيطر الإسلاميون على مركز الشرطة والمطار والعديد من المباني العامة في الموصل واستولوا على الدبابات والعربات المصفحة والسيارات الكبيرة ومئات أنظمة السلاح التي يحمل الكثير منها عبارة «صنع في الولايات المتحدة». وخلال بضع ساعات تم نقل الغنائم العسكرية عبر الحدود لتصل إلى سوريا بعد إخلاء أكبر سجن في المدينة وإعدام ستمائة مسلم شيعي في وادٍ قريب. وعرض رجال داعش على السنة القتال في صفوفهم، وفي اليوم التالي سيطرت داعش على الموصل بكاملها.

وخلال بضعة أيام اقترب الجهاديون السنة من تكريت التي بقيت منذ العصور الوسطى مركزاً مهماً للكنيسة الأرثوذوكسية السريانية كما أنها مسقط رأس القائد العسكري الكردي صلاح الدين الذي حرر القدس من الصليبين ومسقط رأس صدام حسين إذ إن الكثير من رجاله المقربين في الجيش

والحزب يحملون لقب «التكريتي». وبعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 شكلت تكريت الزاوية الشمالية للمثلث السني حيث تزداد حركات التمرد حدة.

وهنا أيضاً كان الضباط أول الهاربين من ميدان المعركة، وبسبب نقص القيادة انتشر الذعر بين الجنود في القاعدة الجوية المحلية حيث مزق حوالي ثلاثة آلاف شاب بذلاتهم وهربوا ركضاً لكنهم لم يبتعدوا كثيراً إذ إن الإسلاميين لحقوا بهم ونادوهم:

- هل أنتم متجهون إلى بغداد؟ يمكننا إيصالكم إلى العاصمة... اركبوا!

ومن لم يقبل الركوب معهم يجبروه على ذلك ثم توقفت الشاحنات في بقعة وسط الصحراء وهناك تم إعدام ثمانمائة جندي خلال الأيام القليلة الماضية ونشرت داعش فيديو لصفوف من الشباب الشيعة مستلقين ووجوههم على الأرض في الرمال ويتم إطلاق الرصاص عليهم واحداً تلو الآخر. وبعضهم تم وضعه فوق جسر على نهر دجلة وإطلاق الرصاص عليه من مؤخرة الرأس قبل أن يسقط في النهر وآخرون تم إجبارهم على الاستلقاء في قبور محفورة حديثاً وإمطارهم بالرصاص ثم تم وضع المزيد من الشباب فوق رفاقهم الميتين ليلقوا المصير ذاته... طبقة فوق طبقة بنفس الطريقة التي أمر فيها صدام قتل الأكراد قبل سنوات خلال عملية التطهير التي تحمل اسم «الأنفال» على اسم سورة في القرآن تصف أوامر الله لمحمد بشأن قتال الكفار.

وسرعان ما تم نشر تسجيلات للقتل الجماعي ونشرها في وسائل الإعلام التابعة لداعش.

في نفس يوم مجزرة تكريت كانت أيان في الرقة تحاول الدخول إلى حسابها المصرفي على الإنترنت لكنها كانت تخفق فأرسلت رسالة إلى أخيها:

- مهم للغاية... أين أنت؟
- في البيت... ما الأمر؟

- أحتاجك أن تدخل إلى حسابي المصرفي.
- ؟؟؟؟؟؟
- لا يمكنني الدخول إلى حسابي الحالي.

قرأت كلمة السر لإسماعيل الذي دخل إليه بكلمة سرها الشخصية على حاسبه الخاص، وحين رأى حسابها البنكي أصيب بصدمة:

- لديك ديون هائلة... حظاً طيباً في هذا!

لقد حان موعد سداد جميع ديونها.

- ليس بالأمر المهم... الدولة ستهتم بذلك.

الدولة ثرية بالطبع فخلال الأيام القليلة الماضية احتلت داعش مساحات كبيرة من الأرض وملايين السكان واستولت على النقود المخزنة في مصرف الموصل المركزي وعدة مئات من ملايين الدولارات بالإضافة إلى منشآت النفط وآبار النفط والمواد العسكرية.

ثم سأل إسماعيل إن كان بإمكان أخته تقديم خدمة له، فأجابته:

- حسب نوع الخدمة.
- أيمكنك أنت وليلى تصوير فيديو تشرحان فيه سبب مغادرتكما.
- للعائلة؟
- لوسائل الإعلام، وعلى الفور... أنا بحاجة إلى المال وهذا سيساعدني كثيراً.

فأخبرته أيان أن عليها مناقشة الأمر مع ليلى أولاً.

أصر إسماعيل:

- سيضعكما كلاكما في وضع جيد حيث ستظهران أنكما لستما حمقاوان تمت الهيمنة عليكما وأنكما تقومان بذلك لسبب ما.
- هذا صحيح... أنا لا أحب أن يعتقد الناس أنه تم خداعنا وأننا مغفلتان جاءتا إلى هنا للمخاطرة بحياتهما.
- إذن نحن متفقان يا فتاة.

- توقف عن التفكير بي كمصدر للمال... مفهوم؟

استمرت داعش في التقدم في النصف الثاني من شهر يونيو حيث سيطرت المجموعة على مصنع للكيماويات وأكبر مصفاة نفط في البلاد ومركزين حدوديين بين سوريا والعراق، وهكذا لم يعد لاتفاقية سايكس بيكو التي وضعتها بريطانيا وفرنسا عام 1916 لتقسيم مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا أي وجود سوى على الورق حيث يهيمن الإسلاميون على أرض واحدة تمتد من سوريا إلى العراق. وقد كانت خسارة كل تلك الأراضي والحدود الخارجية لطرف غير حكومي اعترافاً كبيراً بفشل الحكومة في العراق، وبنهاية الشهر فقدت السلطات في بغداد السيطرة على العديد من الأراضي على الحدود مع سوريا والأردن.

كان 29 يونيو 2014 يوماً لا ينسى بالنسبة لداعش حيث تم نشر ثلاثة فيديوهات مهمة من خلال مركز الحياة الإعلامي.

الفيديو الأول مدته خمس عشرة دقيقة وعنوانه «نهاية سايكس بيكو» حيث يظهر رجلاً أسود بلحية يختال في مركز حدودي عراقي مسيطر عليه.

لقد كان التشيلي من النروج من أمة النبي والرجل الذي تم اتهامه بنشر الفيديو الذي يهدد فيه الحكومة النروجية: باستيان فاسكيز.

كان يتبختر بين الأبنية المهجورة ويمر باللافتات الممزقة ويتوقف بين مكان وآخر ليظهر الشعارات أو يشير إلى صفوف السيارات رباعية الدفع.

ثم قال لأوباما:

- استمر بإرسال المركبات إذ إنه سينتهي بها المطاف بين يدينا!

ثم أظهر صفاً من الأسنان مع فراغات كبيرة بينها بينما ضحك رجل من وراء مقود سيارة بيضاء كبيرة مكتوب على جانبها «القوات الحدودية العراقية»:

- ولا تنسَ الحفاضات لجنودك.

كان باستيان يتكلم بهدوء وثقة باللغة الإنكليزية ويخلط في عباراته

كلمات عربية حيث تنتهي كل عبارة بقوله «إن شاء الله» أو «والله» كما يتكلم قليلاً بالعربية مع مقاتلي داعش الذين سيطروا على المركز الحدودي ويرتدون بذلات صحراوية بينما اختال باستيان بعباءة فوق سروال سلفي قصير واعتمر قبعة بيسبول باهتة اللون ليشبه فيدل كاسترو الشاب. وفي نهاية الفيديو دخل غرفة فيها حوالي عشرة رجال مسجونين.

بصق على الأرض باتجاه الرجال:

- يزيديون! إنهم يعبدون الشيطان.

ونظر نظرة مقتضبة إلى الكاميرا قبل أن يغادر الغرفة.

يمكن للمشاهد أن يفترض أنه تم قتل الرجال بعد ذلك بوقت قصير فداعش لا تبقي أسرى الحرب، وفي نهاية الفيديو تم تطويق مركز للشرطة بالقرب من المركز الحدودي بالمتفجرات وتفجيره.

وفي نفس اليوم تم نشر فيديو آخر بعنوان «قطع الحدود» يظهر عربات عسكرية أمريكية الصنع استولت عليها داعش تمر بحرية من خلال معبر حدودي آخر في حين سوت الجرافات أكوام الرمال التي تفصل الأراضي السورية والعراقية.

والفيديو الأهم يعرض خطاب المتحدث باسم داعش أبو محمد العدناني وهو السوري الوحيد في القيادة العليا للتنظيم:

- لقد حان الوقت لتلك الأجيال التي كانت غارقة في بحار الخزي ورضعت حليب الذل ورزحت تحت حكم أسوأ الناس وبعد سباتهم الطويل في ظلام الإهمال... حان الوقت لهم كي ينهضوا... لقد طلعت شمس الجهاد... الخير قادم... ادعموا دولتكم التي تكبر يوماً بعد يوم!

وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية في العراق والشام «الدولة الإسلامية».

- استمعوا لخليفتكم وأطيعوه!

وهكذا تم تعيين «أبو بكر البغدادي» كزعيم لمسلمي العالم وتم إعلان

الخلافة.

في اليوم التالي اتصلت أيان بأمها في الصومال ولم تذكر أي شيء عن الخلافة المعلنة حديثاً وإنما اكتفت بتهنئة العائلة بشهر رمضان.

كانت سارة وأبناؤها قد وصلوا إلى هارغيسا في بداية شهر الصيام إذ يجب على جميع المسلمين الأصحاء صيامه كركن من أركان الإسلام حيث كان كل من في منزل العائلة صائماً باستثناء إسماعيل الذي رفض أيضاً الذهاب إلى المسجد أو الصلاة في المنزل.

بكت سارة:

- أنت تجلب لنا الخزي!

وهددته بغضب الله وعذاب الجحيم.

- لقد خسرت ابنتين والآن سأخسرك أيضاً؟

الكفر في الإسلام واضح بسبب الأعمال الصريحة المطلوبة في الدين. أركان الإسلام هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله والصلاة والزكاة والصوم والحج إلى مكة. هددته سارة بأنها ستتبرأ منه لكنها لما تستطع تنفيذ تهديدها، وفي النهاية استسلمت وسمحت له بتناول الطعام مع أخويه الصغيرين اللذين لم يكن الصيام مطلوباً منهما بعد.

كانت الشائعات قد سبقت وصولهم حيث عرف الجميع... الأقارب والجيران والشارع بأكمله... ابنتا صديق وسارة انضمتا إلى الدولة الإسلامية. في الصومال تعتبر الدولة الإسلامية تنظيماً إرهابياً ينشر الموت والدمار كتنظيم الشباب... لقد انضمت أيان وليلى إلى الإرهابيين... فجعت العائلة على الفتاتين الصغيرتين اللتين لم ترافقا أمهما لأول مرة في إجازة الصيف.

كانت سارة خائفة من فقدان المزيد من الأطفال مما شغل بالها طوال الوقت حيث كانت تراودها الذكريات عن ابنها البكر... كانت حينها مراهقة وأمضت يوماً وليلة في المخاض حتى انقطع عنه الأوكسجين ودفنوه في نفس

اليوم الذي ولد فيه... كان ذلك في فبراير 1993، وقد ولدت أيان في ديسمبر من العام نفسه.

بعد أن غادرت ابنتاها سيطر عليها الخوف من فقدان ابنيها الصغيرين إذ لم تشعر أنهما بأمان في بيرم حيث يمكن لأحد ما أن يبعدهما عنها في أي وقت لأنك إن ترعرعت في النروج إما أن تصبح متطرفاً أو ملحداً حسب تجارب سارة... عليها إنقاذ إسحاق وجبريل ومنحهما شعوراً بالانتماء إلى ثقافة إسلامية متماسكة وتربيتهما تربية إسلامية سليمة.

كانت خدمة رعاية الطفل أكثر ما تخشاه هي وصديقاتها حيث هناك تمثيل كبير للصوماليين في قضايا الرعاية والحضانة، ولهذا عليك الحذر لئلا تأتي الحكومة وتأخذ أطفالك حيث يمكنهم أخذ من يشاؤون متى يشاؤون إذ يأتون في أية ساعة من الليل أو النهار ويطلبون طفلك. وقد أخبرتها صديقاتها أنهم ربما يراقبون العائلة منذ أن غادرت الفتاتان.

تزايدت القصص المرعبة حيث بدا أن الجميع يعرفون أحداً أخذوا منه طفله... صبي رفضت أمه إعطاءه الحلوى فاتصل برعاية الطفل ليخبرهم أن أمه وأباه ضرباه، وفي اليوم التالي جاءت السلطات وأخذت الطفل. وهناك عائلات ذاهبة في عطلة إلى وطنها تم أخذ بناتها منها واتهامهم بالسفر لختانهن كما أن هناك صبياً في العاشرة من عمره اتصل بالسلطات لأن والديه رفضا أن يشتريا له لعبة كمبيوتر، فأمرت سلطات رعاية الطفل الوالدين بشراء اللعبة لكن الوالدين لم يكونا قادرين على دفع ثمن اللعبة فأخذت السلطات الطفل للرعاية لأن من حق الأطفال الحصول على الألعاب. تداولت سارة وصديقاتها هذه القصص حين التقتا في أمسية طويلة بينما كان الأطفال في المدرسة أو الحضانة والرجال في عملهن في حين أنهن لا يذهبن إلى أي مكان.

سيطر عليها الخوف من أن يكون جبريل وإسحاق التاليين.

حين بلغت سارة السابعة من عمرها توفيت والدتها فجأة وتزوج والدها وأرسل أولاده من زوجته الأولى إلى أقارب مختلفين ليعتنوا بهم، وقد تم

وضعها في رعاية عمها في هارغيسا الذي لديه غرفة فارغة ويحتاج لمن يساعده في المنزل. كانت الطفلة الوحيدة في المنزل وتمت تنشئتها لتلتزم بالعادات والتقاليد الصومالية كما أرسلوها إلى المسجد عدة ساعات في الأسبوع حيث تدرس سور القرآن ومهابة الله ورسوله لكنها لم تتعلم الكتابة أو القراءة.

وعلى الرغم من وجود أصدقاء لها في الشارع يلعبون سوية بالرمل لكنها كبرت وهي تشعر بالتوق إذ لم يكن أحد يعتبر أن من الطبيعي للعم أن يحضن ابنة أخيه كما شعرت بالأسى لفقدان أمها وبالشوق لإخوتها.

بعد بضع سنوات سألت عمها:

- أيمكن لإخوتي وأخواتي أن يأتوا ويعيشوا هنا أيضاً؟

وهذا ما حصل حيث أتوا إلى هارغيسا واحداً تلو الآخر لتكون تلك أول مرة تجمع فيها عائلتها حيث أمطرتهم بالقبلات والعواطف لأن قلبها يزخر بالحب.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها حين رآها صديق أول مرة.

كان هناك ترتيب مسبق لزواجه من ابنة عمه ثم التقى بسارة عند تقاطع طرقي وهي تمشي نحوه بقوامها الطويل والنحيل والأنيق... أجمل فتاة يراها في حياته... كان حينها في الخامسة عشرة من عمره.

في اليوم التالي طرق على باب الفتاة التي كانت سارة تمشي معها ليسألها إن كانت الجميلة المجهولة مخطوبة لأحد فقالت الفتاة أنها ستتأكد لتعود وتخبره أن سارة غير مخطوبة.

ذهب صديق ليتكلم مع أمه.

- ماما... أنا أحب ابنة عمي لكنها كأختي وقد التقيت بفتاة أخرى.

- من؟

- اسمها سارة.

فكرت أمه في الأمر واستفسرت عن الموضوع ثم قررت زيارة عم سارة

لتعود إلى ابنها الأصغر وتقول:

- حسناً يا بني... كما تشاء.

وقعت هذه المصادفة الجميلة عام 1990.

ثم انخرط صديق في الحرب ضد الديكتاتور وانتظرته سارة لتمر سنتان قبل أن يعود ويتزوجا. كانت هي في السادسة عشرة من عمرها وهو في السابعة عشرة ولم يندم على ذلك قط إذ كانت سارة كل شيء بالنسبة له.

والآن بعد خمس وعشرين عاماً يكافحان لينهضا بنفسيهما ويتعافيا كل بطريقته الخاصة.

وجدت سارة منزلاً جديداً لهم في هارغيسا وطلبت من صديق أن يرسل مالاً للإيجار.

كانت عمارة المنزل مصممة بحيث تهب الريح فيه مما يجعله منعشاً حتى حين تكون الشمس حارقة والشرفة باتجاه الشمال وأرضيتها ذهبية جميلة وهناك رسوم أزهار على الجدران أما السور والرواق فيطلان على الساحة ومطليان باللون الأخضر وهناك خزان ماء كبير في الزاوية.

جمعت سارة أختيها وعائلاتهم وأخاها وزوجته وبعض أبناء إخوتها غير المتزوجين ليقيم أبناء إخوتها في غرفة صغيرة في طرف الساحة مجاورة للمرحاض الخارجي بينما أخذت كل عائلة غرفة باستثناء سارة التي أخذت غرفتين... أكبر غرفة نوم لها وغرفة أخرى للصبيين إذ إنها هي من سيدفع أجرة البيت.

كانت الغرف كبيرة وفيها شبكات للوقاية من البعوض على النوافذ وكل ما يحتاجونه مكوم في كدسات على الأرض دون أي مشاجب على الجدران لتعلق عليها أي شيء ولا خزائن لتضع فيها شيئاً أما حقائبهم فمكومة فوق بعضها كخزانة مؤقتة.

صديق وسارة ينحدران من عائلات البدو الرحل حيث كان أجدادهما

يرعيان الماشية، فحين تضع ممتلكاتك في حقيبة يمكنك الرحيل دائماً أما إن وضعتها في خزانة فهذا يعني أنك قررت البقاء.

اختلف الوالدان حول ما سيفعلانه حين تعود ابنتهما إلى الوطن إذ إن عليهما استشارة طبيب نفسي حسب رأي صديق أما سارة فترى أنهما ليستا بحاجة سوى للعائلة كما أنهما بحاجة إلى إمام لتعودا إلى طريق الإسلام الصحيح.

وبدأت بإخبار زوجها بعضاً من خططها حيث قالت عبر الهاتف:

- إنهما تريدان العيش في بلد مسلم ولهذا حين تغادران سيكون من الأفضل لهما أن تنتقلا إلى هنا بدلاً من النروج لنبدأ حياة جديدة هنا.
- وكيف سنؤمن قوت يومنا في الصومال؟
- يمكنك العثور على عمل.

العثور على عمل في الصومال للإنفاق على عائلة من سبعة أشخاص وفقاً للمعايير التي اعتادوا عليها في النروج أمر شبه مستحيل ليتفقا في النهاية أنهما في البداية بحاجة لأن تعود ابنتاهما ثم سيقرران باقي الأمور فيما بعد.

تصورت سارة حياتها في هارغيسا مع عائلتها بكاملها أما صديق فكان يعتبر بيته في بيرم في شقة على سفح مرتفعات كولساس حيث كان يحلم باجتماع عائلته من جديد.

لم يرافق الآخرين إلى الصومال حيث أخبر سارة أنه يريد البقاء في النروج والبحث عن عمل لكن الحقيقة هو أنه يريد القيام بمحاولة أخرى لاستعادة ابنتيه إلا أنه لم يخبر زوجته لأنهما اختلفا حول الطريقة الأفضل لإعادتهما.

رأت سارة أنه إن أحست تلك المجموعة الخطرة أنهما يحاولان استعادة ابنتيهما سيبنون حواجز أعلى حولهما ويراقبوهما أكثر لهذا من الأفضل ترك بعض الوقت يمر ومنح الفتاتين الفرصة لتدركا أن هذه الحياة في الصحراء لا تناسبهما.

لقد جربت الحرب وليس لديها شك أن الفتاتين لن تتمكنا من الاحتمال

لوقت طويل.

- إنهما معتادتان على معايير الحياة الأوربية وسريعاً ستضجران وتعودان إلى المنزل.

كلما اتصلت الفتاتان تشير الأم إلى أن هناك طرق كثيرة للجنة وأن الجهاد ليس الطريق الوحيد وإنما يمكنهما دخول الجنة بمساعدة الآخرين ومساعدة أمهما والبر بها.

تقبلت سارة رفضهما للعودة إلى المنزل لكن صديق لم يتقبل ذلك.

في نفس اليوم الذي تم فيه إعلان الخلافة استقل الطائرة من النروج إلى مطار هاتاي حيث التقى بمحمود واجتاز الحدود ليعود إلى عثمان إلا أنه وجد الوضع متوتراً وتكلفة الحراس الشخصيين قد ارتفعت وكذلك أسعار الأسلحة والوقود... لقد ارتفعت أسعار كل شيء لأن الحرب باهظة الثمن.

أمضى معظم الوقت نائماً في الباحة الخلفية لأن عثمان قال إن هناك شائعات أن جلادي داعش قد جاؤوا إلى أطمه لقتل أحد ما... ربما كان هو من يبحثون عنه.

صام صديق مع عثمان وأفطر معه وأحياناً يختبآن سوية كصبيين شقيين ويستمتعان ببعض الطعام. لقد كان يعاني من الكثير من الأمراض ولديه مشاكل في المعدة مما جعله يمضي الأيام مستلقياً على مرتبته بينما ازداد الألم وتضاءل ليتبعه الصداع ثم نفد منه المال دون أن يقترب من أي شيء سوى الغرق في الديون.

كتب رسالتين متطابقتين باللغة النروجية فلربما يوصلهما المنقذون إلى ابنتيه لتفهم الفتاتان أن أباهما قد أرسلهما:

- هذا صديق... ثقوا بمن يعطيكم هذه... أحبكما!

وأعطاهما لعثمان لكنهما بقيتا مع عثمان ولم يرسلهما لأحد.

عند عودته إلى النروج مضت الحياة كما من قبل حيث استمر بالتفكير

بابنتيه دون أن يشعر بالسلام، وحين استيقظ كان أول ما يخطر بباله أنه لم يعد قادراً على الاحتمال.

اقتربت بداية العام الدراسي الجديد في بيرم لكن سارة سجلت الصبيان في مدرسة في هارغيسا.

غضب إسماعيل من أبيه لأنه سمح لأمه باختيار مصير أخويه الصغيرين.

- التعليم الذي سيتلقيانه في هارغيسا لا يساوي شيئاً... ما من دولة في العالم تعترف بالتعليم الصومالي.

كان صديق يدرك ذلك حيث اضطر هو لإعادة مواد في المرحلة الابتدائية والثانوية في النروج.

سأل صديق:

- وماذا يمكنني أن أفعل؟

- يمكنك أن تعيدهما.

- أمك تتخذ القرارات... إنها أم مفجوعة.

رويداً رويداً أخلت سارة الشقة من ممتلكات الفتاتين وممتلكاتها إذ إنها كلما رأت ملابس تركتاها ينفطر قلبها أكثر.

كانت الفتاتان قد أخلتا خزانتهما بنفسيهما حيث تخلصتا من أي شيء ضيق أو قصير أو مفتوح الصدر لكن هناك الكثير من الأشياء الأخرى المتبقية.

وقبل أن تغادر إلى الصومال اشترت سارة كيساً كبيراً من أكياس القمامة مع البقالة، وعند عودتها إلى المنزل اتجهت إلى غرفة الفتاتين وجمعت ملابسهما وأحذيتهما ووضعتها في الأكياس ثم ربطتها بقوة ووضعتها عند الباب الأمامي. وحين وصل صديق طلبت منه أن يرميها في حاوية جيش الخلاص في ساندفيكا.

وباستثناء بعض الحجابات الجميلة وسترة بيضاء أرادت إعطاءها لابنة أختها في الصومال فإنها تخلصت من كل مقتنياتهما كما رمت فراشي الأسنان وملاقط الشعر والملابس الداخلية في القمامة.

اعترضت إحدى صديقاتها:

- لكن الفتاتين ستعودان.

- في الوقت الحالي هناك آخرون بحاجة إلى تلك الملابس أكثر منهما.

أصبحت الخزانة فارغة ولم يبق سوى صندوق بلاستيكي كبير على الرف العلوي ألقت نظرة على محتوياته... رسائل مختومة لا تهمها.

الملاحظات من دروس اللغة العربية معلقة على الجدران... سعيد... حزين... صغير... كبير... الله أكبر... اصفرت الأوراق وبدأت الكلمات تبهت.

25

الله أكبر

بعد عودته إلى بيرم من إجازة الصيف كتب إسماعيل لأيان:

- أتمنى لو أن لدي أختاً كبيرة أتبع خطاها وأفتخر بها.

لكنها لم ترد فأرسل إليها رابط محاضرة للفيزيائي الكوني لورنس كراوس بعنوان: «كون من اللاشيء». كان الموضوع عن الفلك ودراسة أصل الكون وكيفية توسعه وتغيره طوال الوقت ليختفي في النهاية إذ شرح كروس على صور لسماء متلألئة بالنجوم ومجرات ونجوم ضخمة:

- الكون ديناميكي والعلماء يحبون الغموض ويشعرون بالحماس لتعلمهم عن الكون بأسلوب مختلف عن الجانب العقيم للدين حيث تكمن الإثارة في معرفة كل شيء على الرغم من عدم وجود معرفة بأي شيء.

وأضاف أن جميع الأديان مجرد قصص خيالية فهي تتكون من قصص اختلقها الناس محاولين شرح ظواهر طبيعية.

واستطرد كروس أن جميع الذرات في الجسم البشري مصدرها النجوم المتفجرة:

- نحن نشأنا من غبار النجوم والذرات في يدك اليسرى ربما مصدرها نجم مختلف عن يدك اليمنى.

شعر إسماعيل بالإعجاب فهذا هو الطريق الذي يريد اتباعه: التكنولوجيا والفيزياء والكيمياء والمعلوم والمجهول. أرسل لأيان رابط المحاضرة عسى أن تفهم أو حتى تدرك ولو تدريجياً الخطأ الذي ارتكبته هي وأختها وتعود

إلى البيت لأننا إن فهمنا نوع الكون الذي نعيش فيه سنعرف كيف سينتهي بالمعنى التقني.

ردت أيان في 19 أغسطس وهو اليوم الذي نشرت فيه داعش فيديو قطع رأس أول رهينة أمريكي الصحافي جيمس فولي حيث يبدأ الفيديو بمقطع لباراك أوباما يعلن ضربات جوية في العراق ثم انتقلت الصورة إلى فولي وهو راكع في بذلة برتقالية اللون في منطقة صحراوية بينما يقف خلفه رجل ملثم يرتدي اللون الأسود ويحمل سكيناً في يده ويطلق التهديدات لأمريكا بلكنة لندنية.

لم تذكر أيان موضوع قطع الرأس التي اكتشف محللو الصور أنه تم تصويرها بالقرب من الكثبان الرملية جنوب الرقة وإنما كانت منشغلة بالرد على اتهامات أخيها أنه لم تعد لديه أخت كبيرة يفتخر بها.

- أنت تعرف في أعماق قلبك يا إسماعيل أنني الأخت الكبرى التي يمكنك الاعتزاز بها... أخبرني لو أنني اخترت ارتياد الجامعة ألم يكن بإمكاني أن أصبح ما أريد؟ ألم أحصل على درجات جيدة في المدرسة؟ ألست أنا من كنت أوقظك في منتصف الليل لأتبعك إلى المرحاض ثم أستلقي بجانبك مستيقظة لأنك خائف؟ ألست أنا من كنت أجرك إلى المدرسة كل تلك السنوات؟ ألم أدعمك دائماً وكنت أساندك مهما كان الأمر؟ إذن ما الذي يجعلك ترغب بإيذائي بهذا الشكل؟ ألأنني اتخذت قراراً لم تفهمه؟ ألست أنت من كنت خائفاً في الرحلة الجوية إلى ستافانكر وبدأت تقرأ القرآن؟ ألست أنت من كنت تقرأ القرآن في نومك؟ ألست أنت من كنت تخاف الجن؟ أنت تؤمن بالله سبحانه وتعالى كما أنك مسلم في داخلك لكن لا تسمح لنفسك أن تنخدع بالهراء الذي في ذلك الفيديو... افتح الكتاب المقدس واقرأه من الغلاف للغلاف ثم ستفهم لم كنت تقرأه حين تخاف كي تشعر بالأمان!

كان ذلك في منتصف الليل في بيرم حيث كانت تلك الليلة الصيفية من شهر أغسطس معتدلة وهادئة.

- أتعرفين إلى أين تذهب ضرائبكم؟
- نعم لكن فكروا بالمبلغ الكبير الذي تدفعونه مقارنة بالمبلغ الصغير الذي ندفعه هنا... أتعرف أن الدولة تدفع لي المال هنا؟
- عدم العمل والحصول على المال لا يستحق التباهي.
- أنا لا أحرك إصبعاً لكنني أحصل على كل ما أريد... المال والأطباء والدواء ومنزل وماء وكهرباء... الكثير!
- أتتبجحين لحصولك على كل شيء على طبق من فضة؟ هذا المنطق الصومالي... «أنا أعيش على المساعدات في النروج»... من الصعب مقاومة المال بلا مقابل.
- لدي الحق فيما أحصل عليه... نحن لا نطلب أكثر مما نستحق... نحن نحصل على حصتنا من المال الذي تكسبه الدولة.
- أنت تستحقين الحصول على الأشياء مجاناً؟
- أنا أستحق حصة في ثروات الدولة الإسلامية... نعم.
- أما زلت متزوجة؟
- نعم... ما زلت متزوجة... هههههه.
- نفس الشاب؟
- نعم... ما زال على قيد الحياة في حال كنت تسأل.
- كلكم أيها الأشخاص مفرطو التدين تظنون الحياة فيلم حركة أنتم نجومه الذين تؤدون الأدوار الرئيسية في مهمة لتحقيق ما يريده الله.
- الحياة ليست فيلماً أو إعجاباً على الفيسبوك... إنها عن ما تختار كأولوية... يمكنك النظر إليها من منظورين... إما أن تعيش حتى تبلغ الثمانين ثم تموت وينتهي كل شيء أو تعيش حتى تموت وبعد ذلك تبدأ الحياة.

- هذا حلو للغاية.
- كيف خلق كل شيء؟ كيف بدأ كل شيء؟
- هذا جمال الأمر... لا أظن أن العالم مخلوق من أجلنا وإنما نحن من تكيفنا معه... لننسى هذا النقاش... أتظنين أن من المقبول أخلاقياً أن تقطعي يدي شخص بسبب السرقة؟

فجأة اختفت أيان مما خيب أمل إسماعيل فسأل:

- ألا تريدين أن تتكلمي؟

عادت بعد نصف ساعة وكتبت:

- اضطررت للذهاب وشراء المزيد من ساعات الإنترنت.

كرر إسماعيل سؤاله:

- إذن؟
- أظن ذلك... نعم... لأنه حين يرى الناس عقاب السرقة لن يسرقوا... سألنا السوريين عن رأيهم بالحياة هنا مقارنة بذي قبل وأخبرونا أنهم يشعرون بالأمان أكثر حيث تلاشت الجرائم، وهناك مدن كاملة كانت بؤراً للإدمان على المخدرات أصبحت الآن من المجتمعات الصالحة... عدد قليل جداً من الناس من يتم عقابه في الوقت الحالي.
- إذن لا تظنين أن المرء يمكن أن يتغير؟
- بالطبع يمكنهم التغيير وليست لديك فكرة عن قلة الناس الذين يتلقون ذلك العقاب... ماذا يحصل للناس الذين يخرقون القانون في النروج؟
- يتم عقابهم بطريقة إنسانية.
- نعم... يتلقون حكماً أما الأفعال هنا فلها عواقب... في كل الأحوال ليس لهذه الأسئلة علاقة بوجود الله.
- إنها مرتبطة بالشريعة والقرآن لذا فإنني أعتبرها وثيقة الصلة... أيمكنك المشي في أرجاء البلدة بمفردك؟
- نعم... أنا أذهب كثيراً للتسوق.

- وهل عليك العودة إلى المنزل في وقت محدد؟
- هذا يعتمد على ما يفرضه علي زوجي وليس للدولة علاقة بالأمر... يمكن لجميع النساء هنا المشي في الشوارع بمفردهن.
- إذن لا يمكنك فعل شيء لا يريده زوجك؟
- بالطبع يمكنني.
- نظراً إلى أنك مخلوقة من ضلعه؟ يمكنك؟
- نعم.
- هل تم عقابك؟ هل يمكنه ضربك؟
- لا... أنت تعرف أن زوجي من النروج... صحيح؟
- بالتأكيد لكن بما أن ذلك مكتوب في الشريعة فقد تقبلين به بما أنك ستدخلين الجنة في كل الأحوال... صحيح؟ هل للنساء حقوق كالرجال؟
- نعم.
- لِمَ لا يجب على الرجال تغطية أنفسهم؟
- إنهم يفعلون... عليهم أن يغطوا أجزاء من أجسادهم أيضاً.
- وجوههم! أرى أن من المعيب للرجال أن على النساء تغطية أنفسهن لأن الرجال غير قادرين على السيطرة على أنفسهم.
- هذا من أجل شرفنا... ينبغي أن لا ينظر أحد إلى جسدي... ما الخير الذي جاء للعالم من خروج الناس شبه عراة؟
- السعادة! لكن من الناحية الجدية أظن أن من قلة الاحترام افتراض أنني سأغتصب فتاة لأنها شبه عارية.
- لا أحد يفترض ذلك.
- الدين أصيل... الناس يولدون على الفطرة ثم يتم تلقينهم أن لا ينصتوا لما يقوله الناس الآخرون.
- ألا أعرف عن المسيحية أكثر من المسيحيين؟ هيه... ألا أعرف الكثير

عن اليهودية والأديان الأخرى في العالم؟ لماذا اخترت الإسلام؟

- لأنك منذ أن كنت صغيرة وبريئة وجاهلة تم إجبارك على الإيمان بالإسلام حتى أحببته.
- لم يتم إجباري.
- لقد تم إجبارك بنفس الطريقة التي يتم فيها إجبار جبريل وإسحاق.

كثف الجيش السوري ضرباته الجوية على الرقة في خريف 2014، وحين سيطرت الدولة الإسلامية على قاعدة الطبقة الجوية في الأسبوع الأول من سبتمبر كان انتقامها بلا رحمة حيث أطلقوا النار على الطيارين والجنود الذين يحاولون الهروب أما الجنود الذين استسلموا فتم إجبارهم على خلع ملابسهم كلها باستثناء السراويل الداخلية ثم الركض عبر الصحراء القاحلة حتى تم أمرهم بالتوقف وقتلهم بالرصاص واحداً تلو الآخر من على قرب ليمتص الرمل الدماء بسرعة.

كانت الدولة الإسلامية متعطشة لتوسيع الخلافة وبحلول منتصف سبتمبر تم الهجوم على مدينة كوباني ذات الغالبية الكردية شمال سوريا.

وفي 22 سبتمبر ألقت الولايات المتحدة وتحالفها أول قنابلها على سوريا حيث ضربت الرقة وبعض الأهداف في إدلب والقواعد العسكرية في الصحراء بصواريخ توماهوك.

أدى القصف إلى تغيير في استراتيجية الدولة الإسلامية حيث حولت عملياتها إلى المناطق المأهولة بالسكان إذ إن القواعد في الصحراء لا تمنحهم الحماية من القنابل لكن النساء والأطفال يمنحونهم.

بدت الدولة الإسلامية مفرطة الثقة لكن حظوظها في الحرب قد انقلبت إذ إن معركة كوباني أخلت التنظيم من الرجال والموارد، وعلى الرغم من الهجمات الجوية الضخمة فقد استمرت الدولة الإسلامية بهجماتها على المدينة مرسلة دفعة تلو دفعة من الجهاديين ليلقى الآلاف حتفهم.

ثم وصل جنود جدد قادمون من شوارع المدن الأوربية ليتلقوا تدريباً عقدياً وعسكرياً لبضعة أسابيع ثم يتم إرسالهم إلى كوباني أو لتنفيذ مهام انتحارية لكن بعضهم غيروا رأيهم فقد جاؤوا لقتال الأسد ولا يريدون المشاركة في عمليات عدوانية ضد مسلمين آخرين. وبالنسبة للغالبية لم يكن هناك مجال للعودة لأن عقاب الفرار الموت.

كانت الحصة الأكبر من المقاتلين من المملكة العربية السعودية ثم تونس بالإضافة إلى مقاتلين آخرين من الدول الغربية وكذلك الزوجات المستقبليات.

في ذلك الصيف تغير وضع عائشة العائلي على الفيسبوك، ففي نهاية يوليو فاجأت الكثير من صديقاتها بنشر قلب إلى جانب كلمة «متزوجة».

كتبت أم أميرة:

- ماذا؟!؟!؟!؟!

وكتبت سولفا:

- حقاً؟ في كل الأحوال مبارك! نسأل الله البركة لكليكما في الدنيا والآخرة!

كما كتبت كاني:

- حقاً؟ مبارك!

وعلقت أم بلال:

- أظن أن عليها إما أن تنكر أو تؤكد ذلك هههههه.

سألتها حميدة:

- أليس لديك طفل؟

فردت عائشة:

- بلى.

يبلغ صلاح الدين سنة من العمر والآن بعد أن كبر بدأت تتكلم من جديد عن السفر إلى سوريا فاحتجت دلال:

- إن ذكرت ذلك مرة أخرى سأتصل بخدمة رعاية الطفل... لا... سأتصل بالشرطة. لماذا قد ترغبين بالذهاب إلى هناك؟
- أنا بحاجة للعيش في دولة مسلمة حيث يمارسون الإسلام الصحيح... لا أريد أن أربي طفلي هنا بين الكفار.
- هناك من غير المسموح للنساء بالخروج حتى ويتم تزويجهن لرجال على نحو عشوائي!
- لا يمكنني العيش في بلد غير مسلم... المحيط غير نظيف هنا.
- لكن بإمكانك أن تعيشي حياتك كما تشائين هنا في النروج... اهدئي واستمعي لأمك واعتني بابنك!

نشرت عائشة صوراً على الفيسبوك لنساء منقبات ويحملن بنادق على أكتافهن.

كانت ترى الحياة في بيرم بلا لون وقالت إنها تريد جمع المال للنساء والأطفال في سوريا ثم طلبت من دلال أن تفتح لها حساباً مصرفياً قائلة:

- أنا أتلقى المساعدات لذا لا يمكنني ذلك لأنهم إن رأوا النقود قادمة سيتوقفون عن الدفع.

ففعلت دلال كما طلبت صديقتها وهي تظن أن من الجيد أن تشارك في شيء ما.

لم تعد عائشة ودلال تلتقيان كثيراً وحين غادرت عائشة الشقة كان ذلك ربما للذهاب إلى المسجد أو حضور اجتماع لمجموعة النساء في أمة النبي أما دلال فمنشغلة بالتدريب لتصبح ممرضة كما أن زياراتها لعائشة تصيبها بالإحباط. كانت أم عائشة من تعتني بصلاح الدين طوال الوقت وتطعمه وتغير له ملابسه وتلاعبه وتنومه أما عائشة فبعيدة في حياتها على الإنترنت وخاصة تلك التغريدات من سوريا.

ظهرت حسابات على تويتر ومدونات، وفي حال تم إيقاف حساب فتاة

ما فإنها سرعان ما تعاود الظهور باسم جديد حيث ناقشت المهاجرات كما يسمين أنفسهن الطرق التي يسلكونها وكيفية إخفاء مخططات السفر وكيفية تجنب إثارة ريبة الأهل كما ذكرن بعضهن أن يحذرن ويمسحن كل المحتوى الإسلامي من الهواتف أو الأجهزة اللوحية قبل الدخول إلى بوابات الأمن في المطار.

دارت الأسئلة المتكررة حول المواد المتوفرة للبيع وما تحتاج أن تحضره معك، وإن كنت مهتماً بنوع محدد أو لديك حساسية ما فعليك إحضار منتجاتك المفضلة للشعر وإلا فإن كل شيء متوفر لذا فإن حمل مستحضرات التجميل مجرد زيادة وزن غير لازمة وكذلك الكتب لأنه يمكن تحميل كل شيء بما في ذلك القرآن. وقد قدمت إحدى النساء نصيحة حول ما يمكن شراؤه:

- حسناً... اسمعي... إن كنت تريدين شراء سلاح أو سيارة أو أي شيء آخر فما عليك سوى إحضار المزيد من المال لأن السيارات المستخدمة لا تكلف 10 آلاف، ويمكنك هنا شراء المفروشات والذهب وحتى العبيد لذا إن كنت تملكين المال فليست هناك أية مشكلة.

وأحياناً تبدو المنتديات مشابهة لدردشات فتيات المدارس قبل رحلة تخييم إذ صححت لهم تلك التي تدعي أنها تعرف كل شيء:

- مرحباً... ستعيشين في منزل لا في خيمة.

كما كانت طائر الجنان الماليزية الأكثر سخاء في مشاركة تفاصيل حياتها حيث تحدثت كيف قامت هي وزوجها المغربي بتحميل تطبيقات قواميس لكي يتواصلا بما أنهما لا يتشاركان لغة واحدة. وهناك طبيبة كفؤة اعتبرها الآخرون قديمة لأنها أمضت سنة في الخلافة وهي الآن لا تعمل وإنما تبقى في البيت مع طفلها الرضيع قامت بجمع الأسئلة في قائمة لتجنب الإجابة على أسئلة متكررة.

السترة (أسود أو أزرق غامق)
أحذية مضادة للماء (جيد للأيام الماطرة والموحلة)
بيجاما مخمل لأن الليل بارد للغاية
سروال (اثنان)
كنزة بكم طويل
جوارب سميكة (ثلاثة أو أربعة)
ملابس داخلية صوفية
سراويل يوغا عالية الجودة (ثلاثة أو أربعة)
قبعة ووشاحاً سميكاً (لداخل المنزل فقد استعملتهما كثيراً الشتاء الماضي) هناك مدافئ هنا الحمد الله لكن في الغالب لن يكونوا في جميع الغرف.

ملابس داخلية عالية الجودة، وإن كنت متزوجة أو تخططين للزواج فأحضري أشياء قد ترغبين بارتدائها أمام زوجك.

ملابس يمكنك ارتداؤها أمام زوجك ومن غير اللائق ارتداؤها أمام الأخوات كالأثواب القصيرة وأي شيء تفضلينه.

حاولت عائشة في البداية التواصل مع عرفان بهاتي في باكستان إذ كانت تريد العيش هناك معه وأرسلت له صوراً لابنه، وحين رفضها ولم يقبل مجيئها أعلنت أنها تريد الهجرة إلى سوريا فأجابها زوجها السابق:

- اذهبي حيث تشائين طالما أنك لا تأخذين صلاح الدين معك.

فاقترحت أميرة التي تزوجت باستيان وتعيش الآن في الرقة مع أيان وليلى أن تتشارك زوجها مع عائشة إذ يمكن لباستيان أن يتزوجها كزوجة ثانية قائلة:

- لا يمكنك البقاء دون زوج هنا وسيكون من الأفضل أن تتزوجي نروجياً.

تتزوج من صديق عرفان القديم؟

لقد ترقى باستيان بعد أن تعلم العربية وأصبح يعمل على الفيديوهات والمواقع الإلكترونية في قسم الإعلام... قبل بضع سنوات كان يحلم بتصميم شعار لأمة النبي والآن ها هو يعمل لحساب الرجل الذي سيحكم العالم.

وهكذا تزوجت عائشة من باستيان دون أن تخبر والديها حتى، وهكذا فإن النروجي من أصول تشيلية الذي ترك ابنته في النروج حين كانت تبلغ عدة أشهر من العمر أصبح لديه ابن زوجة... صلاح الدين.

كما عملت عائشة كمهربة للبضائع في رحلتها حيث قامت بطلب أجزاء صغيرة لتعديل الأسلحة يبلغ حجم بعضها بحجم عود الثقاب ولا تزن شيئاً ولهذا فإن من السهل إخفاؤها... كانت قد طلبت مثل هذه الأشياء سابقاً عن الإنترنت وأرسلتها مع آخرين لكنها الآن يمكنها أن تأخذهم هي إلى ما تعتبرها وجهتها الأخيرة.

بدأت الشائعات تنتشر مما أخافها من أن يتم إيقافها ولهذا وبعد شهر من زواجها نشرت على الفيسبوك:

- أعرف أن بعض الناس كانوا يسألون عني وفي نفس الوقت ينشرون الشائعات أنني سافرت إلى سوريا لكنني أقول لهم خافوا الله... أسأل الله أن يخرس ألسنتكم ويغفر لكم! أنتم لا تفهمون مدى صعوبة الوضع الذي تضعونني فيه وعائلتي وكم أن من الخطر على سلامتنا في حياتنا اليومية أن تنشروا هذه الأقاويل والشائعات الزائفة... أنا لست في سوريا... هذا فقط للتوضيح! أسأل الله تعالى أن يجعلكم يا ناشري الشائعات بكماً.

ثم غادرت إلى تركيا وقطعت الحدود.

الهوية... المعنى... الثورة... أن تكون جزءاً من شيء أكبر من نفسك... جعل الجهاد كل المشاكل الشخصية صغيرة... في الوقت الحاضر.

وفي أحد أيام الخريف تلقت دلال رسالة عبر الواتس آب:

- مرحباً يا دلال... كيف الحال؟
- عائشة! مر وقت طويل لم نلتق فيه!
- أنا على طريق الله!
- أين أنت؟
- أنت تعرفين أين... كان علي فعل ذلك بهذه الطريقة... كل شيء حصل بسرعة.
- أين صلاح الدين يا عائشة؟
- إنه معي بأمان وقد أحب الوضع هنا... سأرسل لك صوراً... لقد تزوجت باستيان يا دلال... أنا وأميرة زوجتان له.
- أخذت معك صلاح الدين يا عائشة؟ إلى منطقة حرب؟ لقد خدعتني!
- كان علي ذلك!
- وتزوجت من غير حب للمرة الثانية! ما الذي تفكرين فيه؟
- أيمكنك إرسال المال الموجود في حساب المساعدات؟
- يجب أن يذهب ذلك لأعمال الإغاثة يا عائشة.
- سأستخدمه لمساعدة الناس هنا!
- أنت قلت ذلك بنفسك حين استخدم باستيان وأميرة أموال التبرعات لنفسيهما! وكذلك عبيد الله قال أنه لا يمكن الثقة بهما؟ والآن ثلاثتكم سوية!
- أرسلي المال يا دلال وأهلاً بك متى أحببت زيارتنا! يمكنني العثور على زوج لك!

كان هناك 30000 كرونر في الحساب وقد رفضت دلال إرسالهم.

- إذن أيمكنني اقتراضهم؟

حين ولدت عائشة ابنها غيرت اسمها على الفيسبوك إلى أم صلاح الدين، وفي الرقة غيرت صورة صفحتها الشخصية لتضع صورة ابنها الذي كان يخطو أولى خطواته مرتدياً ملابس التمويه ويضع في حضنه بندقية.

افتخرت عائشة:

- سيكون أحد أشبال الخليفة.

تصادف وصولهما إلى سوريا مع موجة من المقاتلين الأجانب القادمين إلى البلاد، ووفقاً للاستخبارات الأمريكية فإن ما يقارب ألف مقاتل أجنبي يصلون إلى المنطقة كل شهر، وقليل منهم من يحضرون معهم أطفالاً.

يتم تجنيد الصبية في أشبال الخليفة حيث يتم أخذهم من والديهم حين يبلغون العاشرة من العمر ليعيشوا في معسكرات ويتلقوا تدريباً صارماً ويتعرضوا لمصاعب نفسية وجسدية قاسية كما تظهر الفيديوهات الصبية يقفون باستعداد بينما يتم ضربهم بالعصي والآخرون يقفون بانتظار دورهم وهم يرون وجوه أصدقائهم... كانوا يتدربون على القتال واستخدام المسدسات والبنادق والسكاكين كما أن الاختبار الحقيقي يكمن في إعدام سجين.

كان الأطفال أكثر من مجرد أدوات وإنما هم حجارة الأساس إذ إن هدف الدولة الإسلامية ليس هزيمة العدو واحتلال البلاد وإنما ضمان استمراريتها كمجموعة.

وقبل عيد ميلاد ابنها الثاني أرسلت عائشة صورة صلاح الدين مما أصاب دلال بالقشعريرة إذ إن عينيه متورمتان وهناك كدمات على وجنتيه.

حاولت دلال الاتصال لكن عائشة لم ترد.

الجزء الرابع

بيـر غينـت: أيـن كنت أنـا كنفسـي... كرجـل كامل... حقيقي؟ أين كنت بجبهتي الموسومة بختم الرب؟

سولفيغ: في إيماني... في أملي... في محبتي.

هينريك إبسن: بير غينت 1867

26

مكتبة
t.me/t_pdf

ليس من دون ابنتي

بحث صديق عن منبج على غوغل فقد انتقلت أيان وهشام من جديد إذ إن الرجال يذهبون حيث تأمرهم الدولة الإسلامية والنساء يتبعهن.

كان ذلك في أكتوبر 2014 وقد مضى عام على وصول الفتاتين إلى سوريا... ربما يكون من الأسهل إخراجهما من منبج التي تقع في ريف حلب... لكن آمال صديق سرعان ما تحولت إلى يأس، فالمدينة جزء من الخلافة والسيطرة عليها مشددة كما في الرقة إذ سيطر الإسلاميون على قوات الشرطة والوزارات والمحاكم واتخذوا الطريق بين منبج والرقة كخط حياة للدولة الإسلامية بما أن القوات الكردية دمرت أو سيطرت على الجسور التي على نهر الفرات من الحدود التركية شمالاً وحتى بحيرة الأسد جنوباً. وعلى الرغم من أن معظم سكان منبج من العرب إلا أن الأكراد اعتبروها أرضهم التي يتجذرون فيها منذ العصور الوسطى.

لقد جاءت الدولة الإسلامية كطرف استعماري لكن لم يكن الجميع منزعجين من الحكام الجدد لا بسبب تأييدهم لمعتقداتهم ولكن لأن الوضع الحالي أحلى الأمرين... العدالة قاسية لكن يمكن توقعها... في معظم الأحوال يترك الإسلاميون الناس بسلام طالما أنهم يطيعون الأوامر ويرتدون الزي الصحيح ويصلون.

بدت إدارة الدولة الإسلامية أكثر كفاءة مما اعتاد عليه الناس حيث سارعت لإصلاح أنابيب المياه وأعمدة الكهرباء وترتيب الحدائق وزرع الأزهار وتنظيف الشوارع مع نشر صور عمليات الإصلاح على تويتر لتلميع

صورة الخلافة.

كان الجزء الشرقي من محافظة حلب في حالة ركود حيث يجني معظم سكانه لقمة عيشهم من الزراعة كما أن الدليل الوحيد على وجود الصناعة هو مصنع الإسمنت، وقد تسببت الحرب الأهلية بانتشار حالة من انعدام القانون لتختلط عصابات المجرمين مع القوى الثورية وتقوم بالنهب والخطف والاغتصاب والقتل لكن الجرائم تضاءلت عندما سيطرت الدولة الإسلامية بسبب خوف الناس من العقاب القاسي: الجلد أو قطع اليد أو الرأس أو الصلب.

قرأ صديق على الإنترنت أن آثار القنوات والجدران من المدينة المقدسة القديمة موجودة في منبج، وفي مقال آخر عرف أن هناك الكثير من اللاجئين المقيمين حالياً في المدينة... ماذا لو استطاعت الفتاتان أن تختبآ بين اللاجئين وتهربا بتلك الطريقة؟

وهكذا أمضى أيامه ولياليه أمام الشاشة يقرأ ويفكر بكل ما يحصل في ذلك المكان.

وفي منتصف نوفمبر تم قتل المزيد من السوريين وأمريكي آخر حيث أظهر الفيديو الذي نشرته الدولة الإسلامية بعنوان «ولو كره الكافرون» قطع رؤوس الجنود السوريين البالغين من العمر اثنان وعشرين عاماً ورأس بيتر كاسيغ إذ كان الشاب الذي يعمل في المساعدات الإنسانية رابع رهينة غربية تقتلها الدولة الإسلامية. وقد تمكن الشاب قبل بضعة أشهر من تهريب رسالة إلى والديه في إنديانا فحواها:

«لا تقلق يا بابا... إن سقطت فلن أفكر سوى بما أعرف أنه صحيح... أنك وماما تحبانني أكثر من القمر والنجوم».

وقد عملت الفتيات الجهاديات في الخلافة كنادٍ للمعجبين بعمليات الإعدام إذ وصفت إحداهن قطع رأس كاسيغ على أنه رائع وعادل.

تساقط الشباب من كلا الجانبين على الجبهة، وبعد قطع رأس كاسيغ بيومين تم الإعلان عن مقتل إرهابيين نروجيين تابعين للدولة الإسلامية على التلفاز النروجي.

وقد بدأ التقرير بصورة لفتى مبتسم يرتدي سترة شتوية وبشرته سمراء ثم ظهرت صورة للفتى نفسه يحمل رمحاً وقال المذيع:

- هذا هشام حسين أحمد... جاء إلى النروج كقاصر بلا مرافق عام 2003 وهو يبلغ الثالثة عشرة من عمره، وفي ديسمبر 2012 سافر إلى سوريا. ويقال أن النروجي من أصول أريتيرية يتولى منصباً قيادياً في الدولة الإسلامية.

هشام؟

وأحس صديق بالراحة تسري في جسده.

هشام ميت!

أيان حرة!

أحس بلذة الانتقام إذ إن هشام أذله أولاً بسرقة أيان من عائلتها ثم بالزواج منها دون طلب إذنه... وأخيراً أصبح بإمكان صديق التوقف عن التفكير به.

اتصل بعثمان ليخبره بالخبر الجيد فقال عثمان:

- عظيم! بالتأكيد سترغب بالعودة إلى الوطن الآن.

لقد ذهب هشام من طريقها وأصبحت أيان أرملة، ولم يعد أمامهم سوى انتظار اتصالها.

لقد جنى عثمان مبلغاً كبيرة من استقدام المقاتلين الأجانب والآن يمكنه جني المال من ترحيلهم.

ربما تتصل أيان قريباً... ما إن تنتهي مدة العدة.

وفي أحد الأيام اتصل عثمان ليسأل إن كانت أيان قد اتصلت ثم قال:

- لدي الحل... هناك قريب لي لديه وجهان... هل فهمت قصدي... إنه يعمل لصالح الدولة الإسلامية لكنه في الواقع واحد منا. جزء من

الطريق يمر بنفق تسيطر الدولة الإسلامية على أحد طرفيه والنصرة على الطرف الآخر، وحين يأتي من أطمه يدخل النفق كأحد رجال النصرة ثم يخرج كأحد رجال الدولة الإسلامية. يمكنه في رحلته التالية إلى الخلافة أن يمر بالرقة ومنبج في طريق العودة ويأخذ الفتاتين ويخفيهما في سيارته ثم يخرج من النفق... في غاية البساطة... وغاية الخطورة.

سيتصل عثمان حين يصبح العميل المزدوج جاهزاً لتنفيذ المهمة لكن في الوقت الحالي على صديق الانتظار.

- ستستعيدهما قريباً لكن ذلك سيكلفك المال.

في وقت لاحق من ذلك الشهر اتصل عثمان من جديد قائلاً:

- العميل المزدوج جاهز لكن عليك إيصاله إلى الفتاتين.

اتصل به صديق ليجيب العميل المزدوج بلغة عربية فصحى وهو يتلعثم بالضمائر وبعض الكلمات لكن رسالته واضحة: إنها عملية خطرة عليه وعلى الفتاتين لكنها ممكنة، ثم قال العميل المزدوج:

- عليك أن تجعلهما تتصلان بي... ينبغي أن أتواصل معهما مباشرة. ينبغي أن يكون الاتفاق واضحاً وأن تعرف الفتاتان متى وأين تنتظران منقذهما كما ينبغي أن يتم كل ذلك بسرعة قصوى.

ثم يمكنني إيصالهما إلى أي مكان... تركيا أو أي مكان تريده.

- حسناً... سأجعلهما تتصلان بك.

كان صديق على اتصال بفريق أفلام نروجي وحدثهم عن محاولاته لإنقاذ الفتاتين، وقد استمروا بملاحقته منذ الصيف حيث صنعوا فيلماً وثائقياً بعنوان «مجرد أب» وهو التعبير الذي وصف به صديق نفسه في سوريا ليشرح من هو كما استخدمه مع الدولة الإسلامية حين اتهموه أنه مجرد جاسوس.

التقى طاقم التصوير عثمان والسائق محمود والطبيب فراس الذي ضمد

قدم ليلى وهو الآن طالب لجوء في السويد كما تتبعوا واحداً من زملاء صديق في الزنزانة في مؤسسة الصرف الصحي... سوري من آخر زنزانة تم احتجاز صديق فيها... لا ينقصهم الآن سوى الفتاتين.

كانت فيسليموي هفيدستين المراسلة التي تعمل في هيئة الإذاعة الحكومية النروجية هي من تواصلت مع صديق بعد رؤيته في الأخبار حيث كان ظهره للكاميرا لكن فيسليموي تعرفت إليه، ففي عام 2006 ظهر في حلقة من برنامج «ميغرابوليس» وهو سلسلة حلقات أعدتها عن الحياة اليومية للمهاجرين في النروج إذ قامت بطرح أسئلة على صديق وعلى الطبيب النفسي الذي ساعده في التعامل مع الصدمة النفسية ومشاكل العنف بعد الحرب الأهلية في الصومال كما ظهرت الفتاتان أيضاً عام 2006 وهما تلعبان كرة القدم مع أبيهما... أيان المراهقة وليلى التي ما تزال طفلة.

كان زوج فيسليموي ستيرك جانسن من سيخرج الفيلم الوثائقي حيث أخبره صديق عن العميل المزدوج واتفقا على اللقاء في قرية بالقرب من الحدود ليقوموا أولاً بتسليم المبلغ المتفق عليه ثم يتم نقل الفتاتين للخارج. وقد أخبر صديق صانعي الفيلم الوثائقي أن الفتاتين مختبئتان بعد أن هربتا من زوجيهما وهما في حالة يأس وتتوسلان إليه لينقذهما كما أنه حين التقى بأيان في الدانة في السنة الفائتة تشبثت به بقوة وهمست:

- أنقذنا يا بابا إن استطعت!

وفي بداية نوفمبر طلب المخرج تذاكر طيران إلى بلدة الريحانية جنوب تركيا حيث سيلتقون بالعميل المزدوج بالقرب من القرية. وضب ستيرك الكاميرا والعدسات والبطاريات والمال إذ إن صديق سيسمح له بتصوير اللقاء مع العميل المزدوج واللحاق به حتى الحدود إن أمكن ثم الانتظار حتى تخرج الفتاتان ليتم تصوير العناق واللقاء بين الأب وابنتيه.

وفي اليوم السابق لمغادرتهم تلقى ستيرك مكالمة هاتفية من صديق يتنفس فيها بصعوبة وصوته بالكاد مسموع:

- لدي أخبار مريعة...
- ماذا حدث؟

صمت صديق للحظة ثم قال بصوت حزين:

- لقد تم إعدام العميل المزدوج.

اضطر ستيرك للجلوس بينما بكى صديق قائلاً إن هذا كل ما يعرفه، فقد أرسل له عثمان صورة له وهو مقطوع الرأس ومصلوب.

أعاد صديق إرسال الصورة لستيرك حيث يظهر رجل مقيد بسور وجسده متكئ على الأسلاك الشائكة وذراعاه ممدودتان ورأسه مقطوع ومرمي بين ساقيه ومعلق بجسده لافتة: «أنا خائن».

قال صديق:

- قبل ليلتين كان خارجاً من شقته في الريحانية فأحاط به عدة رجال ملثمين وحملوه إلى سيارة ثم عبروا به الحدود إلى سوريا إذ إن الدولة الإسلامية اكتشفته عمالته المزدوجة. كان القائد المحلي للنصرة يجري مفاوضات سرية مع الدولة الإسلامية من أجل ضم القوات، وفي النهاية بايع قائد النصرة «أبو بكر البغدادي» ليتم توحيد الأسلحة والرجال لكن قوائم الموظفين فضحت العميل الذي ظهر في كلا الجانبين، ومع أن الأمر لم يكن ذا أهمية بعد أن اتحدت المجموعتان لكنك إن خنت مرة فيمكنك بكل سهولة أن تخون مرة ثانية... الجاسوس جاسوس... وهكذا تم الحكم عليه بالإعدام.

ارتعش ستيرك.

- هل نحن سبب الإمساك به؟ أيمكن أن يكون ذلك لأنه سينقذ الفتاتين؟ هل نتحمل اللوم على موت رجل؟
- لا أدري... علينا الانتظار حتى أحصل على كامل المعلومات من عثمان... إنه في حداد الآن إذ إنهما قريبان.

ألغى ستيرك تذاكر الطيران وأعاد الكاميرات إلى الرف.

جلب الخريف معه الظلام الذي سيزيد أكثر فأكثر.

أرسل عثمان رسالة نصية إلى صديق:

- أبو صديق ليس ميتاً.
- مَن؟!

لقد قام المهرب السوري بالاستقصاء والتحري.

- هشام! صهرك! كان ملقباً أبو صديق لكنه غير اسمه مجدداً.
- أنا متأكد من أنه ميت.
- إنه على قيد الحياة... هناك رجل يعرفه التقى به مرتين آخرهما قبل يومين.
- أوه لا...
- لقد كان في المشفى مصاباً... اسمعني... انتظر حتى تسمع... العيادة التي تم علاجه فيها تحت الأرض في مرأب في الرقة، وهل تعرف من كان هناك أيضاً؟ القائد! لقد أصيب في نفس الهجوم أو هذا ما يقولونه... هذا كل ما أعرفه.
- كيف عرفت أنه على قيد الحياة؟
- الشاب الذي أعرفه أكد الأمر.
- إذن هذا الوغد اللعين كان على قيد الحياة قبل يومين...
- لديه سيارة تويوتا رباعية الدفع يريد بيعها... نفس السيارة التي كان يقودها في أطمه... رأيت صوراً لها... لغته العربية ركيكة للغاية ويتكلم اللغة كالمغفلين.

كانت الشائعات تنتشر لتقضي على حياة شخص ما أو تعيده إلى الحياة... عثمان يعرف أشخاصاً من كلا الجانبين وحين يسمع بقصة يستمع لروايات عديدة ويحلل القطع ويضيف روايته إذ إن قدرته على تجميع المعلومات هي رأس ماله كمهرب.

لـم تكـن ابنتا صديـق مدركتين لمحاولات أبيهمـا لإنقاذهما، وفي بداية ديسـمبر بعـد انقطـاع التواصـل بينهمـا وبين إسـماعيل لعدة أشـهر كتبت أيان مكملة المحادثة الأخيرة:

- مرحبا! هل حاولت البحث عن إجابات أم لا؟

فأجاب إسماعيل:

- كيف حالكما؟
- الحمد لله بخير.
- أين أنتما الآن؟
- في مقهى إنترنت.
- ماذا يحصل؟

ثم توقفت المحادثة... كم يكره هذا! هذه الرسائل التي تنتهي فجأة كما بدأت! حين حاول التواصل مجدداً لم يجد سوى الصمت لتظهر له بعد فترة رسـالة «مرحبـا» ويعـودان للحديـث مـن جديد ثم ينتهي كل شـيء حتى تجد أختاه الوقت المناسب.

حصـل إسـماعيل علـى وظيفـة بـدوام كامل في متجر محلـي وتولى كل المناوبات الإضافية الممكنة، وحين يكون لا يعمل كان يجد الكثير من أوقات الفراغ التي كان يمضيها مع الأصدقاء بالتسـكع وفي النادي الرياضي ولعب ألعاب الكمبيوتر.

درس خيـارات العديـد مـن الكليـات والجامعـات... تلك الفـروع التي تتطلب درجات مرتفعة يمكن إقصاؤها فهو لم يتخرج من المدرسة بعلامات متميزة... في السـنة الماضية بحث عن برنامج هندسـة بترول في الشـمال ثم اكتشف أن البطالة في ذلك القطاع في ازدياد.

إن كان سيتبع قلبه فعليه أن يتعلم عن الكون والذرة والفيزياء والكيمياء... إنه يريد معرفة كيفية عمل الكون.

وفي نفس الوقت هو يريد نسيان الأمر.

في سنته الأخيرة في المدرسة وجد من الصعب التركيز ولم يتمكن من التقدم بطلب انتساب كما انخفضت درجاته... كان يعلم أن عليه بذل جهد أكبر لكن موعد التقدم بالطلبات للعام الأكاديمي التالي ما يزال بعيداً... في العام القادم سينجز شيئاً في حياته وينشل نفسه من المستنقع ومن الصباحات القاتمة والليالي الحالكة وينسى أخته.

وصل أكثر أوقات السنة ظلاماً لكن الثلج لم يتساقط بعد ليضيء الشتاء النروجي... وفي إحدى ليالي ديسمبر كتب إلى أيان:

- أفضل دخول الجحيم على الخضوع... تباً!

وأكمل رسالته الليلية:

- بالمناسبة ظننتك يا أيان واحدة من أذكى الأشخاص الذين أعرفهم واحترمتك لكنك تجاهلت المنطق... هل تصدقين حقاً أن الدولة الإسلامية داعش الصغيرة ستسيطر على العالم؟ ببنادقهم الكلاشينكوف ومعداتهم التي تركها الأمريكان خلفهم... داعش والمجموعات الصغيرة الأخرى من أمثالها لا يقومون سوى بتنفيذ أعمال أمريكا القذرة... داعش تقتل المجموعات الإسلامية الأخرى... لنقل أن داعش هزمت نظام الأسد... هل تعرفين ماذا سيحصل حينها؟ سيعطي ذلك الولايات المتحدة الأمريكية العذر لترسل القوات وتقتل البقية... لكن انتظري... هذا ليس الهدف... هناك نفط هناك مما يعني خسائر أقل لأمريكا وأوباما سيظهر بمظهر الشخص الجيد... أمريكا ستضخ النفط لتضمن استمرار صناعة أسلحتها... في الوقت الحالي جنود الدولة الإسلامية يتذمرون أن الولايات المتحدة لا ترسل قوات برية وإنما فقط طائرات بدون طيار... هذا غير عادل... قاتلوا كالرجال أيها المتخلفون!

اقترب عيد الميلاد وازدادت المناوبات في المتجر حيث كان إسماعيل يملأ الثلاجات بأضلاع اللحم والجبن ويكدس البسكويت في مكانه وكذلك

الحلـوى والمعجنـات ويمـلأ قسـم الفواكه بالبرتقال والتمـر والتين... الجعة والنبيذ... الشـموع المزينة للأمل والسـلام والفرح... كما تكدسـت الخنازير المعدة للطهي.

وفي منزل عائلة جمعة لم يشـعل الأب أو ابنه أية شـموع كما لم يعلقا أية زينة... فهم منذ أن جاؤوا إلى النروج كانت سارة تؤكد على عدم تحضير أي شـيء مميز لعيد الميلاد لأن من المهم التمييز بين الاحتفالات المسـيحية والاحتفـالات الإسـلامية... هـذا العـام هي في منطقة ليـس فيها احتفال بعيد الميلاد في الصومال والأختان في مكان خالٍ من روح عيد الميلاد.

في ليلة عيد الميلاد أرسل لها رمزاً ترحيبياً.

في يوم عيد الميلاد ردت أيان:

- أخبر ماما أن عليها أن تسامحني.

ولم تكتب لأخيها بعد ذلك.

27

عام جديد... فرص جديدة

كتب عثمان لصديق في يناير متذمراً:

- أصبحت سوريا مكباً للنفايات... النصرة تعصرني.

لقد علق عثمان بالخيوط التي كان فيما مضى يحركها وكأن أحداً كان يقف جانباً ليسحبهم ويخنقه ويستولي على عمله وعملياته، وهكذا لم يعد من الممكن أن يعمل لوحده أي أنه حتى المهربين اضطروا للاستسلام للظروف... الحرب تعامل الناس بوحشية والصراع على الموارد يشتد.

وهكذا اختفت هيكليات السلطة التقليدية من أيام الأسد حين كانت محافظة إدلب تحت سيطرة شبكة من الممتهنين للحزب وزعماء العشائر المحلية لتصبح أطمه مستنقعاً للجريمة المنظمة والسيطرة الإسلامية الصارمة والفوضى... لم تعد هناك سلطات تسيطر على العنف وإنما أصبح البقاء للأقوى، فهوى الكثيرون إلى الحضيض واختفوا كما انتشرت حوادث الاختطاف للناس العاديين أو أي شخص طالما أنه قادر على الدفع... ابن أخ... ابن عم... أو أب... كلهم قد يتم اختطافهم في محاولة لسحب المال من العائلة... وسواء على خط الجبهة أو في خلاف على مبلغ زهيد من المال لم تعد للحياة أية قيمة.

كان الذراع السوري للقاعدة الأكثر هيمنة في المحافظة مما جعله يطالب الآخرين بالانصياع له بينما حاول رجال النصرة تأسيس إمارة مصغرة ووضع المنطقة الخاصة بها تحت حكم الإسلاميين المتشددين مما زاد نقاط الشبه بينهم وبين الدولة الإسلامية حيث فرضت ضرائب متزايدة على

إرهابيها وجبت الرسوم والتعرفة والغرامات على أي خرق للقوانين الجديدة دون استثناء المهربين بل على العكس إذ لاحقت النصرة نشاطات المهربين وطالبت بحصة من أرباحهم.

كتب أسامة:

- الوضع صعب وأنا متعب... أشعر وكأنني وصلت إلى نهاية المطاف.
- لا يا أخي... لا تقل هذا... ماذا حدث للنصرة؟
- أصبحت النصرة الآن كالدولة الإسلامية أما أصدقائي القدامى من النصرة فجميعهم استشهدوا.
- تقبلهم الله! كيف أصبحت النصرة كالدولة الإسلامية؟

أصدرت النصرة قوانين وتشريعات وأرسلتها إلى البلدات والقرى الخاضعة لسيطرتها... الكفر والمثلية الجنسية يعنيان الرجم حتى الموت كما أن مصير مؤيدي الأسد الإعدام رمياً بالرصاص في الرأس، وتم إغلاق جميع أماكن التسلية التي تقدم البلياردو وكرة الطاولة وألعاب الكمبيوتر، وعلى مالكيهم البحث عن مصدر آخر للمعيشة ينبغي أن يكون مشروعاً في الدين الإسلامي. وعلى المتاجر الإغلاق في أوقات الصلاة لأن الله جل وعلا قال: «واركعوا مع الراكعين». وفي نهاية كل مرسوم مكتوب عبارة «والله من وراء القصد».

كانت النصرة واحدة من أثرى مجموعات الثوار في سوريا إذ كان نصف مواردها في البداية قادم مباشرة من القاعدة أما النصف الآخر فمن المتبرعين من خارج البلاد ومعظمهم من الخليج وعلى وجه الخصوص قطر. ومع الوقت استولت المجموعة على معدات عسكرية من قوات الأسد كما مولت أنشطتها بصادراتها من حقول النفط التي سيطرت عليها حيث جنوا الملايين من اختطاف الناس وأخذ الفدية، وإن كنت أجنبياً وتم اختطافك في سوريا سيكون من الأفضل أن تقع بين أيدي النصرة لأنهم لا يكترثون سوى بالمال الذي سيجنوه منك ولا يسعون لقتلك.

- هل تكلمت مع ابنتيك ياأخي؟ هل هناك أي أخبار؟

كان ذلك في الليل في شهر فبراير وعثمان يتحدث على فايبر.

- الصغيرة حامل في شهرها الرابع.

كان صديق قد عرف بالخبر للتو من سارة.

- الصغرى!

فضحك صديق.

- آه... ستصبح جداً أيها العجوز! عليك أن تستعيدها الآن إن شاء الله... كلما طال الأمر كلما أصبح أكثر صعوبة.

هنا المشكلة... تبادل صديق وابنتاه الكثير من الكلمات القاسية ولم تعودا تتكلمان معه وإنما تتصلان بسارة في الصومال حين ترغبان بالتواصل. وحين تكلم صديق مع العميل المزدوج قبل السنة الجديدة أكد السوري على أن المهمة في غاية الخطورة وأن على الفتاتين أن تتعاونا.

ولم يتمكن صديق من الاعتراف للمهرب أنه لا يستطيع التواصل معهما حتى.

لا بد أنهما ترغبان بالرحيل.

وبعد حديثهما الأول اتصل صديق بالعميل المزدوج مرة أخرى وترك له رسالة في البريد الصوتي سأله فيها:

- هل يمكنك اختطافهما؟

- آسف لكن إن كانتا لا ترغبان بالخروج فليس هناك ما أستطيع فعله... لست مستعداً للقيام بهذه المهمة فهي مستحيلة.

لكن صديق ظل ينتظر على أمل حصول معجزة بأن تتصل الفتاتان وتقولان «أنقذنا» وحينها ستكون الخطة جاهزة... المنقذ والسيارة وطاقم التصوير... ولهذا ترك ستيرك يطلب تذاكر الطائرة ويوضب المعدات لأنهما قد تتصلان وتقولان:

- أنقذنا يا بابا!

لكنهما لم تتصلا.

وفي اليوم السابق لسفره هو وستيرك إلى الريحانية عبر إسطنبول أصبح عليه إيجاد طريقة لإنهاء الخدعة لكن الأوان قد فات على إخبار ستيرك بالحقيقة أن الفتاتين لا تريدان مغادرة الخلافة وأن العميل المزدوج قد رفض تولي المهمة.

كان من الأسهل اختلاق قصة عن قطع رأسه وصلبه.

كتب له عثمان في إحدى الليالي:

- حين تنجبان أطفالاً ستصحوان وتدركان أي نوع من الأنظمة هذا الذي تعيشان تحت حكمه... هذا ما يحصل بالنساء الأجنبيات وحينها ستندمان. حين يأتيهما أطفال ستركزان كل مشاعرهما عليهما وسترغبان بالفرار من سوريا.

كان عثمان الشخص الوحيد الذي أخبره عن رفض الفتاتين العودة إلى المنزل حيث كان الاثنان يجلسان لساعات ويدردشان على الإنترنت.

سأله صديق:

- كيف تخطط لاختطافهما؟
- لم أجد الأشخاص المناسبين بعد.
- حاول بأقصى ما تستطيع.
- طالما أن الدم يسري في عروقي والأنفاس تتردد في جسدي لن أنسى أختاي يا أبو إسماعيل. لا تقلق فأنا وكيلك في سوريا.
- عليك أن تفكر بخطة محكمة... فكر بها كأهم عملية نفذتها... وبعد ذلك ستصل أنت وعائلتك إلى النروج خلال بضعة أيام.

كان صديق قد وعد عثمان بتأمين اللجوء السياسي له في النروج مضيفاً:

- لا تخف يا أخي... أوصل سلامي لزوجتك العزيزة التي لم تخبرني

باسمها.

استفسر عثمان بعد بضعة أيام:

- هل تتكلم الفتاتان اللغة العربية؟

بعد مرور عام ونصف على وصولهما إلى سوريا لا بد أنهما قادرتان على الحديث بشكل يجعل الآخرين يفهموهما... لكن ليس لدى صديق فكرة إن كانت الفتاتان على اتصال بالسورين المحليين أم أنهما لا تتواصلان سوى مع مثيلاتهما الأوربيات حيث يجتمع الفرنسيون مع بعضهم والألمان مع بعضهم والإسكندنافيون مع بعضهم، فأيان تتكلم مع هشام باللغة النروجية أما ليلى فتتواصل مع عمران باللغة الإنكليزية.

كانت أعصاب صديق مشدودة.

بعد بضعة أيام اتصل عثمان:

- اسمع... هناك نوعان من الناس الذين يمكنهم اجتياز الحدود من المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة إلى مناطق داعش حتى أراضي الميليشيات وقوات الثوار وبالعكس لأن الجميع يحتاجونهم وهم المسؤولون عن الاتصالات والإنترنت وأولئك الذين ينقلون الوقود بسيارات شحن.

كان دور صديق في العملية أن يدفع المال لكن المال غير موجود، ولم يعد لدى أصدقائه أي نقود ليقرضوه ولا يمكنه أن يطلب المزيد من مكتب الخدمات الاجتماعية. فكر صديق بفكرة ظن أنها قد تكون مربحة: قلة من المقاتلين الأجانب من النروج قد ظهروا في وسائل الإعلان لأن ذلك ممنوع فمن المحظور التبليغ عن بعضهم أو الحديث مع وسائل إعلام الكفار. وفكر صديق أن بإمكانه بيع المعلومات التي يخبره بها عثمان حيث ينشآن نوعاً من خدمة استخبارات مشتركة عثمان مسؤول فيها عن الوصول إلى المعلومات وصديق عن بيعها.

اتصل صديق ببضعة صحافيين كان قد تواصل معهما من قبل وحصل

على مبلغ جيد فكتب لعثمان:

- لـدي أخبـار جيـدة... لقـد عقدت صفقة مع صحفي نروجي سيدفع لنـا المـال علـى كل معلومـة يمكننـا تقديمها عـن المقاتلين الأجانب النروجيين بشرط وجود صور أو فيديوهات.. إما من داعش أو النصرة.
- ممتاز. أنا أعرف شـاباً لديه زوجة في الرقة حيث يوصل البترول إلى داعش كل ثلاثة أيام ويمكنه اختطاف الفتاتين ونقلهما في الشاحنة.
- ممتاز.
- لكن أولاً ينبغي أن يقوم حداد بفحص العربة وتعديلها حتى لا تتأذى الفتاتان... سنقسم الصهريج لنصنع مساحة من ستة أقدام ونثقب فتحة للهواء... الصهريج كبير للغاية ويتسع 120 طناً... يمكنه أخذ صهرك أيضاً... هل فهمت كل ذلك؟ ما رأيك يا أبو إسماعيل؟
- ابدأ.
- هنـاك رؤوس سـيتم قطعهـا... هـذا ما يقلقني... أقسـم بـالله أنهم إن اكتشـفوا مـا نخطط له سـيرمونا فـي الصهريج ويصبـوا البترول علينا ويحرقونا بشكل مريع أكثر من ذلك الطيار الأردني.

في ليلة عيد الميلاد عام 2014 سقطت طائرة إف 16 أردنية خارج مدينة الرقة وهبط الطيار معاذ الكساسبة ابن السـتة وعشـرين عاماً في أراضٍ تابعة لداعش وظهرت مشـاهد للمقاتلين المبتهجين وهم يمسـكون بالطيار الأسـير في كافة أنحاء العالم. وبدأت الدولة الإسلامية بالتفاوض مع الأردن لمبادلة الطيار بالإرهابية ساجدة الريشاوي التي لم ينفجر حزامها الناسف في هجوم في عمان عام 2005.

وقد تم إطلاق سـراح الجهادي أبو محمد المقدسـي من سـجن أردني ليكون وسـيطاً، وسـرعان ما قام المقدسـي الذي كان في غاية التطرف بالنسبة لأسـامة بن لادن في ثمانينات القرن العشـرين بالتواصل مع الدولة الإسـلامية حيث طالبت السلطات الأردنية بدليل مصور على أن الطيار ما يزال على قيد

الحياة قبل إطلاق سراح ساجدة، فأرسلت الدولة الإسلامية ملفاً إلكترونياً إلى المقدسي لكنه محمي بكلمة سر. وبعد عدة أيام من الحوار المكثف تلقى الرمز ليفتح الملف، وحين استلمه فهم الإسلامي العجوز أنه تم خداعه إذ إن كلمة السر هي:

«المقدسي بواب... نعل حذاء الطاغوت... ابن العاهرة الإنكليزية».

وحين كتب العبارة ظهر فيديو على الشاشة يظهر جندياً من جنود الدولة الإسلامية يدخل الطيار إلى قفص ويغرقه بالبنزين ويضرم النار به مما أغضب أستاذ بن لادن العجوز إذ لا يمكن عقاب أحد بالحرق بالنار فهذا الأمر لا يقوم به سوى الله لأولئك المكتوب عليهم العذاب الأبدي في الجحيم.

وبعد ثلاث ساعات نشرت الدولة الإسلامية الفيديو على الإنترنت وتم رفض نقد العلماء المسلمين إذ إن الطيار قصف مصنعاً للقرميد وأحرق ضحاياه على قيد الحياة ولهذا فقد تلقى العقاب الذي يستحق وفقاً لمبدأ القصاص في الشريعة.

كتب عثمان:

- لست خائفاً من مجموعتي إذ لا يمكن أن يخونوني لكنني خائف من الدولة الإسلامية فهم يخيفونني... هناك رؤوس ستنقطع... إن أخفقنا.
- أعرف يا صديقي العزيز.
- وعليك أن تجد المال... ممول... أحد ما ليغطي التكاليف... وعلى الفور... وتذكر... لا تخبر أحداً بالتفاصيل... لا أحد على الإطلاق.
- أفضل المخاطرة بحياة ابنتي على المخاطرة بسلامتك أو سلامة السوريين الآخرين... إن طلبت مني أن أحضرك وعائلتك كلها إلى النروج سأفعل ذلك... أنا مستعد لذلك... يمكنني أن أضمن لك... أنت وسوريا أصبحتم جزءاً من حياتي وجزءاً من معناها.

وبعد يومين أرسل له صديق رسالة تذكير ليس حول عملية الإنقاذ وإنما حول وسيلة تمويله... المعلومات حول الجهاديين النروجيين.

- ابحث لي عن معلومات... أي شيء تحصل عليه حول المهاجرين من النروج... بغض النظر عن مدى صغرها... أرجوك ركز على ذلك... سيدر علينا بالأرباح.
- ما نوع المعلومات التي يحتاجونها؟
- أسماؤهم أو أماكنهم على سبيل المثال وإن كانوا قادة أو جنوداً عاديين... أي نوع من المعلومات مع الصور... يمكننا بيع الصور وشراء ما نحتاج بالمال.
- هل ألتقط صوراً؟ دون أن أتكلم معهم؟
- ليس من الضروري الحديث معهم... مجرد معلومات بغض النظر عن مدى أهميته... مؤكدة أو غير مؤكدة... مع صور!
- هل ألتقط الصورة على هاتفي المحمول؟ قد لا تكون الجودة ممتازة.

فأكد له صديق أن هذه الجودة تكفي.

وفي اليوم التالي بدأ عثمان بالبحث عن الجهاديين النروجيين وإرسال المعلومات التي يجدها.

- مجاهدون بريطانيون من لندن وأجانب آخرون من فرنسا... هناك أربعة صوماليون في مكان قريب... نساء... أطفالهم معهم... يمكنني التقاط صور للأطفال... هل تريد ذلك؟ لديهم مساحة للعب حيث يمكن للنساء أن يأخذن أطفالهن.
- لست بحاجة سوى للنروجيين!

لكن عثمان لم يستوعب الأمر فهذه المهمة صعبة عليه.

- بصراحة ذهني في الوقت الحالي مشغول بعملية إنقاذ ابنتيك... لقد أمضينا وقتاً طويلاً في التخطيط والآن نحن مستعدون لكن عليك إرسال المال.

- ابحث عن معلومات مهما كانت تافهة عن المقاتلين الأجانب النروجيين... ركز على ذلك... هذا سيدر علينا بالأرباح.

بالنسبة لصهره هناك من سبقه، ففي 16 فبراير 2015 ذكرت نسخة الإنترنت من مجلة داغبلاديت:

«قائد الدولة الإسلامية من بيرم الذي تم الإبلاغ عن مقتله في الخريف الماضي لم يمت قط وإنما مصاب بجروح بالغة لكنه بعد تلقي العلاج في المشفى يمكن لمجلة داغبلاديت أن تؤكد أن الشاب ذا الأربعة والعشرين عاماً قد خرج من المشفى وعاد لنشاطه في الدولة الإسلامية.

ووفقاً للمجلة فإن صهر صديق قد ترقى إلى منصب متوسط المستوى يوازي رتبة رقيب في النروج، ووفقاً للتقرير فإن ابن الرابعة والعشرين من بيرم الملقب بأبي صديق في سوريا تم تعيينه ليجمع الضرائب على النفط السوري الذي تصدره الدولة الإسلامية من خلال قنوات غير رسمية عبر الحدود التركية.

28

ربات منزل في الرقة

في ذلك الربيع ظهر بيان رسمي تم توزيعه بالطريقة التي يفضلها الجهاديون عام 2015... عبر الإنترنت... حيث نشرته فرقة الخنساء النسوية تحت عنوان «النساء في الدولة الإسلامية: بيان رسمي ودراسة تطبيقية».

في العادة تتم ترجمة الوثائق والمقالات بسرعة إلى الإنكليزية والفرنسية والروسية لكن بيان النساء لم يتم نشره سوى باللغة العربية وبالتالي فإن النساء الغربيات اللاتي يفكرن بالحياة في الدولة الإسلامية لم ينتبهن له، فقد كان يستهدف النساء في العالم العربي وخاصة النساء في الخليج اللاتي كن يعشن حياة لا تختلف كثيراً عما سيجدنه في الخلافة باستثناء التفجيرات إذ حث البيان نساء المملكة العربية السعودية للتخلي عن معقل النفاق والقدوم إلى الخلافة لأداء الدور الذي أوكله الله لهن كزوجات وأمهات... فالعيش من أجل العائلة هو حق إلهي للمرأة.

كما أثار البيان المشاعر التي تم ذكرها في فيديو «المواعدة الحلال» وحث على الاحتراس من الشيطان لأنه لا يكل ولا يمل في محاولاته لدخول قلب المرأة وإغوائها لخلع ملابسها أمام الآخرين كما يشجعها على الاستهزاء بخلق الله من خلال إجراء العمليات الجراحة لأنفها وأذنيها ووجنتيها أو تعليق الأقراط من أذنيها أو إزالة الشعر من بعض الأماكن... لقد ظهر عمل الشيطان في متاجر الملابس وصالونات التجميل.

«وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» الأحزاب 33.

كان هذا أمر الله لزوجات النبي لكن الدولة الإسلامية طالبت جميع

النساء بطاعة البيان... يمكن للطبيبات والمدرسات العمل لكن ليس لأكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع إذ يمكن للمرأة مغادرة المنزل لدراسة الإسلام أو للجهاد طالما أنها بقيت حذرة من الشيطان وتغطي نفسها بشكل مناسب، وهذا يعني النقاب بثلاث طبقات مع تغطية العينين لأن المرأة المخبأة عن الرجال هي المفضلة لكن ذلك لا يضعف من أهميتها إذ إن دور المرأة قد يشبه دور المخرج أي «الشخص الأهم في الإنتاج... من يقوم بالتنظيم من وراء الكواليس».

وقد استخدم كاتبو البيان نفس الأدوات الخطابية التي يستخدمها الوعاظ المتشددون الذين كانت أيان تستمع لهم قبل مغادرتها... أولاً السخرية ثم التهديد... المدنية الغربية مهووسة بالعلوم وتقوم بالأبحاث عن خلايا دماغ البقر وذرات الرمال وشرايين السمك لإلهاء الناس عن الهدف الأساسي للبشرية... عبادة الله... كل ما يعارض تسبيح الله وعبادته يؤدي إلى الجحيم، وكما قال النبي:

«إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين».

وقد تم إلقاء اللوم في خروج المرأة عن وضعها الطبيعي على الأنثوية التي تسببت بإرباك كلا الجنسين وخلطهم في صفاتهم المميزة أما في الخلافة فيمكن العثور على رجال حقيقيين ونساء حقيقيات لأن الله خلق المرأة لآدم ومن آدم إلا أن المرأة نسيت دورها الأساسي والتبعات الكارثية لذلك واضحة لكل من ينظر. إن المجتمع العصري من عمل الشيطان ويختبئ خلف كلمات مثل «التنمية» و«التقدم» و«الثقافة» إلا أن المؤلفين اعترفوا ببعض الفضل فيما يتعلق باستخدام التكنولوجيا الحديثة والعلوم التي تساعد في تسهيل حياة المسلمين وأمورهم.

كانت النبرة قريبة من نصوص الدعاية السوفييتية والجميع متحمس وقوي الإيمان:

«لقد جال إعلام الخنساء في هذه الأراضي للتحقق من الوضع السعيد

الذي تواجهه المرأة المسلمة عند عودتها إلى الحياة في فجر الإسلام فرأينا أثواباً سوداء تزعج المنافقين وأصحابهم كما يزعجهم التقدم الذي تحققه الدولة... إننا نرتقي إلى قمة هذا المجد من خلال توسع دولة المسلمين».

واختتم البيان بالدعوة إلى الجهاد:

«على الرغم من الحرب المندلعة والتحالفات المستمرة ضد الدولة الإسلامية والمقاتلات التي تجوب السماء وعلى الرغم من كل هذه الدماء فإننا نجد البناء المستمر والثابت والحمد لله».

في الخلافة للرجل الحق بتربية زوجته إن عصته، وهو يحدد ما هو العصيان. لوقت قصير كانت عائشة زوجة الإسلامي المتميز في أوسلو عرفان بهاتي والذي كان باستيان يطمح لأن يصبح مثله والآن أصبحت ملكاً لباستيان... زوجته الثانية... ولم تكن هذه النقلة تشبه ما توقعته عائشة على الإطلاق.

لقد حبسها باستيان في المنزل وضربها والأسوأ من ذلك أنه ضرب صلاح الدين إذ أصبح الآن هو الوصي على ابن عرفان بهاتي... الرجل الذي لطالما حلم بإثارة إعجابه والتشبه به.

وحين تحاول عائشة حماية ابنها والصراخ في وجه زوجها الجديد كان يدفعها جانباً.

وكان يتفاخر أنه سيعلم ابن بهاتي كيف يكون قوياً حيث سيصبح صلاح الدين أحد أشبال الخليفة ولهذا فإنه يحتاج إلى التربية منذ نعومة أظفاره على الرغم من أن الطفل لم يبلغ الثانية من عمره.

تم منع عائشة من الخروج حيث هددها باستيان بالقتل في حال غادرت المنزل، وفي أحد الأيام احتاجت شيئاً من أجل صلاح الدين فحاولت التسلل خارجاً لكن باستيان عرف وأطلق النار وراءها في الشارع مجبراً إياها على العودة.

حاولت دلال مراراً وتكراراً لكنها لم تتمكن من التواصل معها منذ أن تلقت صورة الصبي الصغير المليء بالكدمات كما لم يكن لديها رقم هاتف خاص بها ولهذا أرسلت لها رسالة على واتس آب:

- كيف حال صلاح الدين؟ ماذا حصل؟ أجيبيني! أرجوك يا عائشة!

لكن ما من رد من الرقة.

وفي إحدى الليالي استلمت رسالة من عائشة تقول فيها أنها بحاجة للمال الموجود في حساب المساعدات.

- ماذا حصل لصلاح الدين؟

فردت عائشة أن كل أموره على ما يرام بفضل الدولة الإسلامية إذ إن النظام رائع وكل شيء على ما يرام كما أنهم سعداء ويمضون وقتاً رائعاً.

فأخبرتها دلال أنها دفعت المال لمنظمة «أنقذوا الأطفال» واستفسرت أكثر عن الكدمات الزرقاء على وجه صلاح الدين في الصورة التي تلقتها قبل بضعة أسابيع لكن عائشة لم ترد، وبعد بضع ساعات بعد منتصف الليل حين كانت دلال على وشك النوم تلقت رسالة على الواتس آب.

- عليّ أن أخبرك شيئاً.

كانت عائشة تكتب.

تشاجرت هي وباستيان قبل بضعة أسابيع فلطمها ثم رماها في الباحة الخلفية للمنزل وأقفل الباب وبدأ بضرب صلاح الدين بينما وقفت هي عند الباب المقفل تتوسل إليه أنه يتوقف.

صرخ الطفل بصوت عالٍ ويائس ثم لم يعد يسمع سوى صوت بكاء منخفض وأنين وبعدها سمعت صوت ارتطام بالجدار وتوقف البكاء ليعم الهدوء.

ثم سمعت صوت أميرة تشهق من الداخل وفتح الباب لترى صلاح الدين مستلقياً بلا حياة بين يدي صديقتها.

كان وجهه متورماً ومغطى بالدم والقيء وغضاريفه مهشمة وبياض عينيه

محمراً. حاولت عائشة إعادته للحياة وهزته لكن جسده ظل رخواً وما من نبض أو دقات قلب أو أنفاس.

جلست دلال في السرير ترتجف.

لا بد أن الضربات على وجه صلاح الدين جعلته يتقيأ ثم فقد وعيه واختنق بقيئه أو أن مجاريه التنفسية امتلأت بالدم.

جلست طالبة التمريض تحدق بالكلمات الظاهرة على الشاشة.

- حملته بين ذراعاي وأخرجته إلى الباحة الخلفية وبقيت في الحديقة طوال الليل حاملة ابني الميت بين يدي.

شعرت دلال بخدر في جسدها.

كانت تستشيط غضباً من قاتل الطفل ومن صديقتها... إنها الملامة على موت ابنها... لقد أخذته إلى منطقة حرب مليئة بالمرضى النفسيين من أجل نفسها.

سألتها دلال:

- وماذا عن أميرة؟ ألم تستطع إيقافه؟

كانت أميرة قد ولدت للتو ولهذا فقد اختبأت محاولة حماية نفسها وطفلها ثم أضافت أن باستيان لا يضربها قط.

تلقت دلال صورة أخرى.

كانت صورة قبر في أرض رملية يخرج منه بعض القش الجاف وعلى الحجر مكتوب باللغة العربية كلمات لم تستطع دلال قراءتها ربما كلمات تمجد الله أو اسم صلاح الدين.

هناك تحت الحجر وتحت الأشواك وتحت الرمل يرقد صلاح الدين.

الذي لم يتم عامه الثاني.

كتبت عائشة:

- إنه في مكان أفضل الآن... إنه شهيد... هو عند الله.

وأكدت عائشة أن الأطفال يصعدون مباشرة إلى الله حيث تحمل الطيور

الجميلة أرواحهم ليدخلوا الجنة ويطيروا أينما يريدون، وحينما يتعبون يمكنهم الراحة في الفوانيس المتدلية من عرش الرحمن مثل الشهداء.

- أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟
- بالطبع.
- أيمكنك إخبار أمي أن صلاح الدين قد مات؟

لم تصدق دلال:

- ألم تخبري أمك؟!
- لم أستطع أن...

في تلك الليلة بكت طالبة التمريض على الصبي الذي قبلته حين كان حديث ولادة لكنها بالكاد تعرفه... حينها كانت متزوجة من عبيد الله الذي حمل الصبي وقال أن له ابتسامة عرفان... ماذا لو أنها أبلغت الشرطة عن عائشة حين بدأت بالكلام عن السفر إلى سوريا؟ لقد هددت بالاتصال بخدمة رعاية الطفل لكنها لم تفعل إذ كانت منشغلة بحياتها الخاصة... هل كان من المفترض بها أن تبلغ عن الأمر؟ هل كان من الممكن إنقاذ حياة صلاح الدين؟ هل كان سيبقى على قيد الحياة الآن...؟

تبين أن عائشة اتصلت بالعديد من صديقاتها وطلبت منهن إخبار أمها بأمر صلاح الدين فالتقت ثلاث منهن لمناقشة الأمر حيث قالت إحداهن:

- كل مرة أرى فيها طفلاً باكستانياً صغيراً تترقرق الدموع في عيني!
- ما فعله باستيان تعذيب حتى الموت.

كن غاضبات من عائشة لاعتبارها سوريا مكاناً رومانسياً ولتفكيرها أن من الرائع شن حرب على الغرب.

كانت أم عائشة تعيش في حيهم... من منهن ستخبرها؟ هل ينبغي لهن الذهاب جميعاً؟ أمر لا يمكن احتماله. وهكذا اتفقتا على طلب نصيحة الإمام.

فأخبرهن الإمام أنه ليست مسؤوليتهن أن يبلغن الأم بالخبر المريع وإنما هو أمر ينبغي على صديقتهن فعله.

لكن وسائل الإعلام سبقت عائشة، ففي أواخر شهر فبراير غطت القناة الخامسة خبر الموت حيث بدأ التقرير:

- طفل نروجي بعمر السنتين أخذته أمه إلى سوريا العام الماضي حيث خططت للانضمام إلى تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي تم قتله.

لم يتم ذكر أي اسم سوى اسم باستيان فاسكيز لكن المذيع تكلم عن مقابلته لوالد الطفل الذي حمل فاسكيز مسؤولية موت الطفل، وسرعان ما انتشر على وسائل التواصل الاجتماعي أن عرفان بهاتي هو الأب.

لم يكن أحد قد أخبر أم عائشة بموت حفيدها قبل صدور الخبر فاتصلت بكل من تعرفه وأرسلت رسائل للجميع، وفي النهاية أكد لها أحدهم أن الخبر صحيح.

لم تكن قد رأت ابنتها أو حفيدها منذ الصيف الماضي إذ إن عائشة غادرت إلى سوريا دون أن تودعها وكان آخر ما سمعته الجدة منها رسالة صوتية من عائشة تخبرها فيها أنهما بخير وتتمنى أن يكون كل من في البيت بخير.

كانت ردة فعلها الأولى أن تسافر إلى سوريا وتبقى مع ابنتها لكن لم تكن لديها أية فكرة أين تجدها.

جمع والد الطفل المجموعة الداخلية لأمة النبي لمناقشة كيفية الانتقام لابنه... هل ينبغي إرسال أحد إلى سوريا أم يمكن لأحد الجهاديين النروجيين هناك أن ينهي حياة أخيهم السابق؟

فدم باستيان أصبح حلالاً الآن وقتله مباح بالقصاص.

كتب صديق لعثمان:

- إنه الشخص الذي وضع السكين على رقبتي.

لقد كان باستيان الشخص الذي أراد قتله في السجن في الدانة.

كتب عثمان:

- حقاً؟

لقد كان التشيلي من عذبه إذ تعرف عليه صديق من صورته... نفس الشعر الأشعث ونفس النظرة الجنونية على وجهه وهو يضرب بقوة في السجن... البدين ذو العربية المكسرة.

كتب عثمان:

- واو... وأنا أعرفه أيضاً لقد التقيت به.

لكن صديق غير الموضوع عن باستيان وقال:

- أرسل لي صور النروجيين.
- اهدأ... حصل لي حادث الليلة الماضية... كان المطر يهطل بغزارة وأوقعت هاتفي الذكي فتعطل... لقد انمسحت جميع الصور.
- كيف؟ كيف حصل هذا؟؟
- سنذهب إلى الطبقة يوم الأربعاء بالقرب من الرقة... سنحاول حينها الحصول على بعض الصور الجديدة للنروجيين.
- إن شاء الله.
- لكن ماذا حصل يا صديقي بتحويل المال؟ الوقت يمضي... الشباب ينتظرونك... إنهم ينتظرونني... لقد أعطيت الناس كلمة مني... ماذا أفعل يا صديقي العزيز... بصراحة يا أبو إسماعيل.
- فقط أخبرني ماذا تريد مني؟
- علينا شراء كاميرا لالتقاط صور أفضل كما أحتاج إلى حاسب محمول وإلى دفع تكاليف الرحلة إلى الرقة... من الأفضل أن تأتي... لا تتأخر.

أرسل عثمان رسالة أخرى عند منتصف الليل ليذكره.

- هل أنت نائم يا صديقي العزيز؟ الوقت ينفد... إن كنت تريد القدوم إلى هنا عند إحضارنا للفتاتين عليك أن تأتي بأسرع ما يمكن.
- متى ينبغي أن آتي؟

- اليوم!

في نفس الأسبوع تمت إقامة جلسة محاكمة في محكمة أوسلو حيث تم اتهام ثلاثة رجال بالمشاركة والتخطيط للمشاركة ودعم الأعمال العدائية في سوريا. كانت هذه أول مرة تحاكم فيها محكمة نروجية أحداً لاشتباهها بخرق الفقرة 147د من القانون الجزائي المدني العام الذي يذكر أن «عقوبة السجن لما يصل إلى ست سنوات على أولئك الذين يشكلون ويشاركون ويجندون أفراداً أو يقدمون الدعم المالي أو المادي لتنظيم إرهابي حين يكون التنظيم يقوم بخطوات لتحقيق أهدافه بطرق غير مشروعة.

كانت الفقرة 147 معروفة بكونها الفقرة المناهضة للإرهاب وهي الأساس في تجريم أنديرس بيهرينع بريفيك، وقد تم إلحاق الفقرة د بها في يونيو 2013 لتشمل أولئك الذين لهم صلة بالتنظيمات الإرهابية الدولية حيث ادعى المدعي العام أن الأخوين الألبانيين فالون وفيسار أفديلي والصومالي جبريل بشير لديهم علاقات غير قانونية بالدولة الإسلامية لكن ثلاثتهم أنكروا التهم.

وقد كشفت قضية المحكمة عن نشاطات الرجال الثلاثة في سوريا كما سلطت الضور على أصدقائهم بمن فيهم هشام وباستيان أما إغزون الأخ الثالثة للأخوين أفديلي الذي أوصل عائشة مرة إلى منزلها بعد أن طردها عرفان في منتصف الليل فلقي حتفه في العام السابق. وقد تم نشر أدلة تشمل صوراً للمتهمين يحملون سلاحاً مع بعضهم كما تمت قراءة رسائل بريد إلكتروني تحوي تفاصيل صفقات بيع السلاح حيث راقبت الشرطة شققهم وسياراتهم ووضعت أجهزة تنصت في أماكن اجتماعهم، وحين سمعت الشرطة اثنين منهم يناقشان تفجير روضة أطفال لم يعد من الممكن تركهم يمشون بحرية.

قالت ليلى لأمها:

- كما ترين... لا يمكننا العودة إلى البيت لأنهم سيزجون بنا في السجن إن فعلنا!

كانت ليلى تعرف زوجة الأخ أفديلي الأكبر التي بقيت في الرقة حين عاد زوجها إلى أوسلو في زيارة قصيرة.

هل يمكن اعتبار هجرة الفتاتين جرماً؟ هل ستواجهان اتهامات في حال عادتا إلى النروج؟ لقد شاركتا وخططتا للمشاركة ودعمتا تنظيماً إرهابياً. فكر صديق أنه ربما يساعدهما أن تقولا أنه تم غسيل دماغهما وخداعهما.

قبل المحاكمة ببضعة أيام اتصلت ليلى بأخيها بعد مرور سبعة أشهر على سماعه أي شيء منها حيث كتبت:

- مرحباً.
- يا إلهي!

وأضاف إلى الرسالة وجهاً باسماً وأربعة قلوب حمراء.

- مر وقت طويل لم نتكلم.
- بالطبع.

سألته ليلى:

- ماذا يحصل؟
- أنت أخبريني... كيف الحال؟
- أنا حامل!
- هههههه.
- 7 أشهر! لدي بطن كبيرة!
- هل باقي الأمور على ما يرام؟
- أنا بخير والحمد لله. البرد هو الشيء الوحيد الذي يمكنني التذمر بشأنه أما باقي الأمور فعلى ما يرام... لقد أصيب رب المنزل قبل بضعة أشهر لكن ربما سمعت بذلك... كيف أخبارك؟
- عظيمة... لقد تقبلت العالم كما هو.
- كيف حال ماما؟ ولا تكن متشائماً للغاية! العالم لا يبدو مكاناً سيئاً إلا إن اخترت أن تنظر إليه هكذا... الأمر متعلق بنظرتك.

- ماما رحلت إلى الصومال وأخذت معها الصبية وبابا هنا في النروج.
- أعرف كل هذا.
- تعلمت أن أتقبل أن ماما لا تحبني وأن أختاي في سوريا.
- ماذا تقصد أن ماما لا تحبك؟
- لأنني غير مؤمن... لقد تخلت عني... نوعاً ما.
- إذن نحن في المركب ذاته... بابا فعل الأمر نفسه معي.
- ليس المركب ذاته بالضبط... البحر ذاته لكن مراكب مختلفة.
- عظيم... ولا أريد مركبك الغبي في كل الأحوال إذ إن مركبي أفضل... الدولة الإسلامية!
- أيمكنني طرح سؤال؟
- نعم.
- هل تعتقدين حقاً أن الدولة الإسلامية ستسيطر على العالم؟
- نعم.
- إذن اسمحي لي أن أقول لك أن رأسك مدفون في الرمال.
- لقد عشت هنا لأكثر من عام وأرى أن الوضع يتقدم.
- الدولة الإسلامية ليست جيشاً حقيقياً مع طائرات وقوات برية.
- من وجهة نظر عسكرية هم جيش جيد ولديهم قوات برية منظمة ويقومون بإنشاء قوات جوية.
- لا يمكنهم الطيران وقد رأيت فيديوهات للقوات البرية.
- الإعلام يا إسماعيل يجعلها تبدو كعصابة من الحمقى غير الجاهزين الذين يعيشون في فقاعة ويريدون افتعال شجار مع العالم لكن ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة... إنهم يسيطرون على مطارات وقواعد جوية عسكرية وهناك الكثير منهم يتقنون الطيران.
- لكن ما من طائرة واحدة في الجو.
- لدينا جيش وطني ونحن مستعدون للهجوم الذي سيشنه الأمريكان

كما أننا دعوناهم للهجوم.

- هذا يشبه أن أكتب أنا لجون سينا قائلاً «تعال وتقاتل معي أيها الجبان فأنا مستعد لك»... هل فهمت التشبيه؟

- حين انسحب الأمريكان من العراق بعد إعلانهم إتمام المهمة توعدت الدولة الإسلامية أن تعود أكبر وأقوى من ذي قبل.

- لقد أبادت الولايات المتحدة الجيش العراقي وقتلت صدام لأنه يمكنهم ذلك.

- هل تدرك مدى ضآلة تأثير ضرباتهم الجوية هنا؟

- القوات البرية ستحقق إنجازات أكثر لكن أوباما لم يحصل على إذن بإرسالها.

- سيفعل ذلك في النهاية... ثق بي.

- أعدك أن الدولة الإسلامية من الشرق الأوسط.

- وأعدك أنهم باقون هنا يا إسماعيل... قد يخلق هذا بعض العشوائية لكن هل قمت بتسبيل شعرك في صورة ملفك الشخصي؟

- هههههه... نعم... قليلاً... لا... الكثير من الجل.

- ليس سيئاً.

كان إسماعيل شاباً وسيماً بشرته ذهبية اللون ووجهه طفولي منفتح ولديه ابتسامة كبيرة تضاهي ببياضها الكنزة البيضاء الجديدة التي يرتديها.

أرسل إسماعي صورة أخرى له.

- يا إلهي! لقد كبرت!

أرسل لها إسماعيل صورة أخرى يرتدي فيها قميصاً أبيض وأسود ونظارات شمسية عاكسة وسماعات أذن أما في صورة ملفه الشخصي فكان يرتدي سترة زرقاء بياقة من الفرو.

- وأنت أيضاً أرسلي لي بعض صورك... أشتاق لوجهك القبيح.

- هههههه... مرة أخرى... سنتكلم عما قريب إن شاء الله... تأخر الوقت

ولدي طفل بحاجة إلى النوم هههه.

- تذكري ذلك... قد تموتين غداً.
- حسناً إن شاء الله.
- جيد... تصبحين على خير.

أرسلت ليلى صورة لجسمها دون رأس تظهر جسداً طويلاً ونحيلاً بسروال أسود وكنزة سوداء مع وشاح على كتفيها وبروز في معدتها.

- وجهك يا امرأة!
- تصبح على خير هههههه.
- أيتها الزنجية اللعينة!
- انتبه للغتك.
- آسف... قصدت حبيبتي.
- هههه بالتأكيد؟
- أنا أمزح فقط... وداعاً.

29

شباب من النروج

مكتبة
t.me/t_pdf

في يوم الأحد 1 مارس سافر صديق وستيرك جانسن إلى هاتاي حيث سيتم إنقاذ الفتاتين أخيراً، وقد جلب المخرج معه 3000 دولار وجهاز حاسب محمول وعدسات التصوير التي طلبها عثمان وهو يأمل أن يحصل على نهاية سعيدة ليتمكنوا من إنهاء الفيلم الوثائقي.

أصبح طاقم الفيلم من المقربين لصديق حيث يساعدونه بالمال والتطبيقات والمطبوعات ويعيرونه سياراتهم حين يحتاجها وبقوا ملتصقين به في كل خطوة يخطوها على طريق خطة الإنقاذ في السراء والضراء، والآن قاموا بدفع ثمن تذكرة الطيران كما دفعوا ثمن الرحلة إلى الريحانية في نوفمبر حين كان يفترض بهم أن يلتقوا بالعميل المزدوج الذي صدمهم صلبه وقتله وتمنوا أن لا يكون لخطة الإنقاذ أية علاقة بمقتله. لقد صدقوا ما أخبرهم به صديق أن الفتاتين متلهفتان للخروج من سوريا وأن هشام هو المشكلة.

حجز ستيرك غرفاً في فندق أنطاكية هويوك بالقرب من قصر السكر حيث وصلوا إلى هناك في وقت متأخر من الليل والمطر ينهمر بغزارة، وفي الصباح التالي جاء عثمان إلى الفندق ليقبض المال ويأخذ الحاسب المحمول وتجهيزات الكاميرا حيث أخبر عثمان ستيرك أنه يحتاج للكاميرا كي يلتقط صوراً بجودة أعلى لأن الصور التي التقطها بهاتفه المحمول ليست عالية الدقة.

ثم وضع المهرب الخطة إذ ستبقى الفتاتان داخل شاحنة الصهريج طالما أنهم في أراضٍ تابعة للدولة الإسلامية، وعندما يخرجون من تلك الأراضي ستخرجان من الصهريج ويغيروا السيارات وينطلقوا حتى يعبروا الحدود إلى

تركيا حيث سينتظرهم صديق مع سيارة مستأجرة في مكان متفق عليه مسبقاً.

كان لدى عثمان معارف من ضمن نظام الدولة الإسلامية ويسيطر على شبكة من السائقين والساعين الذين يعرفهم من خلال روابط عائلية في المحافظات الشمالية الثلاثة «الرقة وحلب وإدلب». كان اثنين من أبناء إخوته قد تزوجا مؤخراً ومن المخطط لزوجتيهما أن تتواصلا مع ابنتي صديق وتعطيهما الرسالة التي كتبها بخط يده:

«ثقا بمن يعطيكما هذه... أحبكما».

أخرج عثمان هاتفه وتكلم بوضوح ودقة وهو يصدر الأوامر ويقوم بالترتيبات ويتحقق أن الجميع قد فهمه، وبعد مكالمته الأخيرة نظر إليهم وقال:

- العملية قيد التنفيذ.

وعبر عثمان الحدود عائداً إلى سوريا بينما تدفق المطر وابتلت شوارع هاتاي ولمعت السيارات وتلبدت السماء بغيوم رمادية مما أجبر صديق وفريق الفيلم الوثائقي على البقاء في الفندق.

غطت سحابة من الضباب المنطقة بكاملها بينما هطل مطر الربيع على كامل شمال سوريا موقفاً القتال.

في المساء التالي كتب عثمان:

- أغلق النظام الطريق.

وفي الساعة التاسعة أرسلت ليلى التي لم تكن تدري بأي شيء مما يحصل رسالة إلى إسماعيل:

- أنت على قيد الحياة؟

- نعم.

- كيف حالك؟

لكن إسماعيل خشي أن يزل لسانه ويخبرها بشيء ما فلم يكتب لها لأنه إن علمت الفتاتان بأمر عملية الاختطاف فسيخفقون.

في مساء يوم الأربعاء تلقى صديق رسالة أخرى من عثمان:

- تم إعادة فتح الطريق هذا المساء... غادر الشباب إلى الرقة.

لم يستطع صديق أن يرتاح، وفي صباح يوم الخميس كتب لعثمان:

- أعطني بعض الأخبار المشجعة... ماذا يحصل؟

في ذلك المساء اتصل به عثمان:

- لقد واجهتنا مشاكل إذ علقت السيارة في الوحل، وهذا المطر المتواصل يعني أنها لن تتحرك عما قريب... اصبر يا صديقي... هناك أخبار عن مقتل الجولاني في غارة جوية.

كان زعيم النصرة آخر ما يهم صديق الذي جلس بلا حراك في الغرفة يتصفح الإنترنت على هاتفه، وفي نفس المساء كتب له عثمان:

- لا يمكنني الاتصال بالشباب... جميع الاتصالات مقطوعة في المكان الموجودين فيه... داعش يتواصلون باللاسلكي... علينا أن ننتظر حتى يتوقف المطر.

ظل المطر ينهمر بغزارة في البلدة الواقعة على الحدود التركية وبدأ ستيرك جانسن يشعر بالملل ففكر بشيء أخبره به صديق في الليلة الماضية... عن زواج هشام بزوجتين أخريين منذ أن هربت أيان منه... شيشان... هشام قد نسي أيان حسبما قاله صديق.

اتصل عثمان في صباح يوم الجمعة قائلاً أنه ينبغي اختيار الطريق التي سيقصدونها ليخرجوا من الرقة بعد أن يأخذوا الفتاتين:

- أقترح الذهاب عبر السفيرة إذ إن الطريق أطول لكن أكثر أماناً كما يمكننا المرور بأراضٍ خاضعة لسيطرة الأكراد لكن الأكراد يثيرون المتاعب ولا أثق بهم كما أننا نخاطر بلقاء أحرار الشام على الطريق... ماذا تظن...؟

- ماذا؟

- الأكراد في عين عيسى... الشاحنة جاهزة وليلى وأيان... النصرة بخير... تجنبوا داعش... قبل حلول الظلام... تمويه... خطر...

القيادة دون إضاءة المصابيح... ماذا تظن يا أخي؟

لم تكن لدى صديق أية فكرة.

كانت الطريق الأقصر عبر المنطقة الخاضعة لسيطرة الأكراد من خلال كوباني التي خسرتها الدولة الإسلامية في يناير الماضي، وإن كان الطريق خالياً يمكنك الوصول إلى تركيا خلال بضع ساعات أما الطريق الأخرى فتعني ثماني ساعات بالسيارة في حال افترضنا عدم ظهور أية عوائق.

كانت القوات الكردية على بعد بضعة أميال فقط من أطمه وتسعى للسيطرة على المنطقة الحدودية المهمة المقسمة حالياً بينهم وبين الدولة الإسلامية والنصرة، وقد قال عثمان أن الأكراد مدينون له بخدمة لأنه قبل مدة وجد جندياً كردياً مقتولاً في أرض النصرة، ومن الشائع ترك مقاتلي العدو حيث يسقطون أو رميهم في قبر بلا اسم أو بيع رفاتهم لعائلاتهم لكن عثمان اتصل بقائد أقرب كتيبة كردية:

- لقد وجدت جثة أحد رجالكم ويمكنني إيصاله.

والآن حان وقت استيفاء الدين حيث اتصل بالضابط الكردي وذكره أنه من سلمه رفات الجندي وطلب منه المرور الآمن عبر منطقة سيطرته، وقد تمت الموافقة على طلبه وهكذا اتفقوا على المرور بطريق كوباني.

هناك سيارة كشافة ستمر قبل سيارة الصهريج ببضع دقائق للتحقق من سلامة الطريق وعدم وجود نقاط تفتيش أو قتال.

وحين أرسل عثمان أنهم سينطلقون بعد برهة إلى الرقة كان قد مضى على انتظار صديق وطاقم الفيلم في هاتاي خمسة أيام إذ أخبرهم:

- لقد قاموا بإعدام رجل هنا في أطمه بعد صلاة الجمعة لأنهم يتهمونه بالتجسس.

انتظر صديق وانتظر ستيرك كما وصلت فيسليموي من كردستان العراق للاستعداد لتصوير الفتاتين وعقدوا اجتماعات إخراج في غرفة صديق الذي كان ينقر بأصابعه على الطاولة ويدخل ويخرج من الغرفة ويذرع الممر جيئة

وذهاباً ويتجه إلى الاستقبال ويخرج للتدخين لكن لا يبتعد ويظل حاملاً هاتفه المحمول في جيب الصدر.

لم يتصل عثمان حتى الساعات الأولى من صباح يوم الأحد.

كانت السيارة متجهة إلى الرقة ثم انفجر الجحيم في وجوههم إذ بدأت غارة جوية وتساقطت القذائف على الأرض من حولهم وأصيبت المباني والسيارات، فعكس السائق السيارة وعاد من حيث أتى.

انتظروا لساعة ثم انطلقوا من جديد باتجاه المدينة لكن القصف عاد من جديد فقفلوا عائدين ثم حاولوا للمرة الثالثة وتراجعوا.

كتب عثمان لصديق:

- اذهب للنوم... نحن متجهون إلى منطقة دون تغطية للهواتف المحمولة... وفر طاقتك... ستحتاج إليها حين تستعيد ابنتيك... غداً ستسمع مني.

سأل ستيرك بينما كان صديق يكتب لعثمان:

- هل الفتاتان في السيارة؟

رد صديق:

- لا أعرف.

- إذن اسأله!

لكن هاتف عثمان أصبح خارج التغطية.

غادر صانعو الفيلم غرفة صديق متمنين له ليلة سعيدة على أمل أن يتصل عثمان في الصباح ومن الأفضل أخذ قسط من الراحة إذ إن أحداً منهم لم ينم جيداً لأن الانتظار أبقاهم متحفزين.

كانت حقائب معدات التصوير موضبة وجاهزة في غرفهم كما أن البطاريات الإضافية في الشحن، ففي الصباح الباكر سيأخذهم محمود ليلتقطوا بعض الصور للمنطقة المحيطة ما لم يخبرهم عثمان أنه يقترب من الحدود

مع الفتاتين، وفي تلك الحالة سيوصلهم محمود إلى هناك.

قبل منتصف الليل وبينما كان الزوجان في السرير سمعا طرقاً على الباب فنهض ستيرك.

- من هذا؟

رد صوت رجل:

- الأمن النروجي... أيمكننا الدخول؟

لِمَ هذا؟ فتح ستيرك الباب ليجد رجلين طويلين وعريضي المنكبين يقفان خارجاً أحدهما حليق الرأس والآخر شعره داكن اللون وبشرته بيضاء فاتحة:

- نأمل أن لا نكون قد أيقظناك.

- لا... لم توقظاني.

- خطة الإنقاذ في مرحلتها النهائية ونحن هنا لنراقب الوضع.

- ماذا؟

- نحن نتعاون مع السلطات التركية وسنتولى الأمر من هنا.

- ماذا؟

- هذا يعني أن عليكما التوجه إلى الوطن.

كانت ردة فعل فيسليموي التي جاءت مسرعة من كردستان لتصوير عبور الفتاتين للحدود غاضبة للغاية.

- ليست لديكما السلطة لتعيدانا إلى الوطن.

فأخبرها الشرطي أن السلطات التركية تملك هذه السلطة.

- إن لم تغادرا فستكونان في وضع سيئ للغاية.

قال ستيرك وهم يحملق بالشرطيين:

- قد تصل الفتاتان غداً! سنصور ما يحصل... لقد رتبنا للأمر مع صديق.

- سيبقى صديق معنا وسنهتم به.

وأخبرا صانعي الأفلام الوثاقية أن التصوير عند الحدود في أي ظروف كانت أمراً ممنوعاً.

- إن اقتربتم من الحدود مع كاميرات ستقعون في ورطة كبيرة.
- لقد خططنا لهذا منذ أشهر! والآن ها أنتم تدمرون كل شيء لمجرد أن تدعوا أنكم أنتم من أنقذتم الفتاتين الصغيرتين من الدولة الإسلامية!
- هذه تركيا ويتم فيها تطبيق القوانين التركية.

وهكذا تلاشى الغضب وحل محله الخوف إذ إن السلطات التركية لا تتعامل بتعاطف مع الصحفيين الذين يقومون بالتصوير دون ترخيص.

قال ستيرك وهو يمد يده بكاميرا فيديو:

- حسنا افعلوا ذلك... قوموا بتصوير المشهد من أجلنا.

فتناول الشرطي الكاميرا وقال:

- سنرى ما يمكننا فعله... استمتعوا برحلة آمنة!

ما إن غادرا حتى اتصل ستيرك بصديق لكن ما من رد فأرسل له رسالة نصية ثم حاول الاتصال مجدداً لكن دون رد.

وقف ستيرك وفيسليموي في الغرفة يتناقشان في الأمر إذ إن رجلي الشرطة تكلما عن إبقاء صديق تحت رعايتهما... أليس كذلك؟ إنهما سيبقيانه تحت المراقبة... هل هذا ما قالاه؟ لم يكن المخرجان واثقان... هل هو تحت رعاية السلطات التركية؟ هل هو رهن الاعتقال؟

ناقش الزوجان أفضل خطة عمل... أينبغي لهما البقاء ومحاولة معرفة ما حصل لصديق؟ أم ينبغي أن يمتثلا لنصائح الأمن النروجي ويبتعدا؟

وفي الساعة الواحدة صباحاً أرسل ستيرك رسالة نصية لأحد زملائه في أوسلو.

- لقد أوقظنا رجلان من الأمن النروجي في غرفتنا في الفندق وطلبا منا البقاء بعيداً... سيتولون هم العملية.

بعد أن حياه ستيرك وفيسليموي وذهبا إلى غرفتهما في وقت سابق ذلك المساء وضب صديق أغراضه القليلة بسرعة وغادر الغرفة.

كان على تواصل مع الشرطيين اللذين يعرفهما باسم نيلز وبجورن.

كان صديق قد طلب المساعدة منهم منذ وقت طويل حيث سأل إن كان بإمكان الأمن النروجي المساعدة في إخراج الفتاتين من سوريا لكنهم لم يكونوا مستعدين لذلك إلا أنهم وبعد نقاشات على المستوى الرفيع وبما أن ليلى قاصر فقد تم اتخاذ قرار بالمساعدة على الأراضي التركية وهو أمر لم يفعلوه من قبل مع الجهاديين الآخرين. بالنسبة للأمن النروجي كان ما يحصل في سوريا من مهام صديق حيث أشاروا إلى ذلك على أنه عملية إنقاذ خاصة، وعلى الشرطة النروجية إطلاع السلطات التركية على الوضع لئلا ينتهي الأمر بالفتاتين في السجن لعبورهما الحدود بطريقة غير شرعية. التقى صديق ورجلا الشرطة اللذين كانا من مركز الأمن في آسكر وبيرم عدة مرات خلال السنة الماضية، وفي فبراير أبلغهما صديق أنه سيتم تنفيذ الخطة عما قريب وطلب منهما الاستعداد لاسترجاع الفتاتين.

كما تم إبلاغ السفارة النروجية في أنقره لكن التعاون مع الاستخبارات التركية ليس بالأمر السهل، ففي تركيا عليك أن تلتزم بقواعد الأتراك وكل شيء يتم تنفيذه بسرية تامة حيث بذل الملحق القانوني في السفارة جهوداً كبيرة حتى حصل على تأكيد من السلطات التركية أن الفتاتين لن تواجها الاعتقال حينما تعبران الحدود كما أن هناك أوراقاً ينبغي الاهتمام بها.

حين وصل نيلز وبجورن إلى هاتاي تم إبلاغهما من قبل الأتراك أنهم لن يسهلوا الأمور ما لم يغادر فريق التصوير الذي لم يكن لدى الأمن أي علم بوجوده، وإن اقترب فريق التصوير من الحدود فسيتم إيقاف كل أشكال التعاون من الجانب التركي.

سأل رجلا الشرطة صديق حين التقيا به مساء يوم السبت:

- هل معك فريق تصوير؟
- نعم.
- عليهم العودة إلى النروج.

شرب صديق بعض الماء ليهدأ وهو يفكر ماذا عليه أن يقول لستيرك وفيسليموي.

في وقت متأخر من الليل قبل بزوغ الفجر جلس ستيرك وفيسليموي يبحثان عن رحلات طيران إلى أوسلو بينما جلس صديق في فندقه الجديد في غرفة زوده بها الأمن وهو ينظر إلى الهاتف الموصول بالشحن الذي يصدر صوت طنين مع كل رسالة تصل من ستيرك.

لم يمسك به.

يا للفوضى... سيأتي محمود إلى أنطاكية هويوك في الصباح كما هو متفق... أينبغي أن يتصل ويخبره أنه غير فندقه وأن الأمن النروجي والتركي توليا الأمر داخل تركيا؟ لا... من الأفضل عدم تعقيد الأمور... إن أخبر محمود فسيوصل الأخبار إلى عثمان وقد يلغي الأمر برمته... من الأفضل أن لا يرد على الهاتف.

لم يكن صديق مستعداً لفقدان السيطرة على الوضع إذ كان يظن نفسه قادراً على التعامل مع المتغيرات والحصول على المساعدة من وزارة الشؤون الخارجية والسفارة وقوى الأمن والسلطات التركية بالإضافة إلى تصوير المشهد حيث سيتمكن من ترك ستيرك وفيسليموي اللذين دفعا فواتيره من التصوير بينما يكون هو المخرج لكن فجأة تحول كل شيء إلى عملية خاصة بالشرطة.

استلقى في السرير يفكر بعثمان في الجانب الآخر وبالسائق الذي سيأخذ الفتاتين من الرقة ويضعهما في السيارة ويخرجهما... ينبغي أن تبقى العملية السرية خفية لأن السائق قد يواجه الاعتقال حين يعبر الحدود، وآخر ما يريده عثمان – مهرب السلاح والذخيرة والناس وكل شيء – هو أن يلفت انتباه الشرطة التركية... أينبغي أن يبلغه؟ أم يترك الأتراك يقبضون على السائق فحسب؟

استلقى يفكر بشيء ظل طوال الوقت يحاول نسيانه: حين تصل السيارة إلى الرقة كيف سيجعلون الفتاتين تركبان؟

لقد سأل السائق عثمان نفس السؤال لأن الرسالة من والدهما لن تكون ذات فائدة إن كانتا لا ترغبان بالعودة، فرد عليه عثمان:

- أنت تصرف!

شغل التلفاز على قناة الجزيرة الإخبارية... حلب... مدنيون... أطفال... قتلى بضربات صاروخية... ذكر المذيع شيئاً عن ضربات على الرقة لكن دون صور... هل لقت الفتاتان حتفهما قبل أن تخرجا؟

شاهد تغطية الحرب عبر الحدود... سوريون يموتون.

لقد كتبت له ابنتاه:

- نريد مساعدة المسلمين.

لكنه لا يرى سوى الموت.

أخبر صديق قوى الأمن أن الأمر سيتم خلال أيام فأرسل رجال الشرطة الرسالة إلى السفارة النروجية في أنقره، وفي اليوم التالي التقى رجلا الأمن بصديق للاطلاع على آخر مجريات عملية الإنقاذ في سوريا... هل الفتاتان على الطريق؟

كان من المستحيل الاتصال بعثمان ولهذا فقد أمضوا اليوم بالانتظار.

ظل رجلا الأمن على اتصال دائم مع رؤسائهما في النروج الذين كانوا يتواصلون مع الأتراك كما أرسلت السفارة في أنقره اثنين من موظفيها للمساعدة في هاتاي، وبسبب إدراكهم لسلوك الفتاتين من ناحية التعامل مع الرجال فقد حرصوا على أن يكون أحد الموظفين امرأة... هل الحنين إلى الوطن هو سبب رغبة الفتاتين بالمغادرة أم أن هناك أسباباً أخرى؟ لقد قامت السفارة باحتياطاتها الأمنية من هذه الناحية لكن الأهم هو محاولة تلبية احتياجات الفتاتين، وهكذا حرص الدبلوماسيون على بقاء سيارة إسعاف بالقرب من المكان في حال كانت هناك حاجة لها إذ لا أحد يعرف كيف

سيكون وضع الفتاتين.

كان صديق واضحاً تماماً بشأن رغبة الفتاتين بالهروب من الدولة الإسلامية إذ إنهما يائستان، وهكذا انتظر الدبلوماسيون ورجال الشرطان وجهزت الأعمال الورقية حيث وقع صديق على تصريح بقبوله دفع غرامة ستترتب على الفتاتين لعبورهما الحدود بطريقة غير شرعية. كان ذلك أمراً شكلياً فقط إذ سيتم دفع المال من خزينة السفارة كما وضع اسمه على وثائق السفر الخاصة بليلى التي لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها. نظم القسم القنصلي هذه المستندات لتتمكن الفتاتان من ركوب الطائرة من هاتاي إلى أوسلو دون أن يعتقلهما الأتراك.

وكحال الدبلوماسيين ورجال الشرطة ظل صديق مرتبكاً ينهض ثم يجلس ثم ينهض ثم يجلس في مقعد مختلف ثم يغير وضعية جلوسه ثم يخرج للتدخين... هاتفه أمامه على الطاولة إذ ما من شيء يتطلب الانتباه حينها أكثر من هاتف صامت.

بعد الكثير من التفكير حجز ستيرك وفيسليموي التذاكر في أول رحلة صباح الأحد بعد مرور أسبوع تماماً على مغادرتهما وفريقهما أوسلو، وحين نزلا إلى مكتب الاستقبال في الفجر لتسجيل الخروج تم إبلاغهما أن صديق قد غادر الفندق، فافترضا أنه تم اعتقاله ودفعا فاتورته.

في صباح يوم الاثنين في أوسلو توجه ستيرك إلى مركز الأمن... لم يكن صديق يرد على الرسائل النصية... هل هو رهن الاعتقال؟ هل أخذوا منه هاتفه؟ كان مخرج الفيلم غاضباً لأنه فوت الفرصة بتغطية عبور الفتاتين للحدود وحانقاً على الأمن لأنهم هم من سيلتقون بهما لا هو وفيسليموي.

في مركز الشرطة لم يلق سوى الصمت.

لم يخبره أحد أن رجال الأمن سافروا إلى هاتاي بناء على طلب صديق وأنهم كانوا يتعاونون في هذا منذ وقت طويل وأن صديق لم يخبر طاقم الفيلم.

سأل نيلز:

- هل سيتصل قريباً؟

وسأل بجورن:

- اقترب وقت اتصاله أليس كذلك؟

فأجاب صديق:

- لا أعرف متى سيتصل عثمان.

بعد قليل سألاه:

- هل اتصل؟ هل من أخبار؟ ألم يقل إنه سيتصل هذا الصباح؟

- الوقت المتفق عليه ليس ثابتاً... لسنا في النروج.

كان كل شيء هناك تقريباً حيث يمكن أن يحصل أي شيء وأن يتغير أي شيء... أهلاً بكم في العالم الحقيقي.

وأخيراً وفي مساء يوم الاثنين أضاء الهاتف المحمول برسالة نصية من عثمان، فقرأ صديق الرسالة بصوت مرتفع:

- غارة جوية اليوم... استولوا على مقر النصرة... أين أنت؟ مات أصدقائي.

رد صديق:

- يا إلهي! وماذا عن الفتاتين والشباب الذين سيحضرونهما؟ هل غادروا؟ أخبرني عن العمليةَ!

- أجد من الصعب أن أستجمع أفكاري... أتكلم معك لكنني مشوش الذهن... كانت ضربة كبيرة... تمت تسوية جميع أبنية النصرة بالأرض... ثلاثون ماتوا حتى الآن.

- فليتقبلهم الله... لكن ماذا عن الرجال الذين سيحضرون الفتاتين؟

- نحن ندفن الشهداء يا أبو إسماعيل... أنا في المقبرة الآن.

لم يستسلم صديق:

- أريد آخر المعلومات المؤكدة عن العملية... هل تتقدم حسب الخطة أم أن هناك أي تغييرات؟ هل غادرتم الرقة أم لا؟ وإن غادروا الرقة فأين هم الآن؟
- لقد استشهد أب وأخ أحد السائقين الذين أرسلناهم إلى الرقة ولم أستطع الاتصال بالسائقين.

حسنا لن تأتي الفتاتان اليوم.

كتب إسماعيل:

- ليلى.
- نعم؟

كان إسماعيل يتساءل كيف سيتمكن المنقذون من إحضار أختيه، فهو يعرف أن ليلى وأيان تعيشان في شقتيهما مع زوجيهما... هل سيأخذونهما حين يكون الرجال خارجاً أم سيحضرون الزوجين أيضاً؟ حاول استنتاج الأمور.

- كيف حال أيان؟
- الحمد لله.

خلال محادثتهما الأخيرة في عيد الميلاد كتبت أيان أنها لن تتكلم معه حتى يتوقف عن الإساءة إلى الله لكنه لم يصدق أنها ستلتزم لتهديدها وتعاقبه وكأنها لم تدمر حياته بما يكفي بسفرها إلى بلاد الموت... وهكذا اضطر لاستجرار معلومات أكثر من ليلى.

- هل لديك أي أخبار أخرى عن أيان؟ متى تكلمت معها آخر مرة؟
- الأسبوع الماضي.
- هل هي حامل؟
- اسألها.
- أنت تكذبين... هل التقيت بها الأسبوع الماضي؟

ردت ليلى:

- أنت تكفر! أرجوك انتبه إلى لغتك حين تتكلم معي! هل تظن أن هذا مجرد هراء؟ أم أنك تحاول أن تكون مضحكاً؟
- إنها دعابة قريبة من الكفر.
- حسناً إذن... يكفي.

فاكتفى إسماعيل بإرسال صورة للقرود الحكيمة الثلاثة الذين يغطون بأيديهم عيونهم وآذانهم وأفواههم وكتب:

- إسماعيل خال عما قريب.

في الصباح التالي كتب عثمان لصديق:

- لم أسمع أي خبر من الشباب... أنا قلق عليهم... أنا في حالة قلق شديد وأخشى ماذا سأقول لحسام الذي فقد أباه وأخاه... أريد الفتاتين والرجال والعربة بسلام... بهذا الترتيب.

في ذلك الحين جلس الدبلوماسيون ورجال الأمن في هاتاي ينتظرون بينما طمأنهم صديق أن الفتاتين في طريقهما وأنهما ستصلان الحدود عما قريب.

ومع مرور الأيام أصبحت الرسائل النصية من عثمان أكثر كآبة.

- لقد أصيب الشباب بحادث في طريقهم إلى الفتاتين... كان حسام يقود السيارة وزوجته ترافقه ليبدو الأمر كرحلة عائلية وقد أصيب كلاهما... إنهما في المشفى في غازي عنتاب.
- سأصلي لأجلهما... كيف تخطط للتقدم؟

مر جندي كردي بحسام وزوجته وقدم لهما الإسعافات الأولية موقفاً النزيف ومنقذاً حياتهما ثم أخذ مقتنياتهما وسلمها للميليشيا الكردية المحلية التابعة لوحدات حماية الشعب. كانت هواتفهما المحمولة تحوي صوراً للفتاتين في الرقة مأخوذة عن بعد والصور التي أرسلها صديق ليتعرف المختطفون عليهما بالإضافة إلى أرقام هواتف شخصيات عالية المستوى في النصرة. وحين زار عثمان الأكراد لاسترداد الممتلكات عرف أنه الآن هو من

يحتاج أن يقدم لهم خدمة.

- إنهم يريدون حسام ويظنونه شخصية هامة في جبهة النصرة، وحين رفضت طالبوني بالدفع لأتمكن من استعادة المقتنيات فرفضت، ثم طلبوا مني أمراً أوقعني في ورطة شديدة... إنهم يريدون ذخيرة... إن أحضرتها لهم وانكشف أمري سيتم اعتباري خائناً وينتهي أمري.
- هل من أخبار أخرى؟
- مات أخ السائق في غارة جوية على مقر النصرة أما أخوه الآخر ففي غيبوبة. أشعر برأسي وكأنه سينفجر... لقد تناولت خمس حبوب مسكنة للصداع اليوم.
- تناول حبة سادسة!
- في هذه اللحظة أشعر أنني بحاجة إلى الفياغرا لأتمكن من النهوض يا صديقي!

وفي هاتاي جلس صديق ورجلا الشرطة... كم ستبقي السفارة رجالها هناك؟ كم سينتظر رجال الشرطة؟

- حسام في حالة حرجة للغاية وأبوه وأخوه قد ماتا... إنني أحاول إيجاد سائق جديد لكن إصلاح السيارة مكلف للغاية... لا أدري لم كل هذه المشاكل تحصل لنا! أريد حقاً أن أساعدك لكنني خائف من داعش إذ إن لديهم جواسيس في كل مكان... صدقني... كلما حللت مشكلة تظهر لي مشكلة أخرى.

غادرت سيارة الصهريج الرقة دون الفتاتين إذ إنهم سيقومون بمحاولة جديدة حسبما قاله عثمان:

- لكن كل شيء يتغير طوال الوقت... أولاً الطريق مفتوح ثم مغلق ثم مفتوح... لقد وضعنا خطة وحددنا الطريق الذي سنسلكه وحين اقترب اليوم وضعوا حواجز وتحويلات على الطريق... كنا في منبج اليوم ثم أغلقوا الطريق دون أي تحذير... وعلى الرغم من أننا كنا نريد

أن نتجه شرقاً لكننا اضطررنا للذهاب غرباً... كل الأمور معقدة... دائماً ما نضطر لتعديل الخطة وفحص جميع التفاصيل والنظر إليها من زوايا مختلفة... صدقني أنني مستعد لحمل ابنتيك على كتفي طوال الطريق إلى النروج... هل سمعت شيئاً من الفتاتين؟

لم يكن يتواصل معهما على الإطلاق.

كان فريق الإنقاذ في المشفى.

وعثمان يحضر الجنائز.

وتم إرسال سيارة الصهريج في مهمات أخرى.

في ذلك الحين كانت الفتاتان – الفتاتان اللعينتان – تجلسان في الرقة غير مدركتين لأي شيء.

بعد أسبوع آخر جاءت الأوامر من مركز الأمن في النروج: وضبوا أغراضكم وعودوا.

لم يكن صديق يملك المال الكافي للبقاء إذ إن ستيرك قام بتمويل سفره وإقامته الفندقية حيث كان من المفترض أن لا يستغرق الأمر أكثر من يومين لكنه بقي في هاتاي لأسبوعين يخدع نفسه ويخدع طاقم الفيلم والشرطة السرية والدبلوماسيين في أنقره... لقد صدقوا وجود عملية إنقاذ بينما آمن صديق بحدوث معجزة.

في مطار أوسلو صافحه الشرطيان وقالا:

– نراك قريباً.

بالنسبة لهما العملية انتهت أما صديق فقد بقي مكانه واقفاً بين المسافرين وينظر حوله... الناس ينتظرون أمتعتهم وينتظرون بعضهم... يشترون الجعة والمشروبات الروحية... توجه إلى آلة الخدمة الذاتية لشراء تذكرة قطار ليذهب إلى منزله وأدخل وجهته والرقم الخاص به... تذكرة ذهاب إلى ساندفيكا... صدر صوت طنين من الآلة وخرجت بطاقته... مرفوضة.

30

أطلقوا النار على الفتاتين إن أردتم!

كانت الأيام طويلة والليالي لا تنتهي.

حين عاد صديق إلى النروج كتب لعثمان:

- لننهي هذه المأساة!

كان لدى عثمان أمور أخرى يفكر بها... كانت الميليشيا في إدلب تخطط لضرب الأسد ضربة قوية، وعلى الرغم من أن قوات الثوار قد سيطرت على معظم محافظة إدلب منذ عام 2012 إلا أن مدينة إدلب التي تقع بالقرب من الطريق الرئيسي بين دمشق وحلب ما تزال في أيدي الأسد. وفي نهاية مارس اندلعت معركة للسيطرة على المدينة للمرة الخامسة حيث قامت سبعة فصائل بقيادة جبهة النصرة وأحرار الشام بتشكيل تحالف فتح. وهكذا قام السكان الذين لم يتمكنوا من الهروب بتحصين أنفسهم في منازلهم بينما هاجم الجيش المدينة من ثلاث جهات.

وقد ذكر التلفزيون السوري الرسمي أن جيش الحكومة يصد محاولات «المجموعات المتطرفة للتسلل إلى إدلب» لكن جنود الأسد هربوا إلى جنوب المدينة وعلى الرغم من محاولات إعادة تجميعهم لكن المدينة أحيطت بآلاف من مقاتلي العدو.

وبعد خمسة أيام من القتال كتب عثمان لصديق:

- تحررت إدلب!

فرد صديق:

- ستكون هناك نهاية سعيدة يا أخي!

واحتفلت جبهة النصرة على تويتر:

- الحمد لله تم تحرير مدينة إدلب!

وتعانق رجال ملتحون وهم يبكون ويقيمون صلاة الجماعة في الحدائق ويمزقون أعلام النظام ويدمرون التماثيل الذهبية الضخمة لحافظ الأسد.

تم إعدام مؤيدي النظام ميدانياً حيث قام أشخاص بقتل أقاربهم ليحفظوا سمعتهم ولئلا يتم الانتقام منهم. قبل فترة طويلة كان جيش الفتح قد أقام محاكم شرعية محلية في أجزاء مختلفة من المدينة. كانت الرقة أول عاصمة محافظة خسرها النظام تلتها إدلب.

كتب عثمان لصديق:

- لقد التقطت لك الكثير من الصور لتبيعها للصحفيين النروجيين.

تم قطع رأس أحد قادة اللجان الشعبية المقيتة التابعة لنظام الأسد كما تم جر آخر وراء سيارة والثالث تم إطلاق الرصاص على عينيه لكن هذا نوع من الشر متوفر مسبقاً لوسائل الإعلام النروجية عبر وكالات الأنباء أما ما يريدونه فصور للنروجيين.

أرسل عثمان العديد من صور قطع الرؤوس التي يتداولها المقاتلون فيما بينهم حيث تظهر إحداها رجلاً نحيلاً يرتدي عباءة رمادية اللون ورأسه مقطوع ويقف أمامه جلاده بسروال بني اللون وقميص ويعتمر قبعة سوداء ويضع قناعاً وهو يسند فأسه على مؤخرة عنق الرجل عندما تم التقاط الصورة.

وبسبب حاجة صديق للمال فقد اختلق قصة تتناسب مع الصورة ثم ذهب إلى داغبلاديت بسبقه الصحفي وأخبرهم أن الجلاد نروجي يحمل اسم أبو شهرزاد النروجي وأن الضحية قاضٍ شرعي.

في 7 أبريل كتب عثمان:

- وضعت السيارة في التصليح... أرسل المال.

وفي اليوم التالي كتب:

- أحاول الحصول على حليب لابنتي منذ ثلاثة أيام.

فرد صديق في الصباح التالي:

- تدبر أمرك!

9 أبريل:

- سنتجه إلى الرقة خلال يومين.

10 أبريل:

- ستتوقف سيارة الصهريج في دير الزور في طريقها إلى الرقة... سأذهب معهم بنفسي... إن لم تسمع مني ترحم علي!

11 أبريل:

- غادرت سيارة الصهريج دير الزور هذا الصباح.

12 أبريل:

- الأمور تسير حسب الخطة.

13 أبريل:

- نحن مستعدون للقيام بحركتنا.

14 أبريل:

- توقفنا... إنهم يقصفون الطرق.

15 أبريل:

- سيارة الصهريج في الرقة لكن الفتاتين ليستا هنا... نحن بانتظار ظهورهما.

20 أبريل:

- توقفنا لنضرب ضربتنا.

21 أبريل:

- سيتم البدء بتنفيذ الخطة خلال ساعة.

22 أبريل:

- هنا الرقة. ما من شيء يستحق الذكر. نحن بانتظار الضربة.

23 أبريل:

- أعصابي تكاد تنفجر.

غطت الصورة التي باعها صديق لداغبلاديت الصفحة الأولى بكاملها: «جلاد نروجي يقطع رأس ضحيته حسب مصدر في الدولة الإسلامية». «تكشف داغبلاديت اليوم عن الصور الأولى لما تقول المصادر أنه نروجي ينفذ عمليات الإعدام في سوريا حيث يقال إن الجلاد مواطن نروجي مقيم في سوريا منذ بعض الوقت ويقاتل مع تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي». وأكمل المقال أن الرجل ولد وترعرع في النروج وأن الصحفيين علموا أن أبا شهرزاد النروجي يحمل الجنسية النروجية وأنه ما يزال حتى الآن مدرج في السجل الوطني باسمه الأصلي مما يعني أنه اعتنق الإسلام فيما بعد، وهو ما يضيق قائمة الأشخاص الذين قد يكون منهم إذ لا يوجد سوى عدد قليل من النروجيين الذين اعتنقوا الإسلام في سوريا ولا أحد منهم يشبه الرجل في الصورة باستثناء باستيان فاسكيز الذي كان في السجن وهو أمر لم يكن الصحفيون يدركونه. وأضافت الصحيفة بعض المعلومات عن الضحية أنه أرسل زوجته وأطفاله خارج البلاد إلى قطر لتبدأ عائلته حياة جديدة في تلك الإمارة الغنية في الخليج العربي لكن تم كشف أمره قبل أن يتمكن من الهروب من سوريا وتم اعتقاله وإعدامه أمام جمع كبير إذ تم الحكم على القاضي الشرعي بالإعدام لأن أصدقائه السابقين في الدولة الإسلامية يعتقدون أنه خائن. وأضاف الصحفيان اللذان نظما المقال أنهما حصلا على هذه المعلومات من مصادر متعددة مما يعني صديق وعثمان.

ولو قام الصحفيان ببحث سريع على الإنترنت لعرفا أن الصورة نشرتها الدولة الإسلامية وأن قصة الإعدام كتبتها مجموعة الناشطين في الرقة المدعوة «الرقة تذبح بصمت» وأن الرجل ليس قاضياً شرعياً وإنما قروي متهم بالسحر والشعوذة. وقد تم نشر قصة الساحر قبل شهرين في العديد من وسائل الإعلام كالصحف في المملكة المتحدة ومحاطات التلفزة في الولايات المتحدة.

وهكذا أصبح الساحر قاضياً شرعياً والجلاد نروجياً.

كتب صديق لعثمان:

- هل سنظل نتكلم لساعات أم أسابيع أم شهور قبل أن ننجز هذا؟

رد عثمان:

- أيام... المشكلة أن هناك حراسة مشددة على ابنتيك... لا بد أن زوجيهما يحبانهما كثيراً... ذهب رجالي إليهما أربع مرات لكن هناك رجال مسلحين خارج البوابة.

أرسل أحد رجال عثمان زوجته للتحقق من الأمر بعد اتفاق مسبق أنها إن لم تخرج خلال نصف ساعة فسيتحركون على الفور، ومع مرور الوقت استعد الرجال لكن قبل بضع دقائق من انتهاء مدة النصف ساعة خرجت المرأة.

كتب عثمان:

- كانت الفتاتان هناك لكن هناك أيضاً سبعة من جنود الدولة الإسلامية وتسع نساء أخريات في المنزل... الهجوم غير ممكن!

تعيش أيان وليلى الآن مع مجموعة من الفتيات في قصر قديم، فحين يخرج هشام وعمران إلى الجبهة تنتقل الفتاتان للعيش مع بعضهما إذ لا يمكن لأية امرأة في الخلافة أن تعيش وحدها.

- الفتاتان خلف حصن منيع من جنود الدولة الإسلامية.
- هذا ما يزعجني بالضبط ويجعلني أفقد الأمل.
- ابنتاك لا تخرجان وحدهما وهما دائماً في مجموعة... لقد حاولت إحدى عميلاتنا التسلل بينهن لكن بلا جدوى إذ كن كثيرات والأمر أقرب إلى المستحيل... بالمناسبة يبدو أن الأسد في آخر أيامه.
- وماذا عن الدولة الإسلامية؟
- إن سقط الأسد فستسقط الدولة الإسلامية... هذا مؤكد... الزمن سيثبت صحة كلامي.

واستمرت محادثتهما حتى الفجر.

- أبعدوا الحراس الذين يراقبون ابنتي.
- لديّ خمس رجال يعملون وامرأتان ومعهم خمس بنادق ومسدسان... أنا من اشتريت الذخيرة وأحد المسدسات... النساء لديهن سلاحهن الخاص.
- هذا غير كافٍ لعملية كهذه.
- لا يمكننا يا صديقي العزيز أن نفتح النار وسط أراضي الدولة الإسلامية... يمكننا فقط أن نطلق النار في السماء.
- افعلوا ما تشاؤون... أطلقوا النار على الفتاتين إن أردتم... تخلصوا منهما... فقط ضعوا حداً لهذا!
- ابنتاك بمثابة أختيّ!

وحوالي الساعة الواحدة صباحاً كتب صديق:

- ضع حداً لهذا العذاب... هذا الجحيم الذي أنا فيه... ركز... استجمع أفكارك!
- اهدأ يا صديقي!

كان الجو في بيرم رطباً حيث تتراوح الحرارة تحت 40 درجة فهرنهايت ولا تزيد على 50 درجة فهرنهايت... هل هذا ربيع؟

ارتدى صديق معطفاً شتوياً وحذاءً ثقيلاً وقبعة رمادية اللون، ومع ذلك ظل يشعر بالبرد لكنه لم يشغل التدفئة كثيراً لأنه وحده هناك إذ إن إسماعيل يخرج كثيراً وأصبح لديه حبيبة التقى بها صديق مرة. كانت شاحبة اللون تكاد تصبح غير مرئية وشعرها أشقر يكاد يصبح أبيض.

استطاع تحمل البرد في الشتاء حين كان مستعداً لكنه الآن في مايو والعشب أخضر وأوراق الشجر الجديدة قد نمت على أشجار القضبان... أوه... إنه يرتعش من برده... نام معتمراً قبعته لكن ذلك لم يساعده لأن السرير

بارد دون سارة.

غالباً ما ينهض في الليل ليجول في أرجاء الحي كما يمشي كثيراً خلال النهار أيضاً حيث يصعد مرتفعات كوسلاس في الطريق الوعر ويستمتع بالمنظر من الأعلى بغض النظر عن مدى التعاسة والضيق اللذين يشعر بهما لكنه في أغلب الأحيان يبقى في المنزل وينقر بأصابعه على الطاولة بألحان أثيوبية وألحان أريتيرية وألحان صومالية... وجد نفسه يكتب بضعة أبيات شعرية ثم يتصل بصديق ثم بآخر ويرسل رسائل نصية لعثمان:

- هل حصل شيء؟

ولسارة:

- أشتاق لك.

ولإسماعيل:

- هل ستأتي إلى البيت على العشاء؟

لكنه لم يعد يرسل للفتاتين ولم يسمع شيئاً من أيان منذ نوفمبر كما مرت بضعة أشهر منذ أن تلقى رسالة من ليلى.

رد عثمان:

- توقف عن التذمر!

وردت سارة:

- الفتيان مشتاقان لك أيضاً.

ورد إسماعيل:

- سأحضر طعامي بنفسي.

وهكذا تآكل صديق من داخله وكأن القدر يسبقه بخطوة... في كل مرة يقتربون من إخراج الفتاتين يحصل أمر ويدمر خططهم... ما هو هذا الأمر... هل هو من هذا العالم الأرضي... لا يدري.

في أحد الأيام كتب عثمان:

- أنا في المشفى في دار العيسى بالقرب من حلب... كانت هناك غارة

جوية وكدت ألقى حتفي... ظهري مليء بالشظايا.

دوت مقاتلتا ميغ فوقه وكأن السماء تتهاوى فوقه حسبما قال عثمان... كانت تلك الطائرات التي اشتراها الأسد من الروس والتي ستجلب الدمار لسوريا.

- ظننت أنني لقيت حتفي.

حافظ صديق على هدوئه:

- متى سنقوم باختطافهما؟

رد عثمان بإرسال صورة لنهر الفرات من نافذة المشفى:

- ما زلت طريح الفراش وأعيش على مسكنات الألم... لقد انتحر جاري البارحة ورمى نفسه في بئره.

- ابنتي الصغرى في شهرها التاسع والكبرى في شهرها السابع.

لقد أخبرته سارة أن أيان حامل أيضاً.

- لقد فهمت من النساء أنهما حبالى... بالنسبة للصغرى زوجها معها طوال الوقت لكن لدي معلومات أنه سيتم إرسال الزوجين إلى الجبهة وسيغيبان لبضعة أسابيع. هناك شائعات أن الأمريكان يخططون لقصف أطمه والجميع أخلوا مقراتهم... بالمناسبة تم إغلاق حسابي على الفيسبوك وفقدت جميع جهات الاتصال. وفقاً للرسالة من إدارة الفيسبوك فإن سبب ذلك دعم تنظيم إرهابي والحض على العنف ونشر صور تحوي مشاهد عنف.

في 8 مايو كتب صديق:

- بلغت اليوم عامي الأربعين... أحب أمي... إنها من أفكر بها اليوم.

بعد ثلاثة أيام كتب عثمان:

- لم يغادر رجال الدولة الإسلامية المنزل بعد... يشعر رجالي بالملل من التسكع والانتظار... الفتاتان محظوظتان فزوجاهما الجنديان دائماً قريبان منهما... هذان الشابان لا يذهبان إلى مكان قط... ماذا

يفعلان؟ آخر الأخبار من الرقة أن هناك الكثير من النزاعات الداخلية في الدولة الإسلامية وقد انشقت بعض الفصائل... أظن أن الوضع سيتأزم عما قريب... لقد تم سحب الأسلحة.

- اقترب موعد الولادة... هذه فرصتنا الأخيرة!

بعد ليلتين عاد صديق إلى المنزل من الربيع البارد ووضع هاتفه على طاولة غرفة الجلوس وجلس على الأريكة يحدق به... اقترب منتصف الليل... حمله وتحقق من الرسائل والبريد الإلكتروني... ما من جديد! أعاده إلى مكانه ثم أمسك به وضغط على الرسائل من ليلى... أراد أن يكتب لها على الرغم من أنها توقفت عن الكتابة وعن الرد.

- أنا بابا... قلق عليكما.

لا رنين كالمعتاد.

لكن هناك أصواتاً أخرى تنبعث من أرجاء المنزل... الثلاجة تؤز... الموقد يطقطق... الغسالة قد تهدر فجأة... الجلاية تقرقر... أصوات لم يفكر بها من قبل قط... لكن الآن يبدو وكأن الشقة تحاول أن تقول شيئاً.

أرسل رسالة أخرى.

- السلام عليكم... هل ولدت؟

طلاب المدارس الثانوية يحتفلون في الخارج باقتراب نهاية العام الدراسي حيث يمكن سماع أصوات أبواق الحافلات التي يطلونها... هناك تنبؤات بهطول المطر في وقت لاحق تلك الليلة وقد بدأت قطرات المطر تتساقط على إفريز النافذة... في أكتوبر ستبلغ ليلى الثامنة عشرة... في العام القادم يفترض أن تكون واحدة من أولئك الطلاب الذين يمرحون... تنهد... نهض على قدميه ليجد شيئاً يشربه حين أضاءت شاشة الهاتف المحمول.

- وعليكم السلام... لا ليس بعد... موعد ولادة الطفلة بعد شهر.

ثم خرجت من الخط.

جلس صديق مذهولاً على الأريكة... ليلى ترد وكأنهما التقيا البارحة...

لم يحن موعد الولادة... هل تعرف أنها ستكون فتاة أم أنها تخمن؟

«من ابنتي... في الواقع؟».

هذا السؤال أصبح يطرحه على نفسه مراراً وتكراراً... من هي؟ هل يعرفها حقاً؟ وأيان؟ لقد كان يظن أنه يفهمها جيداً... لكن هل كان يعرفها في الواقع؟

كتب رسالة لعثمان:

- ابنتي الصغرى الطويلة اتصلت بي الليلة... ستلد طفلة خلال أربعة أسابيع... هذه فرصتنا الأخيرة... لم يعد أمامنا سوى شهر.

غط صديق بالنوم على الأريكة في ساعات الصباح الأولى... كانت ليلة متعبة أمضاها بالتململ وتصفح الإنترنت والتدخين... لم يتحرك من مكانه حتى وقت متأخر من النهار... وحين استيقظ فكر بالتوأم الصومالي الذي قرأ عنه على الإنترنت في الليلة الماضية... اتصلت الفتاتان بوالديهما في بريستول لتقولا أنهما هربتا من الدولة الإسلامية وأنهما مختبئتان، فلجأ والدهما للشرطة وظهر رئيس الوزراء البريطاني على التلفزيون ليقول أنهما إن تابتا فستحصلان على عفو وتنجوان من العقاب لكن الدولة الإسلامية تتبعت الفتاتين ابنتي السابعة عشرة وأخذتهما إلى السجن وقطعت رأسيهما... تم قتلهما بسبب ما قالتاه لوالديهما... تم عقابهما لأن والديهما ظهرا على وسائل الإعلام... تم ذبحهما لأن ذلك الكافر ديفيد كاميرون أظهر لهما الدعم... لقد تم قطع رأسيهما في مركز مدينة الرقة... في الصورة بدتا كابنتيه... يمكنهما تصور الأمر بوضوح... التماسهما الرحمة... السكين تقطع عنقيهما... الصرخات قبل أن تخفت... التفكير بالنصل الحاد على العنق جعله يشعر بالغثيان.

لكنه حين حاول قراءة القصة مجدداً في صباح يوم السبت لم يجدها على الإنترنت مع أنه قرأ القصة بكاملها في الليلة الماضية ورأى صوراً لعملية قطع الرؤوس... ظن أنها كانت على صفحة العربية أو ربما على رويترز لكنها

اختفت من على الإنترنت وكأنها لم تكن موجودة... أحس بالارتباك... هل كان يتخيل الأمر بكامله؟

حدق بالصباح رمادي اللون البارد... غداً عيد الدستور... كان سكان بيرم يكوون قمصانهم وأزياءهم الوطنية ويشمسون أحذيتهم ويخرجون أعلامهم ويضعون براعم الزهر في آنية الزينة ويتسوقون من أجل إفطار يوم 17 مايو أو يشترون الأزهار والشمبانيا للضيوف. أما طلاب السنة الأخيرة في المدرسة فكانوا يعدون لحفلتهم الضخمة قبل الامتحانات.

لم تتم دعوة صديق إلى أي مكان.

لم يكن هناك فتية صغار ليرافقهم إلى استعراض الأطفال... ما من أحد ليبتهج لرؤيتهم يقفزون في سباق الأكياس أو يتوازنون على الركائز أو يرمون الكرات على علب صغيرة... كل ذلك سيحصل كالعادة لكن دون إسحاق وجبريل.

لم تعد الحياة من حوله تعنيه... كان فيما مضى سعيداً معظم وقته لكنه حين يفكر بالأمر الآن وبمدى ابتهاجه حتى خلال الحرب الأهلية وحتى حين فقد أباه وأخاه... الآن هو غير مبالٍ... ما من شيء له أي تأثير عليه.

في نفس الوقت أصبح كثير النسيان وغير قادر على تذكر الأشياء أو الكلمات... أحياناً يتساءل إن كان يتخيل الأشياء... ظن أنه قرأ أشياء كان يختلقها في عقله... أشياء لم تحصل... أو حصلت فقط في رأسه... قصص وليدة عن قلقه.

قرر الاستحمام فذلك يمنحه الحيوية والنشاط، وبينما هو في الحمام وصلت رسالة إلى هاتفه المحمول على طاولة غرفة الجلوس:

– ابنتك الصغرى الطويلة في أطمه يا أبو إسماعيل.

تدفق الماء الساخن عليه وهو يفكر إن كان يفقد عقله ويتساءل إن كان قد قرأ عن الفتاتين أم أنه مجرد حلم؟ لقد كان الأمر واضحاً له... الأختان الصوماليتان من بريستول... تصريحات كاميرون... كل شيء اختفى... ما من

أختان... ما من قطع للرؤوس... ما من كاميرون.

في أطمه نفد صبر عثمان:

- هل أنت نائم يا أبو إسماعيل؟ استيقظ!

تردد طنين الهاتف المحمول في الغرفة الفارغة بينما جفف صديق نفسه وارتدى ملابسه وجهز القهوة وفتح هاتفه المحمول كما يفعل بشكل روتيني عدة مئات المرات في اليوم.

نزل صديق إلى الرسالة الأخيرة:

- عليّ أن أذهب إلى الدانة وليس هناك تغطية للهواتف وسأعود خلال ساعتين... رد علي.

تشنج ثم انحلت كل الأمور... تم إنقاذ ليلى! هيمنت عليه موجة من الارتياح وسالت الدموع على وجنتيه، وفي اللحظة التالية فكر:

- فقط ليلى؟ لماذا هي فقط؟ أين أيان؟

بدأ يرسل الرسائل لعثمان وحاول الاتصال به لكن ما من تغطية لدى السوري... أينبغي أن يتصل بسارة؟ لا... عليه أن ينتظر.

وهكذا انتظر.

مرت ساعتان... ليلى في الخارج! ثلاث ساعات... عبء ثقيل أزيل عن كتفيه... لكن التفكير بأيان ظل يثقل كاهله.

وأخيراً كتب عثمان من جديد:

- أخبار جيدة يا أبو إسماعيل! ابنتك التي معها طفل في أطمه... ابنتك الطويلة.

مع طفل؟ هل ولدت؟

كان عثمان فرحاً للغاية لإنقاذ ليلى التي خرجت من المنزل الذي تقطن فيه إلى الشارع مرتدية النقاب وحاملة الطفل على ذراعها فقاد فتية عثمان سيارتهم ببطء بقربها وسحبوها وناولوها الرسالة وأخبروها أنه يمكنهم إخراجها بأمان من الرقة فقفزت في السيارة وقادوها عبر الحواجز ونقاط

التفتيش دون أن يوقفهم أحد.

- عطية من الله... لقد أظهر لنا رحمته اليوم.

طلب صديق أن يتكلم مع ابنته:

- انتظر قليلاً فهي متعبة وتريد النوم.
- يمكنني أن أستقل أول طائرة في الصباح... لا ترسلها إلى تركيا حتى أصل إلى هاتاي.

عند عدم تلقيه رداً حاول صديق الاتصال بعثمان لكن هاتفه أصدر أصوات طقطقة.

- هذه أخبار جيدة... لا تقلق.
- أنا قلق على كل شيء.
- تقول إنها متعبة وأنها لا تريد الحديث معك... حفيدك يبلغ أربعة أسابيع.

طفل يبلغ عمره أربعة أسابيع؟ لقد كتبت ليلى للتو أنها ستلد خلال أربعة أسابيع... هل فهم خطأ؟ هل كتبت أن الطفل يبلغ أربعة أسابيع من العمر؟

- أريد سماع صوتها.

هل هي أحد آخر؟ ربما هي أميرة زوجة باستان إذ إن لديها طفل وهي طويلة أيضاً كما أن أباها قال أنها تريد العودة إلى النروج لكنها لا تستطيع... إلا أنها باكستانية وليست صومالية... لا يمكن لعثمان أن يخطئ... من جهة أخرى عثمان لم يرها ولم يكتب سوى أنها طويلة إذ إن أمه وزوجته من يعتنيان بها وبطفلها.

مرت الساعات وأخيراً وصلت رسالة:

- أخي العزيز الفتاة في بيتي... لا تقلق... أرجوك اهدأ.

11:20 مساء:

- ماذا...؟ من هي أو من هما؟ دعني أتكلم معها.

:11:21

- انتظر فقط... لا أريد الضغط عليها.

:11:22

- دعها ترسل تسجيلاً على الواتساب.

:11:22

- الفتاة تقول إنها تعرف ابنتيك... لا تنهار! وبدأ يغرق في عالم آخر... انتهى كل شيء... إنها تشبه ابنتك ليلى... واثق أنها هي... لكنها خائفة... لقد أخبرتني الكثير من الأشياء المتناقضة... أولاً قالت إنها من المملكة المتحدة ثم أخبرتني أنها من جنوب إفريقيا.

:11:24

- كاذبة.

:11:25

- تقول إنها ليست ابنتك كما تقول أن ابنتيك توأم.

:11:25

- اطلب من الله أن يرسلها إلى الجحيم! إنها تكذب! لا يهمني من هي ولن أضيع معها وقتي أو جهدي... لقد اختطفتم الفتاة الخطأ.

كم استمرت الفرحة بإنقاذ ليلى؟ خرج إلى الشرفة ليدخن... إحساسه بالأمل ثم فقدانه جعل بعض العبارات تقفز إلى ذهنه لتشكل قصيدة:

«أوراق الشجر هادئة

لكن قلبي ليس كذلك

ولا حتى رأسي

إذ إنهما صاخبان»

حين وصل إسماعيل إلى المنزل من حفل 17 مايو غير مدرك لأحداث الساعات القليلة الماضية أرسل إلى ليلى صورة أمهم التي تم التقاطها في الصومال في الصيف الماضي حيث كانت سارة تجلس على الأرض وساقاها تحتها وهي تنظر إلى الكاميرا:

- ألم تشتاقي لهذا الوجه؟

جرب العقلانية والمنطق وحينما تعب أراد من أخته أن تنظر إلى أمها وتدرك مدى الألم الذي سببته لها. ظلت ليلى صامتة لكن إسماعيل لم يستطع النوم وفي الرابعة صباحاً أرسل صورة له وسأل:

- لماذا أنتما والدولة الإسلامية تشجعان على التفجيرات الانتحارية؟

لا رد من الرقة.

لكن عثمان كتب لصديق:

- فريق الإنقاذ رأى امرأة ترتدي النقاب وتغادر المنزل مع طفل صغير فظنوا أنها ليلى وقد ولدت، فأخبروها أنه يمكنهم مساعدتها في الهروب من الرقة فركبت الفتاة السيارة وجلست صامتة طوال الرحلة.
- لقد أنقذوا الفتاة غير الصحيحة؟ هل اقتربوا من ابنتي؟ تذكر أن بشرة ابنتي بلون زيت الزيتون أما هذه الفتاة فإن كانت من جنوب إفريقيا فستكون سوداء البشرة أما ابنتاي فليستا سوداوين. ستنزعج زوجتي حين تعرف أنكم ظننتم أن الفتاتين سوداوان.

رد عثمان:

- تذكر أنه لا يمكننا سوى رؤية أعينهن.

أصبحت الفتاة مشكلة بالنسبة له وخاف من عدة جوانب إذ إنها قد تدمر شبكته وتشي به للشرطة التركية وتضعه في مأزق حين يعبر الحدود مرة أخرى كما قد تكون لديها علاقات مع الدولة الإسلامية وهي الآن تعرف مكان إقامته ورأت المهربين... شدد عليها بأهمية عدم فضحه، وبعد بضعة أيام تم نقل الفتاة وطفلها عبر الحدود إلى تركيا... هناك عائلة استعادت ابنتها دون أن تحرك ساكناً... تم إخراجها من منطقة الحرب بالمجان... شعر صديق بالمرارة إذ تم إنقاذ الفتاة بمساعدة شبكته... هذا العالم غير عادل... الألم لا يطاق...

لم يحاول صديق أن يتكلم مع الفتاة حين أدرك أنها ليست ليلى على

الرغم من أنه قد تكون لديها معلومات مهمة عن ابنتيه... لم يستطع مواجهة الأمر وكأنه لا يريد أن يعرف كيف أحوالهما... عدم المعرفة يمنحك نوعاً من الحماية.

اشتد الحر في الرقة وارتفعت أعداد النساء الحوامل، وحين تخرج الفتيات يرتدين عدة طبقات بالإضافة إلى قماش يغطي الأنف... وانقطاع الكهرباء الذي يجعل الغرف متجمدة في الشتاء تسببت الآن في توقف المراوح، ولفترة قصيرة تغطت الأرض الرملية ببعض العشب الأخضر الذي سرعان ما اختفى... سرعان ما تحول الربيع في الصحراء إلى حر قائظ.

لكنهما لم تتصلا قط لتتذمرا فالجميع في الخلافة سعداء ويؤمنون بالمستقبل.

بعد أسبوع ردت ليلى على سؤال إسماعيل الذي طرحه في 17 مايو:

- لم أقل شيئاً قط عن التفجيرات الانتحارية.

لم يضيع إسماعيل أي وقت بنشر سؤال آخر:

- وما رأي الدولة الإسلامية بالانتحاريين؟
- لماذا تسألني عن أمور فقهية في حين أنك لا تؤمن بها؟
- فقط أريد أن أعرف.
- لا أفهم ما مغزى ذلك.
- هل هو سؤال صعب للغاية؟
- لا لكنني لا أفهم لماذا تسألني في حين أنه يمكنك معرفة الجواب بسهولة على الإنترنت.
- لا أريد أن أقرأ عن وسائل الإعلام... أريد أن أسمع منك بما أنك هناك.
- وما فائدة أن تعرف تلك الأمور في حين أنك لا تؤمن بشيء ولا تبحث عن شيء تؤمن به... يمكنني أن أفهم إن كنت تسأل لتصل

إلى فهم أفضل للدين لكن ما يبدو لي هو أنك تسأل لمجرد الجدال.

- فقط أريد أن أرى إن كنت تشاركيني معتقداتي.
- ليس لدي الوقت أو الرغبة للجدال في هذه اللحظة بدءاً من الإيمان بالله لأنك إن كنت لا تؤمن بالله فما من جواب سيفيدك.
- توقفي عن اللف والدوران... هل الدولة الإسلامية مع أم ضد الانتحاريين؟ هذا ليس جدالاً... مجرد سؤال بسيط... أنا لا أسأل عن السبب... مجرد نعم أو لا.

بعد بضع دقائق جاء الرد من الرقة:

- مرحباً... أنا زوج ليلى... وأخيراً يا صديقي... سنتكلم.
- أهلاً يا رجل... طرحت على أختي سؤالاً... أتمانع الإجابة عليه؟
- نعم... أعرف لكنها تشعر بالتعب بسبب الحمل.
- أبي يحترمك كثيراً لأنك طلبت الزواج منها وكذلك أنا.
- شكراً لإخباري.
- اعتن بها يا صاح.
- ثق بي يا إسماعيل... أردت الحديث معك منذ زمن... أوه... ما أروع الحب الأخوي.
- لنعد إلى سؤالي.
- أرى أنك تحب الفقه... بالمناسبة أي مذهب تتبع... لا تقل لي الشافعي ككل الصوماليين... لمعلوماتك... الكهرباء قد تنقطع في أية لحظة.
- أنا لا أناقش الأمر وأطلب تبريرات... فقط أعطني جواباً واضحاً... نعم أو لا؟
- دعنا نتعامل مع الأمر خطوة خطوة.
- حسنا هذا يعني نعم... صحيح... لست متأكداً إن كان الغرب يصوركم بصورة سيئة أم أنكم بالفعل تشجعون على التفجيرات الانتحارية

ولهذا سأحترم أية إجابة بسيطة من جانبك... إن لم يكن هذا الطلب بالأمر الكثير.

- لقد تعرفنا على بعضنا للتو يا رجل... هذا الموضوع بحاجة إلى كوب شاي ساخن... ما رأيك أن تأتي وأحضر لك الشاي الصومالي اللذيذ ونناقش الأمر كالرجال الكبار؟
- هههه وهل سأعود حياً أو قطعة واحدة؟

غير عمران الموضوع راغباً بالحديث عن أمور بسيطة لكن إسماعيل لم يستسلم:

- فقط أجبني أولاً بما أنني سألتك بلطف.
- حسناً... هذا السؤال حظي بالكثير من الجدل... بعض العلماء في الدولة الإسلامية يسمحون به وآخرون لا يسمحون ويعتبرونه انتحاراً لكن الغالبية تؤيده بسبب الضرر العظيم الذي يتسبب به للعدو... كل من يقوم بذلك يفعله برغبته المطلقة ولا يتم إجباره... من المضحك أن هناك قائمة طويلة من المتطوعين ينتظرون دورهم وهذا ما يذهل الكثيرين... الآن سؤالي بماذا سيفيدك هذا؟

رد إسماعيل:

- أنا فقط أشعر بالفضول كيف يمكن إساءة فهم الدين الحق.

كان هناك جهادي نروجي يجلس ويفكر إن كان عليه تنفيذ مهمة انتحارية.

قام بعض رفاق باستيان في سوريا بالوشاية به للمحكمة الشرعية في الرقة، وبعد محاكمة قصيرة تم الحكم على أبي صفية بالإعدام بتهمة قتل ابن زوجته صلاح الدين.

كان باستيان ينتظر نهاية حياته في هذا العالم... مر الوقت ببطء وهو في زنزانته. وفي أحد الأيام مثل بين يدي القاضي الذي أعطاه خيارين... إما قطع رأسه أو تنفيذ هجوم انتحاري للدولة الإسلامية.

تلقي عقاب الخيانة أو الموت كشهيد.

- دمرهم يا الله وعذبهم عذاباً أليماً! انتقم يا الله من الآثمين.

هذا ما هدد به ولي العهد ورئيس الوزراء في النروج:

- أيها الرب العظيم أرهم غضبك! أيها الرب القوي أرهم جحيمك!

وحين تم تفجير المركز الحدودي الذي استولت عليه الدولة الإسلامية واضطرمت فيه النار ضحك.

لكن الآن حياته من ستنتهي في نار مضطرمة... في سبيل الله... يمكنه ركوب سيارة مصفحة لمنع الإطارات من الإصابة بالرصاص... يمكنه الجلوس خلف نافذة مغطاة بالمعدن المصفح باستثناء ثقب صغير ليرى منه دون أن يتمكن أحد من إطلاق الرصاص عليه... يمكنه تشغيل السيارة حين يتلقى الإشارة ويقودها نحو الهدف... الكفار والمرتدون... أو من منظور آخر نحو الجنة.

مكتبة
t.me/t_pdf

يمكنه أن يصرخ:

- الله أكبر!

ثم يضغط على الزناد لتنفجر العربة بكاملها.

لكنه لا يريد هذا.

إنه يريد الحياة.

لقد ارتقى هنا وانتشرت فيديوهاته التي شاهدها العالم بأكمله... الدولة الإسلامية بحاجته في حملاتها الإعلامية... ظن أنه سيحصل على عفو.

لكن ذلك لم يحصل.

إذ يتم تطبيق الشريعة حرفياً... اقتلوا القاتل... النفس بالنفس... لقد كان يسعى للجنة لكنه الآن سينتهي به الأمر في الجحيم... هذا عقاب قاتلي الأطفال.

أخبرت سارة صديق أن موعد ولادة ليلى 10 يونيو.

كتب عثمان:

- لدي فكرة... لنرى إن كان بإمكاننا الاستفادة من زيارتها إلى المشفى... دعني أفكر بالأمر.
- تذكر أنه لم يتبق سوى 15 يوماً... الوقت يداهمنا.
- تم اعتقال ثلاثة من الشباب!
- ماذا؟
- تم إيقافهم على نقطة تفتيش لجبهة النصرة وتفتيش السيارة فتم العثور على الأسلحة، وهكذا تم اتهامهم بنقل المعلومات للأكراد.
- بقي 14 يوماً.
- يتم احتجازهم في مقر النصرة على بعد أربعة أميال من الدانة... أعصابي منهارة... أنا في غاية الإحباط... لقد أرسلت شيخاً...
- بقي 13 يوماً.
- تمكنا من اختراق المشفى واتفقنا مع طبيب التوليد... حين تأتي ابنتك للولادة سيحرص على أن يكون هو المسؤول عنها، وحين تلد سيخبرها أن الطفل مريض وبحاجة للمتابعة، وهكذا ستذهب إليه ليفحص الطفل كل يوم... وكلما ذهبت أكثر كلما زادت فرصنا بالإمساك بها... سيقنعها الطبيب أن الطفل بحاجة إلى مشفى خاص في تركيا والطريق يمر بأطمه... هذه فرصة ذهبية... الشباب معك حتى الموت.
- وماذا عن ابنتي الكبرى؟
- سنحتاج للمزيد من المال... ينقصنا المال... نحتاج للمال لاسترداد الصبية الثلاثة... لم يكسب أحد منهم شيئاً خلال العملية كما أننا مدينون لسائق الشاحنة الذي يحتاج المال أيضاً ليعيش... لم يتذمر الفتية بعد فهم متفهمون للغاية... أخبر ابنتيك أن الولادة في المشفى أكثر أماناً لكن لا تثر شكوكهما وحاول أن ترسل لنا المزيد من المال!

- علي الاستيقاظ في وقت باكر من الصباح ولهذا علي النوم الآن.

كان دائماً ينسحب من المحادثة حين يتم فتح موضوع المال.

وخلال الليل كتب:

- منزعج... منزعج للغاية... العفاريت تعبث بـي.

رد عثمان:

- أعرف أنك تعيش في الجحيم وكذلك أنا.

لم تعد لدى المهرب السوري مساحة للمناورة إذ إن الميليشيات الكردية تحاصر أطمه وتسيطر على العديد من الطرق القريبة كما أن الدولة الإسلامية تهاجم وجبهة النصرة تهاجم والأسد يقصف.

توسعت المنطقة الخاضعة لسيطرة الدولة الإسلامية، وفي منتصف مايو 2015 سيطر مقاتلو تنظيم الدولة على مدينة تدمر الأثرية وقاموا بإعدام جنود النظام الذين لم يتمكنوا من الهرب كما أخلوا سجن تدمر الفظيع من سجنائه الذين قاموا فيما بعد بتجنيدهم ثم زرعوا المتفجرات حول النصب الأثرية في المدينة، وبالإضافة إلى ذلك أحرزت الدولة الإسلامية نصراً استراتيجياً حين سقطت بأيديهم الرمادي عاصمة محافظة الأنبار في العراق.

لم يتمكن التحالف من هزيمة الدولة الإسلامية بالقصف فحسب ولم يكن لديه شركاء على الأرض إذ إن العديد من المجموعات الأكثر اعتدالاً التي حاول الغرب التحالف معها تم القضاء عليها من قبل الدولة الإسلامية أو أنها انضمت إلى صفوف الإسلاميين كما أن هناك نقص في الاستخبارات الموثوقة فالتحالف بحاجة إلى أشخاص لاختراق الأهداف وجمع المعلومات عنها.

مر عام على كشف باراك أوباما عن خطة لتدريب وتجهيز قوة من خمسة آلاف رجل لمقاتلة الدولة الإسلامية، وتم تمويل الخطة بنصف مليار دولار والموافقة عليها من قبل الكونغرس لكن لم يتم البدء بها إذ إن الرجال الذين سيخضعون للتدريب لستة أسابيع سيتم أخذهم من مناطق الحرب في العراق وسوريا وتدريبهم في الأردن ثم إعادتهم إلى مكان النزاع وتزويدهم بأسلحة

متطورة لكن الأمريكان لم يدربوا سوى ستين رجلاً كما وقعت ربع ترسانة السلاح في أيدي الميليشيات الأخرى بالإضافة إلى الانقسامات بين الولايات المتحدة وبعض شركائهم في التحالف حيث كان الهدف الأساسي لتركيا والدول العربية الأخرى إسقاط بشار الأسد أما الولايات المتحدة فتركز على القضاء على الدولة الإسلامية.

حاول الأمريكان والبريطانيون والروس والدول العربية الحصول على مصادر قوة لها على الأرض في سوريا كما وضعت الاستخبارات البريطانية الكثير من الموارد للاختراق والتدريب محاولين اختراق المساجد والسلفيين والمنظمات والمجموعات المتشددة ليجدوا أشخاصاً ممكن أن يعملوا كمخبرين في الدولة الإسلامية، وقد تم استخدام علماء النفس لتحديد الأشخاص المناسبين، ومن يتم تجنيدهم يخضعون لاختبارات شخصية شاملة لتحديد إن كانوا من النوع الذي يمكنه بسهولة الالتحاق بالجانب الآخر وهذا النوع قد يصبح من أخطر الأشخاص إذ قد يصبح عميلاً مزدوجاً لديه ولاء للدولة الإسلامية أقوى من ولائه للمملكة المتحدة.

اشتكى الرجال في فريق عثمان للإنقاذ أنهم يشعرون أنهم مراقبون حيث اعتقدوا أن أحداً ما يراقبهم... وهكذا أصبحت الفتاتان النروجيتان عبئاً على ظهور الكثيرين.

تم مؤخراً اعتقال العديد من الناشطين وقتلهم ثم عرض فيديوهات قتلهم على أنهم خونة، وإن لم يجد رجال الدولة الإسلامية الناشط يأخذون أحد أقاربه بلاً منه، وقد شاهد أحد أبرز الصحفيين المدنيين المؤسسين لصفحة «الرقة تذبح بصمت» الذي تمكن من الهروب إلى تركيا أباه وهم يربطوه بشجرة ويطلقون عليه الرصاص، وقد تم تصوير المشهد بكامله تصويراً احترافياً من قبل طاقم التصوير في قسم الاتصالات في دولة الإرهاب.

في 1 يونيو أرسل عثمان صورة لأفعى وكتب:

– الدولة الإسلامية قريبة من أطمه... هل تعرف زمرة دم ابنتك... أ

سلبي أو أ إيجابي أو ب سلبي؟ أرجوك اضغط على الصحيفة فنحن بحاجة للمال... الناس في المشفى بحاجة للدفع.

وفي 2 يونيو أرسل صورة عملية قطع رأس:

- مهندس من جبل الزاوية.

وفي 5 يونيو أرسل رسالة تذكير:

- أحتاج أن أدفع للأطباء في المشفى.

وفي 7 يونيو أرسل رسالة أخرى:

- أين أنت؟ ماذا حصل؟ أنقذنا!

أكد صديق أنه يحاول:

- أنا غاضب من الموظفين في الصحيفة إذ لم يرسلوا لي المال... إنهم بحاجة للمزيد من المعلومات حول النروجيين... هم مهتمون على نحو أساسي بالقناصين النروجيين.

في الساعة الرابعة صباحاً أي قبل يومين من موعد ولادة ابنته كتب صديق:

- انقلبت حياتي رأساً على عقب منذ أن غادرت الفتاتان... من سيء إلى أسوأ... ما زالتا مخدوعتين... مصرتان على البقاء هناك... إنهم سعيدتان بحياتهما في مكان كهذا... ليس لدي عمل ولا أجد أي عمل كما أن زوجتي عادت إلى الصومال... أنا أعيش الآن مع إسماعيل... أولئك الذين ساعدوني لا يمكنهم مساعدتي إلى الأبد... لا أحد يمكنه أن يساعدني إلى الأبد... لقد ساعدتني النروج... أنا الآن مفلس ولا أعرف ماذا أفعل... الجميع يهرب من الرقة وابنتاي تريدان البقاء! كيف يمكننا مساعدتهما إن كانتا لا تدركان الخطأ الفادح الذي ارتكبتاه؟ هذه هي المشكلة... ابنتاي غير واعيتين.

في الليلة التالية رد عثمان:

- أغلقت داعش كل الطرق ولا يمكن لأحد الهرب من الرقة.

وفي 10 يونيو رد صديق:

- قررت الاهتمام أكثر بابني إسماعيل.

في 12 يونيو:

- ما تزال الطرق مغلقة وكذلك الطريق خارج الرقة... هناك قناصون في كل مكان... أعلن الجيش السوري الحر الحرب على الدولة الإسلامية وأوقفوا هجماتهم ضد الأسد وفتحوا جبهة ضد تنظيم الدولة... لم يعد من الممكن إخراج البترول وأصبحت تكلفة البنزين دولاراً لربع الجالون وتصاعدت الأسعار وانخفضت الأجور كما توقفت المنظمات الإغاثية عن إرسال الأغذية وليس بمقدور الفلاحين جمع محاصيلهم... الرقة محاصرة... لندعو أن تتأخر الولادة.

وفي 15 يونيو:

- اتصلت بي ابنتي الصغرى... لم تلد بعد.

رد عثمان:

- الأمور تسوء في الرقة بالنسبة لرجالي... الفرصة بإخراج ابنتيك تتضاءل يوماً بعد يوم لكننا لن نستسلم... سنخرجهما قبل الولادة.

لكن الطفل جاء أولاً.

في 18 يونيو أصبحت ليلى ذات السبعة عشر عاماً أماً، فحين اشتدت التقلصات أخذها عمران إلى المشفى، وبعد اثنتي عشرة ساعة من الولادة اتصلت بأمها في هارغيسا لتخبرها أن الأمور سارت على ما يرام وأنها ولدت طفلة كما توقعت.

كانت سارة متوترة قبل الولادة إذ إن حوض ليلى ضيق مثلها وهو ما تسبب بالموت لطفل سارة وصديق الأول.

الآن أصبحا جدين.

يمكنهما الفرح بذلك حين ينتهي كل شيء.

في 20 يونيو كتب صديق لعثمان:

- ولدت ابنتي طفلة.

وفي 21 يونيو:

- أصبحت جداً.

وفي 22 يونيو أرسل عثمان فيديو لعملية قطع رأس ظن أن صديق سيتمكن من بيعه.

31

رمضان

- بابا هنا! أبـي! بابا!

سارع الصبيان للقائه... الشعور بجسديهما الصغيرين يلتقيان بجسده... كـم يفتقـد ذلـك! قفزا إلى بين ذراعيه وتركاه يرميهما في الهواء... مرت سـنة منذ أن رآهما آخر مرة... وقفت سارة تبتسم له... جميلة... دافئة... سعيدة.

أصبحـت امـرأة مختلفـة فـي الصومال عـن المرأة التي كانـت عليها في النـروج إذ إنهـا بحزنهـا علـى فقدان ابنتيها أصبحت سـيدة عجـوزاً في الثامنة والثلاثين من العمر.

لـم تعـد تبكـي كل يـوم. في هارغيسـا لديها أختيـن وأخ أصغر وزوجته وأطفـال كثيـرون... أبنـاء وبنـات إخوتهـا الصغار جاؤوا إلى المنـزل وأقاموا هنـاك... كانـت سـارة قد أحضرت معها من النـروج ملابس أصبحت صغيرة على إسحاق وجبريل كما أن ابنة أختها المتوفاة التي كانت في نفس سن أيان حصلت على قطعة الملابس الوحيدة التي لم تتخلص منها سارة في النروج... السترة البيضاء التي لم تستطع رميها.

دوى صـوت الضحـك بيـن الجدران وفاحت رائحة عطـر في الصالة... إنـه منـزل سـارة التـي تحكم المنزل... كل ما تحتاجـه من صديق 300 دولار أمريكي شهرياً لأجرة المنزل وإعالة ستة عشر شخصاً.

في المطبخ كان هناك مقعد من الطوب فيه ثقبين تضع فيهما النساء الفحم وتشـعلن النار كل صباح، ويتم وضع الأوعية والقدور مباشـرة على الجمر. في الصباح الباكر تفوح رائحة الشـاي الحلو مع حبات الهال لتملأ الجو ثم

تنتشر رائحة الفاصوليا المسلوقة أو الثريد أو الفطائر المحلاة، وخلال النهار يحضرن العجين للسمبوسك ثم تقوم النساء بفرم الحشوة وطهوها ووضعها في العجين وإغلاقها ثم قليها بالزيت.

كان إطعام سكان المنزل بكاملهم يستغرق معظم اليوم إذ إن هناك دائماً أحد ما في المطبخ أما سارة فلا تبقى وحدها قط وهو ما أرادته... لقد فقدت عائلتها مرتين ثم جمعتهم من جديد والآن قد فقدتهم للمرة الثالثة ولم تعد تريد سوى أن يجتمعوا تحت سقف واحد... من الأفضل هنا... تحت الشمس.

تلقى صديق أوامر بالعودة إلى هارغيسا من أمه:

- يجب عليك يا بني أن تجمع عائلتك.

كانت لديها مشاعر مختلطة بشأن عودة سارة من النروج إذ ينبغي أن لا يفترق الأزواج... لا... إما أن ينتقل هو إلى هارغيسا أو أن تعود سارة إلى النروج.

كاد رأسه أن ينفجر بأفكار بلا معنى بينما جف فمه ونفدت الطاقة من جسده... رمضان يفرض إيقاعه... شهر الشعور بألم الفقراء... شهر المعاناة... شهر التقرب من الله.

كانت درجة الحرارة تزيد على 100 فهرنهايت في الظل والهواء ساكن في حين أن من غير المسموح أن يدخل الطعام أو الماء إلى فمهم من قبل شروق الشمس حتى غروبها - من الرابعة صباحاً حتى السابعة مساء - في منتصف النهار يصاب الجميع بالخمول وحتى الأطفال يهدؤون.

وقد حل صديق بعض المصاعب بقلب الليل والنهار حيث بقي مستيقظاً طوال الليل ونام خلال النهار تقريباً من الظهر حتى قبيل ساعة من المغرب.

كانت هناك واجبات ينبغي أن يلتزم بها في هارغيسا بعكس بيرم... إنهم الأقارب إذ ينبغي أن يزور جميع أفراد عائلته الكبيرة ويقدم المساعدة لكل من يحتاجها وينصت لكل من يريد أن يتكلم... انتقل صديق إلى مزاج مختلف...

خلع سرواله وارتدى الزي التقليدي واستبدل حذاءه بحذاء مكشوف كما أنه تخلى عن هاتفه المحمول في بعض الأحيان حين لا يكون لديه رصيد ولا يمكن الاتصال به.

سارت الحياة... كان هناك بعوض وصراصير وعقارب في المنزل وحمير وجمال وماعز في الخارج... ما من كلام من الفتيات.

خيم الهدوء على العائلة... كانت أم صديق طريحة الفراش وقد أمضى الكثير من الوقت في منزلها إذ إن هجرة حفيدتيها أثرت فيها بشدة ولم تستطع الامتناع عن الكلام عن الأمر في حين فضل باقي الأقارب أن لا يتكلموا. بعد عامين بدا وكأن الفتاتين لم تعودا موجودتين وكأن الأقارب لا يريدون إثارة الذكريات السيئة... في السنة الماضية انفتح الجرح حيث أراد الجميع أن يعرف الحقائق ويناقشها ويتساءل ويعرب عن أمله أما الآن فبدا وكأن هناك صخرة ثقيلة تخفي الفتاتين... صخرة لا يمكن إزاحتها.

- إنها لا تغادر المنزل مطلقاً!

بدا عثمان منزعجاً.

- تبلغ حفيدتك خمسة عشر يوماً.

لم تفلح حيلة ادعاء أن المولودة رضيعة إذ إن ليلى وعمران غادرا المشفى قبل أن يعرف الطبيب الذي اتفق معه عثمان أنهما هناك.

تمت تسمية الطفلة آسية على اسم زوجة فرعون التي وجدت موسى الرضيع في سلة بين نباتات البردي والتي كانت بعكس زوجها تؤمن بوجود إله واحد لكنه أنهى حياتها بالتعذيب حتى الموت... بطلة حقيقية يحترمها المسلمون والنصارى واليهود.

تلقت سارة ثلاث صور للطفلة الصغيرة التي بدت كليلى حين كانت رضيعة مع الكثير من الشعر الأسود وشفتين ممتلئتين ووجنتين ورديتي اللون تضيئان في الوجه البني الشاحب الذي سيصبح داكناً عما قريب. كانت عيناها

مغمضتين في الصورة وفي إحداها كانت مستلقية على جانبها فوق غطاء أخضر اللون مكتوب عليه كلمات عربية من المستحيل قراءتها... تعرفت سارة على نظارة ليلى الضيقة بإطاراتها السوداء فوق الغطاء... لقد ذهبتا سوية إلى طبيب عيون في ساندفيكا لتحصل عليهما حيث كانت ليلى ترغب بنظارات خفية قدر الإمكان.

كانت آسية ترتدي ملابس مختلفة في الصور الثلاثة... لباس أبيض وزهري فاتح ولباس أبيض ولباس زهري فاتح وهناك ألعاب أرانب ودببة طرية وعقد على الملابس، وفي الخلف صينية عليها مياه معدنية وعصير المانجا... من أين حصلت ليلى على كل معدات الطفل هذه؟ جميعها مشرقة وجديدة... هناك في منطقة الحرب؟

الله أكبر الله أكبر!

تردد الأذان من العديد من المآذن في البلدة... قوي ومدوٍ من المآذن القريبة وعميق بصدى بعيد من المآذن الأبعد... هناك شيء مريح في الأصوات الذكورية العذبة المرتفعة لتمجيد الله وارتعاشها في نهاية العبارات.

بعد الإفطار في المغرب يخرج صديق عادة إلى مقهى محلي بينما تبقى النساء في المنزل جالسات على السجاد الكبير في الباحة منتعشات بنسيم المساء وهن يشربن الشاي ويتناولن الحلوى وينظرن إلى النجوم... أحياناً يمر بهم زائر من الأقارب أو الجيران وأحياناً يأتون ليطلبوا خدمة أو يقدموا شيئاً أو بكل بساطة يثرثروا.

خرج صديق من البوابة... كان المنزل الذي وجدته سارة آخر منزل في الشارع وهناك جدار حوله... كان المسكن التالي مصنوع من الحديد المموج والتوتياء والسجاد القديم والعصي والأغصان والأكياس البلاستيكية والأرض ترابية ورملية ومليئة بالحفر مما يجعل من الصعب مرور السيارات وهو ما سمح للأطفال باللعب بأمان في الشوارع.

كانت هناك خيام وأكواخ على طول الشارع... وماعز... الكثير من الماعز... أجسادها النحيلة وهي تشرب ماء المطر وترعى قشور الثمار... أية خضرة على الأرض سرعان ما يلتهمونها بألسنتهم وأسنانهم... الأشجار الكبيرة التي نمت في مركز المدينة مسورة بالأسلاك المعدنية لإبعاد الماعز عنها.

مر صديق بالتوتياء في طريقه إلى الشارع الرئيسي.

هبطت درجات الحرارة... كان يتطلع لاحتساء كوب من القهوة سريعة التحضير وتدخين سيجارة... ربما يكون هناك من يدردش معه... ربما بسبب سنه أو بسبب السنوات التي أمضاها في النروج فإنه لم يعد يحتمل الحرارة كما من قبل.

وبينما هو يرتشف القهوة الثقيلة بدأ ذهنه يصفو بعد يوم طويل من الصيام... رن هاتفه المحمول... رسالة نصية من عثمان... أضاءت الشاشة... الليلة مظلمة والسماء مليئة بالنجوم إذ لا أحد يستخدم الأضواء غير الضرورية في الصومال.

- لدي أخبار فظيعة يا أخي العزيز... لقد هربنا من الرقة... الحمد لله أنني والشباب بخير وسلام... اضطررنا للابتعاد لأن الأريتيري كشف أمرنا... إنه يسيطر على ابنتيك... أنا آسف إذ لا يمكنني مساعدة ابنتيك الآن... ادع الله من أجلنا.

بدأ رأس صديق يدور ويداه ترتعشان وكأن الفتاتين تموتان داخله... ها هو الآن يجلس ضعيفاً بين الرمال على بعد قارة ويحدق في الفضاء.

قطع الطريق الطويلة عائداً إلى المنزل.

أوشك رمضان على الانتهاء... كان الآخرون يتطلعون لعيد الفطر حيث سيطهون لحم الضأن والطيور والأسماك مع الأعشاب ويقلونها مع الخضار ويسلقونها ويمزجونها بالرز والمعكرونة... كما ينبغي تنظيف المنزل وكذلك

ساكنيه... غسل الصبية الصغار بعضهم في حوض كبير مليء بالماء في الباحة الخلفية كما تم نقل أكبر مرآة في المنزل إلى الخارج وجلس الفتية واحداً تلو الآخر في مقعد أمام المرآة ليقص شعرهم أمهر فرد في العائلة باستخدام المقص والموسى... كان هناك صف من الصبية المتجمعين بالقرب من المرآة وهم يميلون رؤوسهم وينظرون إلى أنفسهم من زوايا مختلفة ويبدون إعجابهم بالحلاقة ويتفحصون أنفسهم ثم يلتفتون لينظروا إلى ظهورهم ويتأكدوا أن سراويلهم الجديدة تبدو جميلة من الخلف.

كانت سارة مستلقية في السرير وتشعر بالجوع والحر إذ إن فترة بعد الظهيرة هي الأكثر حراً في اليوم وفمها جاف لكنها لا تستطيع شرب أية نقطة ماء قبل غروب الشمس... مر أسبوع منذ أن أرسل عثمان رسالته أنه ورجاله قد غادروا الرقة... لم تستطع الخروج ورؤية التحضيرات البهيجة.

رن الهاتف جانب سريرها:

- عيد مبارك!
- ليلى!
- عيد فطر سعيد!
- ابنتي الصغيرة! لقد كنا قلقين عليك!

أكملت ليلى دون أن تظهر أي تأثر بإعراب أمها عن قلقها.

- سنحتفل بالعيد عند بعض الأصدقاء... عمران في إجازة وآسية بخير.
- وأيان؟
- إنها ليست هنا وليس لديها إنترنت... غداً ستتم آسية شهرها الأول وسنحتفل بعقيقتها... أعدك أن أرسل لك الصور! علي الذهاب... وداعاً يا ماما!

سماع صوت ابنتها بدا كتلقي صدمة كهربائية... كانت هي وصديق يخشيان أن يتم قطع رأس ليلى أو ليان بسبب اكتشاف هشام خطة أبيهما لإنقاذهما لكنها حين سمعت عبارة «سنحتفل بعيد الفطر عند بعض الأصدقاء»

وكأنها تتصل من حياة عادية في مدينة عادية في بلد عادي.

في نهاية يوليو تلقى صديق رسالة نصية من ليلى:

- قال علي بن أبي طالب: «إن كنتم تريدون معرفة المؤمنين الحقيقيين فانظروا إلى أين تتجه سهام الكفار». كانت الأمور هنا محمومة قليلاً مع عقيقة آسية وكل التحضيرات... عليك أن تعلم أننا سعيدتان وبخير... إننا بأمان كما أن الله منحنا الكثير من الرزق كما أعطانا زوجين يهتمان بنا وأنعم علينا بالأطفال... لا تصدق كل ما تراه أو تسمعه في الأخبار لأن وسائل الإعلام لا تفعل شيئاً سوى قلب الحقيقة وتضليل الناس.

قرأ صديق الرسالة بصوت مرتفع لسارة ثم نظرا إلى بعضهما بصمت.

قال صديق:

- هشام من كتبها.
- بل هي أصبحت تتكلم هكذا الآن.

أكملت الرسالة:

- لقد أخرجنا الله من بين الوثنيين وجاء بنا إلى بلد مسلم... أرض يحبنا أهلها ونحن نحبهم في الله. تذكر أن الله أنعم علينا بمجيئنا إلى هنا... والله فوالله ثم والله وبالله أننا لسنا فتاتين مخدوعتين نهرب بلا هدف، فالله يعلم عدد الكتب التي قرأناها وعدد المحاضرات التي أنصتنا لها وعدد العلماء الذين استشرناهم قبل رحيلنا.

كان الجزء الأخير مكتوباً باللغة الصومالية مما يعني أن هشام لا يستطيع كتابته لكن صديق أصر أنه يستطيع إملاءه عليهما.

لقد كان يعتبر صهره وحشاً استولى على ابنتيه وغسل دماغيهما وكبت أنفاسهما مما يعني أن الفتاتين مثيرتان للشفقة وكذلك والديهما.

لم يستطع أن يعترف أن ما أراده ليس ما تريده ابنتاه.

فتحت سـارة صور آسـية بملابسـها النظيفة والمرتبة... ربما هي هدايا إذ إن ليلى كتبت أنها تلقت الكثير منها.

لقد أخبرتهما الفتاة ابنة السبعة عشرة عاماً:

- تذكروا أن الله أنعم علينا هنا.

وهي نسخة الدولة الإسلامية من عبارة: «لأنني أستحقه».

الجزء الخامس

الجحيم هو الناس الآخرون.

جان بول سارتر - لا مخرج - 1944.

32

حياة مختلفة

دخل صديق الشقة التي تفوح منها رائحة الغبار القديم والغرف الخاوية... كل شيء كما تركه... الأطباق متسخة والمكان غير مرتب. توقف في المدخل وأنصت للهدوء المطبق باستثناء صوت أزيز الثلاجة المعلق عليها ملصق مكتوب عليه: «الله يرى قلبك وأفعالك».

إن نظر الله إلى قلب صديق سيرى ألماً شديداً.

تجول في أنحاء الشقة الفارغة وهو يشعر بانقلاب ساعته البيولوجية بعد رحلته الجوية من هارغيسا ويرتجف من درجات حرارة آخر الصيف في النروج... عليه إعادة ضبط إيقاعه اليومي بعد رمضان... بعد كل الساعات غير المنتظمة التي كان يقضيها... عليه تنظيم حياته من جديد.

لقد وضع للتو خطة أخرى أو خطة نجاة:

1. أخرج الفتاتين من رأسك.
2. ابحث عن عمل.
3. سدد الديون.
4. كل شيء آخر سيسير على ما يرام وسارة ستعود إلى المنزل مع الصبيين وستعود الحياة كما كانت لكن دون الفتاتين... لقد اتخذتا خياراً وغادرتا ولن تعودا على الإطلاق.

عليه الاعتياد على الحياة دونهما.

حياة دونهما.

حياة مختلفة.

تكدس البريد خلال الصيف... كانت هناك رسائل له ولسارة وبعض المطالبات الأخيرة لأيان وليلى... فتح الرسائل الموجهة لسارة... فواتير ومطالبات بالتعويض من مكتب الرعاية الاجتماعية... لم تخبرهم بأمر انتقالها إلى الصومال وبالتالي استمرت بتلقي مساعدات للأطفال، وحين أبلغت المدرسة عن عدم حضور الصبيين تحقق مكتب الرعاية من الأمر ووجدوا أن سارة قد خرقت القوانين... أخذ الطفلين من النروج يعني فقدان حقها بالحصول على مساعدات لهما... وهكذا فإن مقاطعة بيرم تطالب بإعادة تسديد الدفعات الخاطئة.

كما تم إبلاغ صديق أن مرتبه الذي يتقاضاه أثناء بحثه عن عمل سيتوقف وأنه سيتلقى الدعم في حال استفاد من مساعدات المتابعة من مكتب الرعاية الاجتماعية لكي يحصل على وظيفة مناسبة. وقد شرحت الوكالة أن على المستفيد أن يكون فاعلاً وعليه مراجعة مكتب الرعاية الاجتماعية عند طلبه لإجراء مقابلة والتعاون بشأن خطة عمل ومتابعة لها. وحذر مكتب الرعاية الاجتماعية أن صديق قام برحلات متكررة خارج البلاد خلال الفترة التي كان يتلقى فيها مرتباً ريثما يجد عملاً دون أن يبلغ عن هذه الرحلات أو يحصل على موافقة عليها إذ إن من شروط هذا المرتب الإقامة في النروج.

وتلقى أيضاً رسالة من مقاطعة بيرم تبلغه أن عليه الانتقال إذ إن هناك الكثير من الطلب على الشقق العائلية الكبيرة.

وهناك استدعاء له لإجراء مقابلة في الأسبوع التالي.

في الاجتماع أخبره الموظف أنه ليس بحاجة إلى شقة من أربع غرف إذ إنه يعيش هناك وحده بعد أن انتقل إسماعيل إلى الجامعة.

فأومأ برأسه... ماذا يمكن أن يقدموا له؟

شقة من غرفة واحدة.

تلقى إشعاراً بالموعد النهائي للانتقال من الشقة... عليه إفراغ خزانات

الفتاتين شبه الفارغتين ومراجعة أوراقهما وتوضيب ملابس سارة وملابسه وملابس الصبية وملاءات وأغطية الأسرة والمناشف والقدور والأوعية والأطباق وأدوات المطبخ كما أن عليه إزالة لوحة مكة والملاحظات باللغة العربية وبقية حياة العائلة.

وظائف مدرسية وتقارير مدرسية وكتب علمية وصندوق كامل من الرسائل غير المفتوحة الموجهة إلى أيان... لم يرم أياً من الأوراق إذ إن عليه أولاً تقدير مدى أهميتها... هل هي مهمة أم لا؟ حشر كل شيء في صندوقين وهرب... إلى الحانات والمقاهي... دق الطبول... التقى بأصدقاء... وأحياناً تتصل به صديقات سارة ليتحققن إن كان بحاجة إلى شيء... كما يزورونه أحياناً... وحين يسأله الناس عن وضعه يخبرهم أنه يعمل على خطة إنقاذ جديدة... وأنه سينجح عما قريب.

كانت الخطط التي وضعها لحياته الجديدة عند عودته معلقة... التوقعات المحطمة... الخذلان... الخسارة... الديون المتزايدة... الشرارة التي يخشى صديق أن تنطفئ.

إنه مفلس ويقترض المال من أصدقائه منذ سنتين... أرسل رسالة نصية إلى بعض الأصدقاء حين كان في هارغيسا أخبرهم فيها أنه في المشفى ويحتاج للعلاج فأرسل له أحدهم مبلغاً صغيراً لكن النقود تبخرت على الفور... ملابس جديدة للصبيان... طعام العيد... نقود للمدرسة... غاز... كما أنه مدين لعثمان بالمال الذي دفعه في محاولة الإنقاذ الأخيرة غير الناجحة... النفقات تتراكم على الرغم من النتائج السلبية.

أخبره عثمان:

- تعال إلى هاتاي! هناك سوق لكل شيء!

واقترح مجموعة من الطرق التي يمكن بها لصديق جني المال كما عدد مزايا صديق إذ إنه يحمل جواز سفر أوربي ولديه معارف في الصومال واتصال بشبكة عثمان في سوريا.

في هاتاي يمكنه أن يبقى قريباً من الفتاتين حيث سيبقى قريباً منهما إن رغبتا بالخروج كما يمكنهم اللقاء عند الحدود في أطمه أو يمكنه الذهاب إليهما في الرقة... يعيدهما إلى البيت أو يموت وهو يحاول.

في أحد الأيام اتصل عثمان واقترح صفقة... لديه معارف في سوريا سيطروا على مادة ثمينة ونادرة... الزئبق الأحمر... الذي يمكن أن يحصل على سعر باهظ... الأرباح هائلة... للمادة صفات سحرية ويمكن استخدامها في صنع القنابل القذرة والأدوات النووية كما حذره أن هذه المادة خطرة وممنوعة في كل البلاد لذا ينبغي تهريبها، وهناك تجار وموزعون يعملون في الخفاء.

وازن صديق خياراته... أينبغي أن ينتهز الفرصة ليقوم بالعمل في هاتاي أم يسعى لإعادة تنظيم حياته القديمة في هاتاي؟

لم تكن لديه سوى ذكريات سيئة عن تلك البلدة كما أن ما قاله عثمان يشير إلى وجود خطر كبير بالإضافة إلى أنه خطا الخطوة الأولى نحو تأمين دخل ثابت... لقد سجل في دروة ليتدرب كسائق سيارة أجرة.

وقد أخبره موظف مقاطعة بيرم:

- هذا رائع! من العظيم أنك قمت بمبادرة لإيجاد عمل.

ستبدأ الدورة يوم الاثنين بعد التالي وستستمر لثلاثة أسابيع... هذه المرة سيجتاز اختبار الحصول على رخصة قيادة سيارة أجرة فهو بحاجة إلى وظيفة... بل إلى وظيفتين... ثلاث وظائف... سيتقدم بطلب التحاق بدورة تعليم قيادة القطار أو الترام ويجني المال ويسدد كل ما اقترضه... لا يمكنه ترك كل شيء ينهار أكثر... لا... عليه إخبار عثمان أنه لن يسافر إلى هاتي... ليس الآن... وليس بعد الآن.

مدد مكتب الرعاية الاجتماعية في بيرم مرتبه ريثما يحصل على وظيفة وسيتلقى دعم الإسكان على الرغم من أن الأطفال لم يعودوا يقيمون معه... الخدمات الاجتماعية تدرك صعوبة وضعه... لم يعتقد أن من غير المنطقي

أن عليه الانتقال إذ إنه لم يعد بحاجة لمسكن لسبعة أشخاص... بعد انتقال إسماعيل لدراسة تكنولوجيا النانو لم يعد هناك أي أطفال في المنزل... إنه وحيد... تباً... لماذا يبقى في المنزل؟ إنها ليلة الجمعة... لا أحد ليهتم به... لا أحد ليدعمه... اتصل بصديق.

استلقت سارة في السرير المزدوج الكبير دون أن تضع على جسدها شيئاً سوى ملاءة خفيفة... حرارة شهر أغسطس شديدة والهواء ثقيل... ليس هناك أية نسمة.

وأخيراً هدأ المنزل... نام الجميع واحداً تلو الآخر... الأطفال... أختاها... زوجاهما... والآن دور سارة.

رن الهاتف... صديق... إنه الوحيد الذي يتصل في مثل هذا الوقت... إنه يعلم أن المنزل سيكون هادئاً ويمكنه أن يتكلم مع سارة دون مقاطعة.

ضغطت على زر القبول:

- ماما...

- أيان؟!...

ضغطت سارة الهاتف على أذنها... لم تكن قد سمعت صوت ابنتها الكبرى منذ الشتاء.

رددت أيان بصوت ضعيف:

- ماما...

- أيان يا ابنتي!

- لقد ولدت طفلة...

- الحمد لله!

- إنها جميلة... لقد ولدتها هنا في المنزل... استغرق الأمر وقتاً طويلاً وعانيت من ألم شديد كما فقدت الكثير من الدم.

- أيان يا عزيزتي...

– أنا متعبة للغاية... علي أن أذهب... فقط أردت إخبارك... إنها بخير وبصحة تامة.

اتصلت سارة بصديق فرد عليها المجيب الآلي لكنها لم تستطع استجماع أفكارها وقول شيء لذا فقد اتصلت مرة ثانية وتركت رسالة لكنها انقطعت قبل أن تنتهي لأن رصيدها انتهى.

كان صديق يجلس في قطار الأنفاق المتجه إلى أوسلو وقد ساد في المدينة دفء صيفي مفاجئ.

كانت بطارية هاتفه المحمول فارغة ولهذا فإن خبر الطفلة الجديدة لم يصله وهو في الحانة في مركز المدينة.

وفي اليوم التالي حين عاد إلى المنزل وشحن هاتفه تلقى الرسالة... حفيدة أخرى.

تدعى سارة.

جلس صديق في غرفة الجلوس وحده... طوال اليوم... طوال الظهير... طوال المساء... ثم بدأ الليل... جلس مستيقظاً طوال الليل يدخن وهو يمسك بكأس بيده... فكر بسارة... وسارة الصغيرة... والفتاتين اللتين خذلتاه.

لا يمكنني احتمال المزيد... انتظار الرسائل النصية... خيبة الأمل من فشل محاولات الإنقاذ... أريد استعادة حياتي الطبيعية... حياتي الطبيعية المملة... أريد زوجتي على الأريكة وإسماعيل في رحلة والفتاتين في المسجد... أريد أخذ الصبيين إلى المسبح دون أن أفكر بشيء باستثناء أننا ذاهبون للسباحة، ثم يمكننا جميعاً اللقاء هنا في الشقة وتناول العشاء والحديث... كما كنا نفعل.

كلما خرج من نفق يدخل في نفق آخر... أنفاق متداخلة كالمتاهة... إنه يمشي في طرق مسدودة عند كل منعطف.

نظر للخارج.

دخل عثمان إلى الخط.

سأله صديق:

- هل من جديد؟

- نعم... نعم... نعم... نعم.

- ماذا حصل؟

صوت طقطقة على الخط.

- أطمه تتعرض لهجوم!

- ماذا يحصل؟

- سقطت خمسة صواريخ... هنا... وسط البلدة... إنها تحترق!

كانت حرباً صغيرة ضمن حرب أكبر... الحرب في سورية تتكون من مئات النزاعات الثانوية... الكثير منها تمتد لقرون... جميعها تتعلق بنفس الأمور: الأرض... الموارد... وهناك نزاع يجري خارج بوابة منزل عثمان الزرقاء.

كانت وحدات حماية الشعب من أطلقت الصواريخ الخمسة رداً على هجوم تعرضوا له، وقد سقط اثنان منهم بالقرب من مشفى واثنان في منطقة سكنية وواحد وسط ساحة... وقد توعدت جبهة النصرة على تويتر بالانتقام.

كان الأكراد والإسلاميون يتنازعون للسيطرة على المناطق الحدودية منذ بدء الحرب الأهلية حيث سعى الأكراد للسيطرة على أراضٍ متصلة لا على قطع مبعثرة من الأرض ضمن الأراضي العربية السنية. وقد تفاقمت المشاكل في بداية أغسطس حين أنشأت وحدات حماية الشعب برج مراقبة بالقرب من أطمه إذ اعتبره الإسلاميون خرقاً للاتفاقية المحلية التي تمنع التحصينات واتهموا الأكراد بإطلاق النار من البرج وشنوا هجوماً عليهم.

وفقاً للاتفاق يسيطر الأكراد على شرق الفرات بينما تبقى القوى الثورية في الغرب لكن إحدى فصائل الأكراد استقرت غرب النهر في نفس قطعة الأرض الصغيرة التي تقع فيها أطمه، وقد أدى ذلك إلى صراعات متكررة حيث ألقى كل جانب اللوم على الآخر في خرق الاتفاقية.

وقد أصبحت أطمه مكاناً خطراً حيث كانت قوات التحالف تقصف والدولة الإسلامية تنتظر الفرصة للاستيلاء على البلدة بينما يضغط الأكراد من على بعد ميل... المناطق الحدودية مع خطوط الإمداد وطرق التهريب هي الأماكن التي يكثر فيها الموت.

كانت الأمور أفضل في الأماكن الخاضعة لسيطرة الأسد، فحين يكون الأسد مسيطراً يمكنك النجاة بحياتك إذ يمكن التنبؤ بالأمر كما أن الوضع ليس بهذا السوء طالما أنك لا تتورط في شيء... لا يتم الاعتقال عشوائياً... لا يتم أخذ أحد دون سبب... تذكر عثمان معارضة الحرب من قبل رجال الأعمال في حلب قبل أن يغادر حلب89... قتال طويل واستنزافي حتى الموت بيت السنة والشيعة... والوضع في سوريا سيكون أسوأ... حلب ظلت في الظل محاولة النأي بالنفس عن الحرب حتى لم يعد ذلك ممكناً... أصبحت المدينة كالجحيم.

هدد عثمان:

- ستمطر الصواريخ على الأكراد... هل ستأتي؟

كان عثمان يعرف تاجري أسلحة في دبي يمكنهما لقاءه في هاتاي إذ إنهما يريدان عينة من الزئبق الأحمر للتحقق من جودته، فرد عثمان أن المزودين لديه مستعدون لإرسال نقطة من المادة ليلقيا نظرة عليها لكن مقابل دفعة مقدمة بقيمة 10000 دولار أمريكي والسعر للباوند 1 مليون دولار.

لم يشعر صديق بالسلام إذ شعر برغبة ملحة للقيام بشيء ما... محاولة أخيرة.

كان ذلك في بداية شهر سبتمبر... إن لم يغادر هذا الأسبوع سيكون الأوان قد فات لكن دورة قيادة سيارة الأجرة ستبدأ قريباً وعدم الحضور يعني فقدان مرتبه ريثما يعثر على عمل.

استقل طائرة المساء إلى إسطنبول وحين هبطت الطائرة كتب لعثمان:

- أنا في هاتاي! تعال وقابلني!

كان الطقس حاراً ومشمساً بينما مشى صديق في نفس الشوارع التي مشى فيها بحثاً عن ابنتيه بانتظار مكالمة من الوسيط وشبكته السورية... مر بالأماكن المفضلة لديه... مقهى الإفطار الذي يقدم أفضل أنواع الفول ثم حانة غلب المجاورة لقصر السكر المتواضع. اتصل بعثمان لكنه لم يرد... شعر بالوحدة... لقد قام بالرحلة كنوع من الجنون... لا بد أنه تم خداعه... قبل أن يغادر أخبره أحد ما أنه ما من شيء يدعى الزئبق الأحمر وأن الاتجار به مجرد غطاء لشيء ما.

كانت معظم الطاولات في غلب فارغة إذ لم يكن هناك أي زبون باستثناء رجل عجوز يرتدي سروالاً قصيراً وكنزة باهتة اللون ويشرب كوباً كبيراً من الجعة... كان يدخن ثم يرشف رشفة ويتنهد ثم يعيد الكرة... تحول الصباح إلى ظهيرة... لاحظ صديق بطاقة التعريف الشخصية للرجل على الأرض تحت كرسيه مع بعض الليرات التركية، فلفت انتباه الرجل إليها فالتقطهم الرجل وقال بلكنة سورية:

- راتبي الشهري... إن شربت المزيد قد أضيع سروالي أيضاً.

ثم ضحك بصوت أجش.

نقر صديق بأصابعه على سطح الطاولة إذ إنه لم يكن يرغب بسماع قصة أخرى عن الحظ العاثر.

على الرصيف في الخارج كانت هناك عائلة سورية تتناقش بحدة إذ كان الأب غاضباً والأم تبكي، فقد اشترى الأب كباباً لكل واحد من أطفاله لكن أحد أبنائه طلب واحدة أخرى فصرخ الرجل:

- ومن سيدفع ثمنها؟ من سيدفع؟ من؟! من سيدفع؟

وأفرغ جيوبه وهو يرمي قطعاً من الفكة على الأرض أمام ابنه ثم استدار ومشى بعيداً وهو ينادي:

- أنا لست جائعاً... لست جائعاً... اذهبوا كلكم وكلوا!

انعطف الرجل عند ناصية الشارع بينما جمعت العائلة قطع الفكة بسرعة

وركضوا وراءه بعيداً عن نظر صديق.

معاناة حيثما تذهب.

عليه إحضار بطاقة هاتف تركية إذ إن استخدام الخط النروجي باهظ الثمن. دائماً يستخدم صديق هاتفين في تركيا... هاتف ذكي بخط نروجي ليتمكن من الاتصال بالإنترنت في الأماكن التي يتوفر بها واي فاي وجهاز قديم يستخدم به بطاقة اتصال تركية... كان متجر الهواتف الذي يستخدمه عادة والذي يبيع أيضاً ملابس أطفال يدوية الصنع في آخر الشارع.

حين وصل إلى هناك كان هناك رجل عجوز وامرأة شابة قبله في الانتظار، ومن ملابسهما يتضح أنهما فقيران حيث يرتدي الرجل عباءة بيضاء وكوفية بينما ترتدي المرأة عباءة سوداء وحجاب.

قال الرجل من وراء المنضدة:

- هذا غير ممكن... لا يمكننا تسجيلك.

كان الأب والابنة لاجئين بلا جنسية من سوريا حيث عاشا في مخيم للاجئين خارج دمشق لثلاثين عاماً ولم يحصلا على الجنسية السورية وبالتالي فإنهما لا يحملان بطاقة تعريف وطنية أو رقم ضمان اجتماعي ليدخله موظف المتجر في النظام مما يعني أنه لا يمكنه بيعهما بطاقة هاتف.

- بغض النظر عما ستدفعانه لن يقبلها النظام.

بالنسبة لشركة الاتصال فإن الرجل وابنته غير موجودين.

ثم حان دور صديق.

- الجنسية؟

- نروجي.

- بطاقة تعريف؟

ناوله صديق جواز السفر.

تبين أنه يستحق بطاقة اتصال تركية.

اتصل بعثمان من الرقم الجديد لكن ما من رد... بدا كأن درجة الحرارة

100 فهرنهايت في الظل... توجه إلى نفس بائع العصير القديم الذي يشتري منه دائماً وطلب عصير الأفوكادو مع الفستق... ما زال عثمان لا يرد.

أكمل طريقه إلى مطعم «أربعة أصدقاء» الذي يفتح لأربع وعشرين ساعة في اليوم فاستقبله النادل ورحب به.

- كيف حالك؟

رد صديق:

- جيد.

لكن الوضع لم يكن جيداً.

عند غروب الشمس شق طريقه إلى غرفة الطعام الفارغة ومكيفة الهواء في الفندق وطلب قارورة من الماء البارد... لديهم هنا واي فاي ويمكنه محاولة الاتصال بعثمان على فايبر أو واتس أب. وجد مأخذاً وجلس ليشحن هاتفه... أضاءت الشاشة وارتفعت نسبة الشحن.

وصل منع التدخين إلى هاتاي مما يعني أن عليه الخروج لتدخين سيجارة... فتح الباب ووقف في الشارع يتنشق النيكوتين حتى شعر بالدوار ثم شعر بنسيم خفيف عبر ظهره بين جسده وقميصه المبلل بالعرق... شعور بالدغدغة.

عاد إلى الداخل إلى هاتفه وفي نفس اللحظة تلقى رسالة نصية من عثمان:

- ابق مستعداً! انتظر رسالة!

توجه صديق إلى حانة في الشارع المقابل للفندق وطلب وعاء من الفشار مع الجعة ثم خطر بباله أنه يحتاج للملح... ربما هذا سبب شعوره بالإرهاق... أنهى الوعاء.

رن هاتفه حيث اتصل به الوسيطان من دبي، فذهب للقائهما لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة... إنهما يتاجران بجميع أنواع الأشياء لكنهما غير مهتمين بهذا كما أنه كان غائب الذهن.

حين استيقظ في الصباح التالي شعر بصداع شديد في رأسه فأرسل رسالة

لعثمان... كانت الحدود مغلقة في تلك الفترة ولهذا لن يأتي.

هل من المفترض بصديق أن يبيع الزئبق بنفسه؟

أجابه عثمان بالنفي ووعده أن يدعمه من أطمه.

في اليوم التالي جال صديق المكان بلا هدف لكن الوسيطين لم يظهرا في المساء، حين أوى إلى السرير كانت الليلة حارة ورطبة والصداع لم يفارق رأسه وما من هواء في الجو مما جعل من المستحيل التنفس... شتم نفسه لقيامه بالرحلة وبدأ الاكتئاب يسيطر عليه.

في الصباح التالي صرخ صديق في الهاتف:

- ماذا تنتظر؟ أجبني!

رد عثمان:

- حسناً! حسناً! كنت أقود سيارتي جنوباً نحو حارم البارحة لكن كان هناك الكثير من إطلاق النار! فوضى! الكثيرون لقوا حتفهم! صديق...؟

لكن صديق لم يعد يسمع إذ لم يعد هناك متسع في رأسه.

33

أصوات في الرأس

كان صديق يمضي وقتاً صعباً بالتركيز.

شوارع... طرقات... ساحات... حارات مسدودة... قوانين... أنظمة... عدادات سيارة الأجرة... أجور نهاية الأسبوع.

كان يمضي معظم نهاره في المكتبة في ساندفيكا وهو يتابع مواقع الأنباء العربية ويتحقق من البريد والرسائل وينجز واجباته المدرسية ثم يعود للاتصال بالإنترنت... اتصل عثمان بشأن الوسطاء من دبي... تخيل... كتب شعراً... درس... تذكر... نسي... مشافي... مدارس... سفارات... كنائس... مساجد... مقابر... منتزهات... ملاعب رياضية.

من المفترض به تذكر كل شارع صغير في أوسلو... بوابة تورس... بوابة أودينز... بوابة لوفينسكيولدز... إدارة النفقات... الإسعافات الأولية... الخدمات الاجتماعية... إجراءات السلامة... أيمكنك إيصال راكب إلى موقف حافلة؟ هل من المطلوب منك وضع مقعد طفل في السيارة؟

سأله عثمان في صباح ما:

- كيف حالك؟

فرد صديق:

- أحضر دروس التدريب لأصبح سائق أجرة.
- هههه... ينبغي أن أرسل محمد إلى النروج ليتنافس معك!
- لدي الكثير من المنافسين... هذا البلد مليء بالأجانب... والآن الكثير من السوريين أيضاً... ينبغي أن تأتي وتحضر عائلتك.

توقف عثمان قليلاً ثم رد:

- نعم... ربما... لا أدري كيف ستكون الحياة بعد الآن... كل من النصرة وتنظيم الدولة يريدانني أن أعمل لحسابهما حصرياً... إنني أجازف مجازفة كبيرة... علي أن أخرج عائلتي... زوجتي وابنتاي على الأقل... كما أن هناك والداي... لا أدري... هل ستساعدني؟ عدني أنني إن خرجت...

فوعده صديق.

كان 30 سبتمبر موعد الامتحان.

تلقى المتقدمون خمسين سؤالاً مثل:

«أي طريق ستسلك من المحطة المركزية إلى ملعب إكبيرغهالين الرياضي؟».

وفي نفس الوقت الذي كان سائقو سيارات الأجرة المستقبليون يملؤون الإجابات في أوسلو كان المجلس الفيدرالي في موسكو يوافق على نشر القوات الجوية الروسية في روسيا، وبعد بضع ساعات من القرار ألقت روسيا أولى قنابلها على حمص.

بعد أن سلم صديق ورقة الامتحان استقل القطار إلى ساندفيكا واتجه إلى المكتبة حيث شغل أحد أجهزة الحاسب... شعر بعبء ثقيل يرتفع عنه... انتهى الامتحان الأول... وحين قرأ الأخبار الرئيسية لليوم شعر بعبء جديد أثقل يحل محل سابقه... لقد تصاعدت الحرب... سيصبح من الأصعب إخراج ابنتيه. وفقاً لوزارة الدفاع الروسية فإن الهجوم استهدف الدولة الإسلامية وصواريخهم أصابت خطوط إمداد ومراكز اتصالات ومخازن ذخيرة وعربات ومنشآت عسكرية.

احتفت وسائل الإعلام الروسية بقرار بوتين بحل الأمور في روسيا حيث ستظهر روسيا للعالم كيفية النصر في الحرب وهزيمة الإرهابيين.

خلال الأيام القليلة القادمة قصف الروس كل شيء ما عدا الدولة الإسلامية إذ كانت هناك ضربة روسية واحدة فقط من عشرة تصيب التنظيم الإرهابي في حين أن معظم الأضرار تطال الجيش السوري الحر – وهو القوة العلمانية الوحيدة في سوريا – وجيهة النصرة – وهي ذراع القاعدة في سوريا – إلى جانب العديد من الميليشيات الأخرى المعارضة للأسد.

كان الهدف واضحاً: إبقاء حليفهم في الشرق الأوسط في السلطة.

سقطت القنابل على أطراف الأراضي التي تسيطر عليها القوات الثورية إذ إن التكتيك هو إضعافها بما يكفي لتستعيد القوات الحكومية الأراضي التي خسرتها كما تم قصف العديد من المجموعات التي تساندها أمريكا وبعضها تلقى تدريبات من وكالة الاستخبارات الأمريكية.

وسرعان ما تجمعت الميليشيات واختفت بينما بقي المدنيون دون حماية من الموت القادم من الأعلى... وقد أصرت موسكو على أن هجماتها ضربات ضد الإرهابيين لكن الكثير من القنابل سقطت بعيداً عن خط الجبهة وغالباً في المواقع التي تنوي القوات الحكومية السورية مهاجمتها كما ضربت المشافي والمناطق السكنية والمدارس في البلدات الخاضعة لسيطرة الثوار... ما من هدف سهل.

حتى هذه المرحلة من الحرب كانت القوات الجوية السورية مسؤولة عن أكبر الخسائر في الأرواح حيث استخدمت أسلحة غير دقيقة كالبراميل المتفجرة – براميل محشوة بمتفجرات وشظايا معدنية يتم إسقاطها من على ارتفاع خارج نطاق سلاح مضاد الطيران الذي بأيدي الثوار، وكانت الرياح من تحدد أين سيسقط حيث يسقط عشوائياً في أي مكان وينفجر بقوة هائلة... يمكن لشظية معدنية حمراء حارة طائرة أن تقطع يد طفل أو تقسمه قسمين. حين ترى برميلاً يسقط من الأعلى يكون أمامك ثلاثين ثانية ريثما يضرب الأرض.

ثلاثون ثانية!

وفي حين كان طيارو الأسد يعتمدون على الطقس الصحو ليرموا متفجراتهم كانت طائرات الروس أكثر تقدماً، وهكذا تلاشت الحماية الناتجة عن الضباب أو السحب.

وعلى الرغم من أن هجمات الروس قوية لكن كان من المستحيل الفوز بالحرب من الجو، ففي خريف 2015 كان هناك ما يقارب 150000 جندي ثائر على الأرض في سوريا ما عدا الدولة الإسلامية، وقد كان الكثيرون منهم إسلاميين بعقيدة قوية وإيمان راسخ بالجنة وما سيحصلون عليه... ما من ميليشيا تخطط للاستسلام.

أرادت روسيا إضعاف القوات التي قد يساعدها الغرب أو يفاوضها أو يساومها... لقد أراد بوتين أن يبقى هناك خيار وحيد أمام العالم: الأسد أو الدولة الإسلامية.

كان الغرب في موقف أكثر صعوبة إذ كان يبحث عن أحد يتولى الأمور من الدولة الإسلامية في حال تم القضاء عليهم لكنهم لم يجدوا أحداً.

قال عثمان:

- الجحيم يمطر علينا! الجحيم يسقط فوق رؤوسنا!
- اهدأ وتكلم معي... قلبي قد جف... إنني أستمع...
- الروس يذبحوننا! إنهم لا يستهدفون سوى المدنيين! إنهم يقصفون الأطفال! إنهم يضربوننا نحن! نحن المعارضون للدولة الإسلامية! إنهم يساعدون الدولة الإسلامية على الاستمرار بينما نموت نحن!

كان عثمان يرسل تقارير جديدة يومياً إذ كان شهر أكتوبر مليئاً بالفظائع.

- إنهم ينثرون رمادنا عبر البلاد ونحن نغرق أعمق وأعمق كما أن الفوضى تسيطر على رؤوسنا ولا ندري ماذا نفعل.

وفي إحدى الليالي اتصل وقال وهو يبكي:

- لقد تدمر البناء بالكامل وهناك حفرة كبيرة ناتجة عن ضربتي

صاروخين... الأولى لتفتحه والأخرى لتقتل... إنهم يريدون إخراجنا جميعاً لئلا يبقى في النهاية سوى الأسد والدولة الإسلامية!

- على من الضربة؟
- أصدقاؤنا! لديهم أطفال وعائلات!
- تقبلهم الله!
- إن كان علي التحالف مع الشيطان لأقضي على الروس والأسد فسأفعل ذلك... أقسم بالله أنني مستعد... لكنني مرهق من كل هذه الفوضى هنا...

ظل صديق مستيقظاً حتى وقت متأخر من الليل وقد تزايدت مخاوفه من أن يتم قصف الرقة حيث تعيش الفتاتان، وهكذا أصبح يتقلب بين محاولة نسيان الفتاتين في اليوم الأول والرغبة الشديدة بإنقاذهما في اليوم التالي.

سمع المزيد من الأصوات الغريبة في الشقة... هل هي من أسفل السلم؟ أم من خارج النافذة؟ كل الضجة جعلته يقفز... هل كانت مسموعة أيضاً حين كانت عائلته هنا؟ هل هناك تفسير لأي منها... الثلاجة... الجلاية... أنابيب المياه... باب الخزانة... الأغصان بالقرب من النافذة... أحد ما في الخارج... أحد ما في الشقة في الأعلى... صدى في المدخل؟ أم أنه جني لعين يضحك على بعد خطوات منه؟

حاول تهدئة نفسه والتفكير بوضوح... لا... إنه ليس خائفاً... لطالما يعتبره الجميع شجاعاً وبارد الأعصاب لكن هذه الليلة من شهر أكتوبر كالحة الظلام ولا يستطيع التخلص من هذا الشعور بعدم الراحة... فكر بالسوريين الذين لقوا حتفهم... أين أرواحهم الآن؟ لماذا لم يأتوا ويتكلموا معه؟ لماذا لا يخبروه إن كانوا دخلوا الجنة أم الجحيم ليعرف ماذا يحصل؟ تخيل لو أن أولئك الذين في الجانب الآخر يمكنهم إخباره بالخطوات التي سيخطوها... هل تمكن أولئك الذين غادروا هذا العالم من وداع أحبائهم قبل أن تسقط القنبلة؟ فكر بأصدقاء عثمان... أطفال لقوا حتفهم في أسرتهم؟ أمهات يهززن

أطفالهن لينامواً... موت من السماء... هل جاء فجأة دون أي إنذار؟ أم أنهم سمعوا صوت الطائرة أولاً؟ هل تسنى لهم أن ينادوا «الله أكبر»؟

فكر بأصدقائه الذين لقوا حتفهم في الحرب في الصومال... هناك الكثيرون منهم... لماذا لم يأتوا إليه الآن ويسألوه:

- كيف حالك؟

لم يفعلوا هذا قط... كثيراً ما كان يفكر بأحد أصدقاء الطفولة... صبي سيبقى مراهقاً إلى الأبد... كان صديق يتولى قيادة الحراسة وقد تم إخباره برجل أراد الدخول إلى المعسكر لكنه لا يعرف كلمة السر فرد صديق الذي كان مراهقاً حينها:

- أطلقوا النار عليه.

وفي الصباح التالي رأى الجثة.

آه من هذه الأصوات البغيضة المحيطة به طيلة الوقت في حين أنه لا يريد سوى سماع صوت أنفاس سارة بجانبه.

في الأسبوع الثاني من أكتوبر بعد بضعة أيام من الهجوم الصاروخي الذي دمر المبنى مع أصدقاء عثمان أخبر السوري صديق أن تنظيم الدولة قد انسحب من منطقة كبيرة كان يسيطر عليها بالقرب من حماه.

ولم يستغرق الأمر سوى بضع ساعات حتى أدرك الجميع السبب حيث وصف عثمان أول هجوم تم التنسيق له بين سلاح الجو الروسي والقوات البرية السورية.

- في الساعة الرابعة من هذا المساء بدأ الطيران الروسي بقصف المنطقة التي يسيطر عليها جبهة النصرة والجيش السوري الحر... يا إلهي... كم كان الأمر مريعاً!

وفي اليوم الثاني:

- في الساعة السادسة صباحاً اقتحمت قوات النظام المنطقة.

كان الروس يقصفون الطريق لقوات الأسد كي يستعيدوا السيطرة على البلاد خطوة خطوة، وقد اتضح من انسحاب الدولة الإسلامية المسبق أنه تم إبلاغهم مسبقاً: انسحبوا إن أردتم تجنب الخسائر فنحن سنسيطر على المنطقة.

بعكس الميليشيات المحلية الأخرى التي كانت تريد تغيير النظام فإن تنظيم الدولة لم يكن يكترث لمن سيحكم في دمشق طالما أنهم يديرون الخلافة كما يشاؤون إذ لم تكن لدى الإسلاميين النية بالسيطرة على سوريا بالكامل في الوقت الحالي.

تمتم عثمان عبر الهاتف:

- لعبة قذرة.

وفي أحد الأيام كتب:

- ألقى طيران الناتو عشرين طناً من الذخيرة والإمدادات والماء العذب للجيش السوري الحر.

كانت قوات المعارضة في حاجة ماسة للإمدادات لأن الطرقات مغلقة.

- لقد ألقوا ثلاثين طناً أخرى لكن في موقع خطأ فوقعت كلها في أيدي الدولة الإسلامية! أنا لا أمزح... الناتو أهدى الإمدادات للدولة الإسلامية!

كان عثمان يعتقد أن العالم متآمر ضد الشعب السوري وأن روسيا والأسد والناتو متحالفون ضد السوريين أو على الأقل هذا ما اتضح على أرض الواقع.

كانت الرسالة التالية التي تلقاها صديق صورة جثة، ولم يجد صديق أية صعوبة في التعرف على حمزة صديق عثمان المفضل الذي كانوا يدعونه بالأسد. كان ممدداً وهناك علامة حمراء على وجهه كالندبة ووجهه محاط بشعر أسود جعد ولحية طويلة بدأت تتلون باللون الرمادي.

- آآآآآه... بالكاد أستطيع كتابة هذا... حمزة... أتذكره؟ الأسد في النصرة استشهد شمال حماه... لقد كان معنا حين ذهبت إلى المحكمة

في الدانة... فليتقبله الله شهيداً! عزني! إنني أبكي وعائلتي تبكي! لقد ترك وراءه زوجتين وسبعة أطفال.

تذكر صديق حمزة الذي كان في بداية الثلاثينات من عمره كعثمان.

رد صديق:

- ليتقبله الله ويدخله جناته. كيف استشهد؟ قناص؟ غارة جوية للنظام؟ الروس؟
- سلاح الجو الروسي.
- فليحرق الله بيت الطيار.
- لم يكن يستمع لي... لم أستطع فعل شيء... لقد أصبحت الحياة بائسة بالنسبة لنا... لي ولعائلتي... ظروفنا تسوء يوماً تلو يوم.

كانت المرأة النروجية الوحيدة في الدولة الإسلامية التي لها وجود على وسائل التواصل الاجتماعي هي عائشة، وفي حين أن الأختين لم تشاركا أي شيء مع الناس فإنها نشرت تقارير عن الحياة في الرقة على الفيسبوك حيث جاء المنشور الأول في منتصف أكتوبر 2015.

- لاحظت أن هناك العديد من الناس الذين يريدون معرفة كيف هي الحياة في الدولة الإسلامية ولهذا قررت أن أكتب عنها قليلاً لكي أقدم رؤية أكثر صدقاً.

كانت تكتب باللغة النروجية وبدا كأنها تخاطب الفتيات النروجيات اللاتي يفكرن بالسفر حيث كانت كتاباتها شرح مبسط عن الحياة في الدولة الإسلامية، وقد عنونت منشورها الأول:

«الحياة وبنية المجتمع في الدولة الإسلامية».

ووصفت كيف أن لكل منطقة إدارة خاصة ومدارس ومحكمة وقوة شرطة ومشفى ونظام إنعاش اجتماعي.

«المعايير التي يتم على أساسها تلقي المساعدة تخضع للتعاليم

الإسلامية... إن قصف العدو الهمجي للسكان المدنيين والمشافي هو سبب نقص الموارد والمعدات».

كما أن هجمات العدو تتحمل مسؤولية عدم فتح المدارس، وقد كان الوصف التالي مشابهاً لما نشرته الفتيات الأخريات في الدولة الإسلامية على الإنترنت... ستحصلين على منزل أو شقة حسبما هو متوفر... كل شيء مجاني... الثلاجة والميكرويف والغسالة ومكيف الهواء والتلفاز.

وهكذا أصبح وصف الخلافة واضحاً وثابتاً: أهلاً بكم في الحياة الرغيدة حيث كل شيء مجاني ويساعدكم على دخول الجنة.

في البداية وعد صديق بإخلاء الشقة قبل 1 أكتوبر ثم حصل على تمديد إلى 1 نوفمبر لكن أكتوبر تحول إلى نوفمبر وممتلكاته ما تزال في أرجاء الشقة.

استيقظ ليجد صقيعاً في الجو ودرجة الحرارة قد انخفضت إلى تحت الصفر في الليل كما أن الطبقة البيضاء المتلألئة التي تغطي الأرض ستذوب خلال اليوم. كان الخريف في أبهى أشكاله حيث تتنوع الألوان بين الأصفر والبرتقالي والأحمر والنسيم العليل يملأ الجو. في أحد الأيام حين أجبر نفسه على البدء بتوضيب أغراضه وجد القبعة الرمادية التي اعتمرها في مايو... لقد حان الوقت ليضعها من جديد ليدفئ أذنيه.

وفي إحدى الأمسيات في بداية نوفمبر ومع هبوط الظلام في الخارج وهو جالس خلف جهاز الحاسب سمع صوتاً في رأسه:

- إليك هذه النصيحة... أخرج الفتاتين! الأمور ستزداد سوءاً وهذه ليست إلا البداية... هذه الحرب لن تنتهي حتى وقت طويل... يجب أن تخرج الفتاتين.

استمر الصوت:

- لكي تفكر بصفاء عليك أن تنسى أنهما على قيد الحياة وتتخيل أنك ستشحن جثتين إلى الوطن.

نهض على قدميه... عليه أن يغادر ويحضرهما، وفي الساعة الخامسة صباحاً أرسل رسالة نصية إلى أحد أصدقائه:

- علي أن أسافر إلى هاتاي ثم إلى دبي ثم أعود إلى هاتاي ثم إلى سوريا... إن نجوت سأراك من جديد وإن لم أنجو فحاول أن تفعل ما بوسعك من أجل أطفالي... تحياتي... صديق عبد الله جمعة.

وبعد بضع ساعات كتب:

- سأذهب للنوم الآن فكر في الأمر لثماني ساعات ثم أجبني.

ما إن استيقظ صديقه حتى رد عليه:

- السفر إلى الرقة الآن يبدو في غاية الخطورة.

فرد صديق أن البريطانيين وعدوا بمساعدته بعملية الإنقاذ وأن هناك أربعة عملاء من دبي سيساعدونه إذ إن الاستخبارات البريطانية تريد تجنيده.

وبعد بضعة أيام تواصل معه من جديد.

- أنا في الرقة... لا أصدق ذلك.

رد صديقه:

- أنت تمزح!

- أنا جاد.

- انتبه لنفسك!

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم علم صديقه أن أحد معارفهما المشتركين قد التقى بصديق في مركز التسوق المحلي في أوسلو.

لقد أصبح الشاعر صديق أسير أفكاره.

قال إنه التقى بالاستخبارات البريطانية في هاتاي وقد جاء أربعة عملاء من دبي للقائه، وهناك وضعوا خطة عالية المستوى لإخراج ابنتيه.

قال إنه نجح بامتحان قيادة سيارة الأجرة وأن كل ما يحتاجه الآن بيان رسمي من الشرطة أنه ليس لديه أي سجل إجرامي وشهادة صحية من طبيب

ليبدأ بالتقدم للوظائف لكنه أمضى أيامه خلف شاشة الحاسب.

وبعد الهجوم الإرهابي في باريس في منتصف نوفمبر توعد الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند بالانتقام من تنظيم الدولة، وبعد يومين ضرب المقاتلون الفرنسيون عشرين هدفاً بما فيها مراكز قيادة وقواعد تجنيد ومخازن ذخيرة ومعسكرات تدريب لكن المشكلة بالنسبة لفرنسا والتحالف أنه ما يزال هناك أربعمائة ألف مدني في الرقة ممنوعين من المغادرة.

وبما أن الوضع بالنسبة للفتاتين وطفلتيهما بدا خطراً للغاية والحياة في بيرم ينقصها التوجه أصبح تركيز صديق منصباً على السفر مجدداً حيث أصبحت عمليات الإنقاذ التي تدرب عليها في رأسه أكثر روعة وستشارك فيها الاستخبارات البريطانية والصومالية إلى جانب وحدات مكافحة الإرهاب الفرنسية كما كان يفكر:

– علي الذهاب بنفسي لإنقاذ ابنتاي... هذا ما سيحصل.

لكنه كان بحاجة إلى بعض المال أولاً إذ إنه مفلس والثلاجة فارغة وكل ما يتقاضاه يرسله لسارة والعائلة في الصومال كل شهر كما أنه أبعد عنه أصدقاءه باقتراضه الكثير منهم ولم يعد بإمكانه طلب المزيد.

كانت الصحيفة خياره الوحيد حيث أخبرهم أن معارفه في الرقة أخبروه بقصة مهمة ووعدهم بصور، وفجأة حصل على 3000 كرون في يده.

نشرت دانغبلاديت القصة في 18 ديسمبر 2015:

«حصرياً... 272 من مقاتلي تنظيم الدولة مختبئون في أوربا... 150 إرهابي آخر على الطريق».

ومرة أخرى وصلت إبداعات صديق إلى الصفحة الأولى.

«يمكن لداغبلاديت أن تكشف عن تفاصيل موجتين من إرهابيي تنظيم الدولة المدربين خصيصاً لضرب أهداف في أوربا... الموجة الأولى متمركزة في مواقعها والموجة الثانية ما تزال حتى الآن مع تنظيم الدولة في سوريا وقد أتمت تدريبها في معسكر يقع بين سنجار والموصل في العراق».

وكتبت داغبلاديت أنها حصلت على هذه المعلومات من مصدر على اطلاع تام بأنشطة تنظيم الدولة.

كما يمكن للصحفيين بناء على ما أخبرهم به صديق أن يرووا أن الموجة الأولى كان عددها 300 في الأصل لكن 28 منهم لقوا حتفهم في سوريا في تفجيرات وعمليات حربية أخرى ولم يتبق سوى 272 لديهم تعليمات بالبقاء بلا حراك الآن.

أما الموجة الثانية فهي الآن في سوريا حيث أتم 112 مقاتلاً تدريبهم وسيسافر الإرهابيون في 11 سيارة. إحدى المجموعات مدربة لشن هجمات انتحارية إذ إن أفرادها قد تم غسيل أدمغتهم بالكامل أما النوع الثاني من الإرهابيين فسيقومون بأعمال إرهابية باستخدام أسلحة نارية كما أنهم مزودون بأحزمة ناسفة، وكلتا الطريقتين تم استخدامهما في الهجمات الإرهابية في باريس في 13 نوفمبر.

وقد كتب الصحفي أن الشرطة النروجية تؤكد أنهم على اطلاع على هذه المعلومات قبل تواصل داغبلاديت معها.

وقد كان ذلك غير صحيح إذ أنكرت الشرطة النروجية أية معرفة لها بهذه القصة، والصحفي الذي تواصل معهم كان غير واثق من صدق المعلومات وكشف لهم عن مصدر القصة: الأب من بيرم.

وقررت الصحيفة استغلال القصة إذ إن نشرها أعطى انطباعاً أن داغبلاديت مطلعة ولديها معلومات موثوقة من سوريا وحصلت على معلومات حصرية عن الخطط الإرهابية لتنظيم الدولة. وقد أنكر خبراء الإرهاب في أوسلو المعلومات إذ إن التفاصيل دقيقة للغاية لدرجة تجعل من الصعب تصديقها ولم يكن من الشائع في العالم العربي استخدام أرقام دقيقة. وقد كان مع الخبر صورة بناء وفجوة كبيرة ومكتوب تحتها:

«يدعي المصدر الذي أعطانا سابقاً معلومات موثوقة أن التخطيط للهجمات في أوربا تم في هذا البناء في الرقة... صورة حصرية».

اقترب موعد موسم الأعياد الثالث دون الفتاتين.

عاد إسماعيل إلى المنزل من جامعة فيستفولد حيث غير اختصاصه في منتصف الفصل إذ وجد أن تكنولوجيا النانو غير مناسبة له، وقرر أن يصبح مهندس أتمتة حيث سيصمم ويبتكر ويطور ويدير أنظمة الأتمتة.

قبل عيد الميلاد وبعد عدة أشهر دون خبر تواصلت معه ليلى وكأن شيئاً لا يحصل حولها.

- مرحبا يا إسماعيل... ماذا يحصل؟ ما من رسائل أخرى؟ أيمكنني طرح سؤال؟ وهل تعدني أن تجيبني بصدق تام؟ تقول إنك لا تؤمن بالإسلام... صحيح؟ هل تبحث على الأقل عن شيء لتؤمن به؟ لأنك إن كنت لا تؤمن أن الإسلام هو الحقيقة فلا بد أن هناك حقيقة أخرى... صحيح؟ هل تبحث عنها؟ ابنة أختك بخير... شكراً على سؤالك... تبلغ أربعة أشهر من العمر الآن.

رد إسماعيل:

- لا يمكنني احتمال المزيد... كلما تواصلتما معي أتذكر أختين لن ألتقي بهما مجدداً لذا مبارك من أجل الطفلة لكن توقفا عن التواصل معي... أعتقد أنني سأتحول إلى ما كنت عليه قبل أن أولد حين سأموت... هذا كل الأمر.
- إسماعيل... لم أفكر قط بك كمتشائم... ماذا تقصد أننا لن نرى بعضنا مجدداً؟ لا تقل ذلك أبداً. سألتك إن كنت تبحث عن الحقيقة لأن هذا ما أخبرتني به المرة الماضية (كيف تريد أن تجد شيئاً تؤمن به) لأننا كبشر نحتاج لشيء نؤمن به بغض النظر عما هو. وهل تقصد بما تقوله أن تخبرني أنك تعيش وتطمح لأن تصبح لا شيء؟

رد إسماعيل بعد ساعة:

- نعم... أظنك أسأت الفهم... اللاشيء هو ليس بالأمر الجيد أو السيء... اللاشيء هو تناغم ممتاز... فكري بمدى جمال اللاشيء.

لم ترد ليلى.

بعد ساعة سألها إسماعيل:

- هل تم قصفك؟

وبعد أسبوع كتب:

- ؟

ثم لاحظ أن ليلى قامت بإيقاف تفعيل حسابها.

وبعد ذلك لم يعد هناك شيء.

مكتبة
t.me/t_pdf

34

ميراث

العقل مبني من التجارب والخبرات التي تبدأ في الرحم إذ يمكن للطفلة حديثة الولادة أن تتعرف على صوت أمها، وبعد أسبوع تتعرف على رائحتها وبعد فترة بسيطة تتعرف على وجهها. وفي عمر الشهرين يمكن للطفلة رفع رأسها وهي مستلقية على بطنها كما يمكنها التمييز بين نفسها ومحيطها. وفي عمر ثلاثة أشهر يمكن للطفلة الإشارة إلى أنها تريد عناقاً أو حضناً، وفي الشهر الرابع يمكنها التواصل البصري، وفي الشهر الخامس تتمكن من تفسير المشاعر من تعابير الوجه. ويمكن لطفلة بعمر ستة أشهر أن تظهر اهتماماً بالأطفال الآخرين وتستطيع الجلوس بمفردها وفي بعض الحالات تبدأ بالحبو.

وفي عمر سبعة أشهر تشكل رابطاً مع والديها في حال تسنت لها الفرصة، فالعالم يتطور بسرعة والدماغ يتكيف بسرعة حيث تتبلور التجارب في اللغة والمنطق والنظام. وفي عمر ثمانية أشهر ستتعلم الخوف من الغرباء وتتحقق من والديها لتعرف إن كان صاحب الوجه الجديد غريبا أم منهم، وستبدأ الأفكار تتشكل لتتحول مع مرور الوقت إلى معتقدات وقناعات، وفي الشهر التاسع ستتمكن من الوقوف.

حينها اتصلت ليلى لتقول:

- لقد وقفت آسيا على قدميها للتو!

بكت سارة:

- أوه... يا للروعة!

حين تتصل الفتاتان بأمهما فذلك لإخبارها بالتطورات التي تطرأ على

الطفلتين حيث مرت آسيا بالعديد من نوبات المرض لكن ليلى واثقة من أنها تعافت بالكامل أما سارة الصغيرة فتعاني من فقدان الشهية لكن الوضع تحسن الآن.

في خريف 2016 كانت الأختان وطفلتاهما وزوجاهما يعيشان مع بعضهما في مسكن جماعي مع أزواج نروجيين وسويديين وبريطانيين إلى جانب عدد متزايد من الأطفال حيث قالت ليلى لسارة:

- الأمر رائع يا ماما... نحن لا نشعر بالوحدة على الإطلاق.

تحضر النسوة الطعام ويراقبن أطفال بعضهن وينظفن المنزل في حين يقوم الرجال بتنفيذ المهام الموكلة إليهم من قبل الدولة الإسلامية، وقد أخبرت الفتاتان أمهما أن بينهن شعور أخوي قوي فإن شعرت إحداهن بالصداع تقوم أخرى بغسل الأطباق وإن عانت واحدة من ألم في سنها تحضر لها أخرى مسكنات الألم... إنهن يعتنين بأطفال بعضهن ويغيرن لهم حفاضاتهم ويطعمنهم ويضعنهم في أسرتهم.

عاشت ابنتا الخالة آسيا وسارة حياة كحياة أمهما داخل المنزل.

سألت الجدة عن القصف فردت ليلى:

- هذه ليست مشكلة يا ماما... نحن نعيش في منزل إسمنتي ولدينا قبو كملجأ جيد من القنابل... لا تقلقي.

أكدتا لها أنهم حين يسمعون صوت الطائرة ينزلون إلى القبو بكل بساطة وأن هذا الأمر يتكرر يومياً.

على وسائل التواصل الاجتماعي كانت فتيات تنظيم الدولة حريصات على أن يظهرن غير خائفات إذ إن القصف مجرد مصدر إزعاج لا أكثر إذ كتبت فتاة بريطانية:

- ثلاث قنابل خلال ساعة... أي نوع من الحيوانات تقصف الناس في التاسعة صباحاً... أكره أمريكا.

لتعلق أم جهاد:

- سقطت قنبلة خلفي تماماً وأنا أمشي إلى المنزل... لا يسعني القول سوى أن أصوات القنابل قوية.

ثلاثة فصول شتاء وثلاثة فصول ربيع بدونهما.

بالكاد تواصلت الفتاة مع أمهما خلال عام 2016 حيث كانتا تتصلان في أعياد المسلمين المقدسة فقط... تساءلت سارة... هل هذا الوقت الوحيد المسموح لهما الاتصال به؟ لكنها لم تسأل إذ إنها لم تسأل عن أي شيء قد يزعج المجموعة الخطرة التي تتنصت على المكالمة بلا أدنى شك.

كان صديق وسارة مستعدين للأسوأ منذ وقت طويل ويجهزان نفسيهما نفسياً لليوم الذي سيأتيهما فيه خبر مقتل ابنتيهما... أحياناً كان صديق يفكر أن ذلك أفضل حيث سيتوقف عن التفكير بهما ويكمل حياته وقد تعود سارة إلى النروج.

حين اتصلت من هارغيسا وقالت إنها تشتاق إليه قاطعها:

- تعرفين مكاني... إن كنت مشتاقة لي فتعالي.

كانت هي من اختارت الانتقال والآن تريد منه أن يتعاطف معها ويواسيها على خيارها... كانت تعرف ما يقصده... أن تعود إلى النروج ويلتحق الصبية بالمدرسة.

- اعثر على الفتاتين! أنقذهما!

هذا ما قالته سارة من اليوم الأول وهذا ما منح حياة صديق المعنى.

كان يعرف أنه تضاءل في عيني سارة إذ إنه فشل كأب وكرجل وكرب أسرة وهذا عقابه... لقد هجروه... ابتاه... زوجته... ابناه الصغيران... إسماعيل... ها هو وحيد.

قال له صديقه مواسياً:

- ستعود زوجتك عما قريب وكذلك ابنتاك.

لكن ما من إشارة إلى ذلك.

لكن ابنيه يريدان العودة إلى المنزل، ففي هارغيسا يمضيان معظم وقتهما

أمام البلاي ستيشن في غرفة الجلوس أو يلعبان كرة القدم باستخدام قارورة بلاستيكية، وقد تجادل والداهما في الصيف الماضي حول أين ينبغي أن يعيشوا وكان صديق مستعداً للتسوية لكن سارة قالت... سنة واحدة أخرى ثم عليهما العودة إلى النروج... خلال وقت كافٍ للالتحاق بالعام الدراسي المقبل... جيد.

وقد التزمت بكلمتها فبعد شهر من انتهاء المدارس هبطت هي والصبيان في مطار أوسلو، وفي اليوم التالي عاد إسحاق وجبريل إلى المدرسة في صفوفهما القديمة وتلقيا متابعة مكثفة من المدرسة ومركز رعاية الطفل... كان الهدف لهما أن يستمرا في فئتهما العمرية.

عاد إسماعيل من الكلية وتولى وظيفة صيفية في سوبرماركت قريب وتشارك الصبية الثلاثة غرفة النوم بينما نام صديق وسارة في غرفة الجلوس، وفي الليل همس إسماعيل لأخويه الصغيرين:

- نحن ننتمي إلى النروج.

فهز إسحاق وجبريل رأسيهما في الظلام موافقين.

لم يعد إسماعيل يتواصل مع أختيه إذ إن آخر مرة سمع شيئاً من ليلى هي الرسالة التي أتته قبل رأس السنة الجديدة حين رد بعلامة استفهام ولم يتلق أي رد أما أيان فلم يسمع منها أي خبر منذ عام.

في أغسطس أخذ إجازة من وظيفته في السوبر ماركت إذ تم اختياره كواحد من مائة مشارك في إيماكس وهو برنامج ريادة أعمال للشباب من تنظيم مؤسسة «الإبداع في النروج» حيث يهدف البرنامج لإلهام وتمكين «رواد الأعمال الشباب للاستمرار في تطوير أحلامهم والسعي لتحقيق أهدافهم ورؤاهم».

تم اختتام الدروة التدريبية بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ليلهامر حيث يحصل الشباب على «الأدوات لتطوير أنفسهم وصنع مستقبلهم ومستقبل النروج». وتم تقسيم المائة شاب الذين تم اختيارهم إلى عشر مجموعات لتولي مهمات تفرضها شركات مختلفة وسيتم تقييم أفكارهم وتطورهم

واختيار الفائز حيث تمت دعوة الفائزين السابقين إلى لندن وسيليكون فالي وشنغهاي ليتعلموا المزيد عن تأسيس وتنفيذ الأعمال.

لم تفز مجموعة إسماعيل لكنهم أمضوا عطلة نهاية أسبوع لا تنسى حيث نشر صورة لأصدقائه الجدد على الفيسبوك وجميعهم واقفون وقد لفوا أذرعهم حول بعضهم وإسماعيل يرتدي ملابس من نفس الطراز الذي يرتديه الشباب الشقر الذين معه... سروال من الجينز وكنزة زرقاء فاتحة ويبدو كرجل أعمال شاب وكتب تحت الصورة: «تجربة رائعة لإيماكس النروج».

عند انتهاء الصيف استقل القطار عائداً إلى الجامعة ليبدأ عامه الدراسي الثاني في هندسة الأتمتة، وحين عاد غير الصورة الخلفية لهاتفه المحمول حيث وضع كتابة بيضاء على خلفية رمادية تلخص وضعه: «كن مستعداً لأن تمشي وحدك... الكثيرون ممن بدؤوا معك لن ينتهوا معك».

لم يكن اجتماع العائلة من جديد بالأمر الجيد فقد فقدوا الشقة القديمة الواسعة مما جعل الشقة من غرفة نوم واحدة التي تم تخصيصها لصديق حين كان وحده مزدحمة للغاية، ولم تكن سارة سعيدة بالموقع ولا الجيران إذ إن الشقة تقع في مبنى شقق تابع لعملاء الرعاية الاجتماعية ومعظم سكانه غير متزوجين ومنهم المدمنون على الكحول والمخدرات والكثير من الفوضى حيث يمكن سماع أصوات تحضير الطعام في الثالثة صباحاً وتشغيل الموسيقى بصوت مرتفع طوال الليل والشجار. تذمرت سارة لإحدى صديقاتها أن هناك حقناً وقوارير كحول فارغة في كل مكان قائلة:

- هذا المكان لا يناسب الأطفال

وذهبت إلى مركز الرعاية الاجتماعية النروجي وطلبت شقة جديدة فأجابوها أن عليهم البحث عن شقة بأنفسهم ويمكن للسلطات المحلية مساعدتهم بالإيجار لكنهم سيكونون مسؤولين عن إيجاد مكان بأنفسهم. بحث صديق على الإنترنت وذهبوا لرؤية بعض الشقق لكن في كل مرة

يرفض أصحاب المنزل تأجيرهم لتتوصل سارة إلى نتيجة: النروجيون لا يحبون الصوماليين.

لكن الصوماليين يحبون الصوماليين فما إن عادت سارة إلى النروج حتى تواصلت مع دائرة أصدقائها في بيرم إذ إنها بعد خمسة عشر عاماً في البلاد قد بنت شبكة كبيرة من الرفيقات عدد كبير منهن أعضاء في رابطة النساء الصوماليات.

عند عودتها أرادت سارة تخفيف التوتر إذ إن صديق أعرب عن غضبه من أستاذ القرآن مصطفى أمام المجتمع الصومالي حيث حمله مسؤولية تطرف ابنتيه قائلاً:

- إنه بداية كابوسنا.

فاعتبرت الرابطة اتهامات صديق لمصطفى انتقاداً لهم لأنهم من وظفوه واختاروا تركه أستاذاً حتى بعد مغادرة الفتاتين، وقد ناقشوا أنه لو كان للتطرف والرحلة إلى سوريا أية علاقة به لغادر آخرون.

وقد حاولت سارة التواصل مع مصطفى بعد مغادرة الفتاتين لكن الشاب الذي يتقاضى جزءاً من راتبه من ميزانية عائلتها رفض لقاءها، وفي النهاية أرسل رسالة عن طريق إحدى صديقاتها قائلاً:

- ليس لي أية علاقة برحلتهما إلى سوريا، وقد تسببت مغادرتهما بصدمة لي... ليحميكم الله جميعاً.

فقالت سارة لنفسها:

- حسناً... إذن ليس هو.

من جهة أخرى تلقى صديق اللوم والتأنيب على وسائل التواصل الاجتماعي لاتهامه أستاذ القرآن بالتجنيد للإرهاب مما جلب العار لكل الصوماليين.

انتشرت الأقاويل، وحين تفشى الانتقاد على وسائل التواصل الاجتماعي طلب مسجد التوفيق من مصطفى أن يبقى بعيداً لبعض الوقت إذ كان الزعماء الدينيون قلقين حيث كان المسجد كغيره من المساجد في أوسلو مشغول بمواجهة التطرف وقد عينوا قائداً دينياً شاباً يدعى عبد الباسط علي محمد وهو

صومالي مثقف ومتكلم ووسيم للمشاركة في نقاشات حول كيفية مكافحة الإرهاب. وقد كان مشاركاً متحمساً طالما أنه لا يضطر لمصافحة أي عضو أنثى في لجان النقاش.

استجوبت الشرطة النروجية مصطفى بسبب رحلة الأختين كما أن الشرطة قد تلقت معلومات حول علاقاته بحركة الشباب وبتنظيم الدولة وبأنشطة تجنيد الإرهابيين كما تم استدعاء أصدقائه للاستجواب.

وعند استجواب أحد المراهقين المشاركين في أمة النبي تم طرح بعض الأسئلة العامة عليه ثم سألوه إن كان يعرف مصطفى.

- مصطفى...؟ لا...

- إذن كيف أمضيت الليل في منزله؟

فأدرك الشاب أن لديهم الكثير من المعلومات لأنه لم يمض الليل على أريكة في منزل مصطفى سوى مرة واحدة. وفي منتصف المقابلة دخل الغرفة نروجي طويل أشقر الشعر يتكلم الصومالية بطلاقة ولديه اطلاع تام على العشائر والمجموعات العرقية والحركات في الصومال مما أثار إعجاب المراهق. وبعد بعض الوقت عقب زيارة من الشرطة لمنزل والديه وعقب توبيخ أبيه له لإضاعة الفرص التي منحته إياها النروج اتخذ قراره بالانسحاب من شبكة المتطرفين.

لم يكن تدريس القرآن مصدر دخل مصطفى الرئيسي إذ إنه يشغل وظيفة حارس أمن، وبعد مغادرة الأختين بوقت طويل توظف الإسلامي الشاب في جامعة أوسلو في فرعها في بليندرن حيث يرتدي بذلة كحلية اللون مطرز عليها اسم شركة الأمن ويجول أبنية الكلية في الليل.

بحثت الشرطة دون أن تجد أي دليل ضد مصطفى إذ قال الجميع إنه لا يقوم بشيء سوى تدريس القرآن وأنه مسلم جيد يجمع المال لضحايا الحرب ويمضي وقته مع الشباب الواقعين في ورطة كما يقوم أحياناً بتوصيل الفتية وقد يذهب إلى حانة ويعرض على أحد الصوماليين المخمورين أن يوصله

للمنـزل وقـد يثرثـران على الطريق فيسـأله إن كان الفتى بحاجة للمسـاعدة أو إن كان يواجه مشاكل.

كان مصطفـى يتعامـل كالأخ حيـث يقـف بذراعيـن مفتوحيـن وأذنيـن منصتتيـن ثـم تـدور الدائـرة حيث تحكم اليدان المسـاعدتان قبضتهما ويحين الوقت لرد الجميل.

أحد الذين تم اعتقالهم واتهامهم هو زوج دلال السـابق عبيد الله حسـين، ففي سـبتمبر 2016 أصبح أول نروجي يتم اتهامه بتجنيد الإرهابيين حيث وجد المدعـي العـام أن هنـاك أدلة كافية لإثبات أنه جند وسـهل سـفر الإرهابيين إلى سوريا، وقد لقي العديد ممن ساعدهم حتفهم في سوريا وفقاً للتقارير كما أنه قام بترتيبات السفر وشراء الملابس والمعدات والمساعدة في الحصول على التذاكر ومساعدة المسافرين على التواصل مع من سبقهم، وقد تضمنت الاتهامات:

- كان على اتصال مباشر بأفراد لديهم علاقات مع تنظيم الدولة لضمان أن يكون هناك من يوصل المسافرين عبر الحدود مع تركيا.

واعتبرت الشرطة أنه عضو في تنظيم الدولة حتى تاريخ اعتقاله.

بقيـت أمـة النبـي بلا قائد فعبيد الله معتقل وباسـتيان وعدد من الآخرين قتلى كما أن معظم الأعضاء الآخرين في سوريا إلا عرفان بهاتي الذي كانت عائشة تدعوه «غراء المجموعة» ما يزال العراب لكن أمة النبـي لم تعد تنظم المظاهرات كما تم إغلاق صفحة المجموعة على الفيسبوك واستمروا يلتقون لتناول وجبة غالباً في منزل أحدهم.

كان عرفان بهاتي أحد أولئك الذين على تواصل دائم بهشـام في سـوريا فـي حيـن أن الكثيريـن لا يجـرؤون على التواصل مـع النروجيين المجاهدين ويخشون ملاحقة قوات الأمن، ولأن الشرطة تلاحق الإسلاميين الشباب فقد زارت عائلاتهم وكشفت عن الأنشطة الإجرامية الأخرى المتورطين بها والتي يمكـن إدانتهـم بهـا أكثـر من تجنيد الإرهابيين فقد بدا أن ذلك فعالاً، ففي عام

2016 لم يغادر أحد النروج إلى سوريا وفقاً لمعلومات الشرطة إذ إن الطريق إلى الجنة لم يعد يمر بسوريا، ومع ذلك فقد استمر التطرف.

فقد استمرت موجة التدين بالنسبة للنساء الشابات حيث كانت هناك فتيات في مناطق مختلفة من أوسلو تفكر بالسفر في نفس الوقت مع أيان وليلى لكنهن بقين في النروج بينما توصلت الكثيرات إلى أن تنظيم الدولة ليس الإسلام الحقيقي، وعندما يتم تأسيس دولة قائمة على الإسلام الحقيقي سيقمن بالرحلة.

أحد المساجد التي تجذب المتدينات المراهقات المتشددات هو مسجد التوفيق حيث روت إحدى الفتيات في أخوية التوفيق:

- كان الذهاب إلى المسجد مرتين في الأسبوع أمراً كافياً حيث كنا نتعلم عن القرآن في عطلات نهاية الأسبوع ونتصرف على نحو صحيح ونرتدي وشاحاً أو على الأقل نضعه حين ندخل المسجد ونخلعه حين نخرج أما الآن فالفتيات يعشن عملياً في المسجد... فتيات في بداية مراهقتهن.

عم يبحثن؟!

أخوة... مكان للانتماء... جنة... اتباع النبي... الزواج في سن مبكر لأن الزواج نصف الدين... كان الكثير من الآباء فخورين ببناتهن حين يبدأن بممارسة الدين بحماس كبير لكن الخط بين هذا النشاط المتزايد والتطرف رقيق للغاية، فأنت لا تستيقظ فجأة في أحد الأيام لتجد نفسك شخصاً متعصباً وإنما هو توجه تتبعه تدريجياً كما أن الفتيات في شبكة التطرف يؤثرن في بعضهن ويدعمن بعضهن حين يعارضهن العالم، وقد كن يستبعدن أولئك اللاتي يخالفنهن الرأي وينعتنهن بالكفار أو صديقات الكفار. ولطالما كن يعرن آذانهن للواعظين الذين يزعمون أن الغرب لن يرضى حتى لا يبقى أي مسلمين، ولم لا فالغرب مشغول بما على المسلمين فعله أو عدم

فعلـه ومـا يمكنهـم ارتداؤه أو عدم ارتدائـه؟ كان هناك خوف وجهل في كلا الطرفين حسبما قال المعتدلون.

لقـد ركبـت أيـان وليلى الموجة الأولـى من التطرف التي قادتهما إلى سـوريا حيـث غادرتـا حيـن كانت الأبـواب مفتوحة علـى مصراعيها للخـروج مـن النـروج والدخـول إلى سـوريا... لو أنهما انتظرتا سـنة أو سـنتين لمـا رحلتـا وإنمـا لاكتفتـا بـأن تكونا بين تلك المسـلمات الملتزمات اللاتي يعشن في المجتمع النروجي.

اتصلت ليلى لتتمنى للعائلة عيد فطر سـعيد في سـبتمبر وتذمرت بشـأن سـاقها التـي تؤلمهـا عنـد المشـي مما يجعل رحلتها إلى مقهـى الإنترنت أمراً صعباً حسبما قالت لسارة إذ إن قدمها لم تشفَ تماماً وإلا فإن كل شيء على ما يرام.

تقبلت سارة عدم رغبة الفتاتين بالعودة إلى البيت ولم تعد تناقش الأمر أو تحاول معرفة من يتحمل اللوم إذ كانت ترى أن ابنتيها قد أساءتا فهم شيء ما في الإسلام.

أما في ذهن صديق فلم يكن هناك مكان للقبول حيث تجذر القلق بداخل جسـده وروحـه... لقـد حلم باسـترجاع حياته المملة السـابقة وبعودة الفتيان وسارة لكن الآن بعد عودتهم بدأ يفكر في مدى الملل في حياته.

اسـتمر هـو وعثمـان بأحاديثهمـا الليليـة وأحلام اليقظة حيـث كان يقول لمساعده السوري:

- ستخرجان شاءتا أم أبتا.

واعترف عثمان:

- الأمر خارج عن إرادتي.

لم يعد صديق قادراً على الاعتماد على مسـاعدته حيث أصبح التهريب أصعب كما أن كل شيء صعب، فقد أغلقت تركيا حدودها جزئياً، ففي مكان

سور الأسلاك الشائكة المليء بالفتحات تم وضع جدار إسمنتي بارتفاع سبع أقدام كما أن مركز باب الهوى الحدودي حيث يعبر عثمان في العادة قد أصيب بغارة صاروخية أما المراكز الحدودية الأخرى فلم يكن معه تصريح عبور أو أنها خاضعة لسيطرة الأكراد أي أن عثمان عالق في سوريا.

كانا يحللان من ومتى وكيف وماذا سيحصل في الرقة... كم ستصمد الرقة؟ من سيسيطر على المدينة؟ كم سيستمر تنظيم الدولة؟ وفي حال خروج تنظيم الدولة فمن سيحل محله؟

لم يكن هناك أي قاسم مشترك بين العديد من المجموعات المحلية المتعاونة في القتال ضد تنظيم الدولة إذ إنهم أعداء دخلوا في تحالف تكتيكي، وحين سينهزم تنظيم الدولة ستندلع معارك جديدة... كان هناك الكثير من المصالح المتضاربة على الأرض مما يجعل أي حل بعيداً... تركيا والولايات المتحدة وروسيا وإيران والعراق والسعودية وحزب الله والميليشيات الكردية والميليشيات الشيعية الإيرانية والعديد من السلفيين والوهابيين والإسلاميين والجهاديين يقاتلون من أجل مصالحهم الخاصة في ميدان معركة دموي كما أن هناك الأسد.

مرت خمس سنوات من العجز الدولي كما أن هناك مفاوضات وإدانات وهناك دبلوماسيون وسياسيون... هناك شيء واحد فقط لا ينتهي... الموت من السماء.

بقي الأسد قادراً بكل بساطة على قتل شعبه حيث انتشرت الصور على وسائل التواصل الاجتماعي: أناس كانوا أحياء البارحة لكنهم لم يعودوا اليوم.

كانت المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار هي التي يقصفها الأسد، ففي خريف 2016 كان مواطنو الخلافة يعيشون بأمان نسبي وظلت هناك حقيقة واحدة لا يعارضها أحد... زوجات الجهاديين يتشاركن نفس العقلية ويؤثرن ببعضهن حيث أصبح من الممكن لفتيات من خلفيات متواضعة أن يتباهين

بعبيدهن على تويتر:

– خادمتي أرتني كيف أخبز خبزاً سورياً، واليوم صنعت الخبز بنفسي.

وتضاءلت المصادر المفتوحة عن الحياة اليومية في الرقة حيث وضعت تويتر نظام رقابة فعال لإغلاق حسابات تنظيم الدولة بالإضافة إلى فرض الخلافة قيوداً على استخدام الإنترنت.

وهكذا تلاشت الأوقات الطيبة وتراجعت معايير الحياة حتى بالنسبة للمقاتلين الأجانب، ومنذ نهاية صيف 2016 لم يعد تنظيم الدولة يتشارك أي حدود مع تركيا. وفي بداية العام أعلن تنظيم الدولة الإسلامية خفض رواتب جنوده بنسبة 50 بالمائة بسبب «ظروف غير اعتيادية»، وهكذا أصبح المقاتلون المحليون يتقاضون 200 دولار أمريكي شهرياً في حين يتقاضى المقاتلون الأجانب 400 دولار. وقد كان الأجانب يشكلون نوعاً من الطبقة العليا في الرقة حيث أقاموا في أفضل الأحياء، وبعضهم كأيان قد جلبوا معهم مالاً من وطنهم ويمكنهم عيش حياة أفضل من السكان المحليين.

وخلال الخريف تم إغلاق العديد من خطوط الإمداد إلى الرقة وارتفعت الأسعار واصطف الناس لساعات من أجل كيس أرز في طوابير سعى تنظيم الدولة لإخفائها لكن صفحة «الرقة تذبح بصمت» استمرت بنقل صور عنها.

وعلى الرغم من أن على المرأة البقاء في المنزل لكن هناك الكثير من الأعمال التي قد تكون مفروضة عليها، فبالنسبة للفتيات في الرقة هذا يعني صنع الطعام منذ وقت باكر صباحاً حتى وقت متأخر في الليل إذ قامت أيان والأخوات بتحضير الوجبات للمقاتلين في قدور طبخ كبيرة... رز ولحم وخضروات وبطاطا ودجاج وسمك مقلي من نهر الفرات.

يتم تحضير الطعام في المنزل أو في مطابخ مشتركة كبيرة، وعند العشاء يتم إخراج الطعام الطازج للمقاتلين الذين يدافعون عن الدولة على الجبهة أو على نقاط التفتيش.

وقد اعتنقت الأختان بالكامل أفكار الدولة الإسلامية فيما يتعلق بطاعة

الزوج، وهكذا فإن أيان التي كانت في النروج تدافع عن المساواة بين الجنسين أخبرت إحدى صديقاتها في النروج أنها تتقبل زواج هشام من امرأة أخرى.

فسألتها صديقتها:

- ألن تغاري؟
- لا... علينا إنجاب المزيد من الأطفال حتى إن طالت الحرب يكون لدينا جنود جدد.

شخصياً كانت تتمنى أن يرزقها الله بأبناء ذكور.

كل من عائشة وأميرة تزوجتا من جديد بعد مقتل باستيان وولدت عائشة ابناً بعد موت صلاح الدين.

وقد كتبت أم المثنى على تويتر:

- ماذا تريدين أكثر من أن تتمكني من تربية الجيل القادم من أسود الدولة الإسلامية الذين سينشرون الإسلام؟

ووفقاً لمؤسسة أبحاث مكافحة الإرهاب كويليام فإن هناك أكثر من ثلاثين ألف امرأة حبلى في الخلافة.

ومنذ عمر صغير يتم تعليم الأطفال تبجيل الدولة وكراهية الكفار كما يتم تحفيظهم القرآن منذ الصغر أما المدارس التي تبدأ في سن السادسة فهي أداة لتعليمهم الطعام حيث يتم تلقين الأطفال ليكونوا رعايا مخلصين ويصبحوا الوعاظ الجدد والمقاتلين الجديد. وقد تمت إزالة مواد التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع من المناهج الدراسية باعتبارها من مناهج الإلحاد وكذلك الفنون والموسيقى. وفي الجغرافيا لم يتعلموا سوى عن العالم الإسلامي أما التربية البدنية فتم استبدالها بمادة «التدريب على الجهاد» التي تركز على الفنون القتالية وإطلاق النار.

كما تمت إعادة تأهيل المعلمين حيث تطورت جميع قوانين الفيزياء والكيمياء مع الله حين خلق العالم وتم استبعاد جميع علوم التطور كما

أصبح اسم دارون أمراً محرماً وهناك تعليمات مفصلة باستبدال كلمة «وطن» وكل ما يشير إلى سوريا بعبارة «الدولة الإسلامية» و«أرض الإسلام» وإقليم «الشام». أما الأمثلة في الرياضيات التي لها علاقة بنسب الفائدة والديمقراطية والانتخابات فتم حذفها كما تم تحويل وحدات الحساب إلى دبابة وقذيفة ورصاصة وحذف جميع الصور التي لا توافق الشريعة بما فيها وجوه النساء وأجزاء الجسد غير المغطاة والملابس غير الإسلامية.

ومن أجل التوصل إلى مجتمع إسلامي مثالي كما ذكر محمد عليك أن تبدأ بالأطفال حيث يتلقى أفضل الأطفال في كل فئة عمرية تدريباً خاصاً ويشاهدون أناساً يتم رجمهم وصلبهم وقطع رؤوسهم، فقد كان حضور مثل هذه الأحداث ميزة كما أن السماح لهم بالمشاركة ميزة أكبر، فالأطفال الصغار المميزون يحصلون على شرف إعطاء السكين للجلاد ليقطع رأس الضحية، وفي بعض الحالات يتم السماح لهم بتنفيذ القتل بأنفسهم. ويتم تدريب الأطفال على التجسس على عائلاتهم وجيرانهم وليكونوا رسلاً ومقاتلين على الجبهة وجنوداً مشاة ومنفذي عمليات انتحارية وقناصين بالإضافة إلى تدريبهم على صنع المتفجرات والتعامل مع الأسلحة الخفيفة والبنادق والمسدسات شبه الآلية وقاذفات القنابل.

وهكذا أصبح التطرف أمراً عادياً.

وتلقت الفتيات أيضاً تربية خاصة لكنهن لا يمكن أن يصبحن أشبال الخلافة وإنما سيكونون لآلئ الخلافة.

تألق الخطاب السلفي.

ما الأثمن من اللؤلؤة؟ إن كنت تملك واحدة فهل ستتركها وحدها أو تسمح بتلطيخها أو تتركها في الخارج ليلمسها الناس أو حتى يسرقوها؟

لا... ستلفها وتضعها في خزانة مجوهرات على الحرير أو المخمل وتقفل عليها لئلا تغري اللصوص ولن تخرجها إلا في المناسبات الخاصة

حين تسمح الظروف.

النساء لآلئ... جميلة للغاية... ثمينة للغاية.

لذا من الأفضل إبقاء الصندوق مقفلاً.

وضع تنظيم الدولة مجموعة كاملة من القواعد حول تنشئة الفتيات إذ يمكنهن تلقي بعض التعليم لكن ليس الكثير، وحين يكونون صغيرات عليهن البقاء جانب أمهاتهن ليتعلمن الفضيلة بالقدوة الحسنة، ومن سن السابعة حتى التاسعة ينبغي للفتاة تعلم القرآن والرياضيات والعلوم الطبيعية الإسلامية، ومن العاشرة حتى الثانية عشرة عليها تعلم أصول القانون الإسلامي وخاصة الأجزاء المتعلقة بفقه المرأة كما أن عليها تعلم الخياطة والحياكة والطهي. ومن سن الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة تدرس الشريعة والتاريخ الإسلامي وسيرة وتعاليم النبي محمد بالإضافة إلى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال، ولا ينبغي أن يتأخر الزواج حتى سن متقدمة وقد يتم منذ سن التاسعة وهو الحد الأدنى في حين أن السادسة عشرة هو السن المثالي.

ينبغي تنشئة الفتيات الصغيرة لبناء الأمة وإنجاب الرجال وإرسالهم إلى المعارك الضارية وفقاً لمنشور تنظيم الدولة «دابق»، وينبغي تعليم أطفال الخلافة منذ سن صغير ليطيعوا الخليفة ويكرهوا الكفار ويميلوا للعنف ويكونوا مستعدين للحرب.

- أعرف أحداً... يمكنه إنقاذهما... يمكنه الدخول... يخفيهما في السيارة... يخرجهما... عبر الحدود... دعني أتكلم معه.

حذر عثمان صديق أن لا يتوانى:

- إن استولى الأكراد على الرقة سينتهي أمرهما... الأكراد كالشياطين... لن يتركا امرأتين سوداوين منقبتين... ولا حتى طفلتيهما... اسمعني... طفلتيهما.

طفلتان صغيرتان تتعرفان على الحياة وتجولان المكان وتتشبثان بأطراف

الطاولات وتضحكان وتبكيان... كلاهما أتمتا عامهما الأول خلال الصيف.

الإنسان حيوان اجتماعي، فهو منذ الطفولة يطلب التواصل البشري، وفي الأسابيع الأولى من الحياة يبدأ دماغ الطفل بتخزين التوقعات بينما تفرز الأم هرمونات تعزز قدرتها على تقديم الرعاية والحميمية والاهتمام.

كتب عثمان لصديق سابقاً:

- حين تنجبان أطفالاً ستعودان إلى رشدهما.

لكن ليس أيان وليلى.

في عين العاصفة استمرت الحياة، وحين يكون الرجال على الجبهة تبقى النساء في المنزل حيث يجلسن في أوقات الوجبات حول قطع كبيرة من النايلون ويتناولن طعامهن من نفس الطبق بينما يلعب الأطفال حولهن.

بالنسبة للأطفال والرضع فإن العالم من حولهم هو ما يهم، وحتى في الظروف القاهرة يمكن للأطفال أن يشعروا بالأمان طالما أن روتينهم منتظم وطالما أن الكبار غير فزعين.

وفي نفس الوقت فإن دماغ الطفل سريع التأثر إذ إن الخوف والأحداث الدراماتيكية تتخزن في الدماغ كصور مجزأة وقطع مخيفة تعود كنوبات وكوابيس، فالتجارب تؤثر في ذلك الجزء من الدماغ حيث تتشكل الأفكار ونظام المعتقدات ويبنى المنطق.

في الوقت الحالي تعيش ابنتا الخالة بين أقرانهما.

لكن المنزل المسروق ليس منزلاً آمناً إذ إنه سرعان ما سينهار وستصبح الخلافة مجرد تاريخ.

ابنتا خالة.

بميراث ثقيل.

سينفتح صندوق المجوهرات وسيتمزق الحرير.

سيكتشفون أن الجحيم هنا وأننا الجحيم.

إن نجتا.

أصل الكتاب

صديق جمعة من أراد أن أروي قصة ابنتيه قائلاً:

- أريد أن يدرك الناس إشارات الخطر... لقد كنا عمياناً وظننا أن الأمر سيمضي لكننا الآن نعرف أكثر.

كان يريد تعاوناً أفضل من الآباء والمدارس والمساجد والشرطة.

بالنسبة لي فإن السؤال الأهم هو: كيف يمكن أن يحدث هذا؟

لقد جاء العنوان بسهولة... أختان... كل شيء متمركز حولهما.

أول شيء فعلته هو أنني استمعت للعائلة وكتبت قصصهما ثم قابلت أصدقاء وزملاء ومدرسي ومديري الفتاتين بالإضافة إلى أشخاص بالغين كانت الفتاتان على تواصل معهما في بداية مراهقتهما ثم حاولت تتبع الطريق الذي دفع أيان وليلى نحو الإسلام المتطرف في محاولة لفهم ما ألهم الأختين للسفر إلى سوريا.

لقد سمح لي والداهما بالاطلاع على الأوراق التي تركتها الفتاتان، ومنهما اخترت المقالات والتقارير وصور الصف بالإضافة إلى ملاحظات من دروس القرآن والدروس المسائية في إسلام نت بالإضافة إلى تقارير اجتماعات اللجنة وتعليمات التبشير ومطبوعات البريد الإلكتروني، وقد كان تنظيم أيان مفيداً لي حيث وضعت قوائم طويلة للمتطوعين الذين جندتهم في إسلام نت مع أرقام هواتفهم وعناوين بريدهم الإلكتروني مما مكنني من التواصل مع عدد كبير من الناس الذين يعرفونها كما تواصلت مع جميع أصدقائها على الفيسبوك وجميع متابعيها على تويتر وبعض أولئك الذين يتابعون صديقتها عائشة والعديد من الأشخاص الذين يظهرون في صورها المدرسية.

وحضرت اجتماعات في مساجد في أوسلو لإسلام نت وغيرها من التنظيمات الشبابية الدينية بحثاً عن أثر للفتاتين كما تواصلت مع الرابطات الصومالية ومع مجموعات إسلامية على الفيسبوك سعياً وراء معلومات عن الأختين.

وبهذه الطريقة ظهرت شبكة من الأصدقاء والمعارف، ومع الوالدين والمصادر المكتوبة وصلت إلى أهم أساس للمعلومات.

ولأن الأختين لم تساهما مباشرة في الكتاب فإن رسائل البريد الإلكتروني والمحادثات المكتوبة التي شاركتا فيها أثبتت أهميتها بالإضافة إلى أن المحادثات بينهما وبين أخيهما على الماسنجر وفايبر وواتساب منحتني اطلاعاً مهماً حول طريقة تفكير الفتاتين إذ إن ما كانتا تقولانه هو صدى لحملات تنظيم الدولة الإعلانية لكن الأختين لا تبدوان أنهما تشعران أنهما مراقبتان فردياً وإلا فإن عدداً من الأشياء التي كتبتاها ما كانت لتظهر في الكتاب. إنني أعتبر كلماتهما كالصورة التي ترغب الأختان برسمها عن الخلافة.

أرسلت العديد من الطلبات للفتاتين أطلب منهما فيها أن تخبراني عن خلفية قرارهما بالقيام بالرحلة إلى سورية وأن تبينا طبيعة الحياة هناك لكنني لم أتلق رداً كما حاولت الوصول إليهما من خلال أطراف أخرى لديهم معارف في الرقة فردت الأختان بالصمت.

قد يكون هناك عدد من الأسباب لذلك أحدها أنه من غير المسموح لأفراد تنظيم الدولة إجراء المقابلات ما لم يحصلوا على تصريح من قسم الاتصالات في الدولة الإسلامية إذ إن تنظيم الدولة ينشر المعلومات إما عن طريق متحدثين أو من خلال مقابلات مع ممثلين للقيادة أما المقابلات مع الأفراد العاديين دون موافقة القيادة فيتم إجراؤها بشكل سري ومجهول لكن الأختان لا يمكن أن تكونا مجهولتين إذ يمكن التعرف عليهما بسهولة.

حين جاء والدهما لأخذ ابنتيه إلى النروج في نوفمبر 2013 اتخذت الأختان قراراً واضحاً بالبقاء في الدولة الإسلامية قائلتين أنهما تؤمنان

بالمشروع وفيما بعد قالتا وكتبتا وأظهرتا أنهما تساندان وجهة النظر تلك.

وباستثناء محاولة أبيهما الأولى لإنقاذهما والتي رفضتا المشاركة فيها فإنهما لم تدريا بمخططاته أو تشاركا فيها، وهذا واضح تماماً في المحادثات بين صديق وعثمان إذ كانت النية دائماً اختطاف الفتاتين قسراً، وفي المحادثات مع إسماعيل يظهر أيضاً أن الأختين تساندان الخلافة بالكامل إذ إنهما لم تعربا شفوياً أو خطياً عن أي آراء سلبية حول الدولة الإسلامية كما أنهما كما هو واضح في هذا الكتاب قد انقطعتا عن والدهما سياسياً ودينياً مما يعني أن ملاحظاته حولهما أو حول تنظيم الدولة ينبغي أن لا تشكل عبئاً عليهما في سوريا الخاضعة لسيطرة تنظيم الدولة.

كيف ينبغي لك تصوير أشخاص لم تلتق بهم ولا يريدون إخبارك بروايتهم من القصة؟

أحد الخطوات المساعدة أن تبدأ بالفعل: ماذا فعلتا؟ متى؟ ماذا نعرف من المصادر المكتوبة؟ ماذا يقول أو يكتب أو يفعل الناس من حولهما؟

كتاب كامل حول الصحافة الأدبية مؤلف من مشاهد مبنية على بعضها، وكلما كان المصدر أفضل كلما كانت المشاهد أكثر دقة، وحين أصف أفكار الشخص فإن ذلك يعتمد على ما قاله ذلك الشخص حول رأيه بحالة ما أو ما أخبر به الناس في الكتاب بعضهم.

لقد بذلت قصارى جهدي لمعرفة معلومات كافية قدر الإمكان حول ما حصل بعد مغادرة الأختين وحول الحياة في الرقة لكن لا أحد سواهما يدري بأفكارهما ودوافعهما.

لم تظهر أسماء الأختين في وسائل الإعلام ولذا فقد أعطيتهم أسماء وهمية حتى إن رغبتا بالعودة إلى النروج واستئناف حياتهما هنا فلن تكون أسماءهما ملطخة كما غيرت أسماء إخوتهما أما أسماء والديهما فبقيت كما هي بناء على رغبتهما.

اختار صديق الكشف عن اسمه وصورته لوسائل الإعلام بالإضافة إلى رواية قصة عائلته في المقابلات كما أن العديد من أصدقاء الأختين اللواتي شاركن بالقصة لم يرغبن بذكر أسمائهن الحقيقية واخترن بأنفسهن أسماءهن الوهمية في الكتاب، وقد اتضح لي من مرحلة مبكرة أن قرار الأختين بالسفر إلى سوريا موضوع حساس بالنسبة للعديد منهن كما أن عدداً من الفتيات قلقات أيضاً من أن يتعرضن لاتهامات بتبني آراء متطرفة أو وجود روابط مع تنظيمات إرهابية كتنظيم الدولة.

وفيما يتعلق بموظفي المدارس التي ارتادتها الأختان اختار البعض الظهور بأسمائهم الكاملة في حين تمت الإشارة إلى آخرين بكل بساطة بعبارة «أستاذ اللغة النروجية» أو «أستاذ الرياضيات».

وقد قمت بإجراء نسخ للمقابلات مع جميع الأفراد لأمنحهم الفرصة لتصحيح أخطائهم.

حين غادرت الأختان في 17 أكتوبر 2013 تواصلت العائلة في البداية مع مركز شرطة آسكر وبيرم ثم انتقل جزء من قضيتهما إلى مركز الشرطة النروجية، وقد حصلت على تصريح بالاطلاع على سجلات مركز الشرطة منذ اليوم الأول كما حصلت على تصريحات من الشرطة حول كيفية تعاملهم مع القضية.

بالإضافة إلى ذلك استخدمت مصادر في مركز الخدمات الدبلوماسية بشأن المساعدة لقنصلية التي تم تقديمها في تركيا في مارس 2015.

هل من المبرر أخلاقياً التركيز على حياة فتاتين دون الحصول على موافقتهما؟

جوابي نعم، فالعالم بكامله يحاول فهم أسباب التطرف بين الشباب المسلم كما أن الباحثين والسياسيين يحاولون فهم سبب رفض بعض المراهقين التعليم والحياة في محيط هادئ لينضموا إلى تنظيم إرهابي. وعلى

الرغم من عدم وجود تفسير واحد لكن يمكن للمرء الإشارة إلى العديد من العوامل بما فيها البحث عن الهوية والمعنى والمكانة والرغبة بالانتماء والتأثير في الآخرين والإثارة والحاجة للتمرد، وفي حالة الفتاتين يمكن إضافة عوامل اليقظة الدينية العميقة حيث تظهر عوامل الدفع والجذب على نحو كبير حين يتكلم الباحثون عن التطرف إذ إن هناك ما يدفعهم خارجاً وما يجذبهم داخلاً.

وقد ذكر تقرير صادر عن الشرطة النروجية عام 2016 أنه تم فحص أولئك المتورطين في الوسط الإسلامي المتطرف ووجدوا أن التطرف ظاهرة متعددة الأعراق تنتشر بين الناس غير المتعلمين الذين لديهم خلفية إجرامية مع عدم المشاركة في الحياة العملية، وستون بالمائة منهم هاجروا إلى النروج في طفولتهم أو شبابهم. ويتميز الوسط بنسبة عالية من الأشخاص الذين تسربوا من المدارس الثانوية أو العاطلين عن العمل، وطالما أن نفس العدد من الشباب مستمر بالعيش مع نفس التحديات فإن إمكانية التجنيد ما تزال قائمة.

كصحفية فإن مهمتي تحديد الجوانب الإشكالية في مجتمعنا، وحين تواجهنا هذه القصة علينا أن نسأل: هل هذا متعلق بهما بكل بساطة أم أن الأمر متعلق بنا؟

ليس لدي تفسير لا لما جذبهما إلى التطرف الإسلامي ولا إلى ما جذبهما للخروج من النروج وإنما أنا أروي ما وجدته وأترك لكل قارئ المجال للتوصل إلى نتائجه الخاصة. أين بدأ؟ وما هي الأسباب الخفية؟ متى قد تتخذا قرارات مختلفة؟ كيف يمكن لمن تطمح أن تصبح دبلوماسية أن تختار أن تصبح ربة منزل في الرقة؟ لماذا أصبحتا مهتمتين بالحياة بعد الموت أكثر من اهتمامهما بهذه الحياة؟

لفهم الخيارات التي يتخذها الناس في حياتهم علينا أن نعرف شيئاً عن هؤلاء الناس، فالخيار الديني أمر شخصي لا ينعزل عن حياة المرء الخاصة بل على العكس هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما تعرض له وبالظروف التي عاش فيها المرء وبالبيئة التي ترعرع فيها.

وقد قررت بالتالي أن أركز على الأفراد لا على الأختين كلما وجدت ذلك مبرراً.

«أختان» يعرفنا على عدد من مواطني النروج الذين سافروا إلى سوريا، وعلى الرغم من أن الوصف درامي لكنه يتعامل مع الطفولة والعلاقات العائلية الداخلية والإساءة والخداع والخيانة والقتل والحب.

واسمحوا لي بتقديم أمثلة عن خياراتي فيما يتعلق بنشر المعلومات الشخصية إذ إن من الأفراد المهمين في الكتاب عائشة شيزادي التي استخدمت اسمها الكامل لأنها كانت تميل لأن تبقى في العلن من خلال نصوصها ومقابلاتها قبل سفرها إلى سوريا ثم من خلال منشوراتها على فيسبوك المفتوحة للعامة حول الحياة في الرقة، وهي ووالداها لم يستجيبوا لطلباتي بالحديث معهم فكتبت قصة عائشة وفقاً لما روته صديقاتها ولمصادر مكتوبة كما اقتبست الحكم الصادر بحق أبيها من قبل محكمة أوسلو في مايو 2016 لأنه مفتوح للعامة ويسلط الضوء على طفولتها.

تظهر الأبحاث حول أولئك الذين يسافرون إلى سوريا من النروج ومن البلاد الأوربية الأخرى أن الرجال الشباب الذين ترعرعوا في عائلات مفككة أو ينتشر فيها العنف والشباب الذين مروا بطفولة غير مستقرة وماضٍ إجرامي هم الأغلبية إذ إن معظم المقاتلين الأوربيين الأجانب يتطرفون خلال سنوات المراهقة. أما فيما يتعلق بالأختين فقد وجدت أنه بالإضافة إلى سعيهما وراء المعنى والهوية فإن تصرفاتهما وليدة يقظة دينية واحتجاج وثورة.

ولكي أسلط الضوء على كل هذا ركزت على بعض الأشخاص أكثر مما يريدون، وأحد هؤلاء الأشخاص عرفان بهاتي الذي يظهر في الكتاب بسبب زواجه من إحدى صديقات الأختين حيث أوضح لي شخصياً – وجهاً لوجه وكتابة – أنه لا يرغب بنشر شيء عن حياته الخاصة لكنني لم ألتزم برغبته لأنه كان وما يزال شخصية أساسية بين المسلمين المتطرفين في النروج كما لا يمكن النظر إلى تصرفاته الشخصية بمعزل عن دوره القيادي. وكما قالت

عائشة فإنه «غراء أمة النبي». وفي مايو 2017 تم اعتقاله واتهامه بتخزين السلاح لكن تم إطلاق سراحه بعد بضعة أشهر.

وكذلك عبيد الله حسين لم يرغب بالمشاركة حيث التقيت به خلال رمضان في صيف 2015 للترتيب لإجراء مقابلة وطلب مني أن أتصل به مجدداً بعد انتهاء الصيام، وقد أبلغته من خلال رسائل وجهتها إليه في السجن بالمواضيع التي تثير اهتمامي وطلبت منه روايته للقصة لكنه لم يرد. وفي أبريل 2017 تمت إدانته بتهمة التجنيد لصالح تنظيم الدولة وتلقى حكماً بالسجن لتسع سنوات.

أما الرجل الثالث الذي يظهر في هذا الكتاب بسبب زواجه من صديقتي الأختين فقد مات حيث تتبعت بدقة جميع المعلومات والاتهامات ضد باستيان فاسكيز لأنه لا يمكنه الدفاع عن نفسه، والمعلومات التي اخترت استخدامها مؤكدة من عدة مصادر في شهادات مستقلة عن بعضها كما راجعت ملفات الشرطة وغيرها من أوراق القضايا في الفترة السابقة لسفره إلى سوريا.

وبالتالي فقد اعتمدت بوصفي لباستيان فاسكيز وعرفان بهاتي وعبيد الله حسين على ما قاله الآخرون عنهما بالإضافة إلى مصادر مكتوبة كما قدمت وصفي لهؤلاء الأشخاص لمحاميهم جون كريستيان إيلدن.

وقد أدى التتبع الديني إلى العديد من الأماكن وأولها إسلام نت.

أكدت المنظمة دور أيان الرئيسي في المنظمة في السنتين 2011 و 2012، ويعتمد وصف إسلام نت على ملاحظات توصلت إليها خلال مؤتمرات حضرتها وعلى تسجيلات للقاءات النقاش المتوفرة على موقعهم الإلكتروني بالإضافة إلى مصادر مكتوبة كما قابلت بعض الأعضاء وقائدهم فهد قريش.

وقد أدى الخيط إلى أستاذ القرآن الشاب في مسجد التوفيق ذي الغالبية الصومالية في أوسلو حيث يعمل باسم مصطفى لكنه معروف للشرطة باسم آخر بالإضافة إلى اللقب الذي يستخدمه أيضاً في عمله كحارس أمن، وعلى

الرغم من أنني أعرف اسمه الحقيقي لكنني اخترت استخدام الاسم الذي يشتهر به في المسجد وبين الأصدقاء.

وقد رفض مراراً وتكراراً كل محاولاتي للتواصل معه، وأبلغته في عدة مناسبات برغبتي بمعرفة محتوى دروس القرآن التي يعطيها ودرجة تورطه برحلة الأختين إلى سوريا.

وفي محاولاتي لتعقبه زرت مسجد التوفيق، وفي لقائي الأول مع القائد عبد الباسط علي محمد أخبرني أنه لم يسمع قط بأستاذ قرآن يدعى مصطفى ولا يعرفه حتى باسمه الحقيقي، وحين ذكرت توقعات وسائل الإعلام حول دور أستاذ القرآن برحيل الأختين وأعربت عن استغرابي من كون الاسم غير مألوف له أخبرني أنه لا يمكنه إتمام هذه المحادثة إلا بوجود محامين. وحين قبل فيما بعد بلقائي في المسجد حضر معنا محامي من مؤسسة إين سوليدوم القانونية، وقد تذرع لذلك بأنني قمت بتوجيه اتهامات جادة وتصرفت بعدوانية خلال حديثنا الماضي. ومع ذلك فقد بقي الجواب نفسه: لم يسمع القائد قط بأستاذ قرآن يدعى مصطفى على الرغم من أنه شخصية معروفة في المسجد.

وقد تم على الفور حذف طلبي لمعلومات عن أيان وليلى الذي نشرته على موقع المسجد الإلكتروني للنساء.

كما أنني قابلت باسم غزلان وهو قائد مسجد الرابطة حول موت المرأة الشابة داخل المسجد، وقد أكد أن المسجد لا يقدم الرقية وأن ذلك حصل دون معرفة الإدارة.

قصة سارة وصديق تستند بالكامل على ما رواياه عن نفسيهما حول طفولتهما وشبابهما وحياتهما في النروج كما أنني اعتمدت فقط على رواية صديق في أجزاء كبيرة من رواياته المثيرة عن رحلاته إلى سوريا وراجعت تفاصيل قصته معه عدة مرات لأتحقق منها وأطلب منه تأكيد رواياته السابقة بالإضافة إلى محاولاتي للعثور على مصادر ثانوية حول الأوقات والأماكن

والأحداث لكن رواية زنزانة السجن في الدانة والتعذيب والاستجواب هي رواية صديق فقط وكذلك الأيام التي أمضاها في هاتاي قبل دخوله إلى سوريا أول مرة. وتتوافق قصة الأختين كما وصفها مقاتلين من النصرة على موقع إلكتروني مع رواية صديق كما أن صانعي الأفلام ستيرك جانسن وفيسليموي هفيدستين قابلا أحد الذين كانوا أسرى مع صديق وأكد الجزء الذي شهده من القصة. ورواية صديق تتبع نمطاً متناغماً مع ما رواه الآخرون حول الوقت الذي أمضوه في معتقلات الدولة الإسلامية حيث تم الطلب أيضاً من الناس الآخرين الذين عبروا الحدود بحثاً عن أبنائهم قبل أو بعد رحلة صديق أن يلتحقوا بتنظيم الدولة ثم تم سجنهم كجواسيس وتعذيبهم قبل إطلاق سراحهم في النهاية.

ولكي أطلع على خطط الإنقاذ المتعددة واليأس الذي شعر به صديق مع فشل كل واحدة من تلك الخطط أو عدم تنفيذها فقد كانت المحادثات بين صديق وعثمان مهمة للغاية حيث منحوني اطلاعاً كاملاً على عمليات المهرب المحلي في الحرب المستعرة ومدى ارتباطه بالمجتمع المحيط به، ولدى عثمان معرفة باستخدام هذه المعلومات كما وافق على إجراء مقابلة من أجل الفيلم الوثائقي «مجرد أب» لكن وهو مدير ظهره للكاميرا ولهذا فقد غيرت اسمه.

المحادثات مكتوبة باللغة العربية لذا فقد تمت ترجمتها من قبل الكاتب والناشط في الربيع العربي إياد البغدادي كما قام بترجمة الرسائل الصوتية من عثمان والعميل المزدوج، وقد اعتمدت كثيراً عليه في الاطلاع على السلفية.

واستفدت كثيراً من خبراء بمن في ذلك الكاتب تشارلز ليستر والمدون أيمن التميمي وتوماس هيغهامر من المؤسسة النروجية لأبحاث الدفاع الذي أثقلت عليه بالأسئلة طوال الوقت.

كثيراً ما كنت أرجع لكتاب «الجهاد السوري» لليستر للتحقق من الخط الزمني للأحداث في سوريا ومن خلفية الصراع بينما زودتني مدونة أيمن

التميمي بآخر المعلومات عن تنظيم الدولة والأمور المتعلقة بالنصرة في حين كان كتاب «الجهاد السلفي» لشيراز محرز مرجعاً مهماً، وهناك قائمة من الكتب التي وجدتها مهمة مدرجة في نهاية الكتاب. وبالنسبة للنساء في تنظيم الدولة هناك كتب فرنسية تسبق الكتب المتوفرة بالإنكليزية كما هو واضح من قائمة المراجع.

بالإضافة إلى لك كنت على تواصل مع الناشطين خلف صفحة «الرقة تذبح بصمت» وناقشت الظروف هناك مع ممثلين لمنظمات على الأرض في سوريا.

واعتمدت لدرجة كبيرة على مقالات وتقارير متوفرة على الإنترنت حيث تضم مصادري النروجية دراسة عميقة لإسلام نت أجراها ماريوس لينج ودراسات عن أمة النبي أجراها برينجار ليا وكتابات توماس هيغرهامر حول الثقافة الجهادية والتطرف.

واستخدمت تقارير الأبحاث من مؤسسة بروكينغز وكلية كينغ وكيليام ومعهد الحوار الاستراتيجي.

وقد حصلت على المعلومات حول ردة فعل أم عائشة من الصحيفة النروجية اليومية فارت لاند أما ما رويته عن حجي بكر فظهر في دير سبيغل كما تم نشر مفاوضات أبي محمد المقدسي مع تنظيم الدولة في صحيفة الغارديان. وقد أراني صديق بيان ضريبة الدخل الخاص به منذ عام 2015 حيث تم إدراج ميديالاب وهي شركة مرتبطة بصحيفة داغبلاديت كواحد من أرباب عمله.

ما كان هذا الكتاب ليغدو ممكناً لولا جميع أولئك الذين ساهموا فيه، وأنا معجبة وممتنة لأولئك الذين وافقوا على الحديث معي في حين كان من الأسهل لهم أن يحافظوا على صمتهم ولأولئك الذين خصصوا لي وقتاً ليبينوا لي بعض الأمور ليكون هذا الكتاب صحيحاً قدر الإمكان.

بعض هؤلاء الأشخاص أمضيت معهم ساعات وأياماً وأسابيع في حين أن غيرهم اكتفيت بالدردشة معهم على الإنترنت أو التقيتهم بمقابلة قصيرة، وباجتماعهم فإنهم شكلوا الصور والمشاهد والقصص في هذا الكتاب.

أنا ممتنة للغاية لأولئك الذين تكلموا معي وردوا على استفساراتي.

لقد ساعدني الأستاذ المساعد والمستعرب بيرنيل ميرفولد من جامعة بيرغن بالكلمات العربية والمخطوطات كما ساعدني طالب الطب ورسان إسماعيل بالكلمات والعبارات الصومالية.

كما أنني ممتنة لأولئك الذين بحثوا لي عن مواد كناصر ودادي الذي وجد نص جندي النصرة عن الأختين والمؤرخ تور ماريوس لويتن الذي وجد مقالات ومواد بحث في حين عرض علي إخلاق شان الموظف في مقاطعة بيرم آراء مثيرة للاهتمام حول التطرف من عمله مع الشباب في المنطقة كما أنني أشكر أصدقاء الفتاتين لمشاركتهم ما يعرفونه بالإضافة إلى مدرسيهم ومديريهم في مدارس دونسكي ونيسبرو ورود الثانوية.

كما أنني ممتنة لستيرك جانسن وفيسليموي هفيدستين لتعاونهما خلال هذين العامين حيث تشاركنا المواد التي وجدناها وناقشنا مشاريع بعضنا.

وقد راجع الكاتب ترود مارستين لغتي في حين أن توفا أوربيك سورهيم رئيس التحرير في كاغ قد بذل كل جهده لضمان نشر الكتاب.

وأنا أشكر مديرة النشر آن غاتهوغ التي رتبت للقائي مع صديق جمعة والناشر إرلينغ كاغ الذي رافقني في كل مرحلة وفي كل تحول في هذا الكتاب أما بالنسبة للنسخة الإنكليزية فأنا ممتنة للمترجم سيان كينسيلا والمحرر أليكس ستار في فارار وستروس وجيروكس لأنهم قاموا بعمل جبار في مساعدتي بنقل النص إلى اللغة الإنكليزية.

تحويل قصة إلى كتاب عمل صعب للغاية حيث ينبغي القيام بالعديد من الخيارات واتخاذ الكثير من القرارات، وما هو مذكور في هذا الكتاب هو ما وجدته الأكثر أهمية... ما الذي يدفع فتاتين مجدتين بدراستهما وطموحتين

وكانتا قد هربتا من الحرب في صغرهما للسعي وراء حرب أخرى مجدداً وللخضوع للسيطرة الصارمة لتنظيم الدولة؟

وأشكر كاثرين ساندنيس من مانيفيست ثينك تانك لمساعدتها خلال عملية تحويل القصة إلى كتاب إذ كانت هناك لمناقشة الخيارات التي تم اتخاذها والمساهمة في تجميع المخطوطات، وفي النهاية أشكر المحرر أسلاك نور الذي خاض في الموضوع وعالج المشاكل المحيطة به بحماس ومعرفة عظيمين.

سوية توصلنا إلى أفضل طريقة لرواية هذه القصة.

هناك شخصان محددان يستحقان الشكر الأعظم.

صديق وسارة.

من بين 90 زوج من الآباء النروجيين الذين سافر أبناؤهم إلى سوريا لم يبلغ عن ذلك سوى قلة في حين حافظ الباقون على صمتهم... قد تكون هناك الكثير من الأسباب لذلك... حماية أنفسهم أو حماية أطفالهم أو ربما الأمل بعودة أطفالهم ليكملوا حياتهم من حيث تركوها دون أية تهمة بكونهم جهاديين.

لقد تعرض صديق وسارة لواحد من أسوأ الأمور التي قد يتخيلها أب أو أم... أطفالهما تركوهما دون أية نية بالعودة. لقد دعواني إلى منزلهما في بيرم وإلى هارغيسا في الصومال بالإضافة إلى قيامي برحلة إلى هاتاي مع صديق.

لقد قررا هما أين يرسما الخطوط وحددا مدى الانفتاح الذي سيكونان عليه. لقد قرأ كلاهما المخطوطة بنسختها النهائية أو في حالة سارة هناك مترجم قرأ لها النسخة النهائية لتسنح لهما الفرصة لإجراء تصحيحات لكن وفقاً لاتفاقنا لم يكن من الممكن لهما تصحيح أو تغيير ما قاله الآخرون عن ابنتيهما مما يعني أن جميع المصادر مستقلة وتمت مقارنتها ببعضها والتحقق منها عدة مرات.

مـن الفخـر لـي أن سـارة وصديـق سـمحا لي بدراسـة ديناميكيـة وقصة عائلتهمـا، ومـا شـملته في الكتـاب هو ما وجدته أكثر ارتباطاً بالسـؤال: لماذا ذهبت الابنتان؟

فبدون تشجيع سارة وصديق ما كان ليكون هناك أي كتاب.

آسني سيبرستاد
أوسلو 4 أكتوبر 2016

مكتبة
t.me/t_pdf

الأختان



آسني سييرستاد

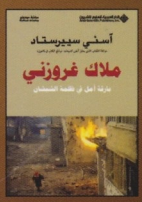
في هذا الكتاب تروي آسني سييرستاد القصة الحقيقية لرحلة شقيقتين إلى الدولة الإسلامية ومحاولات والدهما إعادتهما إلى النرويج.

إنها قصة مؤثرة عن عائلة فرّق الإيمان بين أفرادها، فالعائلة التي كوّنها المهاجران الصوماليان صادق وسارة في النرويج ضربتها رياح الدولة الإسلامية العاتية فاقتلعت منها ابنتيها المراهقتين ليلى وآيان. تتعقب قصة سييرستاد المنفتحة رحلة الأختين من النرويج العلمانية والديمقراطية إلى الخطوط الأمامية للحرب في سوريا، وتتبع محاولة صادق الصعبة للعثور عليهما.

تستخدم سييرستاد نفس إتقان السرد التشويقي الذي اتبعته في رواية بائع الكتب في كابول وتسلّط الضوء على مشكلة التطرف وعلى الظروف الإنسانية المؤلمة، رواية تنقلنا إلى جحيم الحرب السورية، حيث يخاطر صادق بحياته خلال تقفي أثر ابنتيه، ويرفض السماح لهما بالاختفاء في العاصفة، حتى بعد زواجهما من مقاتلي داعش. إنها رواية تقدم دروساً مفيدة وعميقة عما يمكن أن تكون عليه عاقبة التطرف والتهور.

صدر لها أيضاً:





ISBN: 978-614-01-2845-3
9 786140 128453

جميع كتبنا متوفرة على الانترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com